مجموع

كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم الرسي

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جميع الحقوق محفوظة للمحقق

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صعده

ت: ٥١٣١٥٠

روائع التراث الزيدية

مجموع

كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم الرسي

تأليف الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي عليه السلام

(١٩٨ـ٢٧٩هـ)

تحقيق

عبد الكريم أحمد جدبان

مكتبة التراث الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المؤلف

هو محمد، بن القاسم، بن إبراهيم، بن إسمعيل، بن الحسن، بن الحسن، بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، العالم الحرير، كان بالغاً في العلم والفضل وخصال الكمال جميعا مبلغ الأئمة السابقين، وكان ورعاً فاضلاً مجاهداً، بلغ في الزهد والورع منزلة عالية.

كان يلقب: بقاموس العترة.

مولده

ولد ما بين سنة (١٩٨ — ٢٠٢هـ (.

قال الإمام القاسم بن علي العياني: سمعت أبي يقول حين سأله جماعة من شيعة القاسم عليه السلام عن إمامة محمد بن القاسم وتوافر شروطها؟

فقال: حدثني أبي عبد الله، بن محمد، وعمي عبد الله، بن الحسين، بن القاسم، قال: سمعت أبي القاسم وهو يقول: صحبت الصوفية أربعين سنة، ودُرْت المشرق والمغرب و لم أرَ رجلاً أكيَس ورعاً من ابني محمد.

وعن إمامته عليه السلام قال الإمام العياني أيضا فيما رواه عن أبيه قال: قال أبي رحمة الله عليه: كان محمد بن القاسم صلوات الله عليه قد باع من الله نفسه، فخرج إلى الحيرة هو وأخوه سليمان بن القاسم، فنزل على أشهب بن ربيعة فبايعه وأخذ له بيعة كبيرة، وكانت له بيعة باليمن، وأخذ له ابن الحروي بيعة بمصر، وكتب إليه وهو بالحجاز يخبره بمن بايع له وبكثرة أنصاره، فلم يرَ صلوات الله عليه التخلّف بعد ما اتصل به من علم ذلك ما اتصل، فخرج إلى

مصر، ثم ورد عليه كتاب ابن الحروي يخبره فيه أن جيوش بني العباس قد ضبطت البلاد، وأن من كان بايعه قد ذهب ونكث بيعته، و لم يكن رحمه الله صحبه من الحجاز إلا شرْذمة – تقل عن مكافحة العساكر – من ولد الحسن والحسين وجعفر وعقيل، وجماعة من قريش، ونفر من العرب يسير، فكَرِه صلوات الله عليه أن يلقي بشرذمة من المؤمنين قليلة إلى التهلكة.

وقال أيضا: وكانت له بيعة بطبرستان وبيعة بكرمان، وكان صلوات الله عليه حريصاً مجتهدا في الأمر، حتى علت سنه، ولزمه مرض في ركبتيه أزمنه، فزال عنه فرض القيام عند ذلك.

وقال العياني أيضا: قال أبي رحمة الله عليه لمن سأله: وأما الهادي رحمة الله عليه فلم يقم حتى آل عمه إلى الحال الذي سقط عنه فرض القيام بما تقدم ذكره أولاً، وكان قيام الهادي قبل وفاة عمه عليهما السلام بسنة، وعمه يومئذ زَمِن لا يقوم، وله إذ ذاك من السنين نيفاً وثمانين سنة رحمة الله ورضوانه عليهما [1].

وقد ورد في سيرة الهادي عليه السلام لعلي بن محمد بن عبيد الله العباسي العلوي: أن الإمام محمد بن القاسم كان من المشيعين للإمام الهادي عند خروجه إلى اليمن ضمن مشائخه وعمومته.

وكان يقول محمد بن القاسم لابن أخيه الهادي: يا أبا الحسين لو حمَلتني ركبتاي لجاهدت معك يا بني، أشركنا الله في كل ما أنت فيه، وفي كل مشهد تشهده، وفي كل موقف تقفه [2].

تنقّل في أكثر البلدان فأقام ببغداد، والبصرة، ودخل الأهواز، وخراسان، والشام، ومصر، والمغرب، وسكن آخر مدته بادية الحجاز، حيث كان يفضل

---

(١) التنبيه والدلائل. بتحقيقنا.

(٢) سيرة الهادي /٣٨.

سكناها على المدن حسب وصية أبيه القاسم الرسي، وهو ما أوصى به أولاده في هذا الكتاب .

وقد تفرّغ عليه السلام في بادية الحجاز لنشر العلم وتربية أبنائه وأقاربه لعـــى الفضيلة والأعمال الصالحة.

كان مهاباً في آل أبي طالب مجللاً، وفي ذلك ما يقول الإمام القاسم العياني: حدثني أبي، قال: حدثني أبو القاسم طاهر بن يحيى بن الحسن الحسني، قال: كان بنوا أبي طالب إذا أتى محمد إلى جماعتها لا يتكلم بين يديه منها متكلم إلا من بعد كلامه [1].

مؤلفاته

كان رغم الجهاد والتنقل في البلدان ناشرا للعلم والمعرفة في الأوساط، ترك لنا عدة كتب تدل على استحقاقه لذلك اللقب الذي تُوِّج به (قاموس العترة).

فمن مؤلفاته:

- الأصول التسعة .
- تفسير القرآن الكريم.
- شرح دعائم الإيمان.
- الشرح والتبيين في أصول الدين.
- الهجرة والوصية.
- أجوبة على أسئلة في حكاية موسى في القرآن.

توفي سنة (٢٧٩هـ (.

---

(١) التنبيه والدلائل. بتحقيقنا.

الكتاب

مجموع كتب الإمام محمد بن القاسم الموجود منها خمسة كتب:

أولها: كتاب « الأصول التسعة »في العقيدة على الطريقة الزيدية المعروفة، وهو المسمى بـــ « الأصول الثمانية »، وهو في الواقع تسعة أصول فآثرت تسميته بـــ « الأصول التسعة ».

ثانيها: « الشرح والتبيين في أصول الدين » فيما كان عليه الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي.

ثالثها: « الهجرة والوصية ».

رابعها: « شرح دعائم الإيمان »، وهو شرح لخطبة من خطب الإمام علي عليه السلام، ويسمى أيضا: « شروط الإيمان ».

خامسها: « تفسير القرآن الكريم »، وقد جمعت فيه كلما وجد من تفسيره مما جمعه أبو العباس منصور بن موسى الخطابي رحمه الله.

وقد حصلت على نسخ عدة من كتبه، إلا كتاب « الشرح والتبيين » فإنها يتيمة.

الشرح والتبيين

الشرح والتبيين

في أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العدل الكريم ، الرحمن الرحيم ، الناظر لعباده ، المحسن إلى جميع خلقه ، بما ابتدأهم به من نعمه ، وعاد عليهم به من فضله ، وابتدأهم بالإحسان لا ليد سلفت منهم ، وجاد عليهم بالامتنان بلا طاعة تقدمت من فعلهم ، ولكن بفضل من رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم ، أسأل الله التوفيق والتسديد ، والخيرة والتأييد.

سأل محمدَ بن القاسم بن إبراهيم بنوه ، وبعضُ أهل مودة أبيه رضي الله عنه ، أن يبينهم مما كان يقول به أبوه رحمة الله عليه ويدين به جُملاً ، وأن يذكر لهم ما كان أبوه القاسم يراه في دين الله فرضا ثابتا ، وأمرا لازماً ، وأصلا لا يسع أحدا من المؤمنين جهله ، ولا يجوز لأحد من أهل الإيمان بالله خلافه.

فقال محمد بن القاسم: فيما كان أبوه القاسم بن إبراهيم يراه في دين الله فرضا لازما ، مَن جهله و لم يدِن به كان ظالما ، وعند الله سبحانه كافرا لنعمه آثما ، فمن ذلك ما ذكر محمد عن أبيه مجملاً في أصول الدين ، وما كان يعتقده فقد بينه محمد وأوضحه ، ونشره وشرحه ، والشرح والتبيين من قوله ، عن أبيه ، وقد نسبه إليه ، وما كان فيه من تبيين وإيضاح ، فمن لفظ محمد وإيضاحه ونفسه لقد بينه.

فقال: يا بني - أرشدني الله وإياكم ، وهداني نحو الصواب وهداكم - أن أكتب لكم أصولا مما كان عليه أبي رضي الله عنه في الدين ، وما اختياره عند

اختلاف المختلفين ، وجهل جُهال العامة المتحيرين ، وتحريف أهل التأويل الضالين ، [١] يا بني فما فهموا وأنتم يا معاشر شيعتنا - فافهموا رحمكم الله - واعلموا أنا نحتج ونتكلم عن كتاب الله المبين ، وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من القول الثابت المستبين ، أشرحه وأوضحه لكم بالأمر المبين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) هنا سقط أشار إليه في المخطوط.

[التوحيد]

فأول ذلك توحيد الله سبحانه وتنزيهه ، وتمجيده وتقديسه ، جل جلاله وإعظامه ، عن أن يُمثل أو يُشبه بأحد من خلقه وعباده ، في جميع أقواله وصفاته ، ولذلك قال الله عز وجل في كتابه ، وفيما وصف به نفسه متعرفا إلى عباده ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ [الإخلاص:١-٤]. والأحد فهو: الواحد الخالق في الوحدانية ، الذي لا يوصف الله خلقه كلها بصفة ، وذلك فهو الذي يعتقده في دينهم أهل الإيمان به والمعرفة ، لا يُوصف سبحانه بطول ولا عرض ، ولا يثمثل تعالى بشيء مما خلق في السموات والأرض ، لأنه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

قال محمد بن القاسم رضي الله عنه: ولا نقول في عجز درك الأبصار له ، وامتناعها من رؤيته وإدراكه ، بما قالت به الحشوية الجهلة العوام ، إن ذلك لحجاب أو حجب من النور تحول بينهم وبين معاينته وستور ، بي عنا تبارك وتعالى عن بلغة الأبصار من إدراكه ومعاينته ، وذلك أن العجز — عجز المخلوقين — هو بعينه الحجاب عن درك الأبصار ، لأن كل مخلوق من بريته من أهل أرضه وأهل سماواته ، عن درك الأبصار له من أهل السموات والأرضين ، بل هو رب العالمين ، الذي عجز عن دركه أبصار مَن في السماوات والأرض ، لأنه سبحانه لا يحد ولا يوصف بشيء من صفات المخلوقين ، ولا ينعت ولا يحد سبحانه بسمة من سمات المخلوقين ، ولا حد ، لأن ما أدركت الأبصار ، كان متناهيا محدودا له أقطار ، وما كان متناهيا

محدودا فلن يكون محدودا إلا وقد أحاط به غيره بحد ، فيكون حينئذ بصفة المخلوقين موصوفا ، والله تبارك وتعالى غير خلقه وصفا ، فهم غير صفته ، لأنه سبحانه لا مثيل له ولا نظير ، وكذلك قال في كتابه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، فلن يكون الشيء محدودا ، إذا كان الحاد له ثابتا معه بحد موجودا.

وتأويل ﴿ سَمِيعٌ ﴾ مدرك لجميع مختلف الأصوات ، بغير ما أدرك به المخلوقون من الآلات ، والآذان المخروقة المصورة التي جعلت لدرك إلى الأصوات أدوات.

﴿ بَصِيرٌ ﴾ - تعالى وتقدس - بجميع الأشخاص ، مدرك لأقدارها ، وهيئاتها وألوانها ، وطولها وعرضها ، وجميع نواحيها ، وظاهرها وباطنها ، بغير آلة من حدقة ذات طرف لائحة ، لأن حدق العيون إنما تدرك ما كانت محاذية مواجهة ، وهذه صفة المخلوقين العجزة ، ومما يتعالى الله عنه رب القدرة والعزة.

وإنما عنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١]، الدلالة لخلقه على دركهم ، وعلمه لأصواتهم التي إنما يعقلون دركها عندهم بالأسماع ، وأنه مدرك عالم بجميع أشخاصهم وهيئاتهم ، وصورهم وألوانهم وصفاتهم وحركاتهم ، التي إنما يعقلون دركها بالعيون والأبصار ، إذ إدراك المخلوقين للأصوات والأشخاص بالأسماع والعيون التي ربما كلّت وتحيَّرت وأخطأت ، وأدركته ظاهرا دون باطن وقصرت ، ودرك الله تبارك وتعالى لهذا كله درك واحد محيط بما ظهر وبطن ، وبما بعد وقرب ، وهو درك علمه الذي لا يفوته من المدركات شيء ، قل ولا كثر ، ولا دقيق ولا جليل ، ولا صغير من ذلك ولا كبير ، ولا خفي [ولا] مستبين.

وأنى وكيف يدرك علم صفات الأشياء قبل كونها؟! وجميع ما هي عليه بعد تكوينها ، حتى يحيط علمه بظاهرها وباطنها؟! إلا الله وحده الذي رؤيته وسمعه بغير آلة محدودة ، من عين ذات طرف لا حظة أو خرق في أذن من الآذان واهية ، جل عن هذا وتقدس وعلا من ليس كمثله شيء!! ولا يجد أحد له مثيلا ، بل دركه لكل مدرك من الأصوات والأشخاص هو علمه ، وعلمه فهو صفة من أكرم صفاته ، وهو قوته الشريفة العظمى ، التي بها ظهر جميع حكمته ، وهي القوة والوحدانية المنفردة التي تقع على المختلفات وليست هي بمختلفة ، العلم الذي يدرك به المختلف من الأشياء ، وبه ظهرت حكمته في السموات العلى ، والأرضين السفلى ، فلم يزل سبحانه بالقوة التامة عالما قويا ، و لم يظهر بتلك القوة الأشياء قديما ، فيكون الخلق معه متقدما أزليا ، بل كان على خلق ما خلق قبل أن يخلقه قويا ، كاملة قوته ، عالما كيف يكون خلقه إذا خلق ، تاما علمه.

وكذلك لم يزل الجود له صفة بقوته عليه ، ورضاه إياه ، وإن كان من يجود عليه غير موجود ، وكذلك كان رحيما ولا مرحوم بالقوة التي رحم بها المرحوم إذ [1] خلقه ، ورضاه الرحمة ، فإنها عنده محمودة من فعله له مدحه ، إذ لا يجوز ولا يصح أن يقول: الله سبحانه لم يزل لهذه المخلوقات فاعلا قبل فعلها ، ولكن يقال: إن الله كان خالقا بالقوة وجود الرضا بالجود ، وأنه سيخلق من يجود عليه بالقوة إذا أراد أن يخلقه.

وعالم وإن لم يكن معلوم بالقوة التي قد علم بها المعلومات إذا كوَّنها كيف يكون ، رحيم لرضاه بالرحمة ، وإنها من صفته ، وإن لم يكن مرحوم ، وحكيم بقوته التامة التي هو قادر بها على الحكمة والمحكمات قبل خلقه لها

---

(١) في المخطوط: إذا. وما أثبت اجتهاد.

بالتكوين ، وإن أخر خلقه المحكمات المتقنات بحكمته قبل خلقها ، كيف يكون خلقه لها إذا صنعها.

وسأضرب لكم في ذلك مثلا ، ألا تعلمون أن العالم بالبناء القوي عليه بناءٌ وإن لم يبن ، والبحَّار بحارٌ إذا كان عالما بالبحارة وإن لم يبحر ، والطبيب طبيب إذا كان عالما بالطب والدواء والعلاج وإن لم يتطبب ويداوِ ، وكذلك الفارس فارس [1] إذا كان عالما بالفروسية والركوب ، وكذلك العالم بما يكون من الأمر عالم [2] وإن لم يكن المعلوم ، وإذا كان هذا في المجاز والمعقول مفهوما في عجزه الخلق المحدثين ، فكيف لا يجوز الذي له القدرة الكاملة والقوة القاهرة؟! وإن لم يكن الخلق موجودين ، فيسمى سبحانه بهذه الأسماء ، إذ هي واجبة له قبل وجود الأشياء ، إذ هو القادر ذو القوة المتين ، ثم خلق الأشياء فأظهرها وأوجدها بقوته عليها حين أراد خلقها ، فلما نشأ البرايا وصنعها ظهرت رحمته في المرحوم ، وبدت حكمته ولطيف تدبيره وإتقان تقديره ، في المصنوع ، وبدا جوده ظاهرا حين خلق مَن أعطاه وجاد عليه ، ونعمه على من أعطاه إياها ، وأحسن إليه بعطايا نعمه التي لا تحصى ، ومواهبه الجزيلة التي لا تنقطع ولا تتقصى ، وفضله الذي عم به من [في] الأرض والسماء ، فأظهر من ذلك ما لا يحصى عدده ، ولا ينقطع أبدا مدده ، فهو سبحانه الأول قبل الأوائل المذكورة ، وهو العالم التام علمه بلا نقص شيء من تَذَكُّر ولا فكرة ، لأن كل عالم سواه إنما عَلِمَ بعد جهل وتعلُّم ، وفكرة تخيلها وتوهُّم ، وعلم الله سبحانه فهو علم تام لا تتوهم شيئا ثانيا سوى الله ، فالله عز وجل هو العالم قبل كل معلوم ، والراحم قبل كل مرحوم

---

(١) في المخطوط: فارسا. وما أثبت اجتهاد.

(٢) في المخطوط: عالما. وما أثبت اجتهاد.

، والحكيم لم يزل قبل فعله للمتقن المصنوع ، فليس هكذا غيره تبارك وتعالى أحد ، ولذلك ليس مثله ولا له كفؤ كما قال سبحانه ولا ند ، وهو الصمد المصمود ، والصمد في اللسان العربي فهو المقصود في المهمات المعمود ، وذلك في لغة العرب وأشعارها مفهوم موجود ، قال شاعر بني أسد في الجاهلية ، وهو يذكر [١] سيدا لهم فجعتهم به المنية:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقد ذكر بعض [٢] جهلة الشيعة أن بعض أهل البيت كان يفسر الصمد: الملتئم الذي لا جوف له ، وهذا كذب الرواية ، لا يتوهم أن عالما من آل محمد صلى الله عليه وعلى آل بيته وسلم يقوله ، ولا يثبت إلى من ذكروا مثله.

فهذه جملة من التوحيد كان يقول بها أبي رحمه الله ، لا يجوز جهلها في معرفة الله سبحانه ، إلا أنه كان يكتفي المتعلم الجاهل بمختصر مما ذكرنا ، يعتقده ولا يسعه إغفاله ولا أن يجهله.

فإذا قال قائل: بل بجملة قريبٌ مأخذها وفهمها ، كانت كافية له فيما بينه وبين ربه جل ذكره ، حتى يقرّ بها قولا ، ويعتقدها في ضمير قلبه فهماً ، فيعلم أن الله سبحانه واحد أحد فرد ، لا شبه [له] ولا نظير من كل ما خلق وفطر ، مِن ملك مكرم ، ولا جآن ولا إنس من بني آدم ، وأنه خلاف كل نور من الأنور ، لأنه أكرم وأعظم من كل نور ، وأنه فوق المعظمات من المخلوقات ، لا مثل له ولا شبيه - لكرمه وعظمته - في الأرض ولا في السماوات ، كلما

---

(١) في المخطوط: ند. وما أثبت اجتهاد.

(٢) يقصد هشام بن الحكم.

الله [١] سبحانه من صفاته ، فهي خلاف ما عليه صفات أهل السماء والأرض من جميع برياته ، فهذه جملة في توحيد الله كافية ، ومقالة منيرة شافية.

(١) العبارة غير واضحة. لعل بها سقطا أو تصحيفا.

[العـــدل]

ثم يجب على العبد المؤمن بعد هذا فيما بينه وبين ربـــه أن لا ينســـب إلى الله سبحانه ما قد تبرأ إليه في جميع كتبه ، لأن الله تبارك وتعالى قـــال في محكـــم كتابه ، وما تعرَّف به من الإحسان والعدل والرحمة إلى عبـــاده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس:٤٤]. وقـــال تبارك وتعالى في كتابه الناطق ، وما أخبر به عن نفسه من الخبر الصادق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء:٤٠] ، هو قال تبارك وتعالى في المحكم من قولـــه ، مـــا لا تبديل له ولا يشك فيه من آمن به مـــن الســـماوات والأرض: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾[فصلت:٤٦].وقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٨]. وقال تعالى في قوله المحكم ، وتنزه [1] مـــن الجـــور والظلـــم: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنفال:٥١]. وقال ســـبحانه وهـــو يذكر من عذب بدَينـــه مـــن المـــدينين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الزخـــرف:٧٦]. وقال تعالى متعرفا بعدله ، ورحمته وفضله ، إلى خلقه أجمعين ، فيما نزل على رسوله من وحي كتابه المبين: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٨].

---

(١) في المخطوط: وتنزيه. لعلها مصحفة ، وما أثبت اجتهاد.

فمعرفة الله سبحانه بما هو عليه ولا يزال معروفا به في الدنيا والآخرة من الرأفة لعباده والرحمة ، وما لم يزل عليه ولا يزال من العدل والإحسان والحكمة ، وما نزل الله سبحانه من صفاته بذلك في مثل ما ذكرنا من آياته المحكمة ، ينفي عن الله سبحانه كل جور ، قليل أو كثير ، وتنزيهه تعالى من كل مظلمة. وكيف يجور أو يظلم أحكم الحاكمين؟! وقد تبرأ من ذلك في جميع كتبه التي أنزلها على المرسلين ، كيف وهو المعروف عند كل خلقه بالحلم والعفو الذي فاق عفوه وحلمه كل عفو وحلم كل حليم؟! كيف سبحانه وقد جازت رحمته ورأفته رأفة الآباء والأمهات ورحمة كل رحيم؟! وكيف يتوهم مَن عقل أن الله تبارك وتعالى في حكمته وعدله ، وما تعرَّف به إلى عباده من رحمته ورأفته وفضله ، يدعو عباده إلى الإيمان به والطاعة له ، ثم يحول بينهم وبين ما دعاهم إليه ، بأن يقضي ويقدر على من دعاه إلى الطاعة المعاصي والمنكرات ، وقضاؤه وقدره فعلٌ منه بإرادة واختيار ، لأن من قدَّر وقضى ما كره وما عنه نهى وهو لا يريده ، فلن يكون ذلك منه إلا على الإكراه من غيره له والاضطرار ، والله تبارك وتعالى فهو الحكيم القادر ، الذي لا يفعل أبدا فيما بقي من الدهور ولا فيما مضى إلا ما يريده ، والله سبحانه لا يريد أبدا إلا ما يرضى ويحب ، ولا يحب أبدا ولا يرضى ما سخطه ونهى عنه ، ولا يقدِّر شيئا من المنكر على عباده ، بل منعهم بالنهي عنه.

كيف وقد نزَّل كتبه؟! وبعث إلى خلقه رسله؟! يأمر بالطاعة والبر والإيمان ، وينهى عباده كلهم عن الكبائر والفواحش والعصيان ، ثم يقدِّر ويقضي على عباده ما نهاهم عنه من الفجور والفحشاء والغي ، إن هذا مِن قول مَن قال به لافتراء على الله سبحانه عظيم ، لا يتوهمه من يعرف الله سبحانه بعدله وكرمه وجلاله ، ورأفته وإحسانه وعظمته ، وإن كل جور عنده مسخوط ذميم.

فنهى عما سخط من الفواحش والظلم عبيده ، وباينهم [١] في النهي عن ذلك إن لم ينتهوا زجره ووعيده ، ثم يقدر عليهم ما نهاهم عنه ويقضيه ، كما زعم الغواة الكفرة فيه ، لقد قال من قال بهذا في الله الكريم ، ذي الحكمة والعدل الرحيم ، قولا فاحشا إدًّا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال من الكذب فيه على الله سبحانه هدا ، إذ نسبوا إلى العدل الذي لا يجور ولا يظلم جورا وظلما ، بأنه قدر المنكر والفواحش وقضاها على عباده بالإكراه لهم على خلاف الذي نهاهم عنه حتماً.

فأنبياء الله عليهم السلام الصادقون على الله جل ذكره ، ينهون عن الفواحش والذنوب ، ويذكرون [أن] الله سبحانه نهى عنها ، وحكم بتركها ، وسخطها حكما ، ثم قدرها وقضاها وأرادها بتقديره لها ، وشاها [٢] في إبليس اللعين يدعو إلى ما قدر بزعمهم وقضاه ، وجاء محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم ومن قبله من أنبياء الله سبحانه ينهون عما قدر الله وقضى ، فأي قول أقبح؟! وافتراء على الله جل ثناؤه لمن قال بهذا القول وأشنع وأقبح؟! من قول من قال ووهم ، أن الله عز وجل قدّر ما كره وقضاه ، ثم نهى عما قدره وقضاه ، وأخبر أنه يعذب عليه مَن فعله وأتاه ، وقد علِم كل مَن فَهِم وعَقَل أن الله عز وجل لا يقضي ولا يقدر على عبده ما نهاه عنه أن يفعل؟! فيا ويلهم فما أبين وأفحش جهلهم!! وعماهم وخبلهم!! وجدوا في شيء من كتاب الله عز وجل أو في خبر يصح عن أنبياء الله عليهم السلام أن الله سبحانه قدر وقضى ما نهى العباد عنه ، أو رضي لهم ما منعهم منه

---

(١) الكلمة مهملة وغير واضحة.

(٢) الكلمة مهملة وغير واضحة.

لقد أساء على الله من قال بهذا القول العمي الغوي المتناقض ، ونسبوا إلى الله سبحانه خلاف ما تعرّف به إلى خلقه من الأسماء الحسنى ، إذ زعموا أنه نهى عن المنكرات ، والفواحش من السيئات ، التي منها الشرك به والافتراء عليه ، والتكذيب لرسله ، وقتل النفس التي حرم الله سبحانه ، من أنبيائه والمؤمنين من عباده ، والربا والسرقة ، وعبادة الأصنام ، وكل فسق وفاحشة ، وهم يقرون بألسنتهم أن الله جل ثناؤه لم يشأ شيئا من هذه الكبائر و لم يرضها ، ثم ينقضون قولهم فيزعمون أن الله عز وجل قدر هذه الفواحش على مَن فعلها وقضاها ، وأنه شاءها بعد نهيه عنها وارتضاها ، جل الله وتقدس وعز وعلا ، عما قالوا به من هذا الكذب والافتراء ، فهذا الأصل من إثبات عدل الله عز وجل ونفي الجور عنه ، ما يلزم كل مَن عرف الله سبحانه إثباته والمعرفة به لا بد له منه.

وكان أبي رحمة الله عليه يقول: إن كل كبيرة وعد الله سبحانه العقاب عبده فيها ، فإن عقاب الله له بها ثابت أبدا عليه ، وإن من دخل النار غير خارج منها وإنه مخلد فيها ، غير غائب عنها ، لقول الله عز وجل في كتابه ، وخبره عن ثبات العصاة الكفرة في عقابه عليهم: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء:٥٧] (١) ، وقال: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٨] ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الانفطار:١٦] ، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٥].

وفي وعيد الله سبحانه هذا لهم ما يدل على تخليد الله لهم في العذاب ، وأنه لا يزول عنهم ما صاروا إليه من العقاب ، فنستجير بالله من عقابه ، ونعوذ

---

(١) هذه الآية ذكرت في القرءان أحد عشرة مرة.

برحمته ورأفته من عذابه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

[مذهب القاسم في الكبائر]

وكان يقول رضي الله عنه: إن الله لا يغفر الكبائر التي وعد عليها النار إلا للتائبين ، وإن وعد الله جل ثناؤه ووعيده واجب للأبرار والمذنبين ، وإن من مات على كبيرة من الكبائر غير تائب منها لم يغفر الله سبحانه له ، ولم ينج من عذاب الله وعقابه عليها ، ومن ركب كل كبيرة من الكبائر ثم تاب منها ، وأقلع ونزع عنها ، غفر الله له وعفى عنه ، يقول الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى:٢٥]. وقوله سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر:٥٣].

ثم أخبر عما يغفر الذنوب به من التوبة ، وأنه إنما يغفرها بالترك لها والإنابة ، فقال سبحانه في هذه الصفة بعينها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر:٥٤-٥٨].

[مذهب القاسم في الهجرة]

وكان أبي رضي الله عنه يرى فرضا واجباً على المؤمنين أن يكونوا بالمعروف آمرين ، وعن المنكر ناهيين وله منكرين ، فإن لم يقووا على أهل المنكر ، ولم يجدوا عليهم أعوانا يردونهم ويمنعوهم عن معصية الله سبحانه ، وما هم عليه لأمر الله من المعاندة ، كان أقل ما يجب عليهم لله عز وجل في الفجرة والفساق الاعتزال لهم بالهجرة والمباعدة ، وأن يتخذوا دارا غير دارهم ، وأن يتفرقوا إلى الله عز وجل بترك جوارهم ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه مخبرا عن ملائكته ، الذين يحضرون الميت فيذمونه وقد كان مستضعفا ، ضعيفا عن الإنكار على أهل معصيته: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء:٩٧]. عنى تبارك وتعالى بظلمهم أنفسهم مقامهم [١] مع أهل الجور والمنكر في دارهم ومحلهم ، قال الله سبحانه مخبرا عن أولئك ومقامهم مع العصاة والفجار ورضاهم بمجاورتهم ، إذ تقول لهم ملائكة الله عليهم السلام عند قبضهم لأرواحهم: ﴿ فِيمَ كُنتُمْ - يعنون ماذا فعلتم من إنكار المنكر على من جاورتهم [٢] من أهله؟ - قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء:٩٧]. فعلمت ملائكة الله أنهم قد صدقوا في الخبر من ضعفهم ، واحتجت الملائكة عليهم لله إذ ضعفوا عن مجاهرتهم ، و ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ [النساء:٩٧]. يقولون: فتنحوا عن أهل المنكر والمعاصي في أرض الله الواسعة ولا تجاوروهم ، قال الله سبحانه: ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ

---

(١) في المخطوط: مع مقامهم. ولعلها زيادة سهو.

(٢) في المخطوط: حاور بهم. كلمة مهملة ، ولعل الصواب ما أثبت.

جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء:٩٧]. يقول تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء:٩٨]. يعني: فإن لم يمكنه النقلة من ضعفة الرجال والنساء والولدان لفقرهم وضعفهم ، ثم قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء:٩٩].

ثم قال سبحانه مؤكدا على من أمكنه النقلة والهجرة ، والانتقال عن أهل المعصية ، مرغبا لهم في المهاجرة عن مجاورة الفساق الأثمة: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء:١٠٠] ، يعني بالمراغم: السعة في الأرض ، وإمكان المحال التي تبعد عنهم ، وإمكان المراغمة وهي الاعتزال لجوار الأثمة والمغايظة [١] ، ففي ذلك الرضى لله سبحانه وإن كرهه الفجرة وأرغمهم وغمهم ، فهذا أصل كان عنده أيضا من الأصول ، كان يراه [٢] فرضا لازما على كل مؤمن يضعف عن إنكار منكر العاصين ، أن يكون بالنقلة عنهم والتباعد منهم لهم من المهاجرين ، ولذلك ما كان لَزِمَ الجبال وصبر على الوحدة ، وشظف المعيشة ، وترك المدن ومرافقها ، وتقرَّب إلى الله رب العالمين حتى توفي رضي الله عنه في رأس جبل من الجبال ، و لم يزل صابرا فيه ومنه على ضيق المعاش ، وشدة الحال ، فرحمة الله عليه وبركاته ، وقَبِلَ الله منه ما تقرب به إليه من اعتزاله إليه.

---

(١) كذا في المخطوط.

(٢) في المخطوط: يرضاه. ولعل الصواب ما أثبت.

وكان أبي رحمة الله عليه يرى ولاية كل مؤمن من الأولين والآخرين فرضا واجبا ، ويرى البراءة من العصاة لله سبحانه الماضين منهم والمتأخرين حتما من الله عز وجل مفروضا لازما ، لقول الله سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة:٢٢] ، يخبر عن علمه الذي هو ثابت كتابا لا يزول بما هم عليه في إيمانهم وصدقهم من الإيقان ، إذ لم يتولوا في إيمانهم آبائهم وأبناءهم وإخوانهم على محادة الله عز وجل ومعصيته ، وإنهم على أصدق الصدق وأيقن الإيقان.

ولذلك ما ذكر الله سبحانه إيمان خليله ورسولهإبراهيم ، خليل الله عليه أزكى الصلوات وأفضل التسليم ، حين ذكر استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو يرجو رجوع أبيه إلى طاعة الله عز وجل ومرضاته ، فوعده الاستغفار له إذا تاب مما كان عليه من شركه بالله ومعصيته ، فلما أبى ما دعاه إليه ابنه إبراهيم صلى الله عليه من التوبة عن عظيم خطيئته ، وبان له ما كان عليه أبوه من مشآقة الله جل ذكره وعصيانه وعداوته ، بعد استغفاره له ورجائه لرجوعه عن الشرك وإنابته ، تبرأ منه وخرج من قلبه ما كان عليه من رقته عليه ورحمته ، وأثنى الله سبحانه على إبراهيم عليه السلام ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤]،فأثنى الله عز وجل على تحلّمه وصبره ، في طاعته له سبحانه وشكره ، وأنه أواه ، والأواه المتأوه ، والمتأوه الرفيق الراحم الكريم ، فهو صلى الله عليه مع تأوهه ورحمته تبرأ من أبيه ، إذ بان له مشاقته لله ، وما كان عليه من عداوته.

[المشبهة]

ولقد ضل قوم ممن ينتحل الإسلام من المشبهة الملحدين ، الذين شبهوا الله سبحانه بالمخلوقين ، وزعموا - لعنهم الله - أنه على صورة الإنسان ، وأنه تعالى جسم له يدان ورجلان وعينان ، وبدن ذو حدود وأركان ، جل وتعالى وتقدس عن أن يشبه شيئا من عبيده وخلقه لا ملكا ولا بشرا ولا جانا ، واعتلوا بآية من متشابهات القرآن ، لا يغلط في تأويلها أهل المعرفة بالله والإيمان ، وجعلوا حججهم في جهلهم وكفرهم أحاديث افتعلها الضلال من أعداء الإسلام ، وبأحاديث لم يعرفوا كيف مخرج تأويلها ، فضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

[الرؤيـــــة]

فكان مما جهلوا تأويله ونسبوا فيه إلى الله سبحانه ما لا يشبهه قوله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] ، فتأولوا نظر الوجوه إلى الله تعالى أنها لله جل وتقدس معاينة ، وقد ذكر الله سبحانه في غير هذا الموضع من القرآن ما يدل على خلاف ما تأولوا ، وما بيَّن به كذبهم على الله سبحانه وجهلهم إذ جهلوا ، أن يقول سبحانه مخبرا عن أنه لا يعاين في الآخرة ولا في الدنيا: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٣]. فأخطأ في قول الله عز وجل: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٣] الجهلة العماة الكفار ، وإنما أراد سبحانه بالوجوه الناضرة: الوجوه النضيرة البهية المشرقة ، وأراد تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: وجوه المؤمنين ناضرة منتظرة لثواب الله عز وجل

إياها ، وما وعدهم به من صدق وعده في النعيم والرحمة والكرامة ، وهذا في لغة العرب معروف غير منكر ، يفهمه منهم من يعرف اللسان العربي إذا فكر.

يقولون عند الرجاء والأمل فيما وعد من رحمته ، ما أخبر به المؤمنين من ثوابه لهم يوم عقابه في الآخرة لأهل المعصية ، ويقول المؤمن في الدنيا عند الأمر يغمه ويكربه في دنياه وعسرته: ما أنظر إلا إلى الله وإليك ، يريد: النظر إلى الموعد الصادق ينجزه له ، الذي وعده الوفاء به ، فينظر إليه ، أي: ينتظر صدق موعوده فيه.

ومما يدل على صدق هذا التأويل ، قول الله سبحانه في صادق التنزيل ، في الكفار ، وما وعدهم الله عز وجل به من عذاب النار: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:٧٧] ليس بذلك يريد بذلك أنه يدركهم ولا يراهم ، وإنما يخبر سبحانه عن هوانهم عليه واطراحه لهم ، وأنه لا ينظر إليهم بثواب ولا رحمة ، وأنه يزيل عنهم ذلك اليوم كل رضى وكل نعمة.

وأهل الجنة ينظرون إلى الله سبحانه ، ومعنى نظرهم إليه: انتظارهم النعيم ، ودخولهم الجنة التي يصيرون إليها ، لا كما يظن الجاهلون الضالون من نظرهم إلى لله عز وجل جهرة بالأبصار ، عز وجل ذو الجلال والإكرام عن أن تدركه الأبصار!! لأنه ليس بجسم محدود ذي حدود وأقطار ، ومن أدركته الأبصار فقد أحاطت به الأقطار ، ومن أحاطت به الأقطار كانت محيطة به الأماكن جل وتقدس عن ذلك المتعالي الجبار!!

فكل من قال: إنه ينظر إليه يوم القيامة على غير ما وصفنا من النظر إليه ، أنه انتظار ثوابه ، وصدق وعده وكرامته لأوليائه ، فقد زعم أنه يدرك الخالق ويراه ، ومحال أن يدرك المخلوق الخالقَ بشيء من الحواس ، لأنه خارج من

معنى كل محسوس وحاس ، وإنما هذه صفة خلقه تبارك وتعالى من الحيوانات والناس، ، والله سبحانه وتعالى متعالي عن هذه الصفة ، وإنما دركه سبحانه بإيمان القلوب به ، والمعرفة بأنه على خلاف خلقه.

[نفي الأعضاء عن الله تعالى]

وتأولت المشبهة لله جل وعز قول الله سبحانه: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥] ، و ﴿ خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا ﴾ [يس:٧١] ، ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧] ، وقوله: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٦١] ، وقوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨ ، ٣٠] ، وقوله: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] ، أن هذه الصفات كلها على صفات ما يدركون من معاني المخلوقين وصفاتهم ، في هيئاتهم وأفعالهم ونعتهم ، وعلى صفات الأبدان ، وأن اليد من الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - يد كيد الإنسان ، فكفروا بالله العظيم ، ولهوا إلى غير الخالق الكبير ، الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

فتوهموا أن قول الله سبحانه: ﴿ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ، أنه ذو آلة من سمع وأذن مخروقة ، وأن قوله: ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أنه إنما يُبصر بعين لامحة وحدقة ، وإنما أراد سبحانه بذكر يده الدلالة على قدرته وتدبيره ، وأنه تولى خلق ما خلق بقدرته وبقوته وحكمته ، لم يشاركه في خلقه معين غيره ، وأنه تولى خلق ذلك وحده بحكمته وقدرته ، لا بمعين أعانه ، بل توحَّد بصنعته هو وحده لا غيره ، فتفرد بخلق ما خلق وصنع ما صنع صغيره وكبيره.

وقوله سبحانه:﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧] فإنما أراد تبارك وتعالى: أنها تطوى يومئذ مع عِظَمِها وكِبَرِها بقوته وقدرته ، تمثيلا بما [١] يطوى باليمين ، فيكون مطويا بلا عونٍ معين ، أخبر سبحانه عن قدرته وقهره لكل ما أراد بقدرته.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك:١] يخبر تعالى أن الملك له لا لغيره ، وأنه ولي صنعه وتدبيره ، وأنه ممسكه ومالكه كله ، كضبط اليد لما تحيط به ، وتمسكه [٢] وتحويه لإحاطته ، وأنه لا يملكه مالك غيره ، فالقدرة له وحده عليه ، وذلك في اللسان العربي مفهوم موجود معقول ، تقول العرب: الملك بيد فلان ، وقد قبض فلان الملك ، وصار الملك في يده ، يريدون: في ملكه وقدرته ، لا في كف بنانه وقبضة كفه ، كذلك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما في قبضة الله ويمينه عز وجل.

وتأويل القبضة واليمين أن ذلك كله في قدرته وسلطانه وملكه ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا يملكه سواه مالك.

وكذلك قوله وهو يذكر يوم الدين ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩] وقد يعلم كل مَن عقل وفهم أن الأمر يومئذ واليوم لله عز وجل ، فلما زال الملك الذي كان أعطاه خلقه في دار الدنيا عمن ملّكه إياه ، فذهب ملك جميع الملوك فلم يكن يومئذ ملك سواه ، قال الله سبحانه: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٦] قال تبارك وتعالى مخبرا عن أنه لا مالك يومئذ غير الله الواحد القهار.

---

(١) في المخطوط: مما.

(٢) في المخطوط: وتمسه.

وقال تبارك وتعالى للعاصي وهو يبكته بعصيانه: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج:١٠] ، و ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠] ، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠] ، يريد سبحانه بقوله: ﴿ يَدَاكَ ﴾: بما كسبت أنت ، وبما كسبتم أنتم ، والآثام والمعاصي تكون بالأيدي والقلوب والفروج والألسنة والأمر والنهي ، وليس يعني: يده دون بدنه ولسانه وجوارحه.

وقال الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وعلى آل بيته: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب:٥٢] يعني: إلا ما ملكت أنت ، لم يرد اليمين دون اليسار ، ولا اليد دون البدن ، ولا دون النفس ، وقال: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦] ، يريد سبحانه: إلا ما ملكتم أنتم ، وكذلك قول القائل: نواصينا وأنفسنا بيد الله عز وجل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حلف قال: « والذي نفسي بيده » ، يريد باليد: في قدرته ، وملكه وسلطانه وقوته.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] ، يريد بذلك سبحانه: بآياته العظمى ، فعاينها المكذبون العصاة عيانا كفاحا ، وتقول العرب إذا جاءت جنود الملوك فغلبوا قوما كانوا عالين لغيرهم ممن دونهم: جاءهم والله الخليفة فلم يكن لهم عليه قوة ، ولا به طاقة ، ولم يأتهم الخليفة ، وإنما جاءتهم قدرته وتدبيره وسلطانه وجنوده المبعوثة ، ولا يتوهم المجيء من الله سبحانه كمجيء بدن من الأبدان ، ولا زواله من مكان إلى مكان ، جل عن ذلك وتقدس من هو بكل مكان موجود!! لا بصفة الجسم الزائل - من موضع إلى موضع - المحدود.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة:٢١٠] ، يعني تعالى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله وحكمه وعقوبته وآياته ، وما يُرعب أهل معصيته من الغمام وغيره من عقوبته.

وكذلك قوله: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل:٢٦] (١) ، يعني: أتاهم أمر الله سبحانه وعقابه ، وأخذه وعذابه ، من حيث لم يحتسبوا ، وإتيان الله سبحانه إتيان أمره وقدرته ، وحكمه وسلطانه وقوته ، لا بالانتقال والزوال ، لأن الزائل مدبَّر محتاج إلى الانتقال ، لولا حاجته إلى الزوال لم يزل ، والله جل وتقدس أجلُّ وأعلى وأقدر من أن يزول أو ينتقل ، ولهذا نفى الموحدون عن الله سبحانه الزوال والانتقال.

[كلام الله مخلوق محدث]

ومما غلطت به المشبهة الضُّلال ، قول ذي العزة والجلال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء:١٦٤] ، فذهبوا إلى أن الله - تعالى عما يقولون علوا كبيرا - تكلم بلسان وشفتين ، وخرج الكلام منه والصوت كما يخرج من المخلوقين ، فكفروا حين ذهبوا إلى هذه الصفة كفرا بينا.

ومعنى كلامه سبحانه عند أهل العلم به: أنه أنشأ كلاما أحدثه كما يشأ ، فسمعه موسى صلى الله عليه وفهمه ، ولم يجعل الله بينه وبين موسى ملكا رسولا ، وأسمعه النداء ، فقال: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص:٣٠] والنداء غير المنادي ، والمنادي هو الله جل ثناؤه ، والنداء غير الله

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... من لا حيث لا يحتسبوا ﴾. ولا يوجد بهذا اللفظ.

تباركت أسماؤه ، وما كان غير الله تعالى فمحدَث لم يكن [ثم] كان ، والله الأول القديم الذي لم يزل ولا يزول ، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣] ، يريد: أحدثناه وأنزلناه قرآنا عربيا ، وكذلك قال سبحانه: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩] ، وقال سبحانه: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢] ، وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:٩٩].

[معنى { سميع عليم }]

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج:٦١] يريد بذلك: أنه لا يخفى عليه المسموعات كلها ، وأنه عالم بالأشخاص والأشباح ، وصفاتها وهيئاتها ، وباطنها وظاهرها ، لا يخفى عليه شيء من درك الأبصار مما يدرك الأبصار منها كلها ، بل دركه لها وعلمه بها أجود وأبلغ من درك الأبصار كلها.

[معنى وجه الله]

وأما قوله سبحانه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] ، وقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧] ، فإنما يريد تعالى: أن كل شيء فانٍ هالك إلا هو لا غيره ، ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ، يريد: يبقى ربك وحده ، لا يريد بذلك ولا يعني: وجها في جسد ، ولا جسدا ذا وجه ، تعالى الله عن هذه الصفات ، التي هي في المخلوقين موجودات!!

[معنى نفس الله]

وأما قوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨ ، ٣٠] فهو: ويحذركم إياه لا غيره ، وقوله عن عيسى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة:١١٦] ، يعني: أنت تعلم ما أعلم ولا أعلم أنا ما تعلم ، كما يقول القائل: هذا نفس الحق وهذا نفس الصواب ، يريد: هذا هو الحق ، وهذا هو الصواب ، وهذا وجه الرأي ، وهذا وجه الكلام ووجه الحق ... (١)كقوله ولا نظير: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى:١١].

فكل من وصف الله جل ثناؤه بشيء من صفات خلقه ، من الإنس والجن أو غيرهم ، أو توهمه صورة أو جسما من الأجسام ، أو مثّله بالأجسام ، أو زعم أنه في مكان دون مكان ، أو أن الأقطار تحويه ، أو أن الحجب تستره ، أو أن الأبصار تدركه ، فقد شبّهه بالأجسام ، لأن هذه الصفات كلها صفات الجسم والأبدان ، أو أنه يشبه شيئا مما خلق ، فقد وصفه بغير ما هو عليه ، ونسب إليه ما ليس فيه ، وكفر به وأشرك بينه وبين غيره في صفته ، والله متعالي عن صفة المخلوقين ، بريء أن يُمثّل بشيء من صفات المحدثين.

---

(١) فراغ في الأصل.

[العدل]

وينبغي للمؤمن إذا وحَّد الله وعرف أنه ليس كمثله شيء ، أن يعرف الله برحمته لعباده ، ويعلم أن الله عدل حكيم رحيم ، لا يجور على أحد من خلقه ، بل يكلفهم ما يستطيعون دون حقه ، لا يكلف عباده إلا ما يطيقون ، ولا يسألهم إلا ما يجدون ، ولا يجازيهم إلا بما يكسبون ، وهكذا قال تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧] ، وقال سبحانه: و ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦] ، وقال جل وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] ، فلم يكلف الكريم الرحيم أحدا من خلقه ما لا يستطيع ، بل كلفهم دون ما يطيقون ، وفرض عليهم أقل ما يستطيعون ، وعذرهم لحدوث الآفات التي امتحنهم فيها ، ووضع عنهم الفرض عند حلولها ، فقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١ ، الفتح:١٧] إذا زالت عنهم الاستطاعة والإطاقة ، عندما حل بهم ما حل من الآفة ، ولم يقدروا على أداء الفريضة ، ولم يقل جل ثناؤه: ليس على الكافر حرج ولا على السارق حرج ولا على الزاني حرج ، إذ كانوا مستطيعين لترك الزنا والكفر والسرقة ، ولأنه سبحانه ... [1] [فتعالى] الله عن كذبهم علوا كبيرا.

---

(١) قال في هامش المخطوط: لعله سقط من هذا البياض قدر ورقة والله أعلم.

[الطاعة والمعصية فعل للعبد]

والدليل على أنهم إنما فعلوا ما فعلوا من طاعة أو معصية بأهوائهم وإرادتهم ، قوله عز وجل: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٠] ، ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ [النساء:٣٩]. ولو كان الله عز وجل الفاعل لأعمالهم لم يخاطبهم ولم يلمهم على تقصيرهم ، ولم يمدحهم على ما كان من حسن أعمالهم ، كما لم يخاطب المرضى فيقول: لِمَ مرضتم؟ ولم يخاطب العميان فيقول: لِم عميتم؟ ولم يخاطب الموتى فيقول: لِم متم؟ ولم يعاتبهم على ما لم يفعلوا من خلقهم فيقول: لم طُلتم ولم قَصُرتم؟

[المعاصي ليست بقضاء الله وقدره]

والدليل على [أن] المعاصي ليست بقضائه ولا قدره ، ما أنزل الله في كتابه من ذكر قضائه بالحق ، وأمره بالعدل ، وتعبُّده عباده بالرضى بقضائه وقدره ، وإجماع الأُمة كلها أن الله سبحانه لم يقض الجور والباطل ، ولم يكن منه الظلم ، وأنهم راضون بقضاء الله ، منقادون لما أراد الله ، وإذا نزلت بهم الحوادث من الأسقام والمصائب والموت التي هي من قِبَل الله قالوا: هذا بقضاء الله ، رضينا وسلّمنا ، فلا يسخط ذلك منهم أحد ، ولا ينكر منهم منكر ، وإن سخطه ساخط كان عندهم من الكافرين.

فإذا ظهرت فيهم الفواحش ، وانتهكت المحارم ، كانوا لها كارهين ، وعلى مَن فعلها زارين [1] ، ولهم معافيس يتسترون منهم ، ويلعنونهم بذنوبهم وأعمالهم ، وهذا دليل على أن ذلك ليس من قضائه ولا قدره ، وذلك لأنه

---

(١) زارين ، من الإزراء.

فعل مذموم قبيح فاحش هو ومَن فَعَلَه ، وقضاء الله وقدره لا يكون جورا ولا فاحشا ، ولا قبيحا ولا باطلا ولا ظلما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً!!

[المرجئة]

وليحذر العبد المؤمن أيضا هذه الطائفة المرجئة ، فإن قولهم أسوء قول وأخبثه. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أنه قال: « صنفان من أُمتي لا تنالهم شفاعتي يوم القيامة ، لعنوا على لسان سبعين نبيا ، القدرية والمرجئة. قيل: وما القدرية والمرجئة يا رسول الله؟ فقال: أما القدرية فالذين يعملون المعاصي ويقولون هي من الله ، والله قدرها وقضاها علينا ، وأما المرجئة فهم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل »[1].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما بعث الله نبيا قط إلا وفي أمته قدرية ومرجئة يشوشون عليه أمر أمته ، وإن الله قد لعن القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيا.

أخرجه الطبراني في مسند الساميين ٢٢٤/١(٤٠٠) ، وفي المعجم الكبير ١١٧/٢٠(٢٣٢) ، وابن حجر في لسان الميزان ٣٨١/٤(١١٤٦) ، ٢٧٦/٦(٩٦٩) ، وابن عدي في الكامل ٢٢٨/٦(١٧٧٣) ، وابن حبان في المجروحين ٣٦٢/١(٤٧٨) ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣١٩/١٤(٧٦٣٩) ، وأبو القاسم الجرجاني في تاريخه بلفظ قريب موقوف على ابن عمر ٣٣٦/١(٦١٨) ، وغيرهم كثير.

وأخرجه بلفظ: صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي القدرية والمرجئة قلت يا رسول الله ما المرجئة؟ قال: قوم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل. ابن حبان في المجروحين ٣٣٦/١(٤٢٣) ، ١١٢/٢(٦٩٠) ، وابن فلاتة في الوضع في الحديث ٢٥٧/١ ، والكناني في التنزيه ٣١١/١ ، والجويني في جنة المرتاب ٤٧/١. وغيرهم.

وبلفظ: صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب.

فهذان قولان فيهما ذهاب الإسلام كله ، ووقوع كل معصية ، وذلك أن القدرية - لعنهم الله - قالوا: إن الله جل ثناؤه قدَّر المعاصي على عباده وخلقها فيهم ، وقضاها عليهم ، فهم لا يمتنعون ولا يستطيعون تركها.

وأما المرجئة فرخصوا في المعاصي ، وأطمعوا أهلها بالجنة بلا رجوع عنها ولا توبة منها ، وشككوا الخلق في وعيد الله ، وزعموا أن كل من ركب كبيرة من معاصي الله مؤمن كامل الإيمان عند الله ، بعد أن يكون مقراً بالتوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن جميع أعمال البر من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وغير ذلك ليس من الإيمان ، ولا من دين الله ، وأن الإيمان إقرار باللسان ، فشهدوا لإبليس - لعنه الله — بالإيمان ، لأن إبليس - غضب الله عليه - مقر مؤمن بربوبية الله عز وجل ، وعرفه باللسان ، وقد عصى الله سبحانه [بـ] كبير العصيان ، فهذان القولان - رحمكم الله — فاحذروهما ، فإنهما هما اللذان أهلكا العباد والبلاد ، فنعوذ بالله منهما ، ونتبرأ إلى الله ممن قال بهما.

الترمذي في السنن ٤/٤٥٤(٢١٤٩) ، وابن ماجة ١/٢٤(٦٢) ، ١/٢٨(٧٣) ، والطبراني في الكبير ٨/٢٨١(٨٠٧٩) ، ١١/٢٦٢(١١٦٨٢) ، والأوسط ٢/٣٧٢(١٦٤٨) ، وعبد بن حميد في المنتخب ٢٠١(٥٧٩) ، والمزي في تهذيب الكمال ١٦/١٠٤(٣٥٥٣) ، ٢١/١٥٥(٤١٤٣) ، ورواه ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/٢٥١(٥٠٣) ، والذهبي في التذكرة ٣/١٢٠٠(١٠٣٢) ، وابن عدي في الكامل ١/٢٨٨(١٢٦) ، وابن معين في تاريخه ٤/٣٨٥(٤٩٠٦) ، وابن حبان في المجروحين ١/٣٣٦(٤٢٣) ، والعقيلي في الضعفاء ٢/١٢٣(٢٠٦) ، والبغدادي في تاريخه ٥/٣٦٧(٢٨٩٣) ، والجرجاني في تاريخه ١/٥٠٢(١٠٢٠) ، والدار قطني في العلل ١/٢٨١(٧٢) ، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث/٧٧ ، والبخاري في الكبير ٤/١٣٣(٢٢٢٣).

[الصـــــلاة]

فإذا دان المؤمن بما وصفنا من توحيد الله وعدله ، وعرف الله فصدّق وعـــده ووعيده ، فعليه بعد ذلك أن يؤدي إلى لله ما افترض الله عليه من دينـــه مـــن فرائضه ، من الصلوات الخمس على حدودها ، في تمام ركوعها وسجودها.

[الجهـــــاد]

وعليه الجهاد في سبيله لجميع أعداء الله ، من الكافرين والفسقة الجائرين ، إن أمكنه جهادهم بيده ، وإلا فعليه إنكارُ منكرهم بقلبه ، والبراءة إلى الله منهم باعتقاده وضميره ، والتنحي عن مجـــاورتهم ، والتقـــرب إلى الله بمباعـــدتهم وهجرتهم.

[الكبائر]

وعلى المؤمن أن يجتنب كل ما نهى الله عنه من معاصيه كلها ، من الكفر وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها ، وأخذ ما لا يملكه من أموال الناس ظلمـــا ، وأن يجتنب ما حرم الله من الربا ، وشرب الخمر فعليه أن يجتنبها كلها ، وأن يعلم أن كلما أسكر كثيره فحرام في دين الله وسنة نبيه قليله ، وأن يحرم مـــا حرم الله من إتيان ذكور الرجال ، وعلى المؤمن أن لا يفر من الزحف ، ولا يولي دبره عند الجهاد والقتال ، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة.

[بر الوالدين]

وعلى المؤمن من فرض الله في بر والديه وإن كانا عاصيين ، لقول الله سبحانه في الوالدين: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة:٨٣]. وقوله في الوالدين وإيجـــاب

برهما ، وتوكيدا على الولد فيهما: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان:١٥].

وعلى المؤمن اجتناب كل ما يعلم أنه لله معصية ، فلا يقربه ، فإن الله تعالى قد نهى عن كبير الذنوب وصغيرها ، فقال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١]. فليتق الله كل عبد أراد من المؤمنين النجاة عند الله ، فلا يُرى على معصية الله ، ولا يركبها متأولا ، وقد جعل الله له السبيل إلى تركها ، وعرَّفه إياها ، وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس:٧-٨]. يعني سبحانه بقوله: ﴿ أَلْهَمَهَا ﴾: عرَّفها فجورها وتقواها.

فليس عالم ولا جاهل من البالغين يعمل منكراً ، ولا يأتي معصية ولا يفعل شرا ، إلا ونفسه تنكره ، وهي ملهمةٌ معرفةَ الشر إذا فعلته ، ومعرفة التقوى والعلم الصالح إذا عملته.

فليكن العبد المؤمن أبدا متيقظا ، متنبها لنفسه في العمل بطاعة الله واجتناب معصيته ، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. يعني: تائبون ، ولم يقل: فإذا هم مصرون.

[الرجاء]

وينبغي للمؤمن أن يكون أبدا متيقظا متحفظا راجيا خائفا ، يرجو الله لما هو عليه من الإحسان ، ولما يكون من ذلك ، رجاء لا قنوط فيه ، ويخافه على الإساءة الموبقة إن فعله ، خوفا لا طمع فيه إلا بتوبة منها ، والخوف والرجاء أبدا قرناه لا يفارقانه ، وبذلك وصف الله جل ثناؤه المتقين من خلقه وعباده

، فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧] ، فهذا صفة المؤمنين ، وبهذا أثنى الله على المتقين.

[شكر الله]

واعلموا - رحمكم الله - أنه ليس أحد يؤدي كل ما يستحق الله من عباده ، من شكر نعمته وإحسانه ، أداء كمال ولا تمام ، حتى لا يبقى مما يحق لله من شكره شيء إلا أداه ، وكيف يكون هذا؟! والله يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤ ، النحل:١٨]. فكيف تؤدون شكر ما لا يحصى؟! و لم يفترض جل ثناؤه على خلقه ذلك ، ولا يسألهم إياه ، إذ علم أنهم لا يطيقون أداءه ، فترك جل ثناؤه الاستقصاء عليهم ، فلم يسألهم كل ما يجب له عليهم ، وغفر لهم صغير ذنوبهم كلها ، إذا اجتنبوا الكبائر مما ينهون عنه ، رحمة لهم ورأفة منه لهم.

[التوبة]

وينبغي لمن كان يعقل من المسلمين أن لا يرجو الرحمة وهو مقيم على كبيرة من الذنوب ، إلا أن يكون منها من التائبين ، فنرجوا حينئذ عفو الرحمن الرحيم ، فقد وصف الله سبحانه الراجين لرحمته ، وكيف وضعوا الرجاء في موضعه ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة:٢١٨]. وذلك أن للجنة والنار طريقين ، فطريق الجنة طاعة الله المجردة من الكبائر من معاصي الله عز وجل ، وطريق النار معصية الله وإن لم تكن مجردة من بعض طاعاته ، لأنا

قد نجد العبد يؤمن ببعض كتاب الله ويكفر ببعضه ، فلا يكون مؤمنا ، ولا لما أخبر الله به من النار ناجيا ، فصدَّق ما قلنا قولُ الله سبحانه: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٥]. فلم يُسمَّوا بما آمنوا به من الكتاب إذ كفروا ببعضه: مؤمنين ، ويُسمَّوا إذ لم يؤمنوا بالكتاب كله: كافرين.

[موالاة أولياء الله]

وعلى العبد أن يوالي أولياء الله ، حيث كانوا ومن كانوا ، أحياءهم وأمواتهم ، ذكرانهم وإناثهم ، ويكون أحبهم إليه وأكرمهم عليه ، أتقاهم لديه ، وأكثرهم طاعة له ، والمؤمنون هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في كتابه فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢].

وقال تبارك وتعالى في صفة المؤمنينوقال تبارك وتعالى في صفة المؤمنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون:١ - ١١].

وقال تبارك وتعالى في صفة المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥]. فقد دخل الصفة كل طاعة ، لأن الجهاد في سبيل الله يأتي على كل طاعة ، فمن أطاع الله في أداء فرائضه واجتناب محارمه ، فهو مجاهد لنفسه في طاعة ربه واتباع أمره ، وترك هوى نفسه ، فلا جهاد أفضل من مجاهدة النفس لردها عن هواها فيما يرديها ، من مجاهدة الشيطان عدو الله فيما يدعوها إليه من ذنوبها ومعاصيها.

[معاداة الكافرين والفاسقين]

ويلزم المؤمن أن يعادي أعداء الله الكافرين ، أين كانوا وحيث كانوا ، أحياءهم وأمواتهم ، ذكرانهم وإناثهم ، ويلزم المؤمن أن يعادي أعداء الله الفاسقين ، الذي أقروا بفرائض الله في الدين ، ثم فسقوا بالعصيان لله معاندين ، وهم العصاة لله المخالفون الجائرون ، الذين يسعون في الأرض فسادا ، أو أن يتبرأ منهم المؤمن ، من كانوا وحيث كانوا ، من قريب أو بعيد ، لقول الله سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة:٢٢].

وكل من أتى كبيرة من الكبائر ، أو ترك شيئا من أوجب الفرائض على الاستحلال لذلك فهو كافر مَرِيد ، حكمه حكم المرتدين ، ومن [ترك] ذلك

اتباعا لهواه وإيثارا لشهوته ، كان فاجرا فاسقا ، كافرا كفر نعمة لا كفر شكر وجحود ، ما أقام على خطيئته ، فإن مات عليها غير تائب منها كان من أهل النار خالدا فيها أبدا وبئس المصير.

وقال الله في تبيين ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الانفطار:١٣ - ١٦]. ومن لم يغب عن النار فليس بخارج منها ، ومن أتى كبيرة من الكبائر فهو فاجر فاسق كافر لنعم الله ، يبين ذلك قول الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور:٤]. إلا أن يتوب القاذف ، فإن الله يقبل التوبة من التائبين ، وليس من أتى الكبائر كافرا لنعم الله ، ولا نسميهم: كافرين من طريق الشرك بالله ، فإذا كان قاذف المحصنة فاسقا ملعونا متعديا ، فالزاني بالمحصنة أعظم جرما ، والسارق وقاتل النفس بغير الحق وآكل أموال اليتامى ظلما. ومن أتى غير ذلك من كبائر الذنوب أكبر ظلما.

ويجب على المؤمن أن يجتنب الظالمين والفاسقين والمعونة لهم على فسقهم ، والمحآلة لهم على لهوهم ومعاصيهم ، وعلى المؤمن [أن] يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لأن على المؤمن إذا رأى منكرا فقدر على تغييره لم يؤخر تغييره ساعة ، لأن الله سبحانه قال للمؤمنين: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٠٤]. فعلى المؤمن أن ينهى عن المنكر بلسانه ، فإن لم ينته صاحب المنكر عنه فَبِيَده ، فإن لم ينته من يفعل المنكر عن منكره جاهده إن أمكنه ذلك بسيفه ، فإن كان ممن لا يقوى على إنكاره إلا بجماعة من المؤمنين ، وخاف على نفسه ، فعليه

إنكار المنكر بقلبه ، والهجرة لمن فعله ، والإصار إن أمكنه الإنكار عليه بيـــده ومجاهدته ، وذلك الواجب عليه فيما بينه وبين ربه.

[التوبة]

وعلى العبد أن يتقي الله في سر أمره وعلانيته ، ويستغفر الله ويتوب إليه من ذنوبه ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وبذلك وصف نفسه ، قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]. ودعا تبارك وتعالى عباده إلى التوبة وأخبرهم أنه يقبلها ، فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠] (١). وقال: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١].

فمن تاب إلى الله قَبِلَ توبته ولو كانت ذنوبه عدد الرمل ، لأنه سبحانه كريم ، وهو بعباد رؤوف رحيم ، يقبل التوبة ، ويقبل المعذرة ، ويغفر الخطيئة ، إذا صحت من العبد التوبة ، قال الله جل ثناؤه في التوبة على عباده من ذنوبهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]. فمن تاب من ذنبه كانت توبته مقبولة عند الله ربه ، قال الله سبحانه في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢]. يعني: المتطهرين من الذنوب ، ومن أحب الله لم يعذبه ، وكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فافهموا هذا رحمكم الله.

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... إن ربي قريب مجيب ﴾ ، ولا يوجد بهذا اللفظ.

وكذلك أخبر الله عن ملائكته وهم الملأ الأعلى ، وأهل السموات العلى ، الذين لا يرضون إلا عمن هو عند الله رضى ، قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [غافر: ٧ - ٨] (١).

[التوبة من حقوق الله]

والتوبة - رحمكم الله وهداكم - لها وجوه وتفسير ، فكل ذنب بين الله وبين عباده وإمائه ، نحو الزنا وشرب الخمر وإتيان الذكور بعضهم بعضا ، وإتيان النساء بعضهن بعضا ، واستماع محرم اللغو والعكوف عليه ، وهو الأوتار من العيدان والغناء ، وقول الزور ، وقذف أهل الإحصان من الرجال والنساء ، والرفث والجدال ، والفجور والكذب ، والمرح والخيلاء ، والكبر والرياء ، والعجب ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، والنظر إلى ما لا يحل من العورات وغيرها ، والفرار من الزحف ، من غير تحرف لقتال أو تحيزا إلى فئة ، والغيبة والنميمة ، وما أشبه ذلك من الذنوب ، ومعاداة أولياء الله ، وموالاة أعداء الله.

والتوبة من هذا كله قليله وكثيره الندم على ما مضى منه ، والعزم على تركه والإقلاع عنه ، ولا يعود أبدا إليه ، ولا يقربن شيئا منه قل أو كثر.

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... وذرياتهم لمن صلح وأتقى من المتقين ﴾. ولا يوجد بهذا اللفظ.

[التوبة من حقوق الناس]

فكل مَن ظلمه وآذاه من مسلم أو معاهد ، فليستحلهم ويعتذر إليهم من ظلمه ويرضيهم ، وكل ذنب كان بين العبد وبين الناس مسلمهم ومعاهدهم ، من سرقة أو ربا في أموالهم ، أو أخذ مال بغير حق في حياته ، أو غصب ، أو إدخال ضرر عليهم في الأبدان ، كالقتل والجراحات والضرر الشديد. فالتوبة أن يرد المال إلى أهله حيث كانوا ، إن قدر على ذلك وكان له مال ، فإن لم يكن له مال جعله دينا عليه ، وعزم أن يرده إلى أهله ، أو على ورثتهم إن كان أهله ماتوا ، والندم على ما أخذه ، ويستغفر الله منه ، ويعطي الله من نفسه ألا يعود إلى مثل ذلك أبدا.

ولا تجزيه التوبة من الأخذ إذا كان حابسا للرد حتى يرد ما أخذه ، فإن استوهبه كان ذلك حلالا بعد الإقرار به على أجمل الوجوه ، وإن صالحوه فأخذوا بعضا وتركوا بعضا على غير قَسْرٍ أو إكراه لهم كان ذلك جائزا.

فإن لم يعرف أصحاب المال الذين أخذ مالهم ، وأيس أن يعرفهم أو يعرف ورثتهم ، تصدَّق بمقدار ما أخذ منهم على المساكين ، عن أصحاب المال الذين غصب أو سرق ، فإن جاءوا بعد ذلك إليه ، وأخبرهم أنه قد تصدَّق بذلك عنهم ، فإن رضوا لم يكن عليه شيء ، وإن أرادوا حقهم لزمه أن يرده عليهم إذا قدر عليه ، وكان ذلك صدقة له يؤجر عليها ، وإن كان محتاجا وأنفقه على نفسه كانت توبته عند الله مقبولة ، وكان المال لازما له متى يجد ويمكنه قضاؤه فيقضيه ، وإن كان الذين أخذ أموالهم نائين [1] في البلدان ، فلم يقدر على الخروج إليهم به ، لعلة أو مرض أو فاقة حائلة بينه وبين ذلك ،

---

(١) في المخطوط: نائيا. وما أثبت اجتهاد.

أوصى بأن يُبعث به إليهم ، لأن عليه أن يوصل إليهم حقوقهم حيث كانوا ، ويستحلهم من أخذه وغصبه وإنفاقه ، ثم لا شيء لهم بعد ذلك ، وتوبته مقبولة فيما بينه وبين الله جل ثناؤه ، وإن لم يدرِ كَمْ المال [1] الذي أخذ من أموال الناس ، ونسي وكثر ذلك عليه ، فليتحرَّ ما لكل واحد على قدر مبلغ علمه ، ويحتاط في ذلك بالزيادة على نفسه ، فإن زاد كان له أجر ذلك ، وإن نقص قليلا لم يضره بعد أن يتعمد الوفاء ، ويستغفر الله ويعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك أبدا.

[هبات الظالمين]

وإن صار إليه مال من ناحية ظالم غاصب وهو به عالم ، بسبب معونة له في ظلمه ، ودخوله معه في غصبه ، وأخذ ذلك هبة منه ، وهو يعلم أنه ظلم وغصب ، فالتوبة مما أخذ أن يخرجه من عنده فيرده على أهله المغصوبين إياه ، ولا يحل له أن يرد شيئا من ذلك إلى الغاصب لأنه ليس له.

وإن كان أنفقه وليس عنده شيء منه كان ضامنا لرده إذا أمكنه على أهله ، وتاب إلى الله جل ثناؤه من إنفاقه.

[التوبة من الربا]

فأما ما كان من الربا فالتوبة منه ما وصفنا من الندم والاستغفار منه ، وأن يخرج كل فضل فوق رأس ماله فيرده على أهله إن عرفهم ، وإن لم يعرفهم تصدق به عنهم.

---

(١) في المخطوط: الأموال. وما أثبت اجتهاد.

[التوبة من القتل العمد]

وأما ما كان من القتل فلا توبة لقاتل المؤمن حتى يندم على القتل ويستغفر الله منه ، ويعزم على أن لا يعود إليه أبدا ظالما ، ويُمكِّن أولياء المؤمن المقتول من نفسه صابرا محتسبا ، ويُعلمهم أنه قتل صاحبهم ظالما متعمدا ، فإذا فعل ذلك فهو تائب لا شيء عليه من إثم القتل ، فإن قتلوه فائزا فحق هو لهم ولا تبعة لهم عليه ، ولا حق للمقتول لديه ، وإن عفوا عنه فلهم أن يعفوا عنه ، لأن الحق بعد المقتول لأولياء المقتول ، ويعوض الله جل ثناؤه المقتول المؤمن إذا كان مؤمنا صابرا.

وكذلك قال الله سبحانه: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [الإسراء:٣٣]. فقد سلَّط الله أولياء المقتول على القاتل ، إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا عفوا ، فإن تاب فيما بينه وبين الله و لم يُمكِّن أولياء المقتول من نفسه لم تُقبل توبته ، فإن لم يعرف القاتلُ أولياءَ المقتول عزم القاتل أن يُمكِّن أولياء المقتول من نفسه متى عرفهم ، فيصنعوا به ما لهم عليه من القتل أو الدية أو يعفوا ، ولا يدفع نفسه إلى سلطان ولا إلى غيره إلا إلى أولياء المقتول ، فإن لم يفعل هذا كان كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣].

[التوبة من الجراحات]

وأما ما كان من جراحات سوى القتل مما يجب فيه القصاص فإنه يتوب إلى الله جل ثناؤه منها بالندم عليها ، والإقلاع عنها ، والعزم على أن لا يعود إليها ، وأن يُمكِّن من نفسه مَن جَرَحَه ، فإن اقتص منه فلا شيء عليه ، وإن

عفا عنه فذلك إليه ، وإن كانت جراحات قد بَرِأ أصحابها منها ، و لم يكن أمكنهم من القصاص من نفسه ، فلم يعلم مقدارها للبرء فلا قصاص ، لأنه لا يعلم قدر ذلك.

وعليه أرش الجراحات ، فإن مات أصحابها دفع ذلك إلى ورثتهم الذين يقومون بذلك ، فإن كان لا يعرف أصحاب الحقوق ولا ورثتهم ، دفع ذلك القدر إلى المساكين إن قدر على ذلك ، وما كان من الجراحات مما لا قصاص فيه مما يكون فيه حكومةُ عدل ، دفع ذلك إلى أصحابه إن كانوا أحياء ، أو إلى ورثتهم إن كانوا موتى ، فإن لم يعرفهم ولا ورثتهم دفع ذلك إلى المساكين.

وكذلك في كفارة الخطأ فليفعل كما أمر الله سبحانه في كتابه ، وكذلك في كفارة الظهار فمن لم يقدر على ذلك ، فالتوبة على ما أمر الله.

وأما ما كان من ضرب أو لطم مما لا يمكن القصاص فيه ، فالتوبة منه الاستغفار والندم ، وأن لا يعود إلى مثله أبدا ، وأن يرضي أصحابه إن عرفهم ، أو يتحللهم.

[التوبة من الغيبة ونحوها]

وأما ما كان من ظلم الناس من نحو اغتياب وتجسيس وسوء ظن ، وسعاية إلى ظالم ، أو كذب على أحد ، فالتوبة إلى الله تعالى من ذلك أن لا يعود إلى مثله أبدا ، ويتحلل من ذلك ممن فعله به ، فإنه أحسن وأفضل ، فإن لم يمكنه التحلل و لم يفعله رجونا أن لا يضره ذلك.

وكذلك إن أساء إلى مماليكه في مطعم أو ملبس مما لا يحل له أن يفعله بهم ، أو عاقبهم عقوبة أسرف فيها ، أو شتمهم بما لا يحل له ، فليتب إلى الله جل ثناؤه ، وأن يتحلل مماليكه ، فهو أحسن وأشبه بالتواضع والخضوع لله.

وإن استدان رجل مالا ينفقه على نفسه وعياله بالقصد كما أمر الله جل ثناؤه ، وكان عزم أن يؤديه إذا أيسر وأمكنه ، فمات قبل أن يؤديه وليس له مال و لم يترك وفاء ، فلا شيء عليه فيما بينه وبين الله عز وجل ، ولا بينه وبين صاحب الدين ، ويعوض الله صاحب الدين ، لأن الله العدل الذي لا يكلف ﴿ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، و ﴿ مَّا ءَاتَىٰهُ ﴾ [الطلاق:٧] ، وقد أمر الله بإنظار المعسر في الدَّين ، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾.

وإن ادَّان فنسي أن لا دين عليه لأحد ، فلا شيء عليه مع النسيان ، إذا لم يكن نسيانه ذلك من تشاغله بمعصية ، من سكر وغيره من معصية الله عز وجل ، وإن أخذ دينا فلم يؤده إلى أصحابه حتى ماتوا ، فليؤده إلى ورثتهم ، فإن لم يعرف لهم وارثا وانقطعت آثارهم وذكرهم ، فليتصدق به على المساكين عن أهله ، وقد سلم من الإثم إذا تاب عن حبسه ، وقد كان يعقد على أدائه.

فإن استقرض مالا فأنفقه حيث يحل له أو يحرم عليه ، وكان من عزمه ألا يؤديه على أهله فهو فاسق ، وتوبته من ذلك الاستغفارُ والندمُ وردُه على أهله ، فإن كان معسرا عزم على أدائه إليهم إذا قدر عليه ، وأشهد لهم بذلك على نفسه إن أرادوا ذلك منه ، وقدر على أدائه ، فإن ماتوا و لم يكن لهم ورثة تصدَّق به عنهم على المساكين ، وإن كان محتاجا أكل منه بغير سرف ، وكان له ضامنا أن يؤديه إذا قدر على أدائه.

وإن أخذ أموال الناس من طريق الدَّين وكان من شأنه أن لا يقضيه ولا يؤدي وجحد ذلك ، ثم مات مصرا على ذلك ، فأقام أصحاب الدين على ورثته البينة ، أو عرف ذلك الورثة فعليهم أن يؤدوه إلى أهله ، والميت من

أهل النار لا ينجيه من ذلك أداء ورثته عنه ، لعزمه ألا يؤديه ، وموته غير تائب ، مصرا على أخذ ما ليس له ظلما وعدوانا ، ولا يحل لورثته إذا عرفوا أن ما خلف من أموال الناس أن يأكلوه ولا يستنفقوه.

[الأيمان]

وإذا خلف المؤمن بأيمان الله وهو كاذب متعمدا للكذب من غير إكراه ولا خوف ، فقد عصى وفسق ، وتوبته من ذلك أن يستغفر الله ولا يعود ويندم على ما كان منه ، وليس عليه كفارة ، وإن كان حلف بما فيه كفارة ثم حنث فعليه كفارة لكل يمين.

والأيمان أربع: فيمينان يُكَفِّران ، وهو قول القائل: لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل ، وقوله: لا أفعل كذا وكذا فيفعل ، فهاتان اليمينان لا بد فيهما من الكفارة.

واليمينان اللتان لا يكفران ، فهما قول القائل: والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعله ، وقوله: والله لقد فعلت كذا وكذا وما فعل ، وهذا كذب ، الواجب فيه التوبة منه.

وكفارة اليمين إذا حنث الحانث إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يأكل هو وأهله ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فمن لم يقدر على إطعامهم وغير ذلك ، فصيام ثلاثة عن كل يمين ، ويستغفر الله من تضييعه الكفارة ولا يعود ، فإن أدركه الموت ولم يكن كفّر عن يمينه من إطعام أو كسوة وهو يقدر على ذلك ، فليوص أن يطعم عنه المساكين من ماله لكفارة أيمانه إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال فلا شيء عليه ، لأن الله سبحانه قد عذر من لا يجد ، وإن كان يعرف الأيمان كم هي فليكفر عددها ، وإن كان لا يعرف عددها فليتوخ قدرا من ذلك يكون الغالب عنده أنه قد

استغرقها أو زاد ، ثم أرجو أن لا يضره زاد أو نقص إذا لم يتعمد ذلك ، وكذلك يوصي بمثل ذلك إذا لم يمكنه القضاء في حياته.

[التوبة من ترك الصلاة والصوم والزكاة والحج]

وإن كان ضيع صلاة أو صياما أو حجا أو زكاة بعدما وجب ذلك عليه ، بالتواني والاستخفاف متعمدا لذلك ، فعليه أن يتوب إلى الله جل ثناؤه من ذلك ، ويقضي ما فاته من الصلاة إن كان يعرف عددها ، ومن الصيام أيضا كذلك ، وإن كان لا يعرف كم هو فليتحر الصواب بجهده ، ويحتاط ويزيد حتى يستغرق ذلك ، ثم نرجوا أن لا يضره إن نقص أو زاد إذا لم يتعمد ذلك. ويقضي تلك الصلوات في أي أوقات صلاته ، من يومه الذي هو فيه أو في غير أوقات صلاته ، وإن كان [ترك] الصلاة متعمدا فلم يقضها نسيانا كان ذلك منه ، ثم ذكرها بعد حين فليقضها ، وإن كان لها ذاكراً فتركها متعمدا حتى مضت له أشهر وسنون فليقضها وليتب مما ضيع ، وإن كان ترك صياما من شهر رمضان أو رمضان كله حتى حضر رمضان آخر ، فعليه أن يصوم هذا الذي حضر ، ويعزم على صيام ما فاته ، فيصوم بعد ذلك ويتوب مما ضيع.

وإن كان ضيع زكاة حتى أدركه الموت فليتب مما ضيع ، ويخرج ما عليه منها فليؤده إلى المساكين إن كان له مال ، أو يوصي بذلك إن لم يمكنه الأداء ، لأنها دين عليه لأهلها الذين سماها الله لهم ، في أي صنف منهم وضعت أجزأت عنه.

وإن كان ترك الحج وهو يقدر عليه حتى أدركه الموت فليتب إلى الله جل ثناؤه من تفريطه في ذلك ، وليعزم على الحج إن قدر عليه ، وإن أوصى أن يُحج عنه بعد موته رجوت أن يجزيه ذلك ، ويخفف عنه مأثم تركه فريضة الحج.

وقد قال بعض من له علم: لا يحج أحد عن أحد ، كما لا يصلي أحد عن أحد ، وكما لا يصوم أحد عن أحد ، لأن هذه الفرائض حقوق لله عز وجل أمر عباده أن يتولوها بأنفسهم ، فإن لم يقدروا عليها و لم يستطيعوا السبيل إليها عذرهم ، وإن فرطوا فيها لم يقم لهم في الأداء لهم غيرهم مقامهم ، إلا أنا نرجوا أن يخفف الله ألم تفريطهم بأن يوصوا بالحجة من أموالهم ، ولذلك لا ينبغي لأحد من المؤمنين الرجال منهم والنساء أن يفرطوا فيما فرض الله عليهم من حجة الإسلام ، إذا لم تكن علة مانعة من زمانة أو سقم أو عدو يخاف التلف به ، يمنعه من المضي لفريضة ربه ، فإن فرط في فريضة الحجة مع سلامة بدنه وقوته على الحجة راكبا أو ماشيا ، كان عند الله غير معذور ، وكان آثما كافرا ، لقول الله في ذكر ما فرض من الحج: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٧]. فجعل سبحانه مَن ترك فرضه في حجة الإسلام كافرا ، و لم يجعل له في ترك ما فرض من الحجة عذرا ، فإن أوصى عند موته بالحج عنه من ماله رجونا أن يُخفّف الإثم في ترك الحج وإغفاله ، وكان للموصي أجر نفقته ، ولمن حج بمؤنة الموصي أجر بدنه ، فافهموا رحمنا الله ورحمكم.

باب ذكر التوبة

وعلى العباد فيما من هذه المعاصي كلها التوبة النصوح إلى الله سبحانه منها ، والتوبة النصوح هي: الندم على ما كان من الذنوب ، وتركها والاستغفار منها ، وترك الإصرار عليها ، والعزم على أن لا يعود المذنب أبدا إلى ما تاب منه من جميع ذنوبه ، فتلك التوبة النصوح المقبولة عند الله التواب الرحيم.

فرحم الله عبد اتقى الله في نفسه ، وتطهر بالتوبة إلى الله قبل الفوت ، ونزول الموت ، بيديه و لم تغره الحياة الدنيا و لم يغره بالله الغرور ، فليبادر مَن غفل بالتوبة قبل أن يسألها فلا يجاب إليها ، والله جل ثناؤه يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء:١٧-١٨].

فالتوبة قائمة مبذولة من حين يواقع العبد الذنب إلى قبل حضور أجله ، ولو بطرفة عين ، وحضور موته الذي لا يقبل له معه وعنده توبة معاينة ملك الموت والملائكة صلوات الله عليهم ، والسبب الذي يشاهده العبد إذا حضره الموت لم يعلمه ولا أحد من البشر غيره ، فحينئذ تعظم ندامته ، وتكثر وتدوم حسرته ، والله بهذا من وقت نزول الموت ، وانقطاع الأجل عن العبد أعلم ، وإنما يأتيه موته وأجله بغتة ، وحينئذ تعظم حسرته إذا فرط في التوبة ، ويندم حين لا تنفعه الندامة ولا الحسرة.

فعلى المؤمن أن يكون أبدا مستعدا ثابتا ، نسأل الله أن يبارك لنا ولكم في قليل أيام الحياة ، وأن يبارك لنا ولكم في انقطاع آجالنا بالموت والفناء ، إذا حل ونزل بنا ، وفي العرض يوم القيامة على ربنا ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران:٣٠].

قال محمد بن القاسم رضي الله عنه: وهذه أمور رضيها الله للمؤمنين ، ووصف بها في كتابه المتقين ، وجعلها تمام الإيمان ، ولم يرض الترك لها والتفريط فيها لأحد من أهل الإسلام ، ومنها ما أذكره وأشرحه لكم الآن ، وأتلو عليكم ما نزل الله في ذلك من آي القرآن ، فافهموها - رحمكم الله - ولا تهاونوا بها فتهلكوا عند الله - عصمكم الله - فقد ذكرت لكم في كتابي هذا وفيما مضى منه أصول الدين التي أوجب الله الاعتقاد لها ، والتدين بها على جميع المؤمنين ، وهذه التي الآن أذكرها فروع وصف الله بها وأمر عباده المتقين.

[موالاة المؤمنين]

فأولها: الموالاة بين المؤمنين ، والتوآد على طاعة الله رب العالمين ، حتى لا يوآد العبد ولا يؤاخي إلا من أطاع ربه وآمن به ، وفي ذلك ما أمر الله عباده في وحي كتابه ، فقال سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة:٢٢]. ومعنى ﴿ يُوَآدُّونَ ﴾ هي: يراضون ويحابون من حآد الله ورسوله ، والمحآد لله مَن عصى الله ولم يؤد ما أمر الله بفعله ، فذلك المحآد لله ولرسوله ، ثم قال في ترك موآدة المحآدين من ذوي الرحم الأقربين ، وغيرهم من العصاة الأبعدين: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة:٢٢]. يعني سبحانه: بكتب حكم لهم ، وأوجب أن في قلوبهم الإيمان إذا كانوا لا يوآدون ولا يحابون أقرب الأقرباء ، من الأبناء والإخوة والآباء والعشيرة ، الذين هم بعد من سمى أقرب إليهم من

الأجناس البعيدة ، فلم يوجب الإيمان لمن حآده وعصاه وعصى رسوله ، ولا لمن أحبهم وزادهم ، فعلم كل مَن فَهِمَ عن الله أنه لم يوجب الإيمان لمن يوآد أباه وابنه وأخاه وعشيرته على معصية الله ، وأنه يوجب الإيمان لمن أبغضهم وعاداهم ، فهذا فرض الله على من آمن أن لا يوآد من قريب قرائبه ممن سمى على ارتكاب معصيته ومحادته ، ولغرض عصية.

وكذلك فعل إبراهيم نبي الله وخليله صلى الله عليه في تبرئه من أبيه ، حين بان له عداوته لله ربه وبارئه ، قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]. وهذه صفة من صفات المؤمنين ، وعدهم الله بها مغفرته ودخول جنات النعيم ، قال الله سبحانه: ﴿ سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]. ثم أخبر تبارك وتعالى بعملهم الذي كانوا به للجنة مستحقين ، فقال في صفتهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ - والسراء: اليسرى ، والضراء: العسرى - وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ - وكظم الغيظ مما يحب الله عند جهل الجاهلين ، ثم قال: - وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] (١) ، ويحب العفو عن الناس ، ومن عفى فهو عند الله من المحسنين.

ثم قال سبحانه مرغبا في الاستغفار والتوبة للتائبين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥]. فافهموا - رحمكم الله - قوله

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... والعافين عن الناس والله عفو غفور ﴾ ، ولا يوجد بهذا اللفظ.

سبحانه فيمن فعل فاحشة أو فعلها فقد ظلم نفسه ، بما تعرّض من عقاب الله وعذابها عليه.

وأظلم الظالمين مَن ظلم نفسه بفعل الفواحش ، وتعرَّض لعقاب الله جل ثناؤه ، فأخبرهم سبحانه بالمخرج من ذلك ، وأنه استغفار مَن أتى فاحشة بلسانه ، مع التوبة إلى الله الكريم من عصيانه ، وذِكْرهم لله وهو ذكرهم بالاستغفار له فيما أتوا من فواحش العصيان ، عندما يذكرون رحمة الله ورأفته بالمذنب الظالم لنفسه ، بركوب الزائل من باطل شهوته.

ثم أخبر سبحانه أنه لا يغفر كبائر الذنوب [التي] تكثر عن أن يحصيها غيره إلا هو لا إله إلا هو ، ثم قال سبحانه ينهاهم عن الإقامة على الذنوب والإصرار ، ويرغبهم في التوبة والاستغفار ، قبل هجوم الموت ومصير المصرِّ المقيم على ذنوبه إلى عذاب النار.

[كظم الغيظ]

وأمر في غير موضع رسوله والمؤمنين بأن يكون عليه السلام ويكونوا بالحسنة للسيئة دافعين ، فقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وقال سبحانه مرغبا في قول الحسنى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣] ، وقال في دفع السيئة بالحسنة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾. [فصلت:٣٤]. والولي هو: القريب الرحم المحب الشفيق ، ثم قال سبحانه: إن هذا الخلق الذي رضيه لعباده المؤمنين من دفع السيئة بالتي هي أحسن: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

[فصلت:٣٥]. يخبر سبحانه أنه لا يلقاها فيفعلها يعني سبحانه: هذه الخصلة من الحلم إلا كل ذي حظ عظيم في طلب رضوان الله بالصبر والكظم.

ولقد بلغني في الخبر المنقول الصحيح المعروف أن رجلا في أيام معاوية قال: « دخلت المدينة فرأيت رجلا جهرني – يريد أعجبني جماله وكماله – قال الشامي – وكان مبغضا لآل محمد أموي الهوى والرأي – قال: فقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا الحسن بن علي. قال الشامي: فحسدت عليا أن يكون له ابن مثله. فقلت له: أنت ابن أبي طالب؟ فقال: إني ابنه. قال: فقلت له: فبك وبأبيك ، وبك وبأبيك يلعن ويشتم علي بن أبي طالب. قال الشامي: فاوم الحسن ، يعني: سكت فلا يجيبني بشيء. ثم قال: أحسبك عربيا؟! قال: قلت: نعم. فقال لي الحسن: وإن سألتنا أعطيناك ، وإن استرفدتنا رفدناك ، وإن استعنتنا أعناك. قال الشامي: فما رمت من موضعي حتى ما كان أحد أحب إلي منه ».

وكان كظم الحسن رحمة الله عليه لغيظه عن الشامي اتباعا منه لقول الله سبحانه:﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤]. فتفضلُ الحسن صلوات الله عليه ودفعه بالتي هي أحسن عن الشامي الذي بينه وبينه العداوة عن عداوته إلى المودة له وإلى محبته ، فلم يرم الشامي من موضعه حتى ما كان أحد أحب إليه منه في الإنفاق.

[الإنفاق]

ومن عظيم ما يرضي الله عن المؤمنين ، أن يكونوا لما رزقهم من رزقه لإخوانهم مواسين ، وأن لا يكونوا بأموالهم أشحاء باخلين ، وقد ذكر الله في مواضع كثيرة وآيات عدة ، أن من صفات عباده المتقين أن يكونوا ما رزقهم منفقين ، فقال في سورة البقرة وهو يخبر عما في الإنفاق من المؤمنين ، مما

رزقناهم ما يكونون به عنده مرضيين ، وقرن الإنفاق من رزقه مع الإيمان به ، فقال سبحانه في صفات عباده المـــؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة:٣-٥].

وقال سبحانه في هذه السورة مكررا لما له من الرضى في بذل المال ، وما للمؤمنين إليه به من القربة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ - ثم قال سبحانه فيمن وصف فيه هذه الصفات من المـــؤمنين - أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝ ﴾ [البقرة:١٧٧]. فقرن الله سبحانه إيتاء المؤمنين المال وهو بذلهم له على حبه مع الإيمان به والإيمان باليوم الآخر وهـــو يوم القيامة ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، ثم قرن ذكر إيتاء المال بهذه الفرائض فقال:﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾. ثم ذكر ما ذكر بعد من صفات المـــؤمنين ، حتى بلغت الصفات هذه الآية المفروضة.

وقال في هذه السورة بعينها وهو يُرغّب في الإنفاق عباده المـــؤمنين: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [البقرة:١٩٥].

فأخبر أن البخل بالإنفاق إلقاء بأيديهم إلى التهلكة ، والتهلكة هي الهلكة ، فافهموا رحمكم الله.

وقال سبحانه مكررا لما في الإنفاق من مرضاته: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ.قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ.وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة:٢١٥].

وقال في هذه السورة نفسها مكررا ومرددا لما في الإنفاق مما رزق المؤمنين لمن آمن به إليه من القربة إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ.وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٤]. خبرا منه سبحانه عن أن مَن بخل أو أمسك عن الإنفاق مما رزقه الله فقد ظلم نفسه وكفر ، ومن فعل هذا فليس من أهل التقوى ولا البر.

وقال في هذه السورة مرددا ومكررا لما له في الإنفاق من الرضى والمحبة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى.لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٢].

وقال في هذه السورة مرددا لما في إنفاق المؤمن بالليل والنهار من الرضى والقربة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ - والتثبيت والله أعلم الإنفاق بالنية في القربة إلى الله - كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ - والوابل فهو المطر الغزير الشديد -

فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ.- والطل الندى بالليل ، فهو يقوم في زكاء الثمار ، مقام الوابل من الأمطار - وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥] ، ثم قال سبحانه مرغبا: ﴿ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقال في سورة آل عمران وهو يخبر عباده بما في الإنفاق من أموالهم من تمام الإيمان: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران:١٧]. فهذه صفة الله للمؤمنين الأتقياء الأبرار ، وصفهم سبحانه بالصبر والقنوت ، والقنوت فهو الدعاء لله من المؤمنين ، وهو قانت: خاشع وأتم ، ثم وصفهم بالسخاء والإنفاق لأموالهم ، وترك البخل لما في البخل من سخط ربهم ، ووصفهم بالاستغفار مع التوبة وهو تمام الاستغفار من ذنوبهم ، وقال سبحانه: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ.وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال سبحانه فيمن بخل بالإنفاق الذي هو تمام الإيمان: ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ [محمد:٣٨].

وقال سبحانه في الثناء على الأنصار ، وذكرهم بما فعلوا مما رضيه من عباده المؤمنين الأبرار ، ومواساتهم لإخوانهم من المهاجرين ، حين علموا أنهم إلى مواساتهم محتاجون: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ - يعني بالدار: المدينة - مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [الحشر:٩-١٠].

ولقد ذكر في الخبر ، وصح فيما جاء من الأثر أن الأنصار كانوا بلغوا من مواساة إخوانهم المهاجرين في أموالهم ، وما لهم من المساكن والديار ، أن كانوا يسكنونهم أفضل مساكنهم ، فكان يكون للرجل من الأنصار في داره المترلان والمسكنان ، فيُترل المهاجر في خير المترلين من داره ، وكانوا إذا جاءت ثمر ضياعهم وحوائطهم قسم الرجل من الأنصار حائطه الذي فيه ثمر نخله قسمين ، وأطعم أخاه في الدين من المهاجرين خير النصفين ، وأجودهما وأطيبهما تمرا ، فأثنى الله بذلك في كتابه عليهم ، وذكر فعلهم في هذا ورضاه ومحبته لذلك منهم ، فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾. يخبر سبحانه أنه قد كان يفعل ما يحب الله من أثرهم لإخوانهم في الدين من المهاجرين من به خصاصة ، والخصاصة: الفقر والحاجة من الأنصار الكرام المتكرمين.

فكونوا - أرشدكم الله - بهذا الخلق مستوصين ، وبهذا أمر الله المؤمنين في كتابه الناطق المبين ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ ﴾ [البقرة:٢٦٧]. يقول تعالى: ﴿ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ يعني: من خير أموالكم وأزكاها وأحلّها ، ولا تنفقوا مما تبغضون من حرامها وخبيثها ، ولو

أُعطيتم ذلك لم تأخذوه من غيركم إلا أن تغمضوا فيه ، إلا أن تتكارهوا عليه ، فافهموا ثم افهموا رحمكم الله.

ثم أخبر سبحانه أن الذي يمنعهم إن امتنعوا من مواساة إخوانهم ، وترك القليل الذي لا يجدون فقده ولا مسه من أموالهم ، أن الشيطان يخوفهم ويعدهم الفقر ، ويأمرهم بالفحشاء والسوء من البخل ، والله هو سبحانه يعدهم إذا أنفقوا مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم [1].

والبخل فلا يرضه الله للمؤمنين ، ولا رضيه لهم رسول رب العالمين.

لقد بلغني وصح عندي ورواه أبي رضي الله عنه: « أن أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى المتقين من آله قالوا: يا رسول الله هل يكون المؤمن جبانا؟ فقال صلى الله عليه: ربما كان. قالوا: يا رسول الله هل يكون المؤمن بخيلا؟ فقال عليه السلام: لا ، لا يكون المؤمن بخيلا » [2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقوم من الأنصار يقال لهم بنو سلمة: « يا بني سلمة مَن سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله سيدنا الجد بن قيس

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

(٢) عن صفوان بن سليم قال: ((قيل: يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم. قيل: أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم. قيل: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا)). أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج١/ص٥٤/ح١٤٧ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٩٠/ح١٧٩٥.

على بخل فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه: وأي داء أدواء من البخل ، وأي داء أدوى من البخل ، يردد هذا القول ثلاث مرات » [١].

وروي لنا عن بعض آل محمد صلى الله عليه عن أسلافه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه: « يا علي كن شجاعا فإن الله يحب الشجاع ، يا علي كن سخيا فإن الله يحب السخي ، يا علي كن غيورا فإن الله يحب الغيور » [٢].

والغيور - هداكم الله - الذي يغار على حرمته ومرته ، ويحجبها ويسد عليها لغيرته عليها ، خوفا من زلتها وعثرتها إذا خرجت من بيته ، فقد تلوت عليكم ما يكون من آي القرآن ، وأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق ، وأن لا يكونوا بما رزقهم الله أشحاء باخلين ، وبأن يكونوا لإخوانهم مواسين ، ولحاجتهم وفقرهم وبرهم وصلاتهم متعاهدين ، فكونوا بما أوصاكم الله به من هذا مستوصين ، فإني بما أوصيتكم به وذكرتكم من أمر الله لكم من الناصحين ،

---

(١) عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سيدكم يا بني سلمة؟ قلنا: جد بن قيس على أنا نبخله. قال: وأي داء أدوى من البخل بل سيدكم عمرو بن الجموح ، وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية وكان يولم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص١١١/ح٢٩٦ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٢٤٢/ح٤٩٦٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٣٥/ح١٢٠٣ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٩٩/ح٣١٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٧٤/ح٣٦٥٠.

(٢) ((يا علي كن سخيا ، فإن الله تعالى يحب السخي ، وكن شجاعا فإن الله يحب الشجاع ، وكن غيورا فإن الله يحب الغيور ، وإن امرؤ سألك حاجة فاقضها ، فإن لم يكن لها أهلا كنت أنت لها أهلا)). رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٤٣٤٨٤.

فإن الله يخلف لكم ما أنفقتم وهو خير الرزاقين ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩].

فهذا باب كبير من تمام الإيمان ، إن حافظتم عليه رشدتم ، وإن بخلتم على أنفسكم بالتقرب إلى الله به غويتم وهلكتم.

[الحسد]

وأوصيكم بطرح الحسد من بعضكم لبعض ، فكونوا [له] مطرحين ولا تستعملوه بينكم ، فيكون الله به عليكم من الساخطين ، وكيف يكون المؤمن لأخيه حاسدا ، فيكون عند المحاسدة له مبغضا وعليه حاقدا؟! وقد أمره الله لأخيه المؤمن بالمحبة والمودة.

والحسد فقد أمر الله نبيه والمؤمنين بالتعوذ منه ، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق:١-٥].

والحسد - أرشدكم [الله] - أول ما عصي الله به في أرضه ، لأن إبليس اللعين كان الحسد هو الذي حمله حين حسد آدم على عصيان [الله] ، ثم أمر الله الملائكة وأمره بالسجود لآدم ، والذي أمر الله به إنما هو السجود من أجل آدم ، عندما نزل فيه من عجيب صنع الله الحكيم ، إذ خلقه من أحقر الأشياء الطين المسنون والحمأ ، فعاد بشرا حيا ناطقا ، بعد أن كان لا ينطق ، سميعا بصيرا بعد أن كان لا يسمع ولا يبصر ، متحركا قائما قاعدا بعد أن كان جمادا خامدا ، عاقلا بعد أن كان محتقرا خاملا ، قد شارك ملائكته في العقل ، وإن كان لهم عليه في جميع الأمور الفضل.

قد سوَّى الله خلقه ، وحسَّن صورته ، على ما في أرضه سواه ، فهو لحقارة ما خُلق منه يعجب له ملائكة الله وكل من رآه ، فأمر الله الملائكة بالسجود له عند كمال عقله ، وإنما سجودهم له سجود منهم لله ربه ، فتكبر إبليس اللعين وعتا حسدا منه لآدم ، وبغيا له لم يسجد ، وعصى الله سبحانه ، فشقي و لم يرشد ، وقال: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:٦١] ، ثم قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦]. وصار بالمعصية لله لحسد آدم من الهالكين ، المعذبين عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، حين خالف أمر الله وكان من العاصين.

فكل من كان حسودا فهو سالك سبيل إبليس في الحسد ، وهو عند الله هالك إذا حسد المؤمنين.

وانتهوا - أرشدكم الله - عن الحسد ثم انتهوا ، وتنبهوا مطَّرحه بينكم ثم تنبهوا ، فإن النفاسة [والحسد] لا يصلحان ولا يجوزان إلا في التنافس للرغبة في الطاعة ، والأعمال الصالحة ، فالتنافس على ثواب الله للمتقين في نعيم الجنة ، قال الله تبارك وتعالى وهو يذكر نعيم الأبرار في الجنة ، وما يكرم به من ثوابه الأبرار: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦]. يعني سبحانه: في الأعمال الصالحة التي توصل إلى مثل هذا النعيم ، ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ ، والتنافس هاهنا التسابق والتحاسد على الأعمال الصالحة التي ينال بها مثل هذا الثواب الأبرار المتقون ، لأن هذا تحاسد وتنافس على طاعة الله ، ليس فيه تباغض بين المؤمنين ولا تحاقد ، ولا تغادرٌ بحسد كحسد أهل الدنيا ،

بالتباغض بينهم والأذى ، وإنما هو تنافس في الازدياد في طاعة الله ، لينالوا من ثوابه ما نال الأبرار أهل التقوى.

[الغلو]

وأوصيكم - يرحمكم الله - بأن تجتنبوا الغلو في الدين ، فذلك أمر الله في كتابه المبين ، فقد نهى الله عن الغلو في الدين ، مَن مضى من الأولين ، ونهى عنه جميع المؤمنين.

وقد ألقى إليكم في دينكم ما وسَّع الله وسهَّل عليكم ، وأعلمكم أن ذلك أشباها بها يسهل فيه الرخص ، فذهب كثير منكم إلى ما لا يجوز من الترك والتواني والإهمال ، ولم يقل لكم إن الفضل فيه الأخذ بالرخص في الأعمال ، بل نهاكم - رحمه الله - عن التهاون بالأمر من دينكم بإيثار الفضل في تعجيله ، وترك التفريط والاستخفاف بترك المسابقة إلى تقديمه وتبدينه قبل كل شغل على غيره ، وذلك في الدين أشبه بالعبادة والورع ، وأبعد من لزوم الرخص والشنع.

[الصلاة]

وفي ذلك ما ألقى إليكم عند العلة العارضة من الشغل والخوف الشديد ، فيؤخر الصلاة عن أول الوقت إلى آخره بهذا السبب ، فبلغني أن كثيرا ممن ينتحل مذهبكم قد صار إلى الإفراط بالتوسعة على نفسه لتأخيرها حتى يخرج أو يكاد جميع وقتها.

وأُخبرت أن بعض مَن عندكم ربما أخر صلاة الظهر والعصر عن غير علة ولا مرض ، ولا سبب عرض ، حتى يغشاه الليل ، وهذا مما لا يحل ولا يجوز أن يؤخر المأمور بالصلاة المفروضة عليه إلى آخر ساعات النهار ، متشاغلا

بالحديث والضحك والإقبال والإدبار ، حتى إذا اصفرت الشمس ودنت للغروب ، قام يصلي ، وهذا - رحمكم الله وأرشدكم - استخفاف بالدين ، لا يجوز إلا عند الرخصة للمضطرين ، وفي هذا غاية الشنعة في التهاون بما لا يجوز التهاون به من مفروض الصلاة على المصلين ، وإنه ليفهم مَن عقل أن من إجلال الأمر بالأمر راضونه ، والعمل به تعجيل ما يأمر به في أول أوقاته ، وإن ذلك لمن إجلال الأمر وإطاعته ، فمن تلهى عن ذلك وأخره عن غير علة ولا عذر ، فلم يجل و لم يوقر الأمر ، فلا تؤخروا - رحمكم الله - الصلوات إلا عن شغل عارض ، أو علة مانعة أو غالب مرض.

ومن أخر صلاة المغرب والعشاء الآخرة وتلهى عنهما ، فحكم اليوم على نفسه ، وترك أداء فريضة الله ربه في صلاته ، فقد عطل صلاته ، وخرج من الدين ، لأنه لا يدري لعله لا يستيقظ من نومه حتى يطلع الفجر ، فيكون قد عطل صلاة المغرب والعشاء ، وهما من مؤكد فرض الله ربه ، فيكون حينئذ قد كفر وعطل صلاته ، حتى خرج الوقت آخره وأوله ، فكان كالمرتد عن دينه ، وخرج من الإسلام بأيقن يقينه ، عند نفسه وعند غيره.

وإياكم - أرشدكم الله - ثم إياكم وتأخير الصلاة عن غير علة من العلل المانعات ، إلى آخر ما لها من الأوقات ، فاحذروا هذا ، فإنه باب من المعاصي والضلالات ، عصمنا الله وإياكم من الضلالة بعد الهدى ، وصرف عنا وعنكم التمادي في الغلو والغلط والإسراف والردى.

وأخرى بلغنا عن كثير منكم أنكم تفعلون فيها أو بعضها ما لا يجوز ولا يحل لكم ، وهو شرب ما يسكر من الطلاء المطبوخ ، وكلما أسكر كثيره فقليله حرام ، لأنه خمر ، وقد حرم الله الخمر قليلها وكثيرها ، حتى القطرة منها ،

لقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « ما أسكر كثيره فقليله حرام »[١].
ولا اختلاف في هذا بين أحد من أهل الإسلام ، وإنما الحلال من الطلاء العصير المطبوخ ما طبخ منه حتى يبلغ به الطبخ الغاية التي لا يسكر معها كثيره.

والكروم في ذلك فيما بلغني يختلف ، وأما ما كان منها من عصير العنب إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى الثلث ، فإن الثلث الباقي يسكر فحرام شرب القطرة الواحدة منه فافهموا.

واعلموا - رحمكم الله وهداكم - أن كل ما كان يسكر كثيره فالقطرة حرام منه ، وقليله خمر حرام ، وقد أخبرني غير واحد من أهل بلدكم أن الكروم يختلف ، فمن الكروم ما يكون قوي العنب يطبخ عصيره حتى يذهب ثلثاه ثم يسكر الثلث الباقي منه ، وهذا حرام خمر ، فمن شرب القطرة منه فكافر إذا كان كثيره يسكر ، فلا يحل أن يشرب من هذا قطرة.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٨/ص٣٠١/ح٥٦٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٢٠٤/ح٥٣٨٣ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٣/ح١٨٦٥ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١١٢٥/ح٣٣٩٢ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٨/ح٣٦٨١ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩١/ح٥٦٤٨ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٤٦٧/ح٥٧٤٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٢٠٥/ح٤١٤٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٦/ح٥١١٧ ، والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٥٥/ح٤٨ ، وابن راهويه في مسنده ج٢/ص٣٩٩/ح٩٤٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٦/ح١٧١٦٧ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٩/ح٨٦٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٧٢/ح١٦١٦.

فالله الله في أنفسكم لا تهلكوا في دينكم ، وعند ربكم في آخرتكم ، لا تشربوا من العصير والمطبوخ إلا ما لا يسكر ، ولو شرب منه الشارب عشر قِربٍ ، أو مائة رطل لم يسكر ، فأما ما أسكر كثيره فالقطرة منه حرام.

وأنا أكتب إليكم في كل سنة منذ سنين كثيرة وأعوام ، أنهاكم عن شرب هذا العصير الذي يسكر منه الكثير ، وأُعلمكم أنه لا يحل منه شرب قطرة واحدة ، فإنه من شرب منه قطرة فقد شرب خمرا ، وكان لشربه في دين الله كافرا ، فهو حرام كلحم الخنزير فاعلموا ذلك ، وكل من كان منكم يشربه فليتب إلى الله من شربه وليتركه ، واقصروا عن التشنيع والغلو في الدين ، لتكونوا عند الله من التائبين الراشدين ، وأما ما كان غير قوي العنب من الكروم والعصير ، الذي إذا طبخ بالنار حتى يذهب ثلثه ويبقى الثلث الباقي منه لا يسكر منه الكثير ، فحلال شربه ، إلا إن يتغير فيعود مسكرا ، فلا يجوز حينئذ ولا يحل شربه.

في الذبائح

وأما الذبائح - يرحمكم الله - فأشرح لكم أمرها ، حتى تفهموا ما كان يراه أبي رضي الله عنه فيها ، ويختاره رحمة الله عليه لنفسه ، ويراه الأفضل في الاحتياط لدينه ، والذي كان يختاره رحمة الله عليه في الذبائح فتركُ الأكل لذبائح المشبهين ، فكان لا يأكل إلا ذبيحة الذين هم بالتوحيد معروفون ، وكان مع ذلك يقول فيمن لا يعرف ممن ينتحل الإسلام بالتشبيه لله سبحانه بخلقه المصورين ، وكان أمره مستورا خفيا عن الموحدين ، فلم يعرفوه بتوحيد ولم يعرفوه بتشبيه ، ففي أكل ذبيحة المجهول رخصة ، وليست ذبيحة المجهول كذبيحة المعالن بالتشبيه المعاند المعروف ، وكان يرى ويختار لنفسه ما يعلم أنه أفضل في دينه ، فلا يأكل إلا من ذبائح الموحدين المعروفين بالتوحيد ، وكان

يقول لعياله وولده: أنا أختار لنفسي ألا آكل إلا ذبيحة المعروف بالتوحيد ، وأنا لا أُحرم عليكم أكل ذبيحة المجهول الذي[1] لا تدرون أموحداً أو مشبها ، فمن عرفتموه بالتشبيه وكان عندكم مجهولا ، فلا أقول لكم: إن أكلتم ذبيحته أكلتم حراماً.

[الأذان وصلاة الجماعة]

وأما الأذان فكان رحمة الله عليه يراه واجبا فرضا في مساجد من يصلي مع الموحدين في مساجدهم وجماعتهم ، وكان يرى الجماعة للموحدين الموافقين في الدين ، والصلاة معهم أفضل من صلاة المنفردين.

وكان يرى أذان المصلي المنفرد حسنا نافلة له ، يكون بها بالأذان من المنفرد فضلا أفضل من صلاة المنفرد بغير أذان ، لأن الأذان سنة من سنن الإسلام ، استعماله فضيلة للخاصة والعوام ، وبجماعة الموحدين ، وللذين يصلون من أهل التوحيد منفردين ، لأنه شهادة صادقة لله بوحدانيته ، وأن لا إله غيره ، وشهادة بالحق لنبي الله برسالته ، ودعاء إلى ذكر الله وطاعته ، وإلى الصلاة لله واتباع مرضاته.

[بناء المساجد]

وبناء المساجد مساجد أهل التوحيد التي يؤمهم فيها من إخوانهم الموافقون في الدين ، ففي بناء هذه المساجد من الموحدين لأنفسهم أجر كبير وثواب عظيم ، لمن صلى فيها مع المؤمن التقي الموحد لله الذي لا يشبهه سبحانه بالمخلوقين المصوَّرين من خلقه ، وصلى في جماعة من إخوانه مع من يؤمه ممن يقول

---

(١) في المخطوط: الذين.

بالتوحيد لله من إخوانه ، وأهل موافقته في دينه ومقالته ، فصلاته أفضل أضعافا من صلاة المنفرد وحده.

وأما إذا كان إمام المسجد موحدا لم يضره إذا كان المتقدم الذي يؤم أن يصلي خلفه من كان مشبها ، كما لا يضره أن يجلس المشبه معه قاعدا أو يلقاه في طريق ماشيا ، إذا كان من تشبيهه وتوليه متبريا ، فافهموا أرشدكم الله ووفقكم.

وكان - رحمة الله عليه - يأمر بالبناء للمساجد ، والصلاة فيها إذا كان من يؤم فيها موافقا في الدين ، ولم يكن من الضالين المشبهين ، وكان يرى أن إمام مسجد الموحدين لا يضره ولا من يصلي معه من أهل التوحيد أن يصلي معهم من خلفهم من المشبهين ، ولا يجوز أن يؤم المشبهةُ الموحدين ، فتفهموا ، فأنا الآن راجع إلى ما أنا ذاكره مما أراده مما أراه على المؤمن في دينه واجبا ، فقد ذكرت الذنوب التي ينبغي أن يكون المؤمن إلى الله منها تائبا.

[أحكام النساء]

ويجب على المؤمنين في نسائهم أُمور قد أمر الله بها أمرا.

منها ما أمر الله به نبيه صلى الله عليه أن يأمر بها أزواجه وبناته ونساء المؤمنين ، من إدنا جلابيبهن عليهن للاستتار ، وإخفاء زينتهن عمن في قلبه مرض من السفهاء والأشرار ، قال الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩]. والجلابيب: المقانع التي يسترن بها وجوههن وشعورهن ، يقول الله: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب:٥٩] ، يعني تبارك وتعالى: ذلك أدنى أحرى وأشبه بأن يعرفهن السفهاء والأشرار ، ويعلمون بما يصرن إليه من الخفاوة

والاستتار ، فيعلمون لما يرون في ذلك من حالهن أنهن لا يردن التبرج ولا الزينة ، ولا إطماع أهل السفه والفجور في أنفسهن ، فلا يؤذيهن الفجار بكلام في فحش ، ولا يتعرض لهن بقول رديء محرم موحش.

في حجبة النساء

وينبغي للمؤمن أن يحجب امرأته ونساءه عن الإقبال والإدبار والخروج والتردد في الأسواق ، ومن دخول بيوت السفهاء الفساق ، فإن كان بهن فاقة وحاجة إلى الخروج لم يخرجن إلا بإذن الولي ، والخروج مستترات بثيابهن ، مستخفيات بما عليهن من جلابيبهن ، ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] ، فإنهن إن ضربن بأرجلهن وعليهن الأجراس في أرجلهن صوَّتت الأجراس ، فكان ذلك منهن زينة وتعرضا يُطمع فيهن الفجار السفهاء من الناس ، وينبغي للمؤمنات أن يكن لبيوتهن وحجابهن لازمات ، ولا يُدخلن عليهن أهل الريب ، ولا يطرحن ما يسترن به رؤوسهن وشعورهن ، ولا يبدين وجوههن ولا زينتهن ، إلا لمن قال الله تبارك وتعالى وهو يأمر المؤمنات بالاستتار والاحتجاب ، إلا عمن سمى من قرابتهن ومحارمهن ، ممن ذكر الله في منزل الكتاب ، قال الله سبحانه: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ - يريد بالجناح: لا إثم عليهن - فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٥]. فهؤلاء الذي ذكر الله سبحانه المحرَّمون عليهن ، وأذن لهن بإدخال هؤلاء المسمَّين إليهن ، ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ، فهؤلاء الذين أذن الله لهم فيهم أن يدخلوا عليهن.

وقال: ﴿ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ [النور:٣١] هم الذي: لا يشتهون ولا يريدون النساء ، قال الله تبارك وتعالى وهو يدل المؤمنات على ما هو أفضل لهن في دينهن ، في أدنى استتارهن على رؤوسهن وأشعارهن ، ﴿ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ ﴾ [النور:٦٠] ، يعني بالاستعفاف: الاستتار ﴿ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ ﴾ [النور:٦٠] يعني: أفضل في دينهن ، وأقرب من رضاء ربهن.

وينبغي لأزواج المؤمنات من الرجال أن يفتوهن ويحجبوهن عن الإقبال والإدبار ، وأن يكون المؤمن يأنف ويتنغص ويغار على زوجته وحُرَمه من بناته وأخواته وقرائبه ، فإن الله يحب الغيرة من عبده المؤمن ، والغيرة مما يجب على التقي المسلم ، وينبغي للمؤمن ألا يهون عليه ولا يجوز لنفسه تبرج ابنته ولا زوجته ولا أخته ولا حرمته ، فتتشبه بالكفار والمشركين والمنافقين الملاعين ، الذين لا يغارون على حُرَمهم ، ولا يبالون في ترك حجاب الحُرَم ، وما سخط الله في قلة الغيرة من حرمهم ، وإن هذا الباب كبير من أبواب الدين ، إن غفلوا عنه كانوا عند الله من الآثمين ، غير متأدبين بآداب الله التي أدب بها المؤمنين.

وينبغي للمؤمن أن يحذر خلوة المملوك من الرجال والأُجَرَاء الذين يستأجرهم لما يستعين به عليه من الأشغال ، وليحذر خلوة أحد من هؤلاء بحرمته ، فليس يأمن فساد الأجير والمملوك بحرمته ، لما بُني عليه الذكر من منازعته إلى الأنثى ، وما لا يُؤمن منه من إقدامه وعربه ، فقد صح عندي أن رسول الله صلى الله

عليه وعلى آله « نهى أن يخلو الرجل مع امرأة وقال: لا يخلو رجل مع امرأة فإن ثالثهما شيطان »[١].

[مواساة الفقراء]

ويجب على المؤمن بل ذلك من تمام إيمانه أن لا يغفل عن مواساة أهل الفقر والعسر من إخوانه الموافقين في دينه ، وعن من يوافقه في الدين من جيرانه ، وأن يرفدهم بتعاهده وفضول ماله وغلته ، وأن يدفع إليهم بزكاة ماشيته ، وعشر ما يخرج الله له من زرعه وثمار أرضه ، فإن ذلك مما ألزمه الله وفرضه عليه من فرضه ، مَن تركه أو غفل عنه ترك فرضا واجبا ، وكان الله بتركه له ساخطاً ، فقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وكان أبي رضي الله عنه يرويه: أن رسول الله صلى الله عليه قال: « ما آمن بالله. يردد هذا القول ثلاث مرات. فقال له بعض من حَضَرَ قولَه هذا من أصحابه مَن يا رسول

---

(١) عن جابر بن سمرة قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال: ((أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب ، حتى يحلف الرجل و لم يستحلف ، ويشهد و لم يستشهد ، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان ، ومن سرته حسنته وساءته سيأته فهو مؤمن)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٤٠٠/ح٥٥٨٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٦/ح١٧٧ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٧/ح٣١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٨٧/ح٩٢١٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٥٠/ح٤٠٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١٣٣/ح١٤٣ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٨/ح٢٣،والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٠/ح١١٣٤.

الله؟! قال: من بات شبعانا وجاره طاويا - يعني جائعا - إلى جنبه وهو يشعر »[1].

باب الزكاة

واعلموا - هداكم الله وأرشدكم ، وصرف عنا وعنكم شرور أنفسنا ، وسددنا وسددكم - أن من فرض الله الواجب عليكم الذي إن عصيتم الله في إخراجه كنتم عند الله عصاة مسخوطين ، وكنتم عنده سبحانه غير مؤمنين ، وهو إخراج زكاة ما ملّككم الله من أموالكم ومن مواشيكم ، وإخراج عشورها التي أخرج لكم من ثمار أرضكم ، الله الله في إخراج ما فرض الله عليكم من عشور غلاتكم وزكاتكم ، ولا تدفعوا ذلك إلا إلى يد الفقير والمسكين من إخوانكم ، ولا تدفعوه إلى أحد يخدعكم عنه ويأكله هو وولده وعياله ، كما يفعل الرجل الخداع الذي قد تعرفونه ، ولا يدفع رجل زكاته وعُشره إلى أحد يخدعه عنه ، ولكن من يد صاحب العشر والزكاة والصدقة إلى يد محتاج فقير ، أو من يد من هو موثوق به في دينه ، فإن أنتم لم تفعلوا - رحمكم الله - في ترك إخراج عشوركم وزكاتكم ، كنتم عند الله خونة كافرين ، و لم تكونوا عنده سبحانه من المؤمنين.

---

(١) عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله أو كما قال: ((ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره جائع)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص٥٢/ح١١٢ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص١٠٧/ح٣٤٧ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٥/ح٢١٦٦ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ص٢٨/ح٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٥٩/ح٧٥١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٣/ح١٩٤٥٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٥/ص٩٣/ح٢٦٩٩ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣١/ح٦٩٤.

واعلموا وافهموا أن العشر والزكوات لا تحل لأحد من أهل بيت محمد ولا ولد فاطمة ولا آل علي عليهم السلام ، وأنها عليهم محرمة لا يجهله ذلك أحد [1] ، من أهل الإسلام كلهم ، ولا يجهله الشيعة ، فمن برّ أحدا من آل محمد عليه السلام بدينار أو درهم أو ثوب أو أقل أو أكثر ، أو بَرَّهم من كفارة يمين ، أو من زكاة ، أو من عشر ، أو صدقة ، أو صرف إلى برهم شيئا ، أو وصية في حجة أوصى بها مريض من حجة مات ببلد ، وقد كان وجب عليه الحج من بلده ، فتغافل عن فريضة الله وعطلها حتى هجم عليه موته وأجله ، وقد فرط في حج بيت ربه ، وأوصى بحجة تُحج عنه بالنفقة التي أوصى بها ، فالواجب عليه ، وعلى من صارت وصيته إليه ، أن يحج بتلك الحجة عنه من البلد الذي مات فيه ، وقد قصَّر من الحج فيما أوجب الله عليه ، ولا يجوز لأحد أن يجوّز للوصي وقد مات الميت الذي قصر في حجة الإسلام بطبرستان ، فيقول للوصي الجاهل القليل الورع العمي: اصرف بعض هذه الحجة الموصى بها أن يحج الحاج عن الميت من طبرستان ، ويأمر الوصي بجهله وقلة ورعه في دينه أن يدفع بعض هذه النفقة ليُبر به أحدا من آل محمد عليهم السلام ، ويأخذ بعض النفقة فيحج بها من الكوفة أو المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وعلى أهل بيته ، ولا يحل [له] أن يجعل شيئا من هذه الحجة التي أوصى بها الميت أن يحج بها عنه من بلده الذي مات فيه ، فجعل الحجة من الكوفة أو المدينة ، وهذا حرام ممن أشار به على الوصي ولا يحل ما نقص من هذه النفقة في الحج عن الميت من بلده الذي مات فيه ، فيُجعل برا لآل محمد عليهم السلام ، لأن هذا عليه حرام غير حلال ، مِن خلط هذا النقصان

---

(١) في المخطوط: لا يجهل أحد ذلك. وما أثبت اجتهاد.

الذي نقص من نفقة الميت التي أوصى بها في الحج عنه من بلده ، والموضع الذي قبض فيه ، عن أداء فرض الله عليه حتى هجم عليه موته.

فمن نقص هذه النفقة وصيَّر منها شيئا في بر آل محمد وولد فاطمة عليهم السلام ، فقد فعل ما حرم الله عليه ذو الجلال والإكرام ، وإهداء من هذه النفقة التي خان الله فيها من ظنه ووسع هذا من لا ورع له ولا دين ، ولا معرفة بالله ولا يقين ، وحرام على جميع آل محمد عليهم السلام الغني منهم والفقير أن يقبل من هذا درهما واحدا كبر أو صغر ، ولا حبة من فضة ولا بقيراط ، ومن فعل هذا من أحد من آل محمد فعل ما لا يحل له ، لأن هذا محرم عليهم كتحريم لحم الخنزير والدم والميتة ، لأن النفقة التي أوصى بها الميت ليحج بها لا يحل أن يُخان الله فيها ، فتجعل حجة مدنية ولا كوفية.

فالله الله احذروا عليكم قول جاهل عَمِيٍّ يُجرِّيكم على خيانة هذه النفقة ، فيُبعِّضها ويجعلها نفقة لمن يحج من الكوفة أو المدينة فتهلكوا ، واسألوا أهل بيت نبيكم فيما اشتبه عليكم من أمر دينكم ، وأن لا يقبل بعضكم قول بعض في هذا ومثله ، ولكن ليرجع وليسأل فيما اشتبه عليه من هذا ومثله مَن جعلهم الله معدنه وموضعه من أهل الذكر ، يقول عز وجل: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣ ، الأنبياء:٧].

فافهموا - يرحمكم الله - هذا الموضع ثم افهموا ، فإنكم وجميع من له دين وورع ويقين ممن يتشيع ، فلا ينبغي أن يسأل بعضكم بعضا ، وإنما ينبغي أن تسألوا من يعلم من آل نبيكم ، ومن هو عالم منهم بفهم ما يحل وما يحرم ، وما جعله الله موئلا ، ولا يتخذ بعضكم بعضا أربابا من دون الله ، والله بصير بالعباد.

هذا قولي وبالله توفيقي ، وعليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل ، وصلى الله علـــى محمـــد خـــاتم النبـــيين ، وعلـــى أهـــل بيتـــه الطيـــبين وســـلم.

كتاب

الأصول التسعة

كتاب الأصول التسعة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله المتفضل الكريم ، المنعم على عباده بالابتداء لخلقهم ، المحسن إلى خلقه ، الدال على معرفته بصنعه ، الممكِّن لمن كلفه بكمال آلته ، وصحة عقله ، وتركيب قوته ، وبيان حجته ، المحتج على من خالفه ببراهين العقول والتنزيل والرسول ، وإجماع العلماء ذوي التحصيل ، العارفون بالدقيق والجليل ، الذي لم يخلقنا عبثا ، ولم يتركنا سدى أصح العقول ، وأرسل الرسول ، وأزاح علة كل جهول ، الواحد القديم ، الأول الحكيم ، القادر العليم ، الدائم الحي الموجود ، العزيز السميع البصير ، الغني الخبير ، المتفضل بكل صنع ، المستدل عليه بما أظهر من الآيات والفعل ، والصنع البديع من مخترعات فعله ، من سمائه وأرضه وما بينهما ، والليل والنهار وما شاركهما ، وكل محدث بعد أن لم يكن فهو محدِثه صنعه كله ، تجوز عليه الزيادة والنقصان ، وهو القديم فلا يجوز عليه التغيير ولا الحدثان ، لا يَحِل ولا يُحَل ، الخالق للمحل والمكان ، الموجد للأشياء ، الذي لم يزل ، والكائن بلا أول ، أقال العثرة ، وبذل التوبة ، ودعا إلى الإنابة ، وقَبِل ذوي الطاعة ، وتابع النعم ، وأزال النقم ، ولم يعجل بالعقوبة وأمر بالتنصل والندم ، ليعود سبحانه على عباده بالتفضل والكرم ، خفف المحن ، وامتنَّ فأحسن ، وأعطى فأكرم ، ولطف فأنعم ، حذر من العاجلة ، وأبان زوالها بكل دلالة ، وندب إلى الآجلة بكل علامة ، وأظهر حججها بكل إنارة ، ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال:٤٢].

وأشهد له بالربوبية ، والعدل والوحدانية ، والنَّصفة لجميع البرية ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الأسماء الحسنى ، والأمثال العلى ، الصادق فيما وعد وأوعد ، لا يخلف الميعاد ، ولا يحب الفساد ، ولا يظلم العباد ، وهو الإله الخالق لجميع العباد ، الهادي الدال إلى الرشاد ، الذي هو لهم بالمرصاد ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ليس له صاحبة ولا ولد ولا ند ، ولا مِثلٌ ولا ضد ، أهل العبادة ، ومنتهى كل حاجة. وأشهد أن لا إله سواه ، ولا رب إلا إياه.

وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وآله عبده الأمين ، ورسوله المبين ، البشير النذير ، المبلغ للدين ، المجتهد لذي العزة المتين ، المؤدي عن الله الحق ، والمظهر عنه جل وعلا جلاله الصدق ، حتى جرت مناهج الإسلام ، وهُجرت عبادة الأصنام ، وبان الحلال عن الحرام ، وتبين للبادي والحاضر صالح كل مقام ، وأزاح الله به - عليه التحية والسلام - جميع علل الأنام ، فصلوات الله عليه وعلى آله الكرام ، الأئمة الأخيار ، والفضلاء الأبرار ، السابق القائم بحق ما كان ، والمقتصد القاعد الصالح بكل مكان.

وعلى السبطين الحسن والحسين الإمامين الفاضلين. والمطيع لله بكل صنيع أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين ، وخليفة رسول رب العالمين ، علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، عَلَم المسلمين ، وهادي الصالحين ، ووارث علم النبئين ، القاسم بالسوية ، والعادل في الرعية ، والمبيِّن لكل عمية ، فصلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى جميع ملائكة الله المقربين ، وأنبيائه المنذرين ، وعلى المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ، والمقلعين عن معاصي الرحمن ، وعلى كافة المؤمنين الصادقين ، المسلمين الخائفين ، الوجلين العاملين الراغبين ، وسلم ورحم وكرم ، وحسبنا الله العلي العظيم ، ولا قوة إلا به جل وعلا ،

وإياه نستعين على ما به وصَّل ، إنه معين لمن أطاع وواصل ، وجاهد بـــالحق وعامل.

[التقوى]

أما بعد فأنا أوصيك ونفسي بتقوى الله ، وأهلك وأهلي وكافة المسلمين ذي العزة ، فإن تقوى الله خير زاد ، وأفضل المستفاد ، وأيسر ما رَامَهُ ذو الرشاد ، وطلبه ذوو المروءة ، ففازوا به من الدنية ، تقوىً تقي من النار ، وتبعد من الأشرار ، وتُحل مع الأخيار ، منازل الكرام الأبرار ، فإن هذه الدار دار انتقال ، وضعت للاكتساب قبل الزوال ، نفعنا الله وإياك بالهدى ، وعصمنا وإياك من الردى ، إنه سميع الدعاء ، متفضل على من يشاء.

ثم أقول من بعد ذلك - وفقني الله وإياك - لما بيَّنه ، وأعان الجميع على قبول ما افترضه ، وخفف المحنة علينا فيما تعبَّد به ، إنه قريب من المخبتين ، لطيف بالمؤمنين.

[أول الواجبات معرفة الله]

إن أول ما يجب علينا معرفة صانعنا جل وعز ، ومعرفة كتبه ورسله ، والأئمة الصادقين من بعده ، وصفة من آمن به وصد عنه ، لنعرف كل ذي صفة بما يستحقه فنؤمن به كما أحب ، ونتبع أمره كما ندب.

وأنا - بعون الله - مبتدي من ذلك بما بدأ الله به ، وأختصر وأودع في كتابي هذا ما يتنفع به في الدين ، ويكون سببا إلى معرفة المحقين ، ومنار الصالحين ، إن شاء الله تعالى ، ليكون أصلا لا ترد عليك شبهة إلا عرفتها ، ولا مذهب مخالف للحق إلا عرضته على الأصول التي ارتضيتها لصحتها ، وبطلان ما يرد مما هو ضد لها ، لأن الحق والباطل لا يجتمعان ، فإذا صحت الأصول ، بانت لك طرق الأصول ، فكنت قادرا على التزيد إليها من كل محصول ، وصارت معرفتك بها وقاية ، ولك من حيل المحتالين ، وتلبيس المخالفين ، الذين شأنهم الترؤس على عباد الله أجمعين ، فكلما فهمت من ذلك أصلا نظرت دلالته من القرءان ، وكان مفتاحا لك إلى تنويره ، لأنه من الله الحكمة البالغة ، فيه النجاة وفيه الهداية ، فلا تزال إذا فعلت ذلك مستفيدا منه ما لم تكن تعلمه ، ومطلعا على ما لم تكن تفهمه ، يتمكن ما في يدك ويدحض ما كان في يد غيرك ، فأعنه بتفهُّم وتبصُّر ، وتوقّف وتفكّر ، وردّ ما التبس عليك منه إلى ما اتضح لك من محكَمه.

[المحكم والمتشابه]

فإن المحكم ما كان تأويله وظاهره مسموعا معلوما به المراد ، لا يحتاج إلى تفسير ولا له سوى تنزيله تأويل.

والمتشابه ما لم يُعلم بظاهر التلاوة واحتيج فيه إلى التفسير ، واحتمل التأويلات المشبهة[١] للمحكم ، فاعمل به فإن الله سبحانه يقول: ﴿ ٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر:٥٥]، يريد: أحوطه وأظهره ، ما لا شك فيه ولا مرية ، وما شككتَ فيه رجعتَ إلى العلماء العاملين به ، فقَبلت من أقوالهم ما أيد الأصول ، و لم ينقض ما جاء به الرسول ، فإن كتاب الله لا يختلف علمه ، وإنما يجهل مَن جَهله اختلف عليه إذ لم يعلمه ، وقد قال الله سبحانه: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر:١٧-١٨]، يريد: العقلاء ، ومعنى ﴿ يَسۡتَمِعُونَ ﴾ يريد: أهل الصِّفَة وهم العلماء ، أقاويلهم يُتَّبع أجلاها وضوحا ، وأوكدها لما تقدم تصحيحا ، فإن فاعل ذلك لا يزال مستفيدا ، وللخير مريدا ، وللباطل مُذهبا ، يحسن الظن فيما غاب ، ويرد المتشابه إلى المحكم ، كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧].

فكن - أكرمك الله - من ذوي العقول والألباب[٢] ، الناظرين بعين الصواب ، المتوقفين عن الشُّبه والإرتياب ، ليصح لك الحق من كل باب على بصيرة ، وتأتيه من غير ريبة ، لتصل إلى فتح كل باب ، إنه السميع الوهاب.

---

(١) في (ب): فانظر التأويل المشبه.

(٢) في المخطوطتين: الألباب والعقول. ولعل الصواب ما أثبت.

[أولياء الله وأعداءه]

ويجب على أثر ما قلنا أن نعلم أن الناس فريقان ، ولي لله وعدو له ، فأما العدو ففي النار على رُتَبهم ، كل له مترلة من العذاب ، وقانا الله وإياك منها شرَّ المآب. وليس بنا فاقة إلى ذكر منازلهم ، لأنا إذا أوضحنا منازل أولياء الله سبحانه كان كل من خرج منهم من أعدائه ، وبالله نستعين.

والولي - أكرمك الله - من تعلق بثلاثة أشياء:

إيمان يُعتقد بالنيات البينات ، وعمل الصالحات ، واتقاء الفاحشات ، يدلك على ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨]. فهذا في حق الإيمان وعمل الصالحات. وقوله في الإتقاء: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧]، معناه: إنما يتقبل الله إيمان من اتقى وعَمَلَه ، والإتقاء فهو: اتقاء الفاحشات ، كما قال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣]، إلى ما أوضحه الله في كتابه ، وجاء به رسوله عليه وآله السلام ، وأجمعت عليه الأئمة ، وحسن في قلوب الجميع فعله ، فيلزمك القبول لذلك والاعتقاد ، والقول والعمل به.

[الإيمان والإسلام]

والإيمان فهو: التصديق لله ولرسوله بالقلب ، ثم تعتقده وتقول به وتدعو إليه في العمل بالصالحات ، واتقاء الفاحشات كمال الإيمان وتمام الإحسان ، ورحم الله من حاط دينه عن الاختلاط والفساد.

فأما الإيمان فينقسم على ما نوضحه بعد ، وهو التصديق بالقلب واللسان.

والإسلام فهو: التسليم لأوامر الله بالصالحات ونواهيه عن الفاحشات ، فمن آمن صدق ، ومن أسلم سلّم لأوامر الله ونواهيه و لم يخالفه ، فهذه جمل لا بد لك من معرفتها ، وبالله التوفيق.

باب الفروض

الأول منها من الإيمان فهو: معرفة الله عز وجل.

ومعرفة الله سبحانه تنقسم على ثلاثة أوجه:

التوحيد ، والعدل ، والتصديق ، فجملة التوحيد الاعتراف له سبحانه بأنه واحد ليس كمثله شيء ، و لم يكن له كفوا أحد ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فنعوذ بالله من تهدُّده وتوعُّده وغضبه ، وأليم عذابه ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم:٦٥]، أي: شبيها ، كلا ، بل هو الله الذي وصف نفسه بأجل الأسماء ، ودل على نفسه بفعله ، فقال لذوي العقول التي ركبها فيهم حججا: انظروا وتأملوا واستدلوا بالشاهد من الأمور على الغائب ، وبالظاهر على الباطن ، واستعملوا ما يحسن في العقول ، وذروا ظاهر قول الجهول ، فالصنعة في الشاهد تدل على الصانع ، والأثر على المؤثّر ، والتأليف على المؤلّف ، والفعل على الفاعل ، فانسبوا إلى كل ذي فعل فعله ، وما تختارونه أيها العقلاء لأنفسكم ، وترضونه أن يفعل بكم وبمن يمسكم ، فارضوه لغيركم من أبناء جنسكم ، من ولد آدم ، فإنكم ولد أب واحد ، خلقكم من ذكر وأنثى ، ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال فيما دل به على نفسه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة:١٦٤]، فدل بآثار صنعه على صانعها ، لأنه سبحانه لا يجوز عليه الرؤية ولا المشاهدة ، هو وصف نفسه بما ذكر في كتابه من آثار صنعه ، فاستدل عليه بما أظهر من لطيف فعله في السماء والأرض وما بينهما ، والليل والنهار وما شاركهما ، من كل محدَث كان بعد أن لم يكن ، فهو موجده وصانعه ، عز وجل عن شبه خلقه وظلم عبيده.

[صفات الذات والفعل]

واحد غير مفقود ، كما وصف نفسه ، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ - رب العالمين - رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٢]، لا ثاني معه ولا رب غيره ، جل عما يصفون ، تعتقد ذلك بأوكد إيقان وصحة إيمان ، حتى لا تعمل فيك خواطر الشكوك ، ولا تزول عن الأصول ، ليس له نظير ولا عديل ، فصفته لفعله ، كما قدمناه من أثر صنعه ، وهو جميع ما أظهر من خلقه وصفته لنفسه وذاته حقيقة وجوده ، ولا مثل له ولا نظير ، وما سنذكره من صفة القديم العزيز ، فهو أول الأشياء لا أول قبله. وصفته لذاته فهو قولنا: لنفسه ، نريد بذلك حقيقة وجود[ه] ، الذات واحدة ، والرب واحد لا إله غيره ، موصوف بصفات ذاته ، لا يجوز عليه الضد في أسمائه لذاته ، ويجوز على صفات الفعل ، نحو قولك خالق وغير خالق ورازق وغير رازق ، لأنه كان غير فاعل ثم فعل. ولا يجوز في صفات الذات التي هي مقدَّم قولنا العلم والقدرة وما جرى مجراهما التضآد ، فنقول: عالم وغير عالم ، وقادر وغير قادر ، وكلمَّا يجوز عليه التضآد يُعلم أنه صفة فعل ، وما لا يجوز عليه التضآد يعلم أنه صفة ذات ، فتفرق بين الصفتين حتى

تكون بالله سبحانه عالما وبما يستحقه[١] ، ويفعله عارفا. التغيير والنقصان يلحق بفعله ، ولا يلحقه في نفسه وذاته ، عز ربنا وجل ، فما خطر ببالك ، وألمّ بقلبك ، أنْ كيف هو؟! أو حيث هو؟! وأين هو؟! وما هو؟! وما شابه صفة محدثة من هذه الحروف وغيرها ، فاعلم أنه بخلاف ذلك كله ، وأنه خالق هذه الحروف وغيرها ، ولا يجوز عليه شيء منها ، حتى إذا اعتقدت ذلك علما ، وسكَنَت إليه نفسك حقا ، آمنت به صدقا ، علمت حينئذ أنه عز وجل عن كل شأن شأنه ، خلاف ما يتوهمه المتوهمون الجاهلون ، وأن العارفين به هم الموحدون ، وليس كما يتوهمه المتوهمون ، أو يظنه المتظنون ، عن تشبيه أو غيره ، بل لا يُعرف سبحانه إلا بفعله ، ولا سبيل إلى معرفته من غير هذه الطريق ، ومن عَدَل عن الاستدلال عليه بفعله وترك النظر ، كان ظاناً مقلدا ، كما قال سبحانه فيما حكى من قولِ مَن تقدم وخلا من الجهلة المقلدين: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف:٢٣]، وما يشاكل ذلك من القرءان كثير ، والعلم فواسع غزير ، وقصدي أن أجمع لك الأصول وما لا يسع جهله.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « تفكروا في المخلوق ولا تفكروا في الخالق ». واجعل فكرك في صنعه ، ليستدل على عجيب فعله ، وعظيم قدرته في كل محدَث ، ولا تفكر فيه فأنك تَتِيْه وتهلك نفسك ، واستدل باليسير على الكثير تسلم. فهذه جمل تبين لك الصواب ، وكل من أيدها من الموحدين المسلمين فهو عالم ، وكل من نقصها أو شبهها بصانعها فقد أفسد ، فيعلم أنه جاهل لا علم معه ، فهذه جمل التوحيد وبالله التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) في المخطوطتين: تكون عالما بالله سبحانه وما يستحقه. وما أثبت اجتهاد.

باب الأصل الثاني وهو العدل

وهو أن تعتقد أنه عدل لا يجور ، ولا يظلم العباد ، اقدر على الطاعة وفعلها ، ومكّن من ترك المعصية واجتنابها. ثم أمر ونهى من بعد إزاحة العلة لكلٍ من كُلّف بما أتى ، فقال سبحانه: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر:٣٨]، وقال: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة:١٤]، وقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤١]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فهذا كلام الله كله في غير موضع من كتابه إلى ما هو أكثر من أن يحصى ما يوضح له العدل سبحانه ، وما قبله من التوحيد في القرءان كثير.

وهذا منتهاك على الطلب له إلى ما في العقول من استقباح القبيح ، واستحسان الحسن ، فيجب أن تتبع[1] ما قاله الرسول عليه السلام ، ونفاه عن الله الجليل من السفه والظلم ، لأنه حكيم في فعله ، غني عن ظلم عباده ، عزيز حكيم. والعزيز الحكيم ليس بمحتاج إلى دفع ضرورة ، ولا إلى اجتلاب منفعة ، ولا يفعل ما ليس بمحكم ، وتَفَهَّم ذلك وقس عليه ، واجعله عَلماً ودليلا تقصد إليه ، وبالله التوفيق.

---

(١) في (ب): تبتغ.

باب الأصل الثالث

وهو أن تعلم أن الله صادق في وعده ووعيده ، ثم تعتقد أنه صادق في الوعد لا يخلف الميعاد كما قال الله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧]، وقال: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥]. وقال: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٨ - ٢٩]. وقال سبحانه: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء:٩٠]. أي: خوفا وطمعا ، فتعلم أنهما مقرونان لا بد من إنفاذهما كما وعد وأوعد ، وأن من دخل النار لا يخرج منها أبدا ، والشاهد على ذلك كثير من كتاب الله تعالى ، وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بعض[1] مواعظه وزجره ونهيه.

وأما في العقل فإن كان فاعل حكيم إذا كان آمرا ناهيا مطاعا متَّبعاً متى لم يكافأ المحسن على إحسانه لم يرغب إليه ، ومتى لم يكافأ المسيء على إساءته لم يخف منه و لم يهب جانبه ، وفسد عليه أموره ، وكان هينا على غيره ، ومن لم يكن من العقلاء هكذا لم يكن حكيما ، وكان ساقطا عندهم لأنه لم يستعمل عقله ، بل اتبع هواه وجهله.

[الشفاعة]

ولو كانت الشفاعة لمن مات مصرا على كبيرة ، لبطل قوله سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فتعلم أن الشفاعة إنما هي للتائبين الراجعين النادمين ، الذين

---

(١) سقط من (ب): بعض.

ذكروا قبيح ما فعلوا في فخافوا الله سبحانه ورجوه ، فرجعوا راغبين نادمين إليه ، فيسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم الزيادة على ما استحقوا بالتوبة ، لأن بعض أعمارهم مضى بسوء اختيارهم ، لم يكسبوا فيه شيئا ، وما اكتسبوا فيه من المعاصي الكبار محبطة ، فلما تابوا كانت التوبة حسنة ، ندب الله إليها فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فبطلت بالتوبة لأنها حسنة ، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤]، فمن مات مصرا هلك ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « هلك المصرون قدما إلى النار »[1]، وقال سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١]، وغير ذلك من القرءان فكثير ، يستدل بهذا على ما هو أكثر منه.

فهذه الثلاثة مَن عرفها على الجملة وتمسك بها على ما قلنا فيها ، بدلائل العقل والسمع - لأنها حجة على خلقه - سلم.

[الدليل السمعي]

والسمع ينقسم على ثلاثة:

كتاب الله.

وسنة رسوله.

وإجماع الأئمة.

وقد تقدم في أول كلامنا ذكر ذلك.

فهذه الأربع على التحصيل فافهمها.

---

(١) لم أقف عليه.

فأول نعم الله التي تدرك بها الثلاث ، وأفضل نعم الله العقل الذي يميز به بين الحسن والقبيح ، جعله الله حجة ودلالة لما افترضه ، فكان أول ما افترضه على خلقه معرفته ، وهي الثلاثة: توحيده ، وعدله ، وتصديقه فيما وعد وتوعد.

ثم نِعَم الله من بعد ذلك لا تحصى ، وحججه فأعظم من أن تنسى ، فسبحان من لا يغامض عبدا ولا يحرج أبدا ، قد أحسن بدوًّا وعَودًا ، فله الحمد والشكر.

[معنى الحمد والشكر]

وتفسير الحمد فهو: الرضا بفعله وبنعمته كلها وجميع قسمه ، ما يسكن إليه وما يقرب منه ، والشكر ذِكرُه بما هو أهله جل وعز ، الغني عن خلقه ، إنما خلقهم متفضلا عليهم ، لا حاجة منه إليهم ، تعبَّدهم مصلحة لهم ، ليعرضهم للمنافع كلها.

[المنافع]

والمنافع فهي ثلاثة: نفع مستحق يعمله عامله ، فيأخذ عليه داخل[1] لنفع له ولغيره ، فيستحق المؤلم العوض على ألمه ، مثاله: أن يأمره غيره في يوم بارد يسقي غيره من الضعفاء والعطشى فلد آلمه لغيره ، فلا بد من عوض يأخذه وينتفع به ، ليكون الألم حسنا. والأول يستعمل ثوبا أو بنيانا ، أو شيئا ينتفع به ، أو شيئا ينتفع به غيره بعمله ، فيستحق أجره ، فهذان الوجهان مستحقان بألم وعمل.

والوجه الثالث هو: التفضل صاحبه بالخيار ، إن تفضل بما أَحب شُكر عليه ، وإن لم يتفضل لم يُذم عليه.

---

(١) كذا في المخطوطتين.

فهذه الوجوه وجوه المنافع ، أراد الله سبحانه أن يوصلها إلى عباده مصلحة لهم ، ولم يمكن السبيل إليها إلا بالفعل الصالح والألم المصلح ، فابتلاء العباد بما تسكن إليه نفوسهم وتهواه ، أو تحبه وتشاه ، وابتلاؤهم بما تكرهه نفوسهم وتنفر عنه ولا تشاه ، لأنه غام ، والآخر سار ، والنفس إلى الرفاهية أَمْيَل ، وإلى ما تقدم من النفع أعجل ، وهو بالمصلحة أعلم - سبحانه - من خلقه ، فقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر:١٥].

يا هذا أكرمك لتعصيه وتفسد في أرضه! وتظلم عبده!! ما هذا يستحق من أكرم؟!! ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر:١٦]، أهانك يا هذا لينتفع أو يدفع عن نفسه بإهانتك ضررا ، جل وعلا!! أو ليس هو الغني الحكيم العزيز ، لا يحتاج ولا يذل ، والحكيم لا يفعل القبيح ، وأي قبيح أقبح من إدخال الإهانة على غير مستحقها؟! ولا والله ولكن جهلوا الله سبحانه فجهلوا أفعاله ، وإنما يبتلي العباد بهذين الوجهين ، لأن ذلك مصلحة لهم وإن كانوا لا يعلمون ، كالجدب والخصب ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والسواد والبياض ، والشرف والدُّون[1] ، فمن صبر على ما لا يحبه أُجر ، ومن شكر على ما يريد أُجِرا ، لأن الدار دار بلوي ، وليست بدار البقاء ، ولا دار الجزاء ، فلا يكون فيها محن ولا ابتلاء.

[دلالة العقل]

وفي العقل دلالة على صحة ما فعل الله تبارك وتعالى بالعباد ، ليرفعهم به إلى أجَّل المنازل ، ألا ترى أن الحكيم متى يؤدب ولده وأهله ومملوكه بالضرب

---

(١) الدون يعني: الدونية.

وغيره من الزجر الذي هو ألم ، ويحجم نفسه ويشرب الدواء ويقصد فيما أدخله على نفسه ، فكذلك حسن إيلام الله لعبده وهو تأديب ، لأنه لو لم يفعل ذلك بهم لبطروا وأَشِرُوا.

فيجب على كل ذي محنة التعزي بالأخيار كأيوب صلى الله عليه وسلم وغيره ، ويصبر فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ويجب على من أمتحنه الله بالنعم كسليمان النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يشكره ويضع النعم موضعها ويذكر فضلها ، ويصبر على طاعة الله ليُؤجر ، فمن ابتلى بأجلّ مترلة كانت مطالبته له أعظم ، لعظم نعم الله سبحانه عليه ، وأياديه سبحانه إليه ، إن شكر زاده الله ، وإن كفر كان أعظم لعقوبته. فتأمل ذلك فإنك تعلم أن الله سبحانه قد عرض لكل المنافع. ولأرفع المواضع في الاخرة فمن قبل رشد ، ومن أعرض فمن نفسه أتي لا من الله عز وجل ، فهذه جمل يكتسب عاملها هدى وصلاحا ، وسكون قلب واعتدالا ، وفقك الله لما أحب وأعاننا وإياك على طاعته إنه سميع مجيب.

باب الأصل الرابع في معرفة ملائكة الله والإيمان بهم

وهذا الكتاب فمبني على ما ذكر الله تبارك وتعالى ، حيث يقول: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥]. فالإيمان بالله يكون بعد معرفته بصفاته لذاته ، وصفاته لفعله ، وقد قدمنا ذلك ، كذلك يجب أن يعرف الملائكة صلوات الله عليهم بصفاتهم ثم يؤمن بهم ، فإن الإيمان بمن لا يعرف جهل ، كذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦].

[العلم الضروري والاستدلالي]

والعلم فهو ما أُدرك من وجهين لا ثالث لهما ، علم يسمى: علم الضروري ، وهو ما يدرك بالحواس الخمس: نظرا وشما وذوقا ولمسا وسمعا ، بالعين والأنف والأذن واللسان واللمس لسائر الجسد. فأي شيء أدَرَكته هذه الحواس الخمس فهو كما أدرَكَتْه لا شك فيه ، ولا يظن به غيره ، ولا يشك فيه أحد ، فعل من الله تبارك وتعالى ، والعبد اضطر إليه ، وجعل هذا العلم الضروري أصلا لعلم الدليل ، فكل علم لا شك فيه فهو علم ضروري.

وعلمُ الدليل هو ما يستدل به على الغائب مثل الفعل على الفاعل ، والأثر على المؤثر ، والسماء والأرض وما بينهما ، وجميع ما يُشَاهد من فعل الله ضرورة ، فهو دليل على فاعله ، لأن خالقنا - جل اسمه - لا يُعلم ضرورة. ألا ترى أنك إذا عاينت وجها حزينا تستدل بما ظهر في وجهه على الحزن

الذي في قلبه ، ولا تعلم بالسبب الذي أحزنه ، وتستدل بالشر الذي[١] في وجهه على سرور قلبه ، ولا تعلم السبب الذي أسرَّه ، والعلم الضروري أصل ، والدليل على علم جعله الله للاكتساب علمٌ بدليل ، والدليل الذي يلحقه الشك ويمكن أن يظن به معلوم بغيره[٢] ، والأجر والثواب والحمد إنما جعل لما وقع عليه الظن والشك ، وأقام على ما دله الدليل و لم يرجع ، لأن الفاعل لا يزيل اليقين بالظنون ، وما يعلمه الإنسان ضرورة فلا أجر له عليه. ألا ترى أن الملحدين والمنجمين والمتظننين الذين — كلهم - كفروا قد شاهدوا معنا السماوات والأرض ، واستدلوا كما استدل الموحدون ، وليس لهم أجر على النظر إلى ما رأته العيون ، وإنما الأجر على ما أُدرك علمه بالقلوب ، قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، فهذان طريقان للعلوم تعرفهما.

[خطر التقليد]

وكن ممن ينظر بقلبه ، ويعتبر بغيره ، فإن الفرق بيننا وبين العقلاء من غيرنا ، أنا تأملنا ونظرنا فاكتسبنا الدلالة علما نفعنا ، وهم نظروا واتبعوا أهواءهم وقلدوا فهم كالبهائم ، لا نظر لهم إلا بأعيانهم ، و لا تعلم أين يُذهبُ بها حتى تقع فيه إما رعيا وإما علفا ، وكذلك المقلد لا يزال غافلا حتى يموت ، لم يعلم أنه كان مُضيِّعا ، وكذلك قال الله تبارك تعالى لنبيه عليه وعلى آله السلام: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

---

(١) سقط من (أ): الذي.

(٢) في المخطوطتين: غيره. وما أثبت اجتهاد.

وأمر سبحانه بالنظر فقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية:١٧]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [النساء:٨٢، محمد:٢٤]، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤][1]، كذلك لئلا يهلكوا ولذلك وجب النظر ، ولا سيما مع اختلاف البشر ، فكل يقول: الحق معي وهو عنه صاد ، لأن الحق إنما يتعرف من الوجهين الذين قدمنا: العقل حجة على كل مخالف وموافق ، والسمع على الموافق ، وطريق العلم أصله كبير ، فافهم ذلك.

[الآيات الكونية]

واعلم أن السماء والأرض محلهما في ملك الله تبارك وتعالى من صغرهما في ملكه ، كبيت في صحراء أنى يقع البيت في الصحراء؟! وكمحل حلقة في أرض فلاة [2]، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كذلك قال الله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والكرسي: ما يستقر عليه ، ويكون محلا لما يحل فيه ، فجعل الله السماوات والأرض مستقرة في حيز ملكه ، ليس يجوز أن يكون حيث هما ، سماء ولا أرض معهما ، بل لو أراد أن يخلق جهاتها خلقا من بعد خلق فعل ، والجهات الست فوق ، وتحت ، وأمام ، ووراء ، ويمنة ، ويسرة ، فصار قوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] معناه: وسع ملكه السماوات والأرض ، لا يمسك السماء من فوقها عِلاقة ، ولا من تحتها عماد ، ولا يمسك الأرض من تحتها ولا فوقها شيء ،

---

(١) هذه الآية ذكرت في القرآن ثلاثة عشر مرة.

(٢) من حديث طويل لأبي ذر: ((... قلت: يا رسول الله فأي ما أنزل الله عليك أعظم. قال: آية الكرسي، ثم قال: يا أبا ذر ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة ...)). أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٧٦/ح٣٦١، والمتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٤٤١٥٨.

بل الله الممسك للجميع ، يُحدث فيهما سكونا بعد سكون ، كما قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ... ﴾ [فاطر:٤١] إلى آخر الآية ، وقال سبحانه: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل:١٥]، فعلّمنا أنها على غير شيء ، ثم قال: وَلَئِن ﴿ زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾[فاطر:٤١]، فعلّمنا إنما تحتهما ليس بشيء يمنع أن لو ترك إمساكهما ، فدلنا على قدرته وسعة ملكه ، فسبحانه وتعالى ، وله الحمد على ما أولى.

[الملائكة]

وأنزل الله الملائكة عليهم السلام السماء مصلحة لهم ، وأنزل الإنس الأرض عبيدا مأمورين مكلفين منهيين ، كل واحد نزل فيما عَلِم الله سبحانه أنه أصلح له ، لأنه الخبير البصير بعباده وبمصلحة خلقه ، خلق الجميع ، ليعرضهم للمحل الرفيع ، فمن أطاع سلم ، ومن عصاه ندم ، فأفضلهم أكثرهم علما وعملا ، لقول الله سبحانه في الملائكة: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦]، وقوله سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ومن لم يفتر من الطاعة كان أعظم في المترلة ، ومن لمن يعص الله كان أعلى درجة ، فهو أفضل خلق الله ، ولذلك خصهم لرسالته من الإنس والجن ، وأكرمهم بذكره ، فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢] ، والمشبَّه به في لغة العرب هو الأفضل ، والملائكة أفضل من جميع الأنبياء ، والأنبياء أفضل من سائر الناس ، ولذلك خصهم الله برسالته ، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان:٣٢] ، فيجب أن يُؤمن

بالملائكة على هذه الصفة ، ويقدمهم في الرتبة ، ويعلم أنهم ليسوا بمجبورين ، ولا على الطاعة محمولين قسرا ، بل أُمروا تخييرا كما خُيِّر العباد ، فاختاروا الرشاد ، فليس فيهم كلهم عاص ، بل هم مطيعون أجمعون ، عبيد مكرمون ، كما قال سبحانه: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ ﴾ [مريم:٩٣-٩٤] ، فلهم المنزلة الشريفة ، فاعرفها لهم وقدمهم ، وأَقِرّ بهم بعد معرفتهم ، فهذه جملٌ يطول شرحها فهَّمك الله علمها كما وضح للجميع سبلها ، بمنه وقدرته ، فله الحمد والمن.

باب معرفة الأنبياء عليهم السلام وهو الأصل الخامس

اعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الأنبياء إلا بمعرفة الدلالة التي تدل عليهم ، والدلالة هو ما يُحدثه الله عز وجل على أيديهم من المعجزات التي تخرج عن العادة ، ويتحدى بها أهل الصناعة ، فيعجز عنهم كل من تحدوه من أهل الرياسة ، فإذا أحدث الله ذلك على عبد من عبيده وظهر ، كان دلالة على صدقه ، وعلى أنه رسول صادق ، وكان كل من ظهر على يده معجزة يجب أن يكون نبيا ، لأن الله سبحانه لا يظهر معجزاته وعلامته على أيدي الكذابين ، إذاً لبطلت الحقائق ، و لم يُفرق[1] بين العاقل والجاهل ، ولا بين الصادق والكاذب ، ولا يجوز أن يظهرها على أيدي الصالحين المؤمنين ، وعلى أيدي الأئمة المنتجبين ، فيلتبس الأمر ولا يمكن التفرقة. ولكن للصالح البَرّ علامة ، والأئمة الصادقين علامة ، حتى يكون من يشارك الأنبياء في المعجزات كان نبيا ، ومن شارك الأئمة في الصفة التي ذكرتها في باب الإمامة وجب أن يكون إماما ، ومن يشارك الأبرار في صفة الصلاح كان صالحا ، ومن يشارك الفجار في صفتهم كان فاجرا ، ليتميز المحق من المبطل ، وإلا لم تقع المعارف و لم يمكن التالف ووقع الإشكال ، وادعا كل فريق أنه محق وأن الحق معه ، وهذا ما قدمناه والحمد لله.

ولجهله قالت النصارى: إن لله ولدا ، وإن الثلاثة واحد ، وإن الواحد ثلاثة ، وكذلك كل مشبِّه جاهل ، فلا الله عرفوا ، ولا النبي عرفوا ، ومثال هذا من قال: إن الرُّطب عنب ، فلا العنب عرف ولا الرُّطب عرف ، فافهم هذا.

ويجب أن لا يعتبر باختلاف المعجزات في الأوصاف ، ولكن يعتبر مشاركتها فيما كانت له معجزا ، ألا ترى أنا لا نعتبر خلاف الأنبياء في الصفة والبلدان

---

(١) في (ب): تفرق.

والألوان متى اشتركوا في المعنى ، كبني آدم وإن اختلفوا فهم آدميون ، وكولد أب وإن تفرقوا فالأب يجمعهم والميراث لهم ، وكالحنطة والشعير والعنب والخيل والحمير والإبل ، وكل حي وجماد ، لأن جميع ما خلق الله حيوان وجماد ، والحيوان ينقسم قسمين:

مكلف وغير مكلف.

فالمكلف: الملائكة والجن والإنس. وما ليس بمكلف فجميع البهائم والطير ، خلقها الله للعالمين نعمة عليهم ليعتبروا وينتفعوا بها.

والجماد قسمين: نامي وهو الخضار كله ، وغير نامي مثل الأرض والحجر والمدر والماء ، وما لا نمو فيه هو على حال واحدة ، وجميع الجماد والحيوان خُلقَ للمكلفين ، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣] ، واختلاف هذه الحوادث كلها يدل على صنعة صانعها أنه حكيم ، إذ جعلها أضدادا وأمثالا فعُلم بذلك أن الضد والمثل لا يجوز عليه ، وكذلك جعل فيها الزيادة والنقصان والحاجة ، ولم يجز عليه ما جاز عليها مع اختلاف أوصافها كلها ، في أنها محدثة زائدة ناقصة ، وما اشترك في الحياة الدنيا فحي وإن اختلف وصفه ، وما اشترك في نوع من الأنواع فهو مثله ، ولذلك قلنا: إن اختلاف المعجزات في صفاتها لا يمنع من اشتراكها في أنها مخترعة لم تجر بمثلها العادة ليتحدى بها من أظهرها الله على يديه.

فمن استوت فيه على ما ذكرنا ، كان الدلالة على صحة ما قلنا ، وبطل اعتراض من عارض.

[معجزات الأنبياء]

ألا ترى أن المعجزات التي ظهرت على يدي موسى عليه السلام مختلفة أوصافها ، وذلك حجتنا على اليهود لعنهم الله تعالى ، بأن نقول لهم: ما الدلالة على نبوة موسى عليه السلام؟

فإن قالوا: إجماعكم معنا على أنه نبي.

قلنا لكم: لم نجتمع معكم على أن موسى كذّب محمدا عليهما السلام وَمَنَعَكم من اتباعه ، وقال لكم لا تؤمنوا بنبيء بعدي.

من قال لكم هذا فليس بنبي ، ونحن إنما آمنا بنبي ذكر الله تعالى اسمه موسى بشَّر بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وأمر أمته باتباعهما ، فقد بطل ما أدعيتم بالاحتجاج على ما ذكرتم من الإجماع لما قلنا ، فتحتاجون إلى دلالة تدل على أن موسى نبيَّكم صادق ، فلا تجدون بُدا من أن تقولوا: يدل على صدقه المعجزات التسع.

قلنا: وما هن؟

قالوا: ما أظهر الله على يده من العصا ، واليد البيضاء ، وإنفلاق البحر ، وانبجاس[1] الحجر ، وغير ذلك من المعجزات التسع.

فيقال لهم: وما في ذلك من الدلالة؟

فيقولون: جاء إلى السحرة وهو الرؤساء والكبراء والدولة لهم ، وكانوا يفتخرون بالسحر ويترأسون به ، فتحداهم بمثل[2] ما شاكل فعلهم ، [فَـ]عَلِمَ أنه صادق.

---

(١) في المخطوطتين: وانحباس. مصحفة.

(٢) في المخطوطتين: فتحداهم إلى الإيمان بمثل. لعلها زيادة سهو.

فآمن من أنصف وكان يلتمس الحق ، وخالف من تَعَجْرَف وطلب الترؤس. فتبتت حجته على الناس ، فمن أطاعه في وقته سلم وغنم ، ومن خالفه هلك وندم.

قيل لهم: هذا مع اختلاف أوصاف معجزاته لم يُعتبر بذلك ، لأنها مشتركة في أنها مخترَعة ، خارجة عن العادة ، متحدى بها.

فإن قالوا: نعم.

[معجزات الأنبياء مما نبغ فيه قومهم]

قيل لهم: فما أنكرتم على عيسى ومحمد عليهما السلام ، وقد جاء عيسى إلى أهل زمانه ، وكانوا يترأسون بالطب والفلسفة ، فجاءهم بما شاكل فعلهم ، فتحداهم فعجزوا ، كإحياء الموتى بإذنه وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك ، فأجابه المحق ، وعدل عنه المنافق.

وكذلك محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أتى العرب وكانوا في زمانهم وإلى وقتنا هذا يفتخرون بالشعر والسجع ، والخطب والرجز ، والنثر من الكلام ، ويترأسون به ، ولم يكونوا أهل طب ولا سحر ، فجاء بما شاكل ما يفتخرون به ، وهو القرءان المعجز في نَظْمِه وإخباره بما يكون ، وكان أميا ، نشأ بين ظهرانيهم فعجزوا ، فأجابه المحق ، وعدل عنه المبطل.

فليس مخالفته عليه السلام لعيسى عليه السلام في صفات المعجزات ، بأكثر من خلاف معجزات موسى عليه السلام بعضها لبعض ، ولن يمنع ذلك أن يكون ما كان له معجزا مشتركا فيه. كذلك لا يمنع ما جاء به محمد وعيسى عليهما السلام أن يكون صحيحا ، وإن اختلفت الأوصاف للمشاركة في المعنى ، وإنما أوجب خلافَ صفاتها اختلافُ أوقاتها ، ووجوبُ المصلحة فيها ، لأن كل وقت غير الوقت الآخر ، وألسنتهم مختلفة ، وطبائعهم مختلفة ،

فوجب أن يأتي كلُّ طائفة رسولُها بما يعرفون ، وإلا لم يكن ذلك صوابا ولا حكمة.

ألا ترى أن الكاتب يتحدى الكاتب ، والفارس يتحدى الفارس ، والشاعر يتحدى[1] الشاعر ، وكل صاحب صنعة لا يحسن أن يتحدى إلا من هو مثله.

في قول الله عز وجل على لسان نبئنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقومه: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود:١٣] ، وقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨] ، ويقول: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٤] ، في مواضع مختلفة ، وأوقات متفرقة ، دلالة على نبوته.

فلما عجزوا عن إجابته عدلوا إلى حربه وسبه وأذاه ، وقالوا: ساحر وشاعر ومجنون. فمن عرف هذه الطريقة ، آمن بالرسول على حقيقة ، ويعلم أنهم تحيَّروا لما عجزوا ، فلم يعرفوا الشاعر ولا المجنون ، لأن هذا القرءان ليس بشعر ولا سحر ، ولا يأتي به مجنون ، وإنما هؤلاء المعاندون أهل الرياسة.

فأما المصدقون المؤمنون فسلموا وصدقوا ، فعلموا أن دلائل الله وإن اختلفت أوصافها معجز. فبان بالمعجز الأنبياء ، فإن آمن اليهود بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، وإن كفروا بمحمد كفروا بموسى وعيسى عليهما السلام ، لأن ما يوجب صدق أحدهم يوجب صدق جميعهم وإن اختلفت الأوصاف ، وبالله التوفيق.

فهذه أصول في النبوة لا يجوز المعجز إلا لنبي ، فافهمها إن شاء الله تعالى.

---

(١) سقط من (ب): يتحدى ، في الموضعين.

الأصل السادس

باب الأصل السادس في معرفة كتب الله عز وجل

ثم لا بد من الإيمان بكتب الله عز وجل ، ولا سبيل إلى الإيمان بها إلا بعد معرفتها ، ومعرفتها: أن تعلم أنها محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، وقولنا: كلام الله ، كقولنا: سماء الله ، وأرض الله ، وعبيد الله ، إذ لا فاعل لذلك كله غير الله عز وجل. ألا ترى أنك تقول: دار زيد ، وغلام زيد ، وكلام زيد ، إذ لا فاعل للكلام غيره ، ولا مالك للدار والغلام غيره ، وكذلك كلما كان الله سبحانه وتعالى مالكا للسماء والأرض والعبيد وما بينهما نسبت إليه ، كذلك كتبه هي كلامه ، كما تقول: كلام عمر ، وكتاب عمر ، والكتاب غير من نسب إليه ، والكلام غير المتكلم ، فكل ما فعله الله فهو مخلوق وإن اختلفت صفاته ، جماد وحيوان ، وكلام وكتاب.

[القرءان مخلوق]

فمن قال: إن مع الله عز وجل قديما غيره فقد كفر ، ومن شبَّهه بالعباد فقد فجر ، والدلالة على ذلك من القرءان[1] من بعد ما بان لك من جهة العقل ، وهو قوله سبحانه: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٢] ، وقال:﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [الشعراء:٥].

والمحدث ما كان بعد أن لم يكن ، فقد تقدم وصفه ، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف:٢، الزخرف:٣] ، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء:١٢] ، فلم يفرق بينهما ، أنهما مخلوقان ، إذ كانا لله فعلين

---

(١) في المخطوطتين: القرءان وهو السميع العليم من. لعلها زيادة سهو.

مخلوقين وإن اختلفا. وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر:١]، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد:٢٥] ، وقال: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر:٦] ، فلم يفرق بين الكلام وهو القرءان ، ولا بين الجماد وهو الحديد ، وبين الحيوان وهو النعم ، أن سماها كله أنها منزلة ، لما كانت مفعولة مخلوقة ، كانت بعد أن لم تكن ، هذا صفات الخلق ، وليس يجوز أن يوصف الله سبحانه بصفات خلقه ، فمتى عرفت ذلك آمنت بجميع كتب الله كلها ، وعلمت أن كل كتاب أنزل على قوم في وقت إنما كان مصلحة لهم.

آخر الكتب القرءان الذي سماه فرقانا ، فرق به بين الحق والباطل ، وبين من كذب على الأنبياء الماضين عليهم السلام وبين من صدَّق ، وأنه خاتم النبئين ورسولنا محمد صلى الله وآله وسلم خاتم المرسلين ، فإنه ما نزل كتاب ولا جاء رسول إلى الناس كافة ، إلا رسولنا وكتابنا ، وإن اختلاف الشرائع على حسب المصالح.

[البدا]

وأمر بني إسرآئيل بإمساك السبت والصلاة إلى بيت المقدس ، وغير ذلك مما لم يأمرنا به ، وعدل بنا عنه إلى الكعبة ، إنما فعله مصلحة للعباد ، على حسب ما يكون موجب صلاحهم ، لأنه العالم بهم وليس يمنعهم على ما أصلح للعباد ، فيجب أن يُطاع في أمره ونهيه ، ألا ترى أن كل مالك إذا أمر ونهى قوما بشيء فاستمروا وفعلوه ، ثم نهاهم عن مثله ، أن ذلك ليس بقبيح ولا بَدَا ، وإنما ذلك مصلحة ، كالطبيب الذي يقول: افصد اليوم ، ثم يقول في غد: لا تفصد ، فما أمرك به أمس هو غير ما نهاك عنه اليوم ، الذي مضى أمس كان مصلحة.

فليس لليهود أن يقولوا: إن الله سبحانه إذا منع من إمساك السبت اليوم والصلاة إلى بيت المقدس ، أنه قد بَدَا له ، ونحن وإياهم لا نجوّز على الله سبحانه البَدَا ، فنحتاج أن نعرف البدا ما هو.

فالبَدَا: أن يأمر الآمر بالشيء ثم ينهى عنه ، ثم لم ينفذ ، فيعلم أنه قد بَدَا له ، لأن من كان كذلك هو من البشر لا يعلم الغيب ، فإنما يَبُدو له رأي ثم يعقب الرأي فيه ، فيراه خطأ فَيَبدُو له ، وما جرى هذا المجرى ، فلا يجوز على الله عز وجل ، وما أمر الله سبحانه من إمساك السبت والصلاة إلى بيت المقدس فقد مضى ونفذ ، واتُّبِع السنين والدهور ، ثم جاء رسول صادق فقال: لا تمسكوا مثله ، وليس الذي مضى هو الذي أتى فهو مثله ، فعلمنا أن هذا ليس هو بَدَا ، إنما هو مصلحة ، كرجل قيل له: كُل رغيفا ، فلما أكله قيل له: لا تأكل الآخر ، فالذي نهاه عنه غير الذي أمر به ، وكذلك من قيل له: حج العام ، فحج ثم قيل له في العام الآتي: لا تحج ، فالأمر بما مضى غير النهي فيما أتى ، فعلمنا أن ذلك ليس ببدا.

وجميع ما يخالفنا فيه اليهود ثلاث: المعجز الذي قدمنا ، وصفة الأنبياء ، وقد أبطلنا قولهم ، والبدا فهو ما قلنا ، فليس نسخ الشرائع بدا ، إنما هو مصلحة ، فمتى أفسدنا عليهم هذين الوجهين التجأوا إلى أ ن يقولوا: إنا رُوينا عن موسى أنه قال: « لا تتبعوا مَن بعدي أحدا » ، وهذا كذب ، لأن الذي أوجب صدقَ موسى - حتى قُبِل منه - المعجز ، وقد أريناهم أن المعجز صح لعيسى ومحمد عليهما السلام ، لأن نبينا الصادق عليه السلام قد أخبرنا أن موسى وعيسى قد أمَرَا قومهما باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وآله جميعا ، وبَشَرَّا أنه ذكره الله في كتبهما ، فلزمهم صحة ما قلناه ، وبطل ما أدعوه من الوجوه. فإن أسلموا سَلِموا و إلا هلكوا ، ولا يبعد الله إلا من ظلم.

[أقسام القرءان]

فإذا فهمت هذا ، علمت أن كتابنا الفرقان مائة سورة وأربع عشرة سورة ، لا يمكن الزيادة فيه ولا النقصان ، وأن الذي يمكن فيه تأويل السورة للجاهلين ، ليضلوا الناس بغير علم ، وكذلك قال الله: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء:٤٦، المائدة:١٣] ، فتعلمَ أنه محكم ومتشابه ، وأمثال وقصص ، وأمر ونهى ، وزجر ونهي ، مجموع مفصل ، ومقدم ومؤخر ، وخاص وعام ، وناسخ ومنسوخ ، وتعلم أن الناسخ والمنسوخ لا يكون في شيء من القرءان ، إلا في الأمر والنهي ، وأما في غير ذلك فلا ، تأمَّل مواضع الأمر والنهي فإن هنالك الناسخ والمنسوخ ، تخفيفا وتثقيلا على حسب المصلحة ، والمحكم أصل لما يُرد إليه من تأويل المتشابه.

فهذه أصول يطول شرحها في الكتاب ، قد ذكرناها لك لتعلمها ، لأنه من لم يعرفها لم يعرف الكتب ، ومن لم يعرف الكتب لم يصح له الإيمان بالكتب ، وفقك الله وإيانا لما يرضيه برحمته إنه سميع مجيب.

باب الأصل السابع في الإمامة

وأما صفة الإمامة فإن الأصل فيها أنها فريضة من الله ورسوله ، نطق بها الكتاب وجاءت بها السنة.

فأما الكتاب فقول الله تعالى في طالوت وكان إماما: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [البقرة:٢٤٧].

فهاتان صفتان ، والمراد بالجسم: القوة ، لأن الله تعالى لا يمدح عبيده على فعله ، ولا يذمهم على فعله فيهم ، وإنما مدحهم على أفعالهم ، وما اكتسبوه في أعمالهم ، والعلم مكتسب وإن كان الله المترل له ، والدآل عليه ، والهادي إليه ، والعلم به مكتسب ، والقوة فهي: قوة الرجل على نفسه ، وضبطها عن القبيح ، وحملها على الحال الصحيح ، وهي تنقسم على ثلاثة أوجه:

قوة الشجاعة.

وقوة الكرم.

وقوة الزهد.

لأن القوي من قوي على نفسه في الصبر عند الحرب ، والصبر عند حصول المال ، والصبر عند الشهوات ، قسم في الإسلام والمسلمين ما أراد منهم رب العالمين.وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ألا أخبركم بالقوي وقد رأى قوما يحملون حجرا. قالوا: مَن يا رسول الله؟ قال: من قوي على نفسه ومنعها من غيه ، وحملها على رشده »[1]، وقال في رجوعه من بدر: « إنكم رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: مجاهدة النفس ، وحملها على طاعة الله عز وجل ».

---

(١)

وهذه صفات أربع من حَصَلْنَ له من ولد الحسن والحسين عليهما السلام بعد أمير المؤمنين فهو إمامها منبسط فيها ، والبسطة تدل على الزيادة ، والزيادة تدل على الفضيلة ، والفضيلة تدل على الفاضل.

وهو مذهب الزيدية القاسمية العدلية ، وقول الله تعالى يؤيد ذلك: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩] ، وقال: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣].

والمستنبط للعلم هو: الكامل الذي إذا وردت مسئلة نظر فيها وردها إلى أصولها ، ثم أفتى بالحق المتعلق بها. وأما ما يؤيد هذا من القرءان فكثير ، قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر:٣٢] ، ومن ظلم نفسه كان مُؤَمَّرا عليه و لم يكن آمرا. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر:٣٢] ، فيجب أن يكون المقتصد هو الذي يعلم طرفاً من العلم ويكون صالحا في نفسه ، فيجب أن يتبع السابق ليكون له متبعا معينا مؤازرا ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة:٢] ، وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ، ومن كان بهذه الصفات الأربع اختص بالعلم والشجاعة ، والكرم والزهادة.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما قد بلغكم في علي عليه السلام بغدير خم [١]، وفي المؤاخاة له [١]، وما يكثر تستطيره ، ولا يذهب عليكم علمه

---

(١) هذا الحديث يعرف بحديث الغدير، وهو من أكثر الأحاديث شهرة، فقد رواه مئات من المحدثين عن جمع من الصحابة منهم:

الإمام علي عليه السلام، أخرجه عنه: الإمام أبو طالب في الأمالي ٣٣، والنسائي في الخصائص ١٥٦، وأحمد في المسند ١٥٢/١، وأبو يعلى ٤٢٨/١(٥٦٧)، والطبراني في الصغير ١١٩/١، والطيالسي ٢٣(١٥٤)، والطبري في ذخائر العقبى ٦٨، والرياض النضرة ١٦١/٢.

وعن ابن عباس، أخرجه عنه: الحاكم ١٣٢/٣، وأحمد ٣٣/١، والنسائي في الخصائص ٤٥ رقم(٨١ و ٨٢)، والخطيب البغدادي ٣٤٤/١٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعن زيد بن أرقم، أخرجه عنه: أحمد ٣٦٨/٤ و ٣٧٠، ومسلم ٣١٧/٢، والحاكم ١٠٩/٢، والنسائي في الكبرى ٤٥/٥(٨١٤٨)، والطبراني في الأوسط ٥٧٦/٢(١٩٨٧)، والطبري في ذخائر العقبى/١٥٥.

وعن البراء بن عازب، أخرجه عنه: الحافظ محمد بن سليمان الكوفي في المناقب ٣٦٨/٢ (٨٤٤)، وابن ماجة ٤٣/١ برقم(١١٦)، والنسائي في الخصائص ١٦٢، والخطيب البغدادي ٢٣٦/١٤، والطبري في الذخائر ٦٧، وأحمد في المسند ٢٨١/٤.

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة، أخرجه عنه: أحمد ١١٨/١، والنسائي في الخصائص ١٥٠، و ابن حبان ٣٧٥/١٥ (٦٩٣١)، والحاكم في المستدرك ١٠٩/٣و١١٠و٥٣٣، وابن الأثير في أسد الغابة ٩٢٥/٣و ٢١٧/٥، والهيثمي في المجمع ٤٢/٩.

وعن سعد بن أبي وقاص، أخرجه عنه: ابن ماجة ٤٢/١ برقم(١١٥) وص ٤٥برقم(١٢١)، والنسائي في الخصائص ١٧٦برقم(٩٤و٩٥) وص ١٧٧برقم (٩٦)، والحاكم في المستدرك ١١٦/٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠٧/٩.

وعن جرير بن عبدالله، أخرجه عنه: الطبراني في الكبير ٣٥٧/٢(٢٥٠٥).

وعن حبشي بن جنادة، أخرجه عنه: الطبراني في الكبير ١٦/٤(٣٥١٤).

وللحديث طرق كثيرة يطول الكلام عليها، وفيما يلي سنذكر شيئا مما قيل عن الحديث:

قال ابن المغازلي الشافعي في (المناقب/٢٧): قال أبو القاسم الفضل بن محمد: هذا حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد روي عن نحو من مائة نفس منهم العشرة، وهو حديث ثابت لا أعرف له علة.

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في (الشافي ١/١١٧): لا يوجد قط نقل بطرق بقدر هذه الطرق، فيجب أن يكون أصلا متبعاً وطريقا مهيعاً.

قال الإمام الحسن بن بدر الدين في (أنوار اليقين/مخطوط): أما خبر الغدير فقد روي بطرق مختلفة وأسانيد كثيرة وألفاظ مختلفة مترادفة على معنى واحد، وأجمع عليه أهل النقل، وبلغ حد التواتر لا إشكال في تواتره.

وقال ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري٧/٦١): وأما حديث: (من كنت مولاه فعلي مولاه). أخرجه الترمذي والنسائي، هو كثير الطرق جداً وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد وكثير من أسانيدها صحاح وحسان.

وقال الذهبي في (تذكرة الحفاظ ٢/٧١٣): رأيت مجلداً من طرق الحديث لابن جرير فاندهشت له ولكثرة تلك الطرق.

وقال أيضا في (تذكرة الحفاظ ٣/٢٣١): وأما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فله طرق جيدة وقد أفردت ذلك أيضا ــ يعني في كتاب.

وقال الحافظ: محمد بن إبراهيم الوزير: إن حديث الغدير يروى بمائة طريق وثلاث وخمسين طريقاً.

وقال السيد الهادي بن إبراهيم الوزير في (نهاية التنويه/مخطوط): من أنكر خبر الغدير فقد أنكر ما عُلم من الدين ضرورة، لأن العلم به كالعلم بمكة وشبهها، فالمنكر سوفسطائي.

وقال ابن الجزري في (أسنى المطالب/٤٣): هو حديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رواه الجم الغفير عن الجم الغفير ولا عبرة بمن حاول تضعيفه ممن لا اطلاع له في هذا العلم.

وقال المقبلي في (الأبحاث المسددة/٢٤٤): فإن كان مثل هذا ــ يعني حديث الغدير ــ معلوماً وإلا فما في الدنيا معلوم.

وقال ابن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة/٤٢): حديث صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد، وطرقه كثيرة من أسانيدها صحاح وحسان، ولا التفات إلى من قدح في صحته.

، وقوله: « أنا مدينة العلم وعلي بابها »[٢]، وأمثال هذا كثير ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحسن والحسين عليهما السلام: « هذان إمامان قاما أو

وقال علي القاري في (المرقاة شرح المشكاة ٥/٥٦٨): هذا الحديث صحيح لا مرية فيه، بل بعض الحفاظ عده متواتراً.

وقال ابن الأمير الصنعاني في (الروضة الندية/٦٧): حديث الغدير تواتر عند أكثر أئمة الحديث.

وأورده السيوطي في (الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة/١): عن ثمانية عشر صحابياً.

وأورده الكتاني في (نظم المتناثر في الحديث المتواتر).

وذكره الحناوي في كتاب(الصفوة) وصرح بتواتره.

وذكره الزبيدي في (لقط اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة/٢٠٥) من اثنتين وعشرين طريقاً.

وأورده الأميني في كتاب (الغدير ١/١٤ ــ ١٥١) عن مائة وعشرة من الصحابة. وأفرد قسماً لطبقات رواته الذين بلغ عددهم عنده ثلاث مائة وستين عالماً. من تخريج الأستاذ محمد عزان.

(١) ((أنت أخي في الدنيا والآخرة، وأقرب الخلائق مني في الموقف، منزلي يواجه منزلك في الجنة، كما يتواجه منزل الأخوين في الله، وأنت الولي والوزير والخليفة في الأهل والمال وفي المسلمين وفي كل عيبة)) أمالي المرشد بالله ١/١٤١، وأمالي أبي طالب /٤٧.

(٢) أخرجه الحاكم ٣/١٣٧(٤٦٣٧) و(٤٦٣٨)، ٣/١٣٨(٤٦٣٩)، والطبراني في الكبير ١١/٥٦(١١٠٦١)، والخطيب البغدادي ٤/٣٤٨، ورواه ابن الأثير في أسد الغابة ٤/٢٢، والمتقي الهندي في كنز العمال٦/١٥٢، والمناوي فيض القدير ٣/٤٦، وقالا: أخرجه العقيلي وابن عدي والطبراني والحاكم عن ابن عباس، وابن عدي والحاكم عن ابر، وزاد المناوي في الشرح فقال: وكذا أبو الشيخ في السنة. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١١٤، وابن حجر في التهذيب ٦/٣٢٠، ٧/٤٢٧، والطبري في الرياض النضرة٢/١٩٣، والمناوي في كنوز الحقائق/٤٣، وقال: أخرجه الديلمي.ورواه ابن حجر في الصواعق/٧٣، وقال: أخرجه البزار والطبراني في الأوسط عن ابر، والحاكم وابن عدي عن ابن عمر، والترمذي والحاكم عن علي.

وأخرجه الترمذي ٢/٢٩٩ بلفظ: أنا دار الحكمة، وأبو نعيم١/٦٤، والبغدادي في تاريخه ١١/٢٠٤، والهندي في الكنز ٦/٤٠١.

قعدا »[١]، وأشباهه كثير ، وقوله في ذريته: « إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا ، كتاب الله وعترتى أهل بيتي ، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[٢]، وقال: « إني مخلف فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتى أهل بيتي ».

ورواه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ٥٨/٢٢١، وابن حجر في اللسان ١٢٣/٢، والذهبي في الميزان ٤١٥/١(١٥٢٥)، والسيوطي في الجامع الصغير ٣٧٤/١، والقندوزي في ينابيع المودة/٧٣، وللعلامة المحدث الغماري الحضرمي كتاب بعنوان: (فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي)، وللعلامة الأميني موسوعة الغدير ذكر للحديث أكثر من مائة مصدر.

(١) الحديث متلقى بالقبول عند عموم الشيعة.

(٢) هذا الحديث ورد بألفاظ متفاوتة فممن أخرجه وفيه لفظ (وعترتي) الإمام زيد بن علي في المسند/١٠٤، والإمام الرضى في الصحيفة/٤٦٤ ، والحافظ محمد بن سليمان الكوفي في مناقبه/١٦٧ رقم (٦٤٦)، والإمام أبو طالب في الأمالي ١٧٩، والمرشد بالله في الأمالي/١٥٢، والدولابي في الذرية الطاهرة/١٦٦ رقم (٢٢٨) والبزار ٨٩/٣ رقم (٨٦٤) عن علي.

وأخرجه مسلم ١٥/(بشرح النووي) ١٩٩، والترمذي ٦٢٢/٥ رقم(٣٧٨٨)، وابن خزيمة ٦٢/٤ رقم (٢٣٥٧)، والطحاوي في مشكل الآثار ٣٦٨/٤ ــ ٣٦٩، وابن أبي شيبة في المصنف ٤١٨/٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٦٩/٥ (تهذيبه)، والطبري في ذخائر العقبى/١٦، البيهقي في السنن الكبرى ٣٠/٧، والطبراني في الكبير ١٦٦/٥ رقم (٤١٦٩)، والنسائي في الخصائص ١٥٠رقم (٢٧٦)، والدارمي ٤٣١/٢، وابن المغازلي في المناقب ٢٣٤، ٢٣٦، وأحمد في المسند ٣٦٧/٤، وابن الأثير في أسد الغابة ١٢/٢، والحاكم في المستدرك ١٤٨/٣، وصححه وأقره الذهبي عن زيد بن أرقم.

وأخرجه عبد بن حميد ١٠٧ ــ ١٠٨ في (المنتخب)، وأحمد ١٨٢/٥و ١٨٩، والطبراني في الكبير ١٦٦/٥، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١٥٧ رقم (٢٦٣١)، ورمز له بالتحسين، وهو في كنز العمال ١٨٦/١ رقم (٩٤٥)، وعزاه إلى ابن حميد وابن الأنباري عن زيد بن ثابت. وأخرجه أبو يعلى في المسند ١٩٧/٢و ٣٧٦، وابن أبي شيبة في المصنف ١٧٧/٧، والطبراني في الصغير١٣١/١و ١٣٥و ٢٢٦، وأحمد في المسند ١٧/٢، ٢٦/٦، وهو في كنز العمال ١٨٥/١

فلا يقولن أحد: إن عترة محمد صلى الله عليه وآله وسلم غير ولد الحسن والحسين ، وذريتهما منه ، فمن ادعا غير ذلك أبطل.

فكونوا - رحمكم الله - جميعا ولا تفرقوا فتَبَتتك منكم مرائر[1] القوة ، وتَرِثّ[2] بينكم حبال الأخوة ، وتذهب عنكم خصال المروءة ، وتنبعث فيكم

رقم (٩٤٣)، وعزاه إلى البارودي ورقم (٩٤٤)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، وابن سعد، وأبي يعلى. عن أبي سعيد الخدري.

وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤٤٢/٨، وهو في الكنز ١٦٨/١، وعزاه إلى الطبراني في الكبير عن حذيفة بن أسيد.

وأخرجه الترمذي في السنن ٦٢١/٥ رقم (٣٧٨٦)، وذكره في كنز العمال ١١٧/١، رقم (٩٥١)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، والخطيب في المتفق والمفترق عن جابر بن عبد الله. والكنجي في كفاية الطالب ١١، وابن سعد في الطبقات ٨/٤، ورواه في العقد الفريد ٩٥٨/٢، و٣٤٦. وفي تذكرة الخواص/٣٣٢ن ورواه نور الدين الحلبي في إنسان العيون ٣٠٨/٣، والعزيزي في السراج المنير شرح الجامع الصغير ٣٢١/١، وابن الصباغ في الفصول المهمة/٢٤، وشهاب الدين الخفاجي في نسيج الرياض ٤١٠/٣، والثعلبي في الكشف والبيان عن تفسير آية الاعتصام، وآية (أيها الثقلان). والرازي في تفسير آية الاعتصام ١٨/٣ وهو في تفسير النظام النيسابوري ٢٥٧/١، ٩٤/٤، وفي تفسير ابن كثير الدمشقي ٤٨٥/٣، و ١١٣/٤، ورواه في البداية والنهاية في ضمن حديث الغدير وابن الأثير في النهاية الجزء الأول، والسيوطي في الدر المنثور/١٥٥، وذكره في لسان العرب في مادة عترة ومادة ثقل وحبل، والشيرازي في القاموس في مادة ثقل، والزبيدي في تاج العروس في مادة ثقل أيضا. وشرح نهج البلاغة ١٣٠/٦ في معنى العترة، ومدارج النبوة لعبد الحق الدهلوي/٢٥٠، والمناقب المرتضوية لمحمد صالح الترمذي الكشفي/٩٦، ٩٧، ١٠٠، ٤٧٢، ومفتاح كنوز السنة ٤٤٨/٢، ومصابيح السنة للبغوي ٢٠٥/٢، ٢٠٦. والصواعق المحرقة/٧٥، ٨٧، ٩٠، ٩٦، ١٣٦، وإسعاف الراغبين في هامش نور الأبصار/١١٠. وينابيع المودة/١٨، ٢٥.

(١) المرائر: جمع مِرّ ، وهو الحبل والقوة ، قال الله تعالى: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾ [النجم:٦].

(٢) ترث: تبلى وتَخلَق.

سَوْرَةُ[١] الحمية بأحقاد الجاهلية ، وأهل المذاهب الردية ، فينبوا بكم القرار ، وتعلوا عليكم الأشرار ، ويلحقكم الغبار[٢] ، ولا وزر ينجي ذا الرمق ، ويؤوي ذا القلق ، ومن اشتغل بما يعنيه عمل لما ينجيه ، واحترز من الذم ومساويه ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ [الأنفال:٤٦] ، فكل شيء حسن بالصبر ، ومن جعل الدنيا مطيته ، والعمل زاده ، والآخرة قصده ، استكثر من الزاد ، وتقوّى على السفر للمعاد ، وكل شيء من أمر الدنيا والآخرة يحتاج إلى الصبر ، فمن صبر نال ، ومن عجز مال ، فلا يكن أهل الدنيا على دنياهم أحرص منكم على آخرتكم ، ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

ويجهل مَن جَهِلَ صفة الإمامة ، وادعا الإمامة وهو غير كامل ، ودفع الكامل.

[الروافض والنواصب]

فمن خالفكم من الروافض والنواصب فقد جاء فيهم حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يا علي ، يهلك فيك رجلان: محب غال ، ومبغض قال ».

والنواصب نصبوا العداوة لعلي عليه السلام ومن بعده ، فاتبع النواصب أمراء السوء وأئمة الكفر ، واتبع الروافض مالا يوجد ولا يعلم ، ووصفوا الإمام بصفة الأنبياء ، فلا الإمام عرفوا ، ولا النبي عرفوا ، وكل يخبط في عميا من أمره ، والحجة على الجميع ما قدمنا في صدر كتابنا هذا في كل أصل ، لأن

---

(١) السَّورَة: الحدة.

(٢) الغَبَر: الداهية العظيمة التي لا يهتدى لمثلها.

لكل موصوف صفة ، ما وافق فيها كان مثالها ، فمن وصف الإمام بصفة النبي لم يعرفهما جميعا ، ومن أجاز صفة أمراء الفجور بصفة أمراء البر ، نسب أن الله عز وجل أمر بطاعة مَن عصاه ، وهذا كفر.

فتأمل أصول ما فسرت لك من كتابي هذا ، تعلم الحق على صحته ، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: « يا حارث ، أعرف الحق تعرف أهله ، فإن الحق لا يعرف بالرجال »[1].

ألا ترى أن لكل شيء من أمر الدنيا والدين له صفة يختص بها ، ما شاركه فيها كان مثله ، وما خالفه لم يكن مثله ، كالصلاة والحج ، والطهارة والصيام ، والزكاة وغير ذلك ، وكل فرض منه له صفة معلومة ، فمن فعل الحج كان حاجا ، ومن فعل الحج معه كان مثله ، وكذلك سائرها تجري مجراها ، كذلك أمور الفسق والسرق[2] والزنا ، وكذلك الرمان والعنب والتمر والعسل ، فمن لم يُعرِّف شيئا منها قبح أن يأمره بفعله ، إلا أن يعلمه إياه ، ففي فهمه إياه ومُكْنَته منه وعلمه ، حسن أن يأمره وينهاه ، فلو قلت لمن لا يعرف الرمان: اشتر لي رمانا ، لكنت قد ظلمته وظلمت نفسك ، وما جرى على هذا المثال جميع ما في هذه الدنيا.

فالعلم بالشيء قبل الأمر به ، والعلم أولى بكل ذي عقل ، وفي هذا كفاية لمن قبل ، فأما من عاند وآثر الدنيا ، فهو كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ [الأنعام:١١١] ، وذلك لفساد قلوبهم ، واتباع أهوائهم ، وتقليد آبائهم ، وإيثار الهوى ، لقل الطاعة والتقى ، ومن أراد محلا محصنا

---

(١) الرواية: ((يا حارث إنك نظرت تحتك ، ولم تنظر فوقك فحِرْت ، إنك لم تفرق الحق فتعرف من أتاه ، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه)). نهج البلاغة ، قصار الحكم /٢٦٢.

(٢) في (ب): الشرك.

، ومكانا أمينا ، قدَّم الرحلة وآثر الطَّلبة ، ولم تغلب عليه الإساءة ، ولم يرض لنفسه بلَيتَ وعسى ، فإن الله تعالى قد ضمن لأوليائه المعونة ، فقال: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١] ، و ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فمن أراد ما عند الله آثر رضا الله ، فانظر - أدام الله عزك - فإنك تبلغ ما أحببت من ذلك ، فإن جمعنا الله وإياك فذلك المراد ، ومعه[1] إن شاء الله يظهر ما علمنا بطلب ما عنده ، ونودع من دينه ما أودعناه ، ونجتهد في ذلك. فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولهُ ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: « نضر الله امرأ سمع مقالنا فوعاه ، ثم أداه إلى من لا يسمع ».

قال الله سبحانه: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩] ، وقال: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢٢] ، فإن يَجمع الله فسَيُسَرّ كلٌ بكل ، وإن تكن الأخرى فعقولكم - والحمد لله - صحيحة ، وكتاب الله وسنة نبيكم ، والله بعد ذلك معكم. وهذه جمل في الإمامة تغني وبالله التوفيق ، ومنه الهداية وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) في (أ): ومن معه.

باب معرفة الأصل الثامن في معرفة البر والفجور وما فيه رضا الله تعالى

اعلم - رحمك الله - أن المخالفين لنا من النواصب والروافض وغيرهم من اليهود والنصارى ، قد شاركونا في ثلاثة أشياء: في العمل ، والاعتقاد ، والقول. وقد زدنا عليهم بالإصابة للحق والاجتهاد ، وهذه الأربع دعائم الإيمان.

والإصابة هي: المصاب للحق للمراد المطلوب ، الذي يستحق أن يطاع فيعمل له ، ويقال بفضله ، ويعتقد بالقلب حقه ، وهو معرفة الرب عز وجل ، وما يجب أن يعرف مما قدمناه في كتابنا ، فصارت أعمالنا واعتقادنا صوابا ، لأنها على أصول صحيحة ، وصارت أعمال اليهود والنصارى والنواصب والروافض باطلا ، لأن المراد الذي يُستحق ويقال ويعمل له ليس يعرفونه ، وهذه المقدمات التي وصفناها من الإيمان بالله بعد معرفته ، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله ، والأئمة الخلفاء لرسله ، وأمره ونهيه في رضاه وسخطه ، فتعلم بالعقل والسمع في كتاب الله وسنة نبيه وإجماع الأمة.

فأما العقل فكل حَسَن فَأْتِه ، وكل قبيح فدعه.

وأما الكتاب والسنة وإجماع الأمة فمشهور ، فيه البر والفجور ، فمن تعلق بالبر كان بارا وليا من أولياء الله ، ومن تعلق بالفجور كان فاجرا عند الله ، تَبيَّنْ ذلك تجدْه كما وصفت لك.

والعلم بأولياء الله وأعداء الله على ضربين ، فمنه ما يعلمه العامة والخاصة ، وهو ظاهر في الجملة ، ومنه ما يعلمه الخاصة وهم العلماء ، ولا يلزم العامة إلا ما ظهر ، وكل من ظهر بره وفضله كان وليا ، وكل من ظهر فسقه وشره كان عدوا ، ومن استتر أمره ، وغاب عنك حاله ، وشككت في أمره ، فاحمله على ظاهر أمره ، فمن كان ظاهره ظاهر الإسلام فهو مسلم ، ومن

كان ظاهره ظاهر الكفر فهو كافر ، ومن كان ظاهره ظاهر الفسق فهو فاسق ، لا تَكَلَّم بشيء إلا بعلم ، والعلم فهو ما قدمنا ذكره ، إما ضروري ، وإما استدلالي ، وفي هذا كفاية.

باب الأصل التاسع

ثم تعلم أن معاصي الأنبياء المذكورة ليست بكبائر ، إنما هي صغائر ، والصغائر فهو: ما وقع على سبيل النسيان والخطأ ، كخطيئة آدم عليه السلام ، وغيره من الأنبياء عليهم السلام ، وليس بعمد ولا قصد إلى معصية الله ، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب:٥] ، فكل ما كان قبيحا عقلا وسمعا فمن أتاه عمدا قصدا له مع علمه بقبحه فقد أتى كبيرة ، وهذا لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام ، وما كان على سبيل الخطأ والنسيان في أول حال المرء ، ثم رجع في ثاني حال ، ولم تستمر به الغفلة عليه ، وتأمَّله بأي حال فَعلَه معصية ، [ثم] تاب ورجع كان صغيرة ، لأنه ليس لنبي ولا إمام ، ولا مؤمن ، أن يحل ولا يحرم إلا بعلم ، فما علمه حقا قاله ، وما علمه باطلا اجتنبه ، وما لم تدل عليه دلالة أحدهما توقف فيه ، ولم يعتقده حتى ينظر فيه ، فأيهما كان وَصَفَه به والحقه ، فمن غفل في ابتداء أمر فاستعجل في شيء من فعله ، ثم تأمله في ثاني حال ، فصح بتأمله زلله فتاب من عجلته ، وأناب من زلته ، مثل الأنبياء ، ومن عظم حاله من الأئمة الفضلاء ، ومن الأخيار الذين لا يؤثرون الغفلة ، ولا يَدَعُون اتباع الطاعة ، فهذا أصل افهمه فإنه مما يجب أن يُعرف ، فإن كثيرا من الجهال ينسبون إلى الأنبياء عليهم السلام المعاصي الكبار ، وهذا لا يجوز عليهم ولا على الأئمة إلا على سبيل الخطأ والنسيان.

فأما الأنبياء فإنهم لا يجوز عليهم ذلك في دين الله عز وجل الذين أمرهم بتبليغه ، لأنه يحوطهم حتى يبلغوا رسالته ، ويعضدهم بالتأييد واللطف. وأما غير ذلك من أمورهم في أنفسهم فإنهم بشر ، ولكنهم بحفظهم لأنفسهم ،

وصبرهم واعتصامهم بدين الله عز وجل ، ومراعاتهم لأنفسهم ، فإنهم[1] لا يؤثرون الغفلة ، ولا يقع منهم ذلك في الدين ، فأما في أمر دنياهم فلربما ، فلذلك عظم ثوابهم لشدة تعبهم ، وتحملهم المشقة في رضا الله عز وجل.

[العصمة]

فأما العصمة التي ذكرتها ، فهي على ضربين:

عصمة فعلٍ من الله ، مثل خلق العباد والسماء والأرض ، وكلما صنع عصمة عليه منه ، ليس لشيء منه اختيار في نفسه.

وحقيقة العصمة في اللغة: التمسك بالشيء. ألا ترى أنك تقول: اعتصم فلان بفلان ، أي: عَزَّ به وامتنع ، وتقول: عصمه ، منعه ، فالله الممسك للسماء والأرض ، ولعزه وجلاله لم يمتنع عليه وامتنعت على غيره.

والعصمة الثانية: هو ما قال الله سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، وهو أن تمسكوا بدين الله ، وأن تعتزوا بالله ، وتلجأوا إليه ، فكل متعبد من ملك ونبي ومؤمن ، وغيره من الموحدين والملحدين ، فمن هذه الطريق أمروا ، بعد أن مكّنهم سبحانه ، وبعد أن أعطاهم من القوة والآلة ، فمن اختار اختيار الله له رشد ، ومن عدل عنه عذب ، وفي ضلاله ردد.

فأما العصمة الأولى ففعل الله حتما وجبرا ، ولو كان الله قد جبر الأنبياء والملائكة والأئمة على الطاعة ، لما كان لهم فعل ، ولكان يقبح مدحهم ، ألا ترى أن كل فعل الله في عباده لا يُحمد عليه أحد ولا يُذم ، مثل الأسود والأبيض ، والموت والحياة ، والجدب والخصب ، فالله محمود على الكل ، والصحة والمرض ، ويُحمد العباد على الإحسان ، ويُذمون على الفساد ، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣] ،

---

(١) في المخطوطتين: وإنهم. ولعل الصواب ما أثبت.

فلما كان حكيما كانت أفعاله حكمة ، لم يُسأل عنها لأنها صواب ، وإن عرفنا بعضها وجهلنا بعضها ، فعلينا أن نؤمن بكلها رضىً بفعله وثقة به ، لأنه حكيم عدل ، والحكيم العدل لا يفعل سفها ولا ظلما ، ولا سيما وهو العزيز الغني: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] ، ونحن نُسأل عن أفعالنا فنثاب على الحسن والصحيح ، ونعاقب على الفساد والقبيح.

فافهم هذا الفصل ، فإن فيه أيضا دلالة على بطلان قول المجبرة ، الذين يقولون: إن الله سبحانه يقضي بالفساد.

[معاني القضاء]

والقضاء على وجوه أربعة:

قضاء حتم وخلق ، وهو قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١٢] ، أي: فعلهن حتما ، فكل خلق خلقه مثل هذا كان حتما.

وقضاء علم ، وهو قوله: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء:٤] ، معناه: علمنا بني إسرائيل أنهم يفسدون في المستقبل.

وقضاء أمر ، وهو قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] ، أي: أمر.

وقضاء نهي ، لأنه نهى ألا يعبدوا سواه ، وأمر بعبادته ، لأن معنى قضى ، أمر أن لا يعبدوا ، فعرف من ذلك.

[معاني القدر]

والقدر على وجهين:

تقدير الخلق.

وتقدير الرزق والآجال وكلما صنع ، وهو قولـه: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [فصلت:١٠].

وتقدير عقوبة لمن عصاه.

وتقدير ثواب لمن ارتضاه ، فالآخر جزاء ، والأول نعمى وهدى.

[القدرية]

فمن قال: إن المعاصي من الله فهو قدري ، لأنه قدرها وأثبتها فعلا له عز وجل ، ومن نفاها وقال هو عدل لا يقضى ولا يُقدر معاصيه فليس بقدري ، لأنه ينفى عن الله القبيح. فهو أصل يجب أن يُعلم.

فأما الصالحات فقد تقدم من ذكرها ما فيه كفاية ، وكذلك الفاحشات ، وهن مع ذكر الحلال والحرام في كتاب الأحكام[1] عندك ، فمن علم ما قلناه ثم عمل به ، تم له دينه ، وزكى عمله ، ونفعه تَقَرُّبه الذي به يتقرب إلى الله.

ألا ترى إلى ما ذكر الله من ابني آدم ، حيث قال: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧] ، فلم يقبل منه لَمَّا لم يكن متقيا لله ، والاتقاء لله هو: الامتناع عن محارمه ، فمن امتنع منه قبل الله أعماله ، وزكى أفعاله.

وفي هذا كفاية وبيان لذي عقل وعرفان ، والحمد لله الموفق للبيان والهادي لكل إنسان.

---

(١) الظاهر أنه يقصد كتابا غير كتاب الإمام الهادي. لأنه توفي قبل أن يتمه الإمام الهادي.

كتاب

شرح دعائم الإيمان

كتاب شرح دعائم الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبـــيين ، وأهـــل بيتـــه المطهرين.

قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتفسير ذلك ومخرجه مـــن طريق الباطن ، وهو شرح باطن الايمان ، وكمال أدب أهل المعرفة بالله وهم الفرقة الناجية ، وذكر خصوص الله لهم وَمنِّه عليهم ، بما ابتدأهم من كـــثير رحمته وفضل ذخره لهم من مزيده ، والحجة البالغة لله على أهـــل المعرفـــة والعبودية ، القائمين له بالقسط في عبيده ، والذائدين عـــن حـــريم دينـــه ، والمعتبرين بما أغناهم به من فوائد مزيده ، وألهم قلوبهم من نور حكمته ، فهم يعبدون بضياء شرح قلوبهم المحكم من كتابه ، وأخبار رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، وسنن الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ، بما جعل في قلـــوبهم من الإلهام والفطن ، كمثل علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى آله الطاهرين وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك جميع المهاجرين والأنصـــار والتابعين بإحسان ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا سويد بن سعيد الحدثاني عن عتبة بن أبي معاذ ، أن رجلا سأل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه عن الأيمان؟

فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد.

والصبر من ذلك على أربع شعب: على الشوق والإشفاق والزهادة والترقب.

فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ترقّب الموت سارع إلى الخيرات.

واليقين على أربع شعب: على تبصرة الفطنة ، وتأويل الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين.

فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

والعدل من ذلك على العبرة ، غائص الفهم ، وزهرة العلم ، وشرائع الحكمة ، وروضة الحلم.

فمن فَهِمَ فسر العلم ، ومن علم عرف شرائع الحلم ، ومن حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا.

والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنأن الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ، ومن شنئ الفاسقين غضب لله ، ومن غضب لله غضب الله له.

باب الإيمـــان

الإيمان على أربع دعائم ظاهرة وباطنة:

فظاهرة الإيمان قول وعمل ونية وسنة ، فهذه الأربع هي ظاهرة الإيمان ، قول باللسان ، وعمل بالجوارح ، ونية بالقلب ، وسنة وهي إصابة الحق.

والأربع التي وصفها علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في باطن الأمر وهي: الصبر واليقين والعدل والجهاد. ومخرجها من هذه الأربع الظـــاهرة القـــول والعمل والنية والسنة ، فمخرج الصبر من النية ، وهو صبر القلب ، فظـــاهره نية وباطنه صبر ، ومخرج اليقين من السنة ، هو صواب الحق ، فظاهره ســـنة وباطنه يقين ، ومخرج العدل من القول ، فظاهره القول وباطنه العدل ، ومخرج الجهاد من العمل ، فظاهره العمل بالجوارح وباطنه الجهاد. فهذه الأربع الـــتي ظاهرها ما وصفنا من علم الظاهر ، وباطنها من علم الباطن.

فمعنى الإيمان على أربع دعائم ، يعني: على أربع أساطين [١] ، وإنما أراد بـــه عليه السلام الإيمان قول وعمل ونية وسنة التي وصفنا ، فإذا كملـــت هـــذه الأربع بشرائطها من باطنها وظاهرها فهو كمال الإيمان ، وذلك روي عـــن علي رضي الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، أنهما قالا: « لا ينفع قـــول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا ما وافق السنة »[٢].

---

(١) الأساطين: جمع إسطوانة.

(٢) الكافي ١/٧٠ ، ووسائل الشيعة ١/٤٧ ، وأمالي الطوسي /٣٣٧.

باب موافقة السنة

وموافقة السنة إصابة الحق ، وهو النور في القلوب الذي خص الله به أهل الحق ، وهم أهل المعرفة الذين خصهم الله بنور اليقين في قلوبهم ، فأصل المعرفة من اليقين هو النور الذي تصح فيه الأعمال ، وتكمل به الطاعات ، ويترقى به أهل المعرفة في الدرجات ، وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال جل ثناؤه: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٢٢] ، وقال جل ثناؤه: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ [النور:٣٥] ، وقال جل ثناؤه: ثناؤه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ... ﴾ [الأنعام:١٢٢] الآية.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره: « إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب ، وانشرح له الصدر »[(١)].

وقال النبي صلى الله عليه وآله في حديث حارثة: « من سره أن ينظر إلى رجل قد نوَّر الله قلبه بالإيمان فلينظر إلى حارثة »[(٢)].

وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يقول في دعائه: « اللهم

---

(١) بحار الأنوار ١٢٢/٧٠.

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الايمان إذا دخل القلب انفسح له القلب وانشرح وذكر هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]. قالوا: يا رسول الله وهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: نعم ، الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧٦/٧(٣٤٣١٤).

(٢) الكافي ٥٣/٢.

اجعل لي نورا في قلبي ، ونورا في بصري ، وزدني نـــورا إلى نـــوري »[(١)].
والأخبار في ذلك تكثر.

فهذا النور الذي يُصاب به الحق ، وتصح به الأعمال ، وتزكو بـــه عنـــد الله لأهلها ، ويستوجبون بها الثواب عند الله ، وهي خصوص من الله لمن يشاء من عباده ، عندما يكون من قبول هدايته التي عمهم بها بقوله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝ ﴾ [الإنسان:٢] ، أو بقوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ [الشـــورى:١٤] ، وبقولـــه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] ، فمن قَبِلَ عن الله وعمل بطاعته ، كان من حكم الله تأييده ، والزيادة له من توفيقه. وكذلك أوجبه تعالى على نفســـه بقولـــه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمـــد:١٧]، وبقولـــه: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغـــابن:١١]، وبقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. فمن قَبِلَ عن الله ما ابتدأه به زاده شرحا لصدره، وتنويرا لقلبه، وهم الذين شاء الله أن يمن عليهم بذلك بعد قبولهم.

وكذلك قـــال في كتابـــه: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم:١١] ، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله في حديث أبي بريدة عن أبيه قال: « القضاة ثلاثة ، فقاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل حكم بكتاب ربه وسنة نبيه فأصاب الحق فهو في الجنة ... »[(٢)] ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام:

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٥/١٠٧ ، وبحار الأنوار ٨٤/٣٢٠.

(٢) أخرجـــه النســـائي في ســـننه الكـــبرى ج ٣/ص ٤٦١/ح ٥٩٢٢ ، وابـــن حبـــان في صحيحه ١٠/ص ٥١٠/ح٤٦٥٣ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٦١٣/ح١٣٢٢ ، وابن ماجـــه في

« القضاة ثلاثة ، فقاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل قضى بكتاب ربه وسنة نبيه فأصاب الحق فهو في الجنة ، ورجل جَارَ في الحكم متعمدا فهو في النار ، ورجل حكم بغير علم فهو في النار. فقيل: ما بال هذا الذي اجتهد فأخطأ فهو في النار؟! قال: إذا لم يكن عالما لا يكن قاضيا »[١].

وقال حذيفة بن اليمان في حديث أبي موسى حين سأله رجل فقال: « أرأيت إن جاهدت بنفسي ومالي فقتلت في سبيل الله أين أنا؟ فقال له أبو موسى: في الجنة. قال له حذيفة: أَفهِم صاحبك واستفهمه ، فأعادها عليه ثلاثا ، كل ذلك يقول أبو موسى في الجنة. فقال حذيفة: إن جاهدت في سبيل الله بنفسك ومالك فأصبت الحق فقتلت عليه ، فأنت في الجنة ، ومن لم يوافق الحق لم يوفق للصواب. فقال أبو موسى: صدق صدق »[٢].

سننه ج٢/ص٧٧٦/ح٢٣١٥ ، وأبي داود في سننه ج٣/ص٢٩٩/ح٣٥٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص١٠٢/ح٧٠١٢ ، ج٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٢٠/ح١١٥٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢١٠/ح٣١٧ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج١/ص١٨١/ح١٨٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١١٧/ح٢٠١٤١ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٥٥/ح٩٨٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٤/ص٥٤٠/ح٢٢٩٦٣.

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٧/٢٤٥ ، وبحار الأنوار ١٠١/٢٧٠.

(٢) لم أقف عليه.

باب الصبر

وهو أول الدعائم ، فالصبر منه على أربع شعب: على الشوق ، والشـــفق ، والزهادة ، والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشـــفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ترقب الموت سارع إلى الخيرات.

فالصبر من ذلك على ثلاثة وجوه:

فصبر عن المعصية وهو أول الوجوه.

والوجه الثاني: صبر على الطاعة.

والوجه الثالث: صبر على المحن.

باب الصبر عن المعصية

وهو أول الوجوه ، والصبر عن المعصية أن يكون العبد يهم بمواقعة المعصـــية فيذكر عقوبة الله له عليها فيدعها خوفا من العقوبة ، ويخالف هواه ويصـــبر على مخالفة الهوى عند وقوع الشهوة ، فينظر الله إليه عند ذلك مجاهدا لنفسه ، مخالفا لهواه ، تاركا لشهوته ، عند القدرة عليها والتمكن منها ، فيرحمـــه الله عند ذلك فيصرفها عنه بفضله وعصمته ورحمته.

ويستعان على مثل هذا الوقف بالحياء من الله والمراقبة لله ، ومن ذلك ما روى مجاهد أنه قال في قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] ، فقال: هو العبد يهم بمعصية فإذا أراد أن يواقعها ذكر مقام الله عليه ، فيدعها خوفا من الله فله الجنتان.

وقال تبارك وتعالى في قصة يوسف يخبر عن قـــول النســـوة: ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا

عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف:٥١] (١) ، وقال في صرف المعصية عنه قال: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف:٢٨] ، فكان ذلك منًّا من الله عليه حين ذكر وخاف مقامه ، وتمكن الحياء منه، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣] ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، وقال جل وعز: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف:٢٤]. وهكذا ضمن الله سبحانه لمن اعتصم بحبله ، وراقبه وخاف مقامه ، واستحيا منه ، بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء:٦٦-٦٨]. فضمن تبارك وتعالى العصمة والهداية لمن تمسك بطاعته ، وخاف مقامه ، وعظّم أمره ، ولم يستخف بعذابه ، والله منجز وعده ، وغير مخلف وعيده.

وكان يوسف عليه السلام ممن استحق ذلك لتمسكه بالطاعة ، وكان بذلك من أهل العصمة والتوفيق.

وقال ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه أنه « كان رجل في بني إسرائيل يقال له: كفل ، لا يترع لله عن محرم ، فراود امرأة على نفسها وأعطاها ستين دينارا ، فلما قعد منها مقعد الرجل من أهله ، ارتعدت ، فقال لها كفل: ما لك أكرهتك على شيء؟! قالت: لا ، ولكن هذا عمل ما عملته قط ، وإنما عملته من الحاجة ، فقام كفل عنها وقال: يعطي الله عهدا لا يعصي الله بعده

---

(١) في المخطوطتين: ﴿ تالله ما علمنا ... ﴾.

أبدا ، فمات في ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: إن الله قد غفر للكفل »[١].
فذلك معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « من أشفق من النار رجـــع عن المحرمات » ، يعني: من خاف عقوبة ربه على المعصية صبر على تركها ، ورجع إلى التوبة ، فإذا كان كذلك فهو راجع عن المحرمات.

باب الصبر على الطاعة

وهو الوجه الثاني ، والصبر على الطاعة أن يكون العبد [شـــغوفا] بالطاعـــة ويرغب فيها وبها ، ويعلم أن الله وعد عليها الثواب ، وكل عامل إنما يعمـــل في ثواب قد أُعِدَّ له ، وتقدر معرفته بالثواب بصبر[ه] على الطاعة ، ويرغب في ثوابها ، فإذا كان كثير المعرفة بالثواب دامت طاعته ، واجتهد في الازدياد فيها ، ومالت عنه الفترة والملالة ، وصبر على المشقة والشدة في طول المجاهدة ، حتى يصير إلى درجة الطمأنينة وخفة المكابدة ، والتنعم بالطاعة بعد شـــدة المجاهدة ، فإذا وصل إلى ذلك شاهد الثواب بقلبه كأنه رأي عين ، فعند ذلك ينعم بالطاعة ويتلذذ بمشقتها [٢] على بدنه ، وأورثه حب التـــنعم بالطاعـــة الاجتهاد في دونها ، وصارت له عادة حتى كأنه لا مجاهدة عليه لما سهل عليه من مجاهدتها ، فصارت العادة كأنها خلق من أخلاقه لا يملها ولا يفتر عنها ، ويرى النقصان في الغفلة ، وذلك أن العادة تقوم مقام الطبيعة لدوام العـــادة وخفة المكابدة ، فذلت النفس وأجابت إلى دوام الطاعـــة بعـــد الصـــعوبة ، وانقادت بعد عصيان ، وتلكئ وشدة المحنة [٣] فعتقوا من رِقِّ النفوس ومـــن

---

(١) أخرجـــه أبي يعلـــى في مســـنده ج ١٠/ص ٩٠/ح ٥٧٢٦ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ج٢/ص٢٣/ح٤٧٤٧ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٢٨٤/ح٧٦٥١ ، وأبو يعلى في مســـنده ج١٠/ص٩٣/ح٥٧٢٦ ، وابن الشهاب في مسنده ١/ص٢٢٦/ح٣٤٨.

(٢) في (أ) و(ب): لمشقتها.

(٣) في (ب): العصيان وتلكئ.

أسر الهوى ، وذلك كله بالصبر على المكاره الذي عرَّفهم بثواب الصبر ، وهو ميراث الأعمال ، فصدَّق ذلك ما روي عن ثابت البناني أنه قال: « كابدت العبادة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة »[١].

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »[٢] ، يعني: حفت الجنة بالصبر على المكاره ، وحفت النار باتباع الشهوات.

وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه أنه قال: « يا علي إن استطعت أن تعمل في الرضا باليقين فافعل ، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير »[٣].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٣٨٠/ح٦١٢٢ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧٤/ح٢٨٢٢ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٩٣/ح٧١٦٢ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٩٣/ح٢٥٥٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٦٠/ح٧٥٢١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٣٢/ح٥٦٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٣٤/ح٣٢٧٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٩١/ح١٣١١ ، والدارمي في سننه ج٢/ص ٤٣٧/ح ٢٨٤٣.

(٣)ورد بلفظ: عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن العباس: ((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله عليك لم يقدروا ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضاء باليقين فاعمل ، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٤٤١٦٥.

وقال عمر بن عبيد العزيز: الرضا ليل ، والصبر مُعوَّل المؤمن ، قال الله تبارك وتعـــالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان:٧٥].

وقال في قصة علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة ابنة النبي رضي الله عنها: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانســـان:٨ - ٩] ، فأخبر أنهم إنما أطعموا لوجهه خالصا ، وذلك لكثرة معرفتهم بثواب ربهـــم ، وإيثارهم لمحبته وطاعته ، وبما يعلمون[١] من واجب حقه على عظيم نعمتـــه ، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانســـان:١٢] ، وقال: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون:١١١] ، ونحو هذا في القرءان كثير ، لما [٢] كثرت معرفتهم بواجب حق الله وعظم ثوابه أخلصوا له العمل ، فأورثهم إخلاص العمل دوام الطاعة والتلذذ بها.

فمن ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديث كميل بن زياد: « فاستلانوا ما استوعره المترفون »[٣].

ومن ذلك قول عيسى عليه السلام: « خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان من زهرة الدنيا »[٤].

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب « حين دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط ليس بين جنب النبي وبينه شـــيء ،

---

(١) في المخطوطات: يعملون. والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب) و(ج): مما.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم /٤٩٥.

(٤) من أقف عليه.

فلما استوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالسا ، ورأى عمر أثر الشريط في جنبه عليه السلام فبكى عمر ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يتقلبون في الحرير والديباج وأنت يا رسول الله أكرم الخلق على الله لا تجد ثوبا نطرحه تحتك!! فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا عمر أفي شك أنت؟! فقال له: لا والله. فقال له النبي عليه السلام: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا »[١].

ومن ذلك حديث عائشة قالت: « سترت السهوة بقرا ، فرءاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل مغضبا وهتكها ، وقال لي: يا عائشة إن الله لم يوح إلي أن أكسو اللبِن والطين »[٢].

---

(١) ورد بلفظ: عن جندب قال: ((أصابت إصبع النبي صلى الله عليه وسلم شجرة فدميت ، فقال: هل هي إلا إصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت ، فحمل فوضع على سرير مرمول بخوص أو شريط ، ووضع تحت رأسه مرفقه من أدم حشوها ليف ، فأثر الشريط في جنبه ، فجاء عمر بن الخطاب فبكى فقال: ما يبكيك. فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يجلسون على سرير الذهب ويلبسون الديباج والإستبرق. قال: أما ترضون أن لهم الدنيا ولكم الآخرة)). أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٠٣١/ح٢٦٤٨ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٤٢١/ح١٧٩٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٥٣٩/ح٦٥٧٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٤٤٢/ح٣٣٤٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٣١٢/ح١٨٨١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص ١٧٥/ح ١٧١٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٢٦/ح٩٣٧ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٤٢/ح٧٧٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص١٤٤/ح١٠٣٩٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٤٤/ح١٣٠٧٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص١٠٢/ح١٥٣٣.

(٢)ورد بلفظ: عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، أنه سمع عائشة تقول: ((دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه وتلون وجهه ، وقال:

ومن ذلك حديث أم سلمة رحمة الله عليها قالت: « لبست ذهبـــة في أذني - تعني سفالها - قالت: فنظر إليها النبي عليه السلام فأعرض عني!! فقلت: يـــا رسول الله ألا تنظر إلى ذهبتي؟! فقال: عنها أعرض »[1].

يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. قالت عائشـــة: فقطعنـــاه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١١٧٩/ح٣٠٥٣ ، ومسلم في صـــحيحه ج ٣/ص ١٦٦٨/ح ٢١٠٧ ، والنسائي في سننه ج١/ص١٤٢/ح٢٦١ ، وابن حبان في صحيحه ج٤/ص٧/ح١٢٠٥ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٢/ص٢٩/ح٨٤٤ ، والترمذي في ســـننه ج٥/ص١١٥/ح٢٨٠٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٠٣/ح٣٦٤٩ ، وأبي داود في سننه ج١/ص٥٨/ح٢٢٧ ، وابـــن حنبل في مسنده ج١/ص٨٣/ح٦٣٢ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٦٦/ح١٧٣٤ ، والحـــاكم في مستدركه ج١/ص٢٧٨/ح٦١١ ، والطحاوي في شـــرح معـــاني الآثـــار ج٤/ص٢٥٥/ح٠ ، والطيالسي في مســـنده ج١/ص١٧/ح١١٠ ، والحميـــدي في مســـنده ج١/ص٢٠٦/ح٤٣١ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٤/ص١٢٢/ح٣٨٦٠ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج١/ص١٢١/ح٢٥٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص١٥١/ح١٠٨٦ ، وابن راهويـــه في مسنده ج٢/ص٣٧٥/ح٩١٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٤٤٦/ح١٨٩٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص٢٦٦/ح٣١٣ ، وابن الجعد في مســـنده ج١/ص٣٥٥/ح٢٤٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص١٩٨/ح٢٥١٩٢ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٧٠/ح٢٦٦٣ ، الطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٩٠/ح١٣٤٤.

(١)ورد بلفظ: عن أم سلمة قالت: ((لبست قلادة فيها شعرات من ذهب فرآني النبي صلى الله عليه وسلم فكرهها فأعرض عني فنزعتها ، فقال: ما يؤمنك أن يقلدك الله مكانها يوم القيامة شـــعرات من نار)).

أخرجـــه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٢٣/ص ٤٠٣/ح ٩٦٧ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ٦/ص٣٢٢/ح٢٦٧٧٨.

وكذلك أمر الله نبيه عليه السلام أن يعرض عنها بقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم:٢٩] ، وقال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه:١٣١] ، أي: نمتحنهم ، فمباحها فتنة وحرامها نقمة ، قال تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الشورى:٣٦] (١) ، أي: ثواب ربك.

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٨ - ٢٩]. وذكر عن علي في خبر ذكر عنده الطعام ، فقال: لنا دار غير هذه الدار ، وكان لنا جل متاع فقدمناه إلى تلك الدار ، التي نريد المقام بها ، وكذلك من أحب متاعا أحب اللحوق به ، ثم قال علي بن أبي طالب عليه السلام: إني سمعت الله ذم أقواما فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف:٢٠].

وقال أبو بكر حين استشفى فأُتي بغسل وماء فانتحب ثلاثا ومسح بوجهه ، فقال زيد بن أرقم: فقيل له: « ما يهيجك على البكاء؟! فقال: إني كنت مع رسول الله صلى الله عليه فرأيته يقول: إليك عني ، ولا أرى شيئا ، فقلت: يا رسول الله إنك تقول: بيدك إليك عني ولا أرى شيئا!! فقال عليه السلام: نعم يا أبا بكر ، هذه الدنيا تمثّلت لي في زينتها وزهرتها فقلت: إليك عني ، وهي

---

(١) في المخطوطتين: ﴿ ورحمة الله خير وأبقى ﴾.

تقول: والله يا محمد لئن سَلِمْتَ عني فلم تسلم أمتك من بعدك ، وأخاف أن تكون قد لحقتني ، فذلك الذي هيجني على البكاء »[١].

والأخبار في هذا كثير ، فهذا قول علي بن أبي طالب عليه السـلام: « مـن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات » ، لسهولة المكايدة وخفة المشقة عليه ، لكثرة معرفته بما وُعِد من ثواب ربه.

باب الصبر على الامتحان

وهو الوجه الثالث ، وهو أشرف الوجوه وأغلاها والصب علـى الامتحـان بالصدف في مواطن الامتحان.

ومنها: الامتحان بالأمراض والمصايب.

ومنها: الامتحان بالضيق والشدة.

ومنها: الامتحان بالاختلاف والتحير ، فيحتاج أهل المعرفة بالله إلى الصبر في كل موطن في هذه المواطن ، وأن يستعملوا العلم في تلك المواطن ، ويصبروا على ما امتحنوا ، ولا يستخفنهم الجزع فيخرجهم إلى موضـع السـخط ، فيزول عنهم الصبر بإشهاب[٢] عن الجزع ، وذلك ميراث من الصبر على المحن ، الخروج بالسلامة والقيام لله بقسطه على النحو الذي يرضيه ، مع صـواب الحق فيه ، والخروج من مواضع المحن ، فالجزع السـخط والتفـريط وزوال الثواب ، وأهل المعرفة بالله يعرفون بأنوار قلوبهم موقع كل محنة ، فيستعملون لكل موضع آلته [٣] من العلم فبذلك صاروا أهل المعرفة بالله.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ): باسهان. وفي (ب) و(ج): باستهان. غير أن الحرف الأخير مهمل ، فلم يتضح لي معناها.

(٣) في (أ) و(ب): إليه. مصحفة.

باب الامتحان بالصدق في مواضع المحن

إن المؤمنين لما علموا أن الله جل ذكره لا يُنال ما عنده إلا بالصدق والقيام بأمره ، وأنه لا يملك معه أحد ضرا ولا نفعا فيما يريد أن يتولاه منه بالامتحان للبلوى ، فيثقوا بالله في أحوال الصدق ، ويؤثرونه على الكذب ، إذ علموا أن الله وحده لا شريك له هو المالك لضر الدنيا والآخرة ، وأنه لا يملك أحد معه من ذلك شيئا ، إذ كان يصرف بها ذلك مما لا يدخل قدرة عباده ، وما مكّنهم من فعله ، لأنهم إنما مُكّنوا من فعل ما أمروا به ونهوا عنه ، وإذا استعملوا هذا العلم مع علمهم أن لله لطائف عنهم كيد أعدائهم ، انقطعوا إليه في صرف ذلك دون من سواه ، فزال عنهم الجزع بالانقطاع إليه ، وآثروا القيام لله بقسطه على جميع خلقه ، فزالت عنهم المداهنة ، وكانوا كمن وصفه الله من المؤمنين الذين وصفهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٧٣ - ١٧٤]، وهذا عاقبة التوكل على الله.

باب الامتحان بالمصائب والأمراض

ومنه: الامتحان بالمصائب والأمراض ، فيصبروا على ذلك ويعرفوا أبواب ما عرفوا من نعمة ربهم عليهم فيما ابتلاهم وامتحنهم نظرا منه لهم واختيارا لهم ، فعليهم الصبر على ذلك والتسليم لما اختار ربهم لهم ، حتى أورثهم ذلك الرضا عن ربهم ، وترك الاختيار عليه ، لما هو أهل لقولهم وأقرب إلى ربهم ، إذ علموا أنه أنظر لهم منهم لأنفسهم ، وأنه أعلم بما يصلحهم ويصلح شأنهم ، فيما هو أصلح لقلوبهم ، وأقرب إلى ربهم منهم بأنفسهم ، فإذا استعملوا هذا العلم في هذا الموضع طابت أنفسهم بربهم بالصبر على ما امتحنوا به ، وأوثق في محبته ، وأعطاهم جزيل الثواب في عاجل دنياهم وآجل آخرتهم.

باب الامتحان بالصبر والشدة

فعليهم الصبر على ما امتحنهم من ذلك ، والرضا بما اختار لهم على الرضـــا منهم ، والسرور بما خصوا به من فضله ، والدرجة التي أعطاهم من كراماته ، أن منَّ عليهم بدرجة الأنبياء والصديقين قبلهم ، فنظر لهم فأباد عنهم الكثرة [١] التي هي امتحان وفتنة ، ودرجة الأسفلين من خلقه الذين خلى بينهم وبين ما اختاروا من سعة الدنيا اختيارا وبلوى ليفتنهم فيه ، أي: يمتحنهم فيه ، كما قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه:١٣١] ، وهذا المعنى بعينيه روى عن بعض سلفنا أنه قال: « نعمة الله علـــي فيما زوى عني من الدنيا ، أعظم عندي مما أعطاني منها » [٢].

فيجب على أهل المعرفة والعبودية له أن يعرفوا فضل ما أنعم به عليهم فيمـــا زواه عنهم من فضول الدنيا ، فيشكرونه على نعمه ، ويتبذلون لـــه بحســـن التواضع إليه في طلب المزيد من ذلك ، فأكرمهم ورفع أقدارهم عن رجـــس الدنيا وفضولها ، وأعناهم بفضله وإحسانه ، فهم أحرار كرام بررة أعزاء في الدنيا والآخرة ، فإذا استعمل أهل المعرفة بالله هذا العلم في هـــذه المـــواطن أورثهم ذلك الحب لله ، واستجلاب الزيادة من الصبر بالحنين إلى الله ، في تمام النعمة عليهم ، وأن لا يسلبهم ما مَنَّ به عليهم ، فحينئذ عرفوا شكر الـــنعم فطابت لهم الحيوة الدنيا والنعيم بالعبادة ، إذا رفضوا كل قاطع دونها من مباح الدنيا وغيره ، فأولئك حزب الله في الـــدنيا والآخـــرة ، وحـــزب الله هـــم المفلحون.

---

(١) في (أ) و(ب): الكبرة.

(٢) لم أقف عليه.

وفي ذلك ما روي عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أنه قال: « إن الله أكرم الفقراء بخمسة أشياء:

أولها: فراغ القلب.

والثاني: راحة البدن.

والثالث: سرعة الحساب.

والرابع: خدمة العزيز الجبار.

والخامس: درجات العلى في الثواب »[1].

باب الامتحان بالاختلاف والتحير

ومنه: الامتحان عند الاختلاف والتحيُّر في أمر الدنيا خاصة بأهل المعرفة بالله والقبول عنه ، هم الذين يقفون عند التشبهة إذا عرضت أو حيَّرت فتنة ، لأن المؤمن وقَافٌ عند الشبهات ، فإذا همَّ بأمر نظر فإن كان طاعة لله أمضاه ، وإن كان معصية وقف ، فلما كانت هذه صفتهم صاروا أعلام هدى بما جعل الله في قلوبهم من نور الحكمة ونور التقوى ، فيتخذون الحق سُلَّماً يرقون إليه مع نفاذ البصيرة ، إذا ارتاب المبطلون وتحيَّر الجاهلون ، ويعضون على الصبر على الحق بالنواجذ ، ويلزمون محكم القران والسنة فيما لا يُدرك علمه إلا من قِبَلهما ، ولا يتبعون متشابه القران ابتغاء الفتنة ، عرفوا ربهم بما أقام لهم من الدلائل في سماواته وأرضه ، وما بث بينهما من دابة ، فلا يحدث عند ذلك من رأيهم بدعة ، ولا يتكلفون ما لم يكلفوا علمه ، يتنكبون سبل أهل البدعة ، وينتخيبون طريق أهل الحيرة ، لمعرفتهم لله بنفي شبه الخليقة عنه ، ووصفهم له بالعدل والإحسان إلى جميع خلقه ، وتبرئتهم له عن ظلم عبيده ، وتكليفهم إلا اليسير من طاعته ، وتثبيتهم له الصدق في وعده ووعيده ، والقيام له بما

---

(١) لم أقف عليه.

يوجب الحكم عن جميع عبيده ، والصبر منهم على ذلك ، وبذل النفوس فيما يرضاه سيدهم بنية صادقاة ، حتى يأتيهم اليقين.

فهم عند ذلك أمناء الله الذين استودعهم علمه واختصهم بهداية خلقه ، فهم يتناصحون به بينهم بحسن العشرة ، والدعاء إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، وهم أهل المعرفة الذين وصفهم في كتابه فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وقال الحسن: « إلا أهل الجنة فإنهم لا يختلفون ولذلك خلقهـــم »[1].

فهؤلاء لا صفوة الله من خلقه ، وأهل الرسوخ في علمه ، فإذا كانوا كذلك جعلهم أئمة يقتدى بهم ، فَسَاسَهُم بصنعه ولطفه ، فبذلك فليقتد أهل العلـــم بالله ، والله الموفق. فهذه الأربع الخصال التي قد امتحن الله بها أهل المعرفة قد فسرناها ، والحجة في ذلك مِن مَنِّ الله وفضله علينا وعلى الناس ولكن أكثـــر الناس لا يشكرون.

فمن ذلك ما جاء عن الله في كتابه ، وعن الرسول عليه السلام في أخبـــاره ، وما مدح به الصابرين من أوليائه ، مع ما ذكر لهم من جزيل الثواب ، قال الله جل ثنـــاؤه: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقـــرة:١٧٧]، مدحهم بذلك، وقـــال في ذكر أيوب عليه السلام وما مدحه به من الصبر، فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤] ، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرج ابن المنذر قال: كان يقول الحسن: ((فريقا في الجنة ، وفريقا في السعير)). الدر المنثـــور ٤/٤٩٢.

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن أيضا في الآية ((الناس مختلفون علـــى أديان شتى ، إلا من رحم ربك غير مختلف)). الدر المنثور ٤/٤٩١.

إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، فهذا ما أعد الله لهم من جزيل الثواب

وقال تعالى لنبيه عليه السلام:﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل:١٢٦]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الرعد:٢٢]، ونحو هذا في القران كثير ، ما روى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام قال: « جاءت الأنصار إلى النبي حين أصابتهم الحمى ، فقال لهم النبي عليه السلام: هذه الحمى جاءتني فبعثت بها إلى أحب الخلق إلي وهم الأنصار. فقالوا: يا رسول الله ادعُ الله أن يذهبها عنا. فقال لهم النبي: تحبون أن أدعو الله أن يذهب بها عنكم ، أو تصبروا وتكون لكم طهورا. قالوا: بل نصبر »[1].

وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاءه سائل يسأله ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: « من استعفف أعفه الله ، ومن

---

(١) ورد بلفظ: عن جابر قال: أتت الحمى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنت عليه فقال: ((من أنت؟ قالت: أنا أم ملدم. فقال: أقمدين إلى أهل قباء. قالت: نعم. قال: فأتيهم ، فحموا ولقوا منها شدة ، فاشتكوا إليه فقالوا: يا رسول الله ما لقينا من الحمى. قال: إن شئتم دعوت الله فكشفها عنكم ، وإن شئتم كانت لكم طهورا)).

أخرجه الحاكم في مستدركه ١/ص ٤٩٧/ح ١٢٨٠ ، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ١/ص١٩١/ح٢٤٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٧/ص١٩٨/ح٢٩٣٥ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٤٩٧/ح١٢٨٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٧٥/ح٦٣٤٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٤٠٩/ح١٨٩٢.

استغنى أغناه الله ، ومن تصبَّر صبَّره الله ، وما أعطي أحد عطاء خير له مـــن الصبر »[١].

وروي عن ابن عباس قال: « جاءت امرأة بها لَمَمٌ إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يذهب ما بي. فقال لها: أتصبرين ولـــك الجنة . فقالت: بل أصبر ، ثم قالت: يا رسول الله فادع الله ألا أنكشف فدعا لها »[٢].

---

(١) ورد بلفظ: عن أبي سعيد الخدري قال: أصابه مرة جهد شديد فقال لي بعض أهلي: لو سألت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فانطلقت محتقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أول ما واجهني به قوله: إنه قال: ((من استعف أعفه الله ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن سألنا لم ندخر عنه شيئا وجدناه. قال: فرجعت إلى نفسي أخير إليها ، ألا استعف فيعفني الله ، ألا استغني فيغنيني الله. قال: فما مشيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أسأله شيئا مـــن فاقـــة حتى أقبلت علينا الدنيا فغرقتنا ، إلا ما عصم الله)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص٩/ح١١٠٧٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٥٣/ح٢٣٧٦ ، وأبو يعلى في مســـنده ج٢/ص ٤٥٥/ح ١٢٦٧ ، والـــدارقطني في ســـننه ج٢/ص١١٨/ح١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٢٤/ح١٢٩٨٩.

(٢) ورد بلفظ: عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة. قلـــت: بلى ، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رســـول الله إني أصـــرع وإني أنكشف فادع الله لي. فقال: ((إن شئت صبرت ولك الجنـــة وإن شـــئت دعـــوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر. فقالت: إني أنكشف فادع الله أن لا أنكشف فدعا لها)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢١٤٠/ح٥٣٢٨ ، وأيضا في الأدب المفرد ١/ص١٧٨/ح٥٠٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٩٤/ح٢٥٧٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص ١٥٧/ح ١١٣٥٢ ، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ١/ص١٨٥/ح٢٣٧ ، وابن حنبـــل في مســـنده ج١/ص٣٤٧/ح٣٢٤٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص١٥٧/ح١١٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٣٥٣/ح٧٤٩٠.

وقال أنس وغيره: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « قال الله تبارك وتعالى: من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب ، لم أرض له بثواب دون الجنة »[١].

وقال أبو موسى: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: ما قال عبدي؟ وهو أعلم به!! قالوا: يا رب حمدك وشكرك فصبر واحتسب ، فيقول الله لهم: ابنوا له بيتا في الجنة وسمُّوه بيت الحمد »[٢].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « فاصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر »[٣]. والأخبار في هذا كثير ، والله نسأل العون على ذلك.

---

(١) ورد بلفظ: عن ابن عباس ، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من مسلم قبض يتيما بين مسلمين إلى طعامه وشرابه إلا دخل الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له ، ومن أخذت كريمته فصبر واحتسب ، لم يكن له عندي ثواب إلا الجنة. قيل: وما كريمتيه؟ قال: عيناه. قال: ومن عال ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن أدبهن ، أدخله الله الجنة. فقال رجل من الأعراب: أو اثنتين. قال: أو اثنتين)).

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص ٢١٦/ح ١١٥٤٢ ، والترمذي في سننه ٤/ص٣٢١/ح١٩١٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٨٥١/ح٩٠٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٣٤٣/ح٢٤٥٧ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٠٩/ح٦١٥.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا قبض الله عز وجل ابنا لعبد ، قال ملائكة ما قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتا ، وسموه بيت الحمد)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٧/ص٢١٢/ح٢٩٤٨ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٣٤٢/ح١٠٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٤١٥/ح١٩٧٤٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٦٩/ح٥٠٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٤/ص٦٨/ح٦٩٣٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٩٥/ح٥٥١.

(٣) ورد بلفظ: ((ستكون بعدي فتنة الراقد ، فيها خير من اليقظان ، والمضطجع فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي. ويهلك فيها كل

باب الشوق وهو أول شعب الصبر

والشوق على وجهين:

شوق طاعة الله.

وشوق إلى ثواب الله.

وشوق إلى التخبيت إلى الله بطاعته ، من طريق الحب لما أحـــب الله ، وأنـــه ليستحق أن يحبه العباد ويحبوا طاعته ، وإكراما وتبجيلا وتعظيما له ، وإيجاب ذلك على النفس ولو لم يكن الثواب ولا مخافة من العقاب ، لكان [أهـــلا لذلك] لما يستحق الموسر [1] لعظيم النعم التي لا تحصى ، وإن أعطاه الثـــواب أحب ذلك وعَبَدَه ، ولو لم يكن ذلك لكان أهلا للحمد والشكر والعبادة.

ومتى أحب العبدُ الله على الحقيقة أحبَّ ما أحب الله ما بقي أو فني ، أو غير ذلك من الشدة والرخاء ، لعمله بأن الخيرة فيما يختار من جميع ذلك ، فـــإن اختار له البقاء في الدنيا أحب ذلك ، وإن اختار له الفناء أحب ذلك.

وكذلك في ساير الأشياء بتقديمه وحسن نظره لعباده ، ويقينا بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [القصص:٦٨]، وهو عند ذلك مسلِّمٌ راض لكل ما اختاره الله ورضيه من شدة أو رخاء ، أو عافية أو بلاء ، فالمحب لله المؤثر لمحبته قائم لله على نفسه في سره وجهره ، لئلا يطلع الله منـــه على غير ما يحب أيام حياته ، فيكون كما روي في حديث ابـــن عمـــر وأبي هريرة عن جبريل عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وآله فقـــال: « يـــا

راكب موضع - أي المسرع فيها - وكل خطيب مصقع ، فإن أدركتها فألصق بطنك بالأرض ، حتى تستريح برا أو تستراح مـــن فـــاجر)). أخرجـــه المتقـــي الهنـــدي في كـــنز العمـــال ج٠/ص٠/ح٣١٠٨٧.

(١) في (أ) و(ب) و(ج): الموسر. ولم يتضح لي معناها.

رسول الله ما الإحسان؟ قال: تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تراه فإنه يراك. فقال: صدقت »[١].

ومن عَبَدَ الله كذلك كانت مراتبته لله وشدة حيائه منه وإجلاله لمقامه على قدر ذلك ، والمؤمنون يعبدون ربهم ويجلون مقامه حتى كأنهم يرونه ، لعلمهم

---

(١) ورد بلفظ: عن يحيى بن يعمر قال : أول من تكلم في القدر معبد الجهني ، قال: فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حتى أتينا المدينة فقلنا: لو لقينا رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه عما أحدث هؤلاء القوم. قال: فلقيناه - يعني عبد الله بن عمر - وهو خارج من المسجد ، قال: فاكتنفته أنا وصاحبي. قال: فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلت: يا أبا عبد الرحمن ، إن قوما يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، ويزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم برئ ، وأنهم مني براء ، والذي يحلف به عبد الله لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهبا ما قبل ذلك منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره. قال: ثم أنشأ يحدث ، فقال قال عمر بن الخطاب: ((كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فألزق ركبته بركبته ، ثم قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره. قال: فما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان. قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: في كل ذلك يقول له: صدقت. قال: فتعجبنا منه يسأله ويصدقه. قال: فمتى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فما أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان. قال عمر: فلقيني النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بثلاث فقال: يا عمر هل تدري من السائل ، ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم)).

أخرجه الترمذي في سننه ج ٥/ص ٦/ح ٢٦١٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٣٩٢/ح١٦٨ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٨/ح٢٦١٠ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٢٤/ح٤٦٩٥ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٧/ح١٨٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٠٣/ح٢٠٦٦٠.

أنه لا يخفى عليه سرهم وجهرهم ، فهم مرعون[١] له قلوبهم عـــن خطـــرات الوسواس من عدوه وعدوهم ، فإذا رءاهم الله كذلك أمدهم بمعونته ، وأيدهم بنصره ، وسلمهم من حبائله ، وصيرهم إلى رحمته ، وبذلك وعدهم في كتابه ، فقال عـــز وجـــل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، فوعدهم الهداية والرحمة ، والله منجـــز مـــا وعد.

فمن أحب لله وأحب طاعته أورثه ذلك الإشتياق إلى جنته ، وما أعد في دار كرامته ، وجدَّ به ذلك الإشتياق إلى ثواب الله ، والشوق إلى الله فهو الشوق إلى الجنة ، فمن عمل للشوق إلى الجنة أعطي الثواب الذي ذكر الله في كتابه ، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يـس:٥٥]، وقولـــــه: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة:٢٧-٢٩].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أبي هريرة: « أعد الله لأهـــل الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اقرءاوا إن شئتم: شـــئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٧] »[٢].

---

(١) في المخطوطات: مرعون. ولم يظر لي معناها.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)).

أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ج ٦/ص ٢٧٢٣/ح ٧٠٥٩ ، ومســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢١٧٤/ح٢٨٢٤ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٩٢/ح٣٦٩ ، والترمذي في ســـننه ج٤/ص٦٧١/ح٢٥٢٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٤٨/ح٤٣٢٨ ، وأبـــو داود في ســـننه

وحديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « أعطيت الكوثر ، ماؤه أحلى من العسل ، وأشد بياضا من اللبن ، حصاه الدر والياقوت ، وترابه المسك الأذفر ، من شرب منه لم يضمأ أبدا »[١].

وحديث أنس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: « دخلت الجنة فرأيت فيها حورا يفنين ويَقُلْن: نحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن الناعمات فلا نئس ، ونحن الخالدات فلا نموت ، طوبى لمن كُنا له وكان لنا »[٢].

ج٢/ص٣٥/ح١٣٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٥٧/ح٧٤٨٩ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٢٧١/ح٢٩٧٥ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٢/ح٢٥٤٧ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٨٠/ح١١٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٢٢/ح٥٧٠٦ ، وأيضا في معجمه الصغير ج١/ص٥٣/ح٥١ ، وفي معجمه الأوسط ج ١/ص٧٢/ح٢٠٠ ، وأيضا في مسند الشاميين ج١/ص٩٣/ح١٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٣١٨/ح١١٠٨٥ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٤٤٨/ح٥١٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص١٦٠/ح٦٢٧٦ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٧٠/ح٤٦٣ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٧٨/ح١١٤٤ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٢٩/ح٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٣٣/ح٣٣٩٩٥ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٤٣٢/ح٢٨٢٨.

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج)).

أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص٢٤٠٥/ح٦٢٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٩٠/ح٦٤٧١ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٤٤٩/ح ٣٣٦١ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٥٠/ح٤٣٣٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٦٧/ح٥٣٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٣٤٧/ح١٣٣٠٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣٠٦/ح٣١٦٦٢.

(٢) ورد بلفظ: عن علي قال: قال رسول الله: ((إن في الجنة سوقا ما فيه بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخلها. قال: وفيها مجمع للحور العين ، قال: يرفعن

وقول الله عز وجـــل: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخـــرف:٧١]، وما ذكر الله من صفة أهل الجنة ، وما أعـــد لأوليائه من جزيل الثواب أكثر من أن نأتي عليه ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: « من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات » ، أي: مـــن عرف قدر ما وعده الله وقدر ما يجب لله عليه ، لم يقطعه إيثار شهوته ، ولا ميل إلى محبوب من الأشياء ، لعلمه بتفاوت [١] ما بين الأمرين من التفاضل ، وأنه لا عوض مما أعد الله لأوليائه ، ولا حظر لما ندب الله له إليه أحباءه.

فمن عَبَدَ الله رغبة في ثواب الله أعطاه الله ما أمَّل وما ظن به ، وذلك مثـــل حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « قـــال الله تبـــارك وتعالى: إنما أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء » [٢].

أصواتا لم تسمع الخلائق بمثلها. قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبـــأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٦٨٧/ح٢٥٥٠ ، ٤/ص٦٩٦/ح٢٥٦٤ ، وابن حنبـــل في مســـنده ج١/ص١٥٦/ح١٣٤٢ ، وأبو يعلى في مســـنده ج١/ص ٣٣٨/ح ٤٢٩ ، وعبـــد الـــرزاق في مصنفه ج٧/ص٢٩/ح٣٣٩٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص١٨/ح٠.

(١) في المخطوطات: لتفاوت. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ٦/ص٢٧٢٥/ح٧٠٦٦ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج٢/ص٤٠٢/ح٦٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٩١/ح٩٠٦٥ ، والحاكم في مســـتدركه ج٤/ص٢٦٩/ح٧٦٠٣ ، والطبراني في معجمه الكـــبير ج١٩/ص٤١٧/ح١٠٠٥ ، وأيضـــا في معجمه الأوسط ج ٩/ص٨٢/ح٩١٩٠ ، وفي مسند الشاميين أيضـــا ج٢/ص٢٢٧/ح١٢٣٥ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٤/ص٤١٢/ح٧٧٣٠ ، والقضـــاعي في مســـند الشـــهاب ج٢/ص٣٢٢/ح١٤٤٨ ، وأبو يعلى في مســـنده ج٦/ص١٣/ح٣٢٣٢ ، الـــدارمي في ســـننه ج٢/ص٣٩٥/ح٢٧٣١.

باب الشفق

وهو الشعبة الثانية من الصبر ، والشفق على ثلاثة أوجه:

شفق من طريق خوف الفوت.

وشفق من طريق خوف العقوبة.

وشفق من طريق انحباط الأعمال ألا تكون أُديت على حد ما افترض.

والشفق الذي من طريق خوف الفوت هو الإشفاق الذي ينتظم الأعمال كلها ، وبه تصح الأعمال مبادرا لأجله بالمنافسة والمسارعة إلى طاعة ربه ، خوفا أن يفتر ساعة من عمره فيكون فيه مشتغلا بغير ما خلق له من طاعة ربه ، أو بما يوصله إلى طاعته ، مما [١] لا يمكن الطاعة إلا به ، من إصلاح من يكون فيه عون [٢] له على معاده ، ووصلة إلى ربه.

والوجه الثاني من الشفق وهو أعلا درجة عند الله من الأول ، وهو أن يكون من العبد العمل فيخاف أن لا يقبل منه لتقصير كان فيه ، وإن قُبل خاف أن يأتي بعده بما يحبطه ، فهو لذلك خائف ومنه مشفق ، مراع لنفسه مراقب لخواطره ودواعي نفسه ، حافظ لله عزايمه ، إلا أن مع خوفه رجا لتفضل ربه ، وكذلك صفة المؤمن يخاف على نفسه لسالف جرمه ولخاتمة أمره ، وهو مثل قول أبي بكر: « ينبغي للمؤمن أن يكون كَذِي قلبين يرغب بأحدهما ويرهب بالآخر »[٣] ، وقال رواحة بن عبد الله: « الأنصار لووزن الخوف والرجا مني لأعتدرلا »[٤].

---

(١) في المخطوطات: ما. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوطات: عونا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

فهذا الإشفاق الذي هو من طريق خوف الذنوب ، وذلك أن أهل المعرفة بالله عرفوا الله بالعظمة والقدرة وسوغ النعمة ، وأعظموا حقه ، وما يجب له على قدر ذلك ، إذ كان أهل الدنيا تحب لهم ذلك على قدر إقتارهم وقدر أياديهم عند أهل صنعائعهم ، فعبدوه على جهة التعظيم ، وعلموا أنه أمرهم ونهـــاهم وافترض عليهم ، وأنه لا يقبل منهم ولا يرضى إلا بكمال ما أمرهم به ، إلا ما تفضل به على من أناب منهم من معصيته ، وراجع إلى طاعته ، وعرفـــوا أنفسهم بالتقصير في كل ما أمر هم به وأوجبه ، ورجعوا عليها باللائمـــة ، وعلموا أنهم لم يُؤتوا في ذلك إلا من قِبَل أنفسهم الأمارة بالسوء ، وكـــادت عند ذلك تسيل أنفسهم إذا ذكروا تقصيرهم وإن كانوا تائبين منـــه ، شـــدة إعظام لله وحياء منه ، وأسفا على التفريط في طاعته ، وما ضيعوا من واجب حقه ، وإشفاقا ألا يكونوا [1] أتوا من التوبة كُنْهَ ما استحقه وما حدَّه لهـــم ، فإذا ذكروا نعمة الله عليهم ، وإعذاره إليهم وكثرة تواتر النعم لديهم ، كادت قلوبهم تذوب لكثرة الحجج عليهم ، فهم بين نعمة من الله ســـابغة ، وبـــين تقصير من أنفسهم ، فعرفوا أنفسهم بحقائق المعرفة فلم يُؤمِّنوها لخير مقدم ولا متأخر ، فكانت أنفسهم الأمارة بالسوء تستأهل عندهم الهتك والعقوبة لكثرة صدفها ونأيها عن المصير فيما خلقت له ، وقطعها لهم بذلك عن الله وعـــن زيادات كراماته وفوائده المعجِّلة لثواب أعمالهم ، ورأوا مع ذلك سبوغ ستره عليهم عند كل تقصير كان منهم في كنه ما يجب من تأدية حق الله والتقرب إليه بمرضاته ، فخافوا أن يكونوا عند الله من أهل الاستدراج ، فهاج الخوف من قلوبهم وهو الإشفاق أن يكون عناؤهم وتعبهم باطلا ، إن لم يكـــن أدوا إليه من التوبة والندامة كنه ما يستحقه ، ولم يُعملوا أنفسهم بعـــد ذلـــك في التقرب إليه بالنوافل كما يجب ، وعلموا أنه إن لم يتفضل عليهم بقبوله إياهم

---

(١) في المخطوطات: ألا أن يكونوا. ولعل الصواب ما أثبت.

على تقصيرهم خسروا الدنيا والآخرة ، فسالت دموعهوعهم عند ذلك خوفا وحذرا من سخط خالقهم ، وأجهدوا له أنفسهم ، واستقلوا له استفراغ كل جهدهم طمعا في قبوله لهم ، فهم بين خوف ورجاء ، خوفا من أنفسهم وذنوبهم ، ورجاء لتفضل خالقهم.

فهذه صفة أهل الخوف والإشفاق والحذر مع دوام الطاعة ، ومن كان كذلك منهم لم يكد يفتر عن طاعة الله ، ولم يدخله العجب في عمله ، ولم يستكثر لله عناية اجتهاد ، والدليل على خوف الإشفاق على الأعمال أنه حق واجب ، وأنه أعلى الخوف درجة ، قول الله تبارك وتعالى حين ذكر أهل الجنة فقال: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٥-٢٧] ، أي: من الذنوب تاركين لها ، مجدين بالأعمال الصالحات ، مشفقين ألا يقبل منا ، فمنَّ الله علينا فنعم أجر العاملين ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وقوله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإنسان:٧]، وقوله كذلك: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ، قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال وجوه ، البر وهم يخافون أن لن ينجيهم ذلك من عذاب الله.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لجبريل عليه السلام: « إني أخاف ، قال له جبريل: وأنا أخاف »[1] ، وقول أبي بكر: « بين يدي عقبة كؤود ، فإن أنا قطعتها لم يضرك ما قلت »[2] ، وقول عمر لحذيفة: « أنشدك

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

بالله أنا من المنافقين الذين عدَّ لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! فقال حذيفه: اللهم لا ، و لم يبرئ أحدا منها بعدي »[١] ، وقول عمر لابنه حـــين طعن بضع خدي: « لا أم لك ، الويل لي والويل لأمي إن لم يرحمني ربي »[٢]

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن ابن عمر قال : لما طعن أبو لؤلؤة عمر طعنه طعنتين فظن عمر أن له ذنبا في الناس لا يعلمه فدعا بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويستمع منه فقال له أحب أن نعلم عن ملأ من النـــاس كان هذا فخرج بن عباس فجعل لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون فرجع إليه فقال يـــا أمـــير المؤمنين ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا وهم يبكون كأنما فقدوا اليوم أبكار أولادهم فقال من قتلني قال أبو لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة قال بن عباس فرأيت البشر في وجهه فقال الحمد لله الذي لم يبتلني بقول أحد يحاجني بقول لا إله إلا الله أما إني كنت قد نهيتكم أن تجلبوا إلينا من العلوج أحدا فعصيتموني ثم قال ادعوا لي إخواني قالوا ومن قال عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فأرسل إليهم ثم وضع رأسه في حجري فلما جاءوا قلـــت هؤلاء قد حضروا فقال نعم نظرت في أمر المسلمين فوجدتكم أيها الستة رؤوس الناس وقـــادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ما استقمتم يستقيم أمر الناس وإن يكن اختلاف يكن فيكم فلمـــا سمعت ذكر الاختلاف والشقاق ظننت أنه كائن لأنه قل ما قال شيئا إلا رأيتـــه ثم نـــزف الـــدم فهمسوا بينهم حتى خشيت أن يبايعوا رجلا منهم فقلت إن أمير المؤمنين حي بعـــد ولا يكـــون خليفتان ينظر أحدهما إلى الأخر فقال احملوني فحملناه فقال تشاوروا ثلاثا ويصلي بالناس صهيب قال من نشاور يا أمير المؤمنين فقال شاوروا المهاجرين والأنصار وسراة من هنا من الأجناد ثم دعا بشربة من لبن فشرب فخرج بياض اللبن من الجرحين فعرف أنه الموت فقال الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطلع وما ذاك والحمد لله إن أكون رأيت إلا خيرا فقال بن عباس وأن قلت ذلك فجزاك الله خيرا أليس قد دعا رسول الله أن يعز الله بك الدين والمســـلمين إذ يخـــافون بمكة فلما أسلمت كان إسلامك عزا وظهر بك الإسلام ورسول الله وأصـــحابه وهـــاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحا ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله من قتال المشركين من يـــوم كذا ويوم كذا ثم قبض رسول الله وهو عنك راض فوازرت الخليفة بعده على منهاج رســـول الله فضربت من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس في الإسلام طوعا أو كرها ثم قبض الخليفة وهو عنك

، وقال عمر: « ليتني كنت كبشا لأهلي وذبحوني وتمشمشوا عظامي »[١] ، وقال: « ليتني كنت تبنة في لبنة »[٢].

وقد أخبر الله فقال لنبيه عليه السلام: إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكان أعظم الخلق خوفا لله وإجلالا لمقامه ، وأدوبهم في طاعة الله ، وكذلك كان الفضلاء من أصحابه ، وكذلك صفة الأبرار بعدهم ، لأنه كلما كثرت معرفة العبد بربه كان أشد له تعظيما ، ولمقامه إجلالا ، وعلى أعماله أشد خوفا ، ومن الدنيا أشد إجتنابا ، لأن العلم قائد العمل والخوف سائقه ، وإنما هذا الخوف رأس الخشية وهو العلم بالله ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا

راض ثم وليت بخير ما ولى الناس مصر الله بك الأنصار وجبى بك الأموال ونفى بك العدو وأدخل الله بك على كل أهل بيت من توسعهم في دينهم وتوسعهم في أرزاقهم ثم ختم لك بالشهادة فهنيئا لك فقال والله إن المغرور من تغررونه ثم قال أتشهد لي يا عبد الله عند الله يوم القيامة فقال نعم فقال اللهم لك الحمد ألصق خدي بالأرض يا عبد الله بن عمر فوضعته من فخذي على ساقي فقال الصق خدي بالأرض فترك لحيته وخده حتى وقع بالأرض فقال ويلك وويل أمك يا عمر إن لم يغفر الله لك ثم قبض فلما قبض أرسلوا إلى عبد الله بن عمر فقال لا آتيكم إن لم تفعلوا ما آمركم به من مشاورة المهاجرين والأنصار وسراة من ههنا من الأجناد قال الحسن وذكر له فعل عمر عند موته وخشيته من ربه فقال هكذا المؤمن جمع إحسانا وشفقة والمنافق جمع إساءة وغرة والله ما وجدت فيما مضى ولا فيما بقي عبدا ازداد إحسانا إلا ازداد مخافة وشفقة منه ولا وجدت فيما مضى ولا فيما بقي عبدا إزداد إساءة إلا ازداد غرة)).

أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ج١/ص ١٨١/ح ٥٧٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص١٠٩/ح٩٣.

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال: ((يا ليتني كنت هذه التبنة ، ليتني لم أخلق ، ليتني لم أك شيئا ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسيا منسيا)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٣٥٩١٤.

يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] ، وقال ابن مسعود: « رأس الخشـــية خشية الله »[١] ، وقال مسروق: « كفى المرء العلم أن يخشى الله »[٢] ، وإنما العلم هو العلم بالله ، والعلم بالله هو رأس العلم ، وهو خشية الله ومراقبتـــه ، والإجلال لمقامه ، وشدة الحياء منه ، ولذلك قـــال الله:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨].

والوجه الثالث من الخوف: هو خوف النار وما أوعد الله به أهـــل المعصـــية والمتعدين لحدوده ، لقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة:٨١] ، والنجـــاة لمن أحاط به هذا الوعيد الشديد المسارعة إلى التوبة على من ندب الله إليـــه وحدَّه من قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَـــةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النســـاء:١٧]، ثم قـــال: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَـــةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء:١٨] ، فأخبر سبحانه أنه لا يقبل توبة عند الموت لكافر ، ولا لفاجر من أهل الصلاة ، فإذا لم يقبل التوبة التي بها يكون الغفران ، فقـــد حق وعيد الله عليهم ، وكذلك قال النبي صلى الله عيه وآله وسلم: « التوبـــة

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن مسروق قال: ((بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجـــل ، وبحســـب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه)).

أخرجه أبو خيثمة في العلم ج١/ص ٩/ح ١٥ ، وعبد بن حميد في مســـنده ١/ص٤٢٧/ح١٤٦٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٠٣/ح٣٤٥١٨.

للعبد مبسوطة ما لم تغرغر نفسه »[١] ، وقال الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥ - ١٣٦] ، فأوجب تعالى المغفرة على شريطة ترك الإصرار وتعجيل الإنابة ، فهذا معنى قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « من أشفق من النار رجع عن المحرمات ».

باب الزهادة

وهي الشعبة الثالثة من الصبر ، والزهادة أن يكون العبد متهاونا بالدنيا بقلبه ، ويقنع بما أعطاه الله منها من غير حرص ولا طمع ، ولا استشراف إلى ما تطلّع إليه الأنعش.

وأول باب الزهد في الدنيا القناعة ، فإذا دخل العبد في القناعة دخل درجة الزهد ، وذلك أن القانع لا يريد أكثر مما أعطي لرضاه عمن أعطاه ، ولعلمه بأن ما أعطاه هو الخير له دون ما سواه ، فهو غير متمن للزيادة ، وهو صارف

---

(١) عن عبد الرحمن بن البيلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم فقال الثاني آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم فقال الثالث آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة قال الرابع آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه)). ورد بلفظ: أخرجه أحمد في المسند ج٣/ص٤٢٥/ح١٥٥٣٨.

[١] للقلب عن الدنيا وما فيها ، فبغض لأهل الطلب لها لا يريدها ، ولا يحبها إذ[٢] لم يحبها مولاه له ولا خلقه لها ، وإنما يحب غيرها التي خلق لها ، فهو لا يأكل الأطعمة للذتها ، ولا يلبس إلا الفضل من زينتها ، ولا يريد إلا الكفاف منها والبلغة إلى الآخرة ، فإن تطلعت نفسه إلى غير ذلك عده نقصا ، ورجع عليها باللوم والتوبيخ لها ، وقد اتخذها وأقامها عند نفسه كالدواء للمـــريض الذي إذا أخذ منه فوق قدر حاجته قتله ، فقد أنزل الدنيا بمترلة السم الذي إذا أكله من لم يعرفه قتله ، فهو لا يأخذ منه إلا ما يقيم رمقه ويـــدفع عاديـــة مرضية ، ولو برئ المريض بغير دواء لكان أحب إليه ، كما قال أبو الـــدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى »[٣] ، وكذلك القانع إن اكتفى بقليل الغداء كان أحب إليه ، كما روى عن النبي أبو الدرداء الحديث ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله الكفاية مع القلة والزهد في الدنيا كله هو التهاون بها ، وعزوف النفس عن تمكينها [٤] ، فإذا وصـــل العبد إلى التهاون بالدنيا أورثه ذلك الدرجة العليا والمترلة الكـــبرى ، وهـــو

---

(١) في المخطوطات: عاف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوط: إذا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) ورد بلفظ: عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما طلعت شمـــس قـــط إلا بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان من على الأرض غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم ، ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ، ولا غربت إلا بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقـــا خلفـــا ، وأعط ممسكا تلفا)).

أخرجـــه ابـــن حبـــان في صـــحيحه ج ٨/ص ١٢١/ح ٣٣٢٩ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ج٥/ص١٩٧/ح٢١٧٦٩ ، والحاكم في مســـتدركه ج٢/ص٤٨٣/ح٣٦٦٢ ، والطيالســـي في مسنده ج١/ص١٣٢/ح٩٧٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٥/ح٨١٠ ، وعبد بـــن حميد في مسنده ج١/ص١٠٠/ح٢٠٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص١٨٩/ح٢٨٩١.

(٤) في (ج): النفس وتمكينها.

موافقة الله سبحانه في محبته ، لقوله: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧] ، ولقوله تعالى:﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝ ﴾ [مريم:٧٦]، ، فآثروا حب ما أحب الله من الآخرة ، وتهاونوا بما هان على الله وهي الدنيا ، فأنزلوها من قلوبهم حيث أنزلها الله لبغض الله لها ، وتهاونوا بطلبها لهوان من آثرها.

والذي زهد له الزاهدون أربع خصال:

فمنهم: [من] زهد لخلة.

ومنهم: من زهد لخلتين.

ومنهم: من زهد لثلاث.

ومنهم: من زهد لأربع خلال.

فأعلاها عند الله موافقة الله عند محبته وهو التهاون بالدنيا وأهلها ، والترك لما في أيديهم إذ هان ذلك كله على الله و لم يرضه لأوليائه وأحبائه ، فمن ذلك قوله في قصة يوسف عليه السلام: : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝ ﴾ [يوسف:٢٠]، قال بعضهم: « لم يعرفوا كرامته على الله فهان عليهم »[1] ، فسمى الله التهاون: زهدا.

وقال في قصة قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝ ﴾ [القصص:٧٩-٨٠]، فجعل الله أهل العلم هاهنا

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله تعالى: ﴿ وكان فيهم الزاهدين ﴾ ، قال: ((إخوته زهدوا فيه ، لم يعلموا بنبوته ، ولا بمنزلته من الله ومكانه)). الدر المنثور ٤/٥١٧.

أهل الزهد والتهاون بالدنيا، ثم قال بشارة لهم ولمن ســـلك ســـبيلهم: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣].

وروى ابن حزام عن سهل بن سعيد الساعدي « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بشاة ميتة قد نتنت ، فقال النبي لأصحابه: لما ألقى هذه الشاه أهلها من كرامتها؟ قالوا: يا رسول الله إنما ألقوها من هوانها عليهم. قال: فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلـــها »[١].

وروى أيضا سهل بن سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « لو عدلت الدنيا عند الله عدل بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة ماء أبدا »[٢].

---

(١) ورد بلفظ: عن أبي هريرة ((أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسخلة جرباء قد أخرجها أهلها ، قال: ترون هذه هينة على أهلها. قالوا: نعم. قال: والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلـــها)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٥٦١/ح٢٣٢١ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٣٧٧/ح٤١١٠ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ج٢/ص٣٣٨/ح٨٤٤٥ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٢٠/ص٣٠٤/ح٧٢٣ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٩٧/ح٢٧٣٧.

(٢) ورد بلفظ: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو كانـــت الـــدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافرا منها شربة ماء)).

أخرجـــه الترمـــذي في ســـننه ج ٤/ص ٥٦٠/ح ٢٣٢٠ ، والحـــاكم في مســـتدركه ج٤/ص٣٤٢/ح٧٨٤٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٥٨/ح٥٨٤٠ ، والقضـــاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٣١٧/ح١٤٣٩.

باب الخلة الثانية

والخلة الثانية لما رفع الله من قدر الزاهدين ، وجعل لهم الوسيلة والمنزلة عنده ، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝ ﴾ [الواقعة:١٠-١٤]، قال الحسن: « أما السابقون فهم أصحاب محمد صلى الله عليه قد مضوا فهيئا لهم ، ولكن جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين »[١].

وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۝ ﴾ [الأحزاب:٢٣]، وقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ...﴾ [الحشر:٨] الآية. فاختار لهم الفقر والهجرة والإخراج من ديارهم وأموالهم ، كل ذلك يمتحنهم به لما جعل لهم عنده من الفوز والوسيلة.

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله أرسل إليك ملكا ما نزل إلى الأرض منذ خلقه الله ، أرسله إليك ، قال: فأتاني الملك فقال: يا محمد إن الله أرسلني إليك ، فقال لك: يا محمد يجعلك ربك ملكا أم عبدا رسولا؟ فقال لي جبريل: بيده هكذا نحو الأرض تواضع لربك يا محمد ، وعلمت أنه ناصح ، فقلت: بل عبدا رسولا »[٢].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن محمد بن عبد الله بن عباس قال: كان ابن عباس يحدث ((أن الله تبارك وتعالى أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكا من الملائكة ومعه جبريل ، فقال الملك: إن الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا. فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل

وروى أبو موهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « كنت مع النبي في بقيع الغرقد فقال لي: يا موهبة علمت أن الله خيَّرني بين أن يعطيني مفـــاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها إلى يوم القيامة من غير أن ينقصني ما عند الله ، أو لقاء ربي والجنة ، فقلت: يا رسول الله ، لو اخترت المقام في الدنيا مع أمتـــك والخلد فيها من غير أمارني والجنة فيها من غير أن ينتقص لك مما عنـــد الله ، فقبض [١] يده من يدي ، ثم قال: كلا إني اخترت لقاء ربي والجنة »[٢]. فبدأه مرضه الذي مات فيه صلى الله عليه وآله.

كالمستشير ، فأشار جبريل بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أكون عبدا نبيا. قال: فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا)).

أخرجه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ١٢/ص٣٤٨/ح١٣٣٠٩ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٤/ص١٧١/ح٦٧٤٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٤٨/ح١٣٠٩٩ ، وأبـــو يعلـــى في مسنده ج٨/ص٣١٩/ح٤٩٢٠.

(١) في (أ) و(ب): غير تنقص لك مما عند الله شيئا فنفض.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على أهل البقيع فصلى عليهم في ليلته ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قـــال يا أبا مويهبة: أسرج لي دابتي فأسرجت ، فركب فسار إلى أهل البقيع ، ثم نزل فأمسكت دابتـــه فوقف عليهم فقال: ليهنكم ما أنتم فيه مما في الناس ، أتت فتن كقطع الليل المظلم يركب بعضها بعضا ، الأخرى أشد من الأولى ، فليهنكم ما أنتم فيه ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وســـلم فقال: يا أبا مويهبة إني أعطيت - أو قال: - خيرت مفاتيح ما يفتح الله على أمتي مـــن بعـــدي والجنة أو لقاء ربي. قلت: بأبي وأمي يا رسول الله اخترنا ، قال: اخترت لقاء ربي ، فما مكـــث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سبع أو ثمان حتى قبض صلى الله عليه وسلم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص٤٨٩/ح١٦٠٣٩ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٥٨/ح٤٣٨٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٢/ص٣٤٧/ح٨٧١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحـــاد والمثـــاني ج١/ص٣٤٥/ح٤٦٧ ، والدارمي في سننه ج١/ص٥١/ح٧٨.

وقال قتادة الأسدي: عن النبي صلى الله عليه وآله حين بعثه إلى رجل يمنحه ناقة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله: « اللهم من أحبني وأطاع أمري فَأَقِلّ ماله وولده ، ومن أبغضني وعصى أمري فأكثِر ماله وولده »[١].

وروى أبو ذر وسهل بن سعيد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وآله: « مر به رجل من أشراف الناس فقال: ما رأيك في هذا؟ فقال أبو ذر: قلت: يا رسول الله هذا أحرى إن قال أن ينصت [٢] لمقالته ، وإن خطب النساء أن ينكح ، وإن شفع ، فقال لي: طأط أسك ، وانظر هل ترى أحدا ، فنظرت فإذا رجل من فقراء المسلمين ، فقلت: يا رسول الله ، هذا رجل فقير ، فقال: ما رأيك في هذا؟ قلت: يا رسول الله هذا أحرى إن قال لا يسمع من قوله ، وإن خطب النساء ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع. فقال النبي صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده لهذا خير من ملء الأرض ذهبا ومثل هذا »[٣].

---

(١) ورد بلفظ: عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم من آمن بي وصدقني وشهد أن ما جئت به هو الحق ، فأقل ماله وولده وعجل قبضه إليك ، ومن لم يؤمن بي ويصدقني ويعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك ، فأكثر ماله وولده وأطل عمره)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١٣٨٥/ح٤١٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٣١/ح٥٦ ، وأيضا في مسند الشاميين ج٢/ص٣١٣/ح١٤٠٦ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٢٤٧/ح١٦٠٧.

(٢) في (ج): إن قال يغضب.

(٣) ورد بلفظ: عن سهل بن سعد قال: مر بالنبي صلى الله عليه وسلم رجل فنظر إليه ثم قال: ((ما رأيك في هذا؟ فقلت: هذا رجل من أشراف الناس ، هذا حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع لقوله ، ثم مر رجل فقال: ما رأيك في هذا؟ قلت: هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حري إن قال لا يسمع لقوله ، وإن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا)).

والأخبار في هذا تكثر ، فالنبي عليه السلام وأصحابه الذين اختـــار الله لهـــم الزهد والقلة أرفع الخلق درجة عند الله ، وأقربهم منه درجة ووسيلة ، وكذلك كل من تشبَّه بهم وسلك طريقهم ، واختار ما اختار الله لهم.

باب الخلة الثالثة

مخافة الحساب والحبس في المقام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقـــال عـــز وجـــل: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهـــف:٤٩]، وقـــال تعالى: ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾ [التكاثر:٨].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: « يدخل فقراء المهاجرين قبل أغنيائهم الجنـــة بأربعين عاما »[1].

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه: « نفر يدخلون الجنة من أمتي سبعون ألفا لا حساب عليهم ، وجوههم مثل القمر ليلة البدر ، يمرون على الصراط

أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص١٩٥٨/ح٤٨٠٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٨٠/ح٤١٢٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٦٩/ح٥٨٨٣.

(١) ورد بلفظ: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـــال: ((تـــدخل فقـــراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٥٢/ح٦٧٦ ، والترمذي في ســـننه ج٤/ص٥٧٨/ح٢٣٥٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٨١/ح٤١٢٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٩٦/ح٧٩٣٣ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج١٢/ص٣١٦/ح١٣٢٢٣ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٦/ص٤١٢/ح١١٣٤٨ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٣٧٤/ح٦٤٩ ، وأبو يعلـــى في مسنده ج١٠/ص٤١٢/ح٦٠١٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٣٦/ح١١١٧ ، وعبـــد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٦/ح٣٤٣٩٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٣٤/ح٨٤.

مثل البرق ، والزمرة الثانية كأشد كوكب في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل »[١].

وقالت عائشة: قال النبي عليه السلام في مرضه الذي مات منه: « ما فعلت الذهبة التي عندك؟ فقلت: يا رسول الله هذه هي ، قال: أخرجيها ، وكانت خمسة مثاقيل ، فقال: تصدقي بها ، قال النبي - صلى الله عليه وعلى آله - ما كان محمد لو لقي ربه وهذه عنده »[٢].

---

(١) ورد بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أول زمرة تدخل الجنة يوم القيامة صور وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر ، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب في السماء ، لكل رجل منهم زوجتان ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ سوقهن دون لحومهن ودمائهما وحللهما)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١١٨٦/ح٣٠٧٣ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧٩/ح٢٨٣٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٦/ص٤٣٨/ح٧٤٢٠ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٧١/ح٢٥٢٢ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٤٩/ح٤٣٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٤٧/ح٧٣٦٩ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٢٥٣/ح٥٠١٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٨٤/ح١١٤٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٩/ص١٧٥/ح٨٨٦٤ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٩٢/ح١٣٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٣٢٤/ح٦٤٣٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٩٥/ح٢٠٠٥ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٥١/ح٨٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٣٧/ح٣٤٠١٧ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٤٣٣/ح٢٨٣٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٨١/ح٩١٥.

(٢) ورد بلفظ: عن عائشة أنها قالت: اشتد وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده سبعة دنانير أو تسعة ، فقال: يا عائشة ما فعلت تلك الذهب. فقلت: هي عندي. قال: تصدقي بها. قالت: فشغلت به ، ثم قال: يا عائشة ما فعلت تلك الذهب. فقلت: هي عندي. فقال: ائتني بها. قالت: فجئت بها فوضعها في كفه ثم قال: ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده ، ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده)).

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إنه ما يســـرني أن لي مثل أُحدٍ ذهبا يأتي على ثلاث وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده لدين إن كان عليٍ ، لأن الأكثرين هم الأخسرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عنه يمينه وشماله وبين يديه وخلفه » (١).

وقال مسروق: عن عائشة قالت: « قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ومـــا خلف بيضاء ولا صفراء ولا شاة ولا بعيرا ، ولا أوصى بشيء » (٢).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٩٢/ح٧١٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٦/ص٨٦/ح٢٤٦٠٤ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٣٦/ح٢٨٣.

(١) ورد بلفظ: عن عمرو بن مرة ، سمع سويد بن الحارث ، سمع أبا ذر يقول: قـــال لي رســـول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما يسرني أن لي أحدا ذهبا تأتي علي ثالثة وعندي منه دينار ، أو قـــال: منه مثقال ، إلا أن أرصده لغريم)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٢/ص٨٤٢/ح٢٢٥٩ ، ومسلم في صحيحه ج٢/ص٦٨٧/ح٩٩١ ، وابن حبان في صحيحه ج٨/ص١٠/ح٣٢١٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣١٦/ح٨١٨٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٦٣/ح٤٦٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٧/ص٢٦٣/ح٧٠٧٤ ، وابـــن راهويـــه في مســـنده ج١/ص١٥٤/ح٩٣ ، والبيهقـــي في ســـننه الكـــبرى ج٥/ص٣٥٤/ح١٠٧٣٨ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٥٠/ح٨٢.

(٢) ورد بلفظ: عن زر بن حبيش قال: سألت عائشة عن ميراث رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم فقالت: ((أعن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأل! ما ترك رسول الله صلى الله عليـــه وسلم صفراء ولا بيضاء ، ولا شاة ولا بعيرا ، ولا عبدا ولا أمة ، ولا ذهبا ولا فضة)).

أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ج٣/ص١٠٥٤/ح٢٧١٨ ، ومســـلم في صـــحيحه ج٣/ص١٢٥٧/ح١٦٣٥ ، والنسائي في سننه ج٦/ص٢٢٩/ح٣٥٩٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٢٨٤/ح٦٣٦٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٤/ص١٢٠/ح٢٤٨٩ ، وابـــن ماجـــه في سننه ج٢/ص٩٠٠/ح٢٦٩٥ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١١٢/ح٢٨٦٣،

وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٢٠/ح١٩٠٩ ، والحاكم في مســـتدركه ج١/ص٥٨٠/ح١٥٢٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢١٩/ح١٥٦٥ ، والحميدي في مســـنده ج١/ص١٣٢/ح٢٧١ ،

وقال أبو ذر: عن النبي صلى الله عليه وآله « في الإبل صدقتها ، وفي البقر صدقتها ، فمن رفع دينارا أو درهما لم يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كير يكوى به في نار جهنم »[(١)].

وقال صلى الله عليه وآله في حديث أبي هريرة وأبي سعيد: « فقيل: يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأول ، فهم شركاء الناس في أبواب الأجر »[(٢)].

والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٤٤/ح٩٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٩٢/ح٦٤٢١ ، والدارقطني في سننه ج٤/ص١٨٥/ح٢ ، وابن راهويه في مسنده ج٣/ص٧٨٩/ح١٤١٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص١٦٠/ح١١٦٧٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٨/ص٣٦/ح٤٥٤٢ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٦٩/ح٢٥٣٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١٦٣/ح٥١١.

(١) ورد بلفظ: عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أو حبيبي يقول في الإبل صدقتها من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كي يكوى به يوم القيامة)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص١٧٩/ح٢١٥٩٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص ٤٢٨/ح ١٠٧٠٠ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٥٤٥/ح١٤٣١ ، والدارقطني في سننه ج٢/ص١٠٢/ح٢٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٤/ص١٤٧/ح٧٣٨٩.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي هريرة قال: ((أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع فأكله وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون لم ذاك يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس منهم ، فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول الناس بعضهم لبعض: عليكم بآدم ، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فيقول لهم آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه

قد نهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نـــوح ، فيـــأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا. فيقول لهم نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قـــومي نفســـي نفسي نفسي ، أذهبوا إلى غيري أذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كذبت ثلاث كذبات ، فذكرهن أبو حيان في الحديث نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى ، فيـــأتون موســـى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على البشر ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولـــن يغضـــب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبـــوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول عيسى: إن ربي قـــد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي نفســـي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ، قال: فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيـــه ، فانطلق فأتي تحت العرش فأخر ساجدا لربي ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال: يا محمد أرفع رأسك سل تعطه ، وأشفع تشفع ، فأرفع راســـي فأقول: يا رب أمتي ، يا رب أمتي ، يا رب أمتي ، فيقول: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال: والذي نفسي بيده ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، وكما بـــين مكـــة وبصرى)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٢١٦/ح٣١٦٢ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص١٨٦/ح١٩٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٨٤/ح٦٤٦٥ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٧٧/ح١٨٣٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٠٩٩/ح٣٣٠٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٣٦/ح٩٦٢١

وروي عنه أنه قال: « لن تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين أكتسبه وفيما أنفقه ، وعلمه ماذا صنع فيه »[1].

وحساب كل أمرئ على قدر ما حمل من هذه الأربع ، والذين زهدوا في هذه الدنيا كانوا أهل كيس وفطنة ، خافوا شدة الحساب وطول الحبس في المقام ، والذين آثروا الدنيا وطلبوها هم أهل غبن واترار ، كما قال أبو الصياصلة بن أشعم: « طلبت هذا المال من مضان حلاله فأعياني ، إلا قوت يوم بيوم ، فقلت لنفسي: ارجعي فسكنت وكادت لا تفعل ، وأيم الله ما من عبد قدر

، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٣٩٦/ح٣٣٨٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص١٥٥/ح٦٦٦٠ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٢٢٩/ح١٨٤ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٣٥١/ح٤٧٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣٠٧/ح٣١٦٧٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص٧٩/ح٢٥٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٩/ح١٠٥٨.

(١)عن معاذ قال: ((لا تزول قدم بن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وعن علمه ما عمل فيه)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٢٩٩/ح٥٤١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦١٢/ح٢٤١٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٨/ح٩٧٧٢ ، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص٥٠/ح٧٦٠ ، وأبو يعلى في مسنده ج٩/ص١٧٩/ح٥٢٧١ ، وأبو خيثمة في العلم ١/ص٢٣/ح٨٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٢٥/ح٣٤٦٩٤ ، والدارمي في سننه ج١/ص١٤٥/ح٥٣٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ص١٥٥/ح٩٤٠٦.

الله رزقه قوت يوم بيوم ، فلم يعلم أن الله قد جاز له في ذلك إلا عـــاجز أو غبي الرأي »[١].

وقال: حدثني أصحابي عن النبي أنه قال: « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمس مائة عام » ، والذي نفس أبي الصهباء بيده ما يسرني أني تخلفت عـــن الزمرة الأولى طرفة عين وأن لي ما طلعت عليه الشمس.

وقال جعفر بن سليمان الضبعي: عن مالك بن دينار قال: « بلغني أنه يوقـــف رجلان يوم القيامة أحدهما غني ، والآخر فقير ، كانا متواخيين في الله ، فيؤمر بالفقير إلى الجنة ، ويوقف الغني للحساب ، ثم ثم قال: نحو بعد دهر طويل ، ثم يؤمر به إلى الجنة فيستقبله أخوه الفقير ، فإذا قدم عليه قال: يا أخي ما بطـــأ بك؟! قال: من أنت يرحمك الله؟ قال: وما تعرفني؟! قال: لا ، قال: أنا أخوك فلان الفقير. فقال: ما أشد ما غيّرتك نعمة ربي يأُخي ، لقد مر بي بعدك من شدة الحساب ما لو وردت على عَرَقِي مائة من الإبـــل أكملـــت خمصـــها لصدرت[٢] رواء من عرقي ، فهذا حين أقلتُّ من الحساب » ، والأخبار في هذا تكثر[٣].

والخلة الرابعة: فراغ القلب للفكرة والإكباب على الطاعة ، قال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور:٣٧

---

(١)ورد بلفظ: قال أبو الصهباء: ((طلبت المال من حلة فأعياني إلا رزق يوم بيوم ، فعلمت أنه قـــد خير لي ، وأيم الله ما من عبد أوتي رزق يوم بيوم فلم يظن أنه خير له ، إلا كان عـــاجزا أو غـــبي الرأي)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص٢١٩/ح٣٥٤٩٠.

(٢) في (أ) و(ب): وصدرت.

(٣) سقط من (أ) و(ب): في هذا تكثر.

- ٣٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان:٦٤]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤]، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦١]، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة:١٦]، وقال: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقال ابن عمر: عن النبي عليه السلام أنه قال: « من جعل الهم هما واحدا ، جعل الله غناه في قلبه ، ومن تشعبت عليه الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك »[(١)].

وقال زيد بن ثابت: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « من كان نيته الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وعسَّر عليه حاجته من الدنيا ، وأتاه فيها ما قدر له فيها ، وحرم منها على أرغب ما يكون فيها ، ومن كانت نيته الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وكفاه حاجته من الدنيا ، وأتاه منها ما قدر له فيها ، وحرم منها على أزهد ما يكون فيها »[(٢)].

---

(١) ورد بلفظ: عن الأسود بن يزيد قال: قال عبد الله: سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: ((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا ، لم يبال الله في أي أوديته هلك)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١٣٧٦/ح٤١٠٦ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٤٨١/ح٣٦٥٨.

(٢) ورد بلفظ: عن عمر بن سليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان يحدث عن أبيه قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان نصف النهار قال: قلت: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سأله عنه فسألته ، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله

وبلغنا أن رجلا مر على أصحاب النبي صلى الله عليه فقال لهم: « علموني مما علمكم الله ، فقالوا له: اعمل كذا افعل كذا ، وإلى قرب القوم معاذ بن جبل فقال: يا هذا لقد أكثر عليك القوم حتى أنساك آخر حـــديثهم أولـــه ، وإني أصف لك خليتن إن حفظتهما حفظت جميع ما قالوا لـــك ، وإن نســـيتهما نسيت جميع ما قالوا لك ، وذلك أنك إن طلبت الدنيا فأتتك الآخـــرة ، وإن طلبت الآخرة أخذت من الدنيا ما قسم لك ، وأدرك خطـــك في الآخـــرة ، فيدونك والإختيار لنفسك ، واعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والسلام. فقال الرجل: تالله ما رأيت كاليوم في الفضل »[1].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أفضل الناس عند الله عبد ترك ما يحب وآثر ما يحب الله ، فأجهد نفسه في طاعة الله ، و لم يشغل نفسه

صلى الله عليه وسلم يقول: ((نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى مـــن هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ومن كانت الدنيا نيتـــه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، و لم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومـــن كانـــت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٢٧١/ح٦٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٣٤/ح٢٦٥٦ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٨٥/ح٢٣٠ ، والدارمي في ســـننه ج١/ص٨٧/ح٢٢٩ ، والطـــبراني في معجمه الأوسط ج ٧/ص٢٠١/ح٧٢٧١.

(١) ورد بلفظ: عن محمد بن سيرين قال: أتى رجل معاذ بن جبل ومعه أصـــحابه يســـلمون عليـــه ويودعونه فقال: ((إني موصيك بأمرين ، إن حفظتهما حفظت ، إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، حتى تنتظمه لك انتظاما ، فتزول به معك أينما زلـــت)). أخرجـــه الطـــبراني في المعجـــم الكـــبير ج٢٠/ص٣٥/ح٤٩ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص١٢٥/ح٣٤٦٩٥.

بشيء من الدنيا عن أمر الله ، وما ترك عبد شيئا من أمر الدنيا إلا عوضه الله خيرا منه »[١].

وقال عمر بن الخطاب: عن أبي الدرداء قال: « كنت في الجاهلية امرأ تاجرا فلما صار الإسلام داولت بين العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا فاخترت الآخرة على الدنيا ، ثم ، فارضوا بالفاني منها »[٢].

وقال عمر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الأعمال بالنية وإنما لكل أمر ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٣].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) وردت الرواية عن أبي الدراء بلفظ: ((كنت تاجرا قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتا على باب المسجد لا تخطئني فيه صلاة أربح فيه كل يوم أربعين دينارا أتصدق في سبيل الله. قيل له: لم يا أبا الدرداء ، وما تكره من ذلك؟ قال: شدة الحساب)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٨٥٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٤/ح١ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٥١٦/ح١٩٠٧ ، والنسائي في سننه ج١/ص٦٠/ح٧٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١١٥/ح٣٨٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج١/ص٧٤/ح١٤٢ ، والترمذي في سننه ج٤/ص١٨٠/ح١٦٤٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤١٣/ح٤٢٢٧ ، وأبو داود في سننه ج٢/ص٢٦٢/ح٢٢٠١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٥/ح١٦٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٩/ح٣٧ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٧/ح٢٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٨٠/ح٧٨ ، والدارقطني في سننه ج١/ص٥١/ح١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٦/ح١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١/ص٤١/ح١٨١ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٨/ح٦٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١٨/ح٤٠.

وقال مالك بن دينار: قال لي عبد الله الرازي: يا مالك كان أهل العلم بـــالله والقبول عنه يقولون: « الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والسبع يقسي القلب ويفتر البدن ، فأعونُ الأخلاق على الزهد في الدنيا قصر الأمل ومراقبة الأجل » [١].

فقد فسرنا الزهادة في الدنيا والأربع الخلال التي زهد الزاهدون من أجلـــها ، وهو معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « من زهد في الدنيا هانـــت عليه المصيبات » ، وكذلك هو وبالله نستعين.

باب الترقب

وهو الشعبة الرابعة من الصبر ، والمراقبة لله على وجهين:

مراقبة لله في السر والعلانية وهو رأس الخشية من الله ، فهو أعلـــى الجهـــتين وأشرفهما عند الله مترلة.

ومراقبة الموت وهو الوجه الثاني الذي ذكره علي بن أبي طالب عليه الســـلام فقال: « من ترقب الموت سارع في الخيرات » ، وهو قصر الأمل ومراقبـــة الأجل.

باب المراقبة لله عز وجل

وهو الوجه الأول ، فمن راقب الله في السر والعلانية استوت سريرته وعلانيته ، ومن كان مراقبا لله بقلبه عند كل خطرة يحبها الله وعند كل خطرة يكرهها

---

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الزهد في الـــدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والبطالة تقسي القلـــب)). أخرجـــه القضاعي في مســـند الشـــهاب ج١/ص١٨٨/ح٢٧٨ ، والمتقـــي الهنـــدي في كـــنز العمـــال ج٠/ص٠/ح٦٠٦١.

الله ، فإذا وصل العبد إلى مراقبة الله عند خطرات القلوب أورثه ذلك الحياء من الله ، وذلك أن خطرات القلوب على جهتين:

خطرة من الله منبهة تخطر القلب وهي الداعية إلى الطاعة.

والخطرة الثانية خطرة الوسوسة وهي إلقاء من الشيطان امتحان من الله وبلوى ، وأهل المراقبة لله في خطرات قلوبهم تستحي قلوبهم وأنفسهم من الله عند خطرة الطاعة أن يراهم الله غافلين عن قبول ما خطر بقلوبهم ، أو نقصوا عن اعتقاد ذلك ، إذا كان ذلك منًّا من الله منَّ به عليهم ، فأوصل ذلك إلى قلوبهم ، فهم يستحيون من الله أن يكون عرض عليهم شيئا يحبه لهم ووهبه إياهم فتأباه قلوبهم ، فيزول بذلك عنهم مراقبة ربهم في كل ما أحبه لهم وخصهم به من فوائده ، وأهدى إليهم من ألطاف كرامته ، فهم يقبلون ذلك بالمحبة له والرضا في أسرع من الطرف ، حياء من الله وحباً له وإعظاما لما أهداه إليهم ، وتعظيما لهديته وخوفا من المقت على ردها ، فهم ولهون إليها ، مراعون لأنفسهم في قبولها ، مع ما ذكر لهم هنا من جزيل الثواب عاجلا وآجلا ، كما قال ابن مسعود لمة من الملك ولمة وله من الشيطان ، فأصل المراقبة لا يتركون لمة الشيطان تنبت في قلوبهم ، يزيلونها بالخشية والإعظام لله تعالى وشده [1] ، الحياء منه ، فلا يكون منهم عند ذلك تعمد لمعصية ، وإنما تكون منهم على غير جهة العمد منهم ، ثم يتوبون من قريب كما وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝١٠١﴾ [الأعراف:٢٠١] ، فرجعوا إلى الله بالاستغفار وتقربوا إليه بالإقلاع ، شدة إعظام له وحياء منه ، وتذكُّر [من] العظيم أياديه ، وكثره منته وتواتر نعمه عاجلا وآجلا وقديما وحديثا.

---

(١) في (أ) و(ب): لله وسورة.

وقال الزبير بن العوام ، وأبو موسى الأشعري: « كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله إذا فقدوا الوسواس من قلوبهم عدوها نقصا » [١] ، وقال أبو هريرة وغيره: عن النبي قال: « جاء قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكوا ما يلقون من الوسواس ، فقالوا: يا رسول الله إنا لنجد في قلوبنا مـــا نتعاظم أن نتكلم به ، وأن لنا ما طلعت عليه الشمس. قال النبي صلى الله عليه وعلى آله: وقد وجدتموه؟! قالوا: نعم ، يا رسول الله. قال عليه الســـلام: أبى عدو الله إلا الوسواس وذلك صرح الإيمان » [٢] ، يعني كراهيتهم لما ألقى الله إليهم ، فأهل المعرفة بالله إذا فقدوا الوسواس التي هي دليل الحرب والعـــداوة بينهم وبين عدوا الله ، خافوا أن يكون قد ظفر بهم ، وهم لا يأمنون عداوته لهم على كل حال ، أرأيتك ولو كان لك عدو ذاهل تراه وتشاهده وقد برز لك للحرب عداوة لك ، كيف كان يكون حالك عنده لو غفلـــت عنـــه؟! فكيف يكون حالك مع عدو قد غاب عنك إذا غفلت عنه وهو غير غافـــل عنك عن إزالتك عن دينك.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن عمارة بن أبي حسن المازني ، عن عمه ، أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم ، لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم بـــه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ذاك صريح الإيمان ، إن الشيطان يأتي العبد فيمـــا دون ذلك ، فإذا عصم منه وقع فيما هنالك)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٣٦٠/ح١٤٦ ، وأبو داود في ســـننه ج٤/ص٣٢٩/ح٥١١١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٠/ح٣١٦١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٥٢/ح٢٧٠٤ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج١٠/ص٣٣٨/ح١٠٨٣٨ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٦/ص١٧١/ح١٠٥٠٣ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٤٢٦/ح٤٨٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص١٥٧/ح٤١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣٢/ح٧٠١.

فاتق الله واعلم أن الله لم يأمرك بعداوته إلا وقد نظر لك رحمة منه بك وشفقة عليك ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر:٦] ، وقال في ذم قوم تولوا : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠] ، فذلك قول الزبير وأبي موسى: « كانوا إذا فقدوا الوسواس من قلوبهم عدوها نقصا ».

وقال عمار بن ياسر رحمة الله عليه في حديث أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وحديث بن غنيمة حين صلى بهم عمار صلاة الفجر فقرأ سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص:١] ، فقيل له: « يأبا اليقظان لقد خففت الصلوة!! فقال: بادرت الوسواس ، هل رأيتني نقصت من حدودها شيئا؟! سمعت رسول اله صلى الله عليه وعلى آله يقول: إن المصلي ليصلي الصلاة لا يرفع له فيها نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا سدسها ولا سبعها ولا ثمنها ولا تسعها ولا عشرها » [1] ، وكذلك على أجزاء. فكان القوم إذا صلى أحدهم الصلاة القصيرة بتمام ركوعها وسجودها وقيام القلب فيها كما روى

---

(١) ورد بلفظ: عن عمارة بن أبي حسن المازني ، عن عمه ، أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم ، لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ذاك صريح الإيمان ، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك ، فإذا عصم منه وقع فيما هنالك)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٣٦٠/ح١٤٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣٢٩/ح٥١١١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٠/ح٣١٦١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٥٢/ح٢٧٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٣٣٨/ح١٠٨٣٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص١٧١/ح١٠٥٠٣ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٤٢٦/ح٤٨٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص١٥٧/ح٤١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣٢/ح٧٠١.

أبو هريرة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « أنه كان أخف الناس صلاة في تمام » [١] ، وقال ابن عباس: « ركعتان بتفكر واعتبـــار واعتقاد خير من إحياء ليلة والقلب ساهي » [٢] ، وقال كعب بن أبي كعب: « صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسقط آية من القرءان فلما انفتل مـــن صلاته قال للقوم: هل أسقطت من صلاتي شيئا؟ فقالوا: لا ندري ، فقـــال: أفيكم علي بن أبي طالب؟ قالوا: نعم ، قال: يا علي هل أسقطت من القرءان شيئا. قال: نعم يا رسول الله ، آية كذا وكذا. فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا بحضور الذكر بأبدانهم وقلوبهم غائبة عنه ، إن الله لا يقبل صلاة عبد لا يُحضر فيها عقله مع بدنه » [٣].

---

(١) عن أنس بن مالك قال: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم أخف الناس صلاة في إتمام)).
أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٣٤٢/ح٤٦٩ ، والنسائي في سننه ج٢/ص٩٥/ح٨٢٤ ، وابن حبان في صحيحه ج٥/ص١٦٦/ح١٨٥٦ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص٤٨/ح١٦٠٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١٧٠/ح١٢٧٥٧ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٣٣٧/ح٧٨٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٦٧/ح١٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٥٢/ح٧٢٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢١١/ح٦٠٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٢٢/ح١٣٠٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٢/ص١٨٢/ح٢٨٢٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٣١/ح١٤٤٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج١/ص٤٠٥/ح٤٦٦٢ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص٢٤٦/ح٣٢٣١ ، والدارمي في سننه ج١/ص٣٢٢/ح١٢٦٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٦/ح١٠٧٨.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد بلفظ: عن أبي كعب قال: ((صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فقرأ سورة فأسقط منها آية ، فلما فرغ قلت: يا رسول الله آية كذا وكذا أنسخت. قال: لا ، قلت: فإنك لم تقرأها. قال: أفلا لقنتنيها)). أخرجه الدارقطني في سننه ج١/ص٤٠٠/ح٥.

قال عثمان بن عفان ، وعقبة بن عامر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « من صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشيء من أمر الدنيا ، خرج من ذنوبه كما ولدته أمه »[1] ، يعني به: الصغائر مع اجتنابه الكبائر ، والأخبار في هذا تكثر ، فرحم الله من وعى وانتفع.

فيجب على العاقل إذا قام للصلاة أن يعلم من يناجي إنما يناجي رب العزة ، فيجب عليه أن يجمع قلبه كأنه قائم على الصراط وعن يمينه الجنة وعن يساره النار وخلفه الموت وقدامه الموقف ، ويستيقن أنه مسئول عن جميع حركاته وسكونه ، وأن يعلم أن ربه قد أمره بذلك ، فيجب عليه أن يكون خاضعا ذليلا بين يديه ، محبة منه لرضاء الله وتعظيما له وهيبة لجلال عظمته ، فاعمل وانتفع بما سمعت ولا تغير ، أعاننا الله وإياك على طاعته.

باب ما يعرف به المؤمن والخاطر

والذي يعرف به المؤمن ويفصل به بين الخاطر من الله والخاطر من الشيطان ، أن ما كان من الله دعاء إلى الطاعة وتحرك عليها ، وما كان من الشيطان فصارف عن ذلك وداع إلى ترك الطاعة ، والتهاون بما يجب فيها ، فأهل المراقبة لله إذا أحسوا ذلك أزالوه بالخشية والخوف من الله ، وأمدهم الله بالمعونة وأجزل لهم من التأييد ، فسهل بذلك عليهم محاربة عدوهم ، وتضعيف كيده في قلوبهم ، ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء:٧٦]، و ﴿ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١]، وأما أهل

وأخرجه أيضا المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٢٢٩٨٧ بلفظ: ((صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر فقرأ سورة فأسقط آية منها ، فلما انصرف قلت: يا رسول الله نسخت هذه الآية أو أنسيتها. قال: لا ، بل أنسيتها)).

(١) لم أقف عليه.

الغفلة فإذا خطر خاطر الطاعة بقلوبهم تغافلوا عن قبوله ، لأنهم آثروا عليه ما يضرهم عاجلا وآجلا ، فإذا جاء خاطر الشيطان استقبلوه بالقبول والموافقـــة والشهوة ، فهم أبدا أسرى في يدي عدوهم ، وفاقدون لعصمة عون خالقهم ، وهم كما قـــال الله: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٢]، فلله الحجة البالغة عليهم إذ بذل لهم كرامته ، وابتدأهم بها كما ابتدأ أوليائه القابلين عنه ، فاستقبلوها بالرد والكفران والتهاون ، فوجـــب في حكمه جل ثناؤه تغيير نعمه عليهم ، ولتخليته بينهم وبين عدوهم ، وهم مع ذلك قد مُكِّنوا من قبول ما ابتدأهم به من النعم المتواترة ، وابقائـــه علـــيهم ليتخلصوا من كيد عدوهم ، فإن فعلوا ذلك واستعانوا بنعمته على طاعتـــه ، وقبول هدايته ، فأنابوا إليه وراجعوه ، فرحمهم ولم تتعاظمه كثرة ذنـــوبهم ، وبدل سيئاتهم حسنات ، لأنه تعالى ذو فضل عظيم ، تواب حكيم ، وإن أبوا إلا تماديا في غيهم ، واتباعا لأهوائهم ، منعهم زيادته وكرامته ، التي يعطيهـــا العابدين العاقلين بقبولهم ، وأبقى لهم وعليهم ما يمكنهم بدونه الرجـــوع إلى طاعته ، فإن لم يفعلوا ولم يقبلوا الكرامة عاجلا وآجلا ، ووافوه مصرين على ذنوبهم ، عاقبهم بما كسبت أيديهم وما الله بظلام العبيد.

فوفق الله عبدا قَبِلَ نِعَم ربه ، واستقبلها بالقبول ، واستتمها بالمواظبـــة علـــى شكرها ، ولم يزيلها عن نفسه سوى غبة بها ، فقد وصف الله أهل المراقبة له ووصف قلوبهم ، فقال: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥]، فهذا مثلٌ ضرب به قلوب أهل المعرفة ، وهو مثل نور أهل العلم الذي قد عرَّفه الله قلوبهم وأَيَنت به ، فيضيء

لذلك سائر بدنه ، فتظهر الطاعة والخشية لربه على سائر جوارحه ، فمثله كمثل السراج في البيت في مشكاة في زجاجة فمثله وهو القنديل المعلق بالسلسلة كما قال مجاهد: « المشكاة: حدايد القناديل التي تعلق بها »[1] ، وقال ابن عباس: « المشكاة: الكوة التي يوضع فيها القنديل بالخشبة »[2] ، ومثل الدهن في صفائه الذي لا تقوم النار إلا به ، ولكثرته وجودته وصفائه ، ولا يبين لها ضوء إلا باجتماع ذلك ، مثل النية التي لا تصح جميع الأعمال إلا فيها ، ونورها عند الله على قدر شدة العزم وضعفه.

فهذا مثل ، نور الإرادة مثل نور المصباح ، ومثل نور الهمة مثل الزجاجة لصفائها ، ومثل نور النية وهو مدى العلم الذي يكون به الاعتقاد مثل نور الزيت ومدده في صفائه ، قال الله جل ثناؤه: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، فهذا ذكر ثلاثة الأبواب[3] التي ضربها الله لعباده في كتابه ، لقلوب المؤمنين في صفائها ، ثم جعل قلوب أعدائه والمعرضين عنه على خلاف ذلك ، فقال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور:٤٠] ، فهكذا صفه قلوب العاصين من عباده ، قد صارت في الظُّلَم لرين الذنوب على القلوب ، وتراكم القسوة عليها ، لاستسلامهم إلى قبول ما يلقي إليهم عدوهم ، وإيثارهم الانقطاع إليه بالقبول

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (ج): أبواب.

عنه دون خالقهم ، فنسأل الله حسن معونته ، وأن يكفينا عداوته ، إنه منـــان كريم.

باب خطر الطاعة كيف عرفها الشيطان فعارضها

روي عن حذيفة أنه قال: « مثل القلب مثل الكف والأصابع ، إذا خطرت له خطرة الطاعة انفتحت إصبع ، وإذا خطرت له خطرة المعصية انقبضت إصبع »[١] ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الانفطـــار:١٠-١٢]، فقد جعل الله للملك سببا إلى علم ذلك ، وأمره أن يكتب ما يُحدث فيه من الطاعة ، وجعل له عليـــه عَلَمـــا يستدل عليه ، وخلى الشيطان وعلم ذلك ، ونهى أن ندعو إلى ضده ، بل أمر أن ندعو إلى مثله ، ومكّن من فعله ، لتكون الحجة لله إن أبوا خلاف ما أمر به ، ومكّنهم من فعله ، وكذلك سبيل العبد في تمكينه من القبول عن عدوه ، والرد عليه ما ألقاه إليه ، وإن آثر طاعة ربه هان عليه كيد عدوه ، وإنما فعل الله تعالى ما فعل من ذلك لتتم محبة خلقه ويستوجبوا ما أعد لهم من جزيـــل ثوابه ، لمخالفة عدوهم وإيثارهم لطاعة ربهم ، وكيف قال ســـبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١]، إنما يكون بتحمل المشقة ومخالفـــة الهـــوى وترك اتباع الشهوة.

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « حفـــت الجنـــة بالمكاره - في حديث أبي هريرة - وحفت النار بالشهوات »[٢] ، والشيطان

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

قد مُكِّن من معرفة ما يهوى العبد ، وإن قبل منه كان دعاؤه له على قدر ما يعرف من هواه ، وإن قبل عن ربه انصرف عنه وخلاه ، كما قال الله جل ذكره: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر:٤٢]، ولذلك نهى الله العبد عن اتباع الهوى، فقال لداود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:١٧].

قال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: « أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل »[(١)].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة »[(٢)] ، نعوذ بالله من الشيطان واتباع الهوى إنه لطيف رحيم.

ثم رجع الكلام إلى المراقبة في السر والعلانية عند خطرات القلوب ، فعبدوا الله كأنهم يرونه بحقائق الإيمان واليقين ، بأنه يراهم ولا يخفى عليه سرهم وجهرهم وحركاتهم وسكونهم ، ولا تخفى عليه أمكنتهم حتى كأنهم يعاينون ثوابه وعقابه ، كما قال حارثة: « وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لفظ الرواية هكذا: عن علي قال: ((إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين ، طول الأمل وأتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما أتباع الهوى فيصد عن الحق ، ألا وأن الدنيا وقد ولت مدبرة والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل)).

أخرجه ابن حنبل في فضائل الصحابة ١/ص ٥٣٠/ح ٨٨١ ، والطبراني في معجمه الكبير ٧/ص٢٨٨/ح٧١٥٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٦/ح٥٥٩٨ ، والشافعي في مسنده ١/ص٦٧/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٤٣/ح٣٤٨٣٣.

، وأهل النار في النار يتعاوون ، فقال له النبي عليه السلام: أصبتَ فـــالزم »[١].

وكما روي عن الحسن أنه قال: « إن لله عبادا هم في الجنة كمن قد دخلها ، فهم فيها متكئون ، وهم في النار كمن قد دخلها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وحوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، نظـــروا فأبصروا ، وخاصموا ففلحوا ، تجارة يسرها لهم ربهم رب رحـــيم. فمنـــهم للخير أهل ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وطلبتهم فأعجزوها ، ونحن نريدها أجمعين ، قالوا: حلهم لنا يا أبا سعيد — يعنون: صفهم لنا — قال: أما الليـــل فقيام على أطراف أقدامهم ، مفترشوا جباههم ، وأما النهار فعلماء حلمـــاء أبرار أتقياء ، براهم الخوف حتى صاروا كالقداح ، حصُل الناظرون إلـــيهم فقالوا مرضى ، وما بالقوم من مرضى بل خُولطوا ، ولقد خالط القوم أمـــر عظيم أعداء لمن سالم الناس الدنيا ، وسلم لمن عادوا منها ، ثم قال: إن أقواما تقووا بنعم الله على معاصيه ، أعطاهم أموالا فقووا بها على غير طاعة ، وجعل

---

(١) ورد الحديث بلفظ: عن الحارث بن مالك الأنصاري ، أنه مر برسول الله صلى الله عليه وســـلم فقال له: كيف أصبحت يا حارث. قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: أنظر ما تقول ، فإن لكـــل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأســـهرت لـــذلك ليلـــي ، واظمأن نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيهـــا ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: يا حارث عرفت فألزم ثلاثا)).

أخرجه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ٣/ص٢٦٧/ح٣٣٦٧ ، والقضـــاعي في مســـند الشـــهاب ج٢/ص١٢٧/ح١٠٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٦٥/ح٤٤٥ ، وعبـــد الـــرزاق في مصنفه ج٦/ص١٧٠/ح٣٠٤٢٣.

لهم سلطانا فقهروا به عباده ، فيا ويلهم غدا لو عاينوا الجزاء ، لكل ساع ما سعى »[١].

فلما عبده أهل المعرفة على درجة المراقبة ، وعلموا كيد عدوهم ، وعرفوا ما امتحنوا به منه ، وأنه غير غافل عنهم[٢] ، ولا تارك لدعائهم من كل وجه طمع فيه من قبلهم ، كان حذرهم ومراقبتهم على قدر علمهم وشدة إعظامهم لخالقهم ، ما ورثهم ذلك الحياء منه عند خطرات القلوب ، فصاروا لذلك أوفر الخلق عنده نصيبا ، وأخشعه في العمل لله قلوبا ، والدؤب في طاعته ، وذلك أنهم إذا ذكروا نظره إليهم ، وعلمه بخفياتهم إذ كانوا في طاعته ، إزدادوا خشعا ، وبالخلق تهاونا ، وعن تضييع أمره تباعدا ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، في أنفسهم ولا في أموالهم ، وقاموا لله بواجب حقه عليهم ولهم ، بما يستحقه خالقهم من المحبة لما أحب ، والعمل به والدعاء إليه ، والسخط لما سخطه وتركه ، والنهي عنه وإن سخط الخلق منهم ذلك لم يؤثروا إلا رضا الله على رضا مَن سواه.

وكذلك قال لقمان لابنه: « يا بني إنك لن تنال ولاية الله إلا بعداوة كثير من الناس ، ولن تنال رضا الله إلا بسخط كثير من الناس ، وذلك كله قليل فيما تطلبه من الله »[٣].

---

(١) ورد بلفظ: عن الفرات بن سليمان ، أن الحسن بن أبي الحسن كان يقول: ((إن لله عبادا هم والجنة كمن رآها ، فهم فيها متكئون ، وهم والنار كمن رآها ، فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، أما الليل فصافة أقدامهم ، مفترشو جباههم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، براهم الخوف فهم أمثال القداح ، ينظر الناظر فيقول: مرضى وما بهم من مرض ، ويقول: قد خولطوا أو قد خالط القوم أمر عظيم)). أخرجه في الهم والحزن ج١/ص٦٩/ح٩١.

(٢) في المخطوط: منهم. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) لم أقف عليه.

وقال أبو ذر رحمة الله عليه: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله عن أوثق عرى الإيمان قال له: « تحب في الله وتبغض في الله »[١].

فإذا وصل العبد إلى درجة الحياء من الله كان كما جاء الخبر: « إذا استوت سريرة عبدي وعلانيته فذلك عبدي حقا »[٢]. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحقيقة الحياء من الله في حديث ابن مسعود.

أخبرنا أبو عمرو العبدي ، قال: أخبرنا مروان بن أبي معاوية الفزاري ، عن ابن إسحاق ، عن الصباح بن محمد ، عن قراة الهمداني ، عن عبد الله بن مسعود ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما لأصحابه: « بينوا آجالكم دون آمالكم ، واستحيوا من الله حق الحياء ، قالوا: يا رسول الله إنا بحمد الله نستحيي من الله ، قال: ليس ذلك حقيقة الحياء من الله ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فإذا فعل العبد ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[٣].

---

(١) ورد بلفظ: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: ((أي عرى الإيمان ، أظنه قال: أوثق. قال: الله ورسوله أعلم. قال: الموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله)).

أخرجه الطيالسي في مسنده ج ١/ص٥٠/ح٣٧٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص١٧٢/ح١٠٣٥٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٣٧٤/ح٦٢٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٣٣/ح٢٠٨٥٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٣٧٦/ح٤٤٧٩.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد بلفظ: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استحوا من الله حق الحياء. قالوا: يا رسول الله إنا لنستحيي والحمد لله. قال: ليس ذلك ، ولكن من استحيى من الله

وقال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: « تدع زينة الحياة الدنيا ، وتؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ثم قال: هنالك استحيا العبد من الله ، وهنالك أصاب العبد ولاية ربه »[١].

فقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن حقيقة الحياء من الله حفظ الرأس وما حوى ، يريد بذلك ما فيه من السمع والبصر واللسان والشم ، ألا يجعل ذلك كله إلا في موضعه وما خلق له. فلا يسمع إلا ما يعنيه ، ولا ينظر إلا بما يزينه عند الله ، ولا ينظر إلا معتبرا ، ولا يشم إلا مباحا ، وأراد بذلك البطن وما وعى ، يريد بذلك العقل ، وذلك أن العقل مسكنه القلب ، فلا يستعمل عقله إلا فيما يرجع عليه نفعه في معاده ، وقال: « والبطن وما وعى » ، يريد بذلك كلما أضمر عليه القلب من معرفة الله ، والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ويريد بـ« البطن - أيضا - وما وعى » ، كلما أدخل جوفه لا يكون[٢] إلا حلالا طيبا ، ويريد بذلك الفرج لأنه من الجوف كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أخوف ما أخاف عليكم شهوته ،

حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء)).

أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج١/ص٣٩/ح٩٠ ، وأيضا في الورع ج ١/ص٦٢/ح٥٩ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٣٨/ح٢٤٥٨ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٨٧/ح٣٦٧١ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٥٩/ح٧٩١٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٣/ص٢١٩/ح٣١٩٢ ، وأيضا في معجمه الصغير ج١/ص٢٩٨/ح٤٩٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٨/ص٤٦٢/ح٥٠٤٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٧٧/ح٣٤٣٢٠.

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٢/١٠١.

(٢) في (أ) و(ب): لا يكن. مصحفة.

ما في بطونكم وفروجكم ، فمن حفظ ذلك - كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فقد استحيى من الله حق الحياء » [١].

وقد بيَّن لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يستحيون مـــن الله حـــق الحياء.

وروى سعيد بن زيد الأسدي قال: « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أوصني. فقال: تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك » [٢] ، وذلك أن الرجل الصالح تستحيي منه لما ظهر لك منه أن يراك على المعصية ، أو يراك في درجة التقصير فيزدري عقلك ، وهو لا يعلم الباطن منك ، فلو علم الباطن كما يعلم الرب منك. والله عز وجل وإن كانت العيون لا تراه ولا يجوز ذلك في صفته ، فإن اتفاق القلوب به كاتفاق العيون بما أدركته من ذلك ، لعيظم برهانه وتواتر حجته ، وكثرة أدلته وسبوغ نعمته ، فأقل ما يجب على أهل المعرفة بـــالله جـــل ثنـــاؤه أن يستحيوا من الله كما يُستحيى من الرجل الصالح من قومه فيما ظهر له ، فمن حافظ على ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ، على أن تفاضل الحياء من المؤمنين على قدر علومهم بالله ، وبكنه ما يجب له من تعظيمه على من سواه من خلقه ، ولكثرة أياديه عندهم ، ولسبوغ نعمه عليهم ، وقد قـــال بعـــض الحكماء الحب للمخلوقين على أقدارهم في منازل الدين والدنيا ، والله تعـــالى

---

(١) ورد بلفظ: عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن ممـــا أخـــاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ، ومضلات الهوى)).

أخرجـــه ابـــن حنبـــل في مســـنده ٤/ص٤٢٠/ح١٩٧٨٧ ، والطـــبراني في معجمـــه الصـــغير ج١/ص٣٠٩/ح٥١١.

(٢) ورد بلفظ: عن سعيد بن يزيد الأزدي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصـــني ، قـــال: ((أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك)).

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٦/ص٦٩/ح٥٥٣٩.

وعز أولى مَن أُجلّ مقامه وروقب في أمره ونهيه. ويروى عن وهب بن منبه أنه قال: قال عيسى بن مريم: « يا بني إسرائيل استحيوا من الله كما تستحيون من الناس في علانيتكم »[١].

فإذا وصل العبد إلى حقيقة الحياء من الله أورثه الدرجة العليا ، والمنزلة الكبرى ، ومن الحياء أنهم يستحيون من الله في تقلبهم وقيامهم وقعودهم وحركاتهم وسكونهم ، مما أبيح لهم حياء أشد حياؤهم من الله فيما لا بد لهم منه.

فمن ذلك ما روى الزبير بن العوام قال: خطب أبو بكر الناس فقال: « أيها الناس استحيوا من الله فوالله ما دخلت الخلا منذ أسلمت إلا مقنعا الرأس حياء من ربي »[٢] ، وقال ابن عمر: « إنه رأى رجلا أسود بفلاة من الأرض يلتفت يمينا وشمالا فلم ير أحدا ثم دخل إلى خراب وستر فوقه بثوب ، قال ابن عمر: تستر على نفسك وليس أحد يراك؟! قال: أولا أستحيي من الله »[٣] ، وقال عثمان بن عفان: « إني لأتعرى في الفضاء من الأرض فأحني صلبي على عورتي حياء من ربي »[٤].

وأخبرنا علي بن الجعد ، قال: حدثنا محبوب البصري ، قال: سمعت الحسن يقول: « لقد أدركت أقواما ما طوي لأحد منهم ثوب قط ، ولا اشتهى أحد منهم شهوة على أهله قط ، ولا أمرهم بصنعة طعام قط ، ولا قاسم أخاه ميراثا قط ، وإن كان أحدهم ليرث الميراث مع أخيه فيقول له: لك كله ، كي

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن أبي موسى قال: ((إني لاغتسل في البيت المظلم فأحني ظهري إذا أخذت ثوبي حياء من ربي)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج١/ص١٠٠/ح١١٢٨.

وفي لفظ آخر لأبي موسى: ((ما أقمت صلبي في غسلي منذ أسلمت)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج١/ص١٠١/ح١١٤٠.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

لا يشغل نفسه بشيء من الدنيا ، وإن كان أحدهم ليأكل الأكلة فيتمنى أنهـــا تبقى في جوفه كما تبقى الآجرة في الماء حتى تكون زاده من الدنيا ، كل ذلك كراهة منهم أن يشتغلوا بشيء من الأمور عن ذكر الله ، وإن كان لا بد لهم منه فهم متكرهون له لما يعلمون في غيره من القربة إلى الله والزلفة لديه » [١].

وقال هشام بن عروة قال: « أني يا بني لا تهدين من البدن شيئا تســتحيي أن تهديه إلى كريم من المخلوقين ، فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختير له » [٢].

ذكر عن عمر أنه قال: « الحياء والإيمان قرنا جميعا فإذا ارتفع أحدهما ارتفـــع الآخر » [٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الحياء حياءآن : الحياء طـــرف من الإيمان ، وحياء عجز » [٤].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « خلتان يحبهما الله السماحة والحياء » [٥] ، وقال: « إن الله اختار الإسلام لنفسه دينا ، فأحسنوا صحبته بالحياء والسخاء

---

(١) ورد عن الحسن بلفظ: ((أدركتهم والله إن كان أحدهم ليعيش عمره ما طوي له ثوب قـــط ، ولا أمر أهله بصنعة طعام له قط ، ولا حال بينه وبين الأرض شيء قط)). أخرجه ابن أبي شـــيبة في المصنف ج٧/ص١٩٠/ح٣٥٢٢٦.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ورد عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأشج العصري: ((إن فيـــك خصـــلتين يحبهما الله الحلم والحياء)).

أخرجـــه البخـــاري في الأدب المفـــرد ١/ص٢٠٥/ح٥٨٤ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٦/ص١٨٢/ح٧٢٠٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٦٧/ح٢٠١١ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٤٠١/ح٤١٨٨ ، وابن حنبل في مســـنده ج٤/ص٢٠٦/ح١٧٨٦٢ ، والطـــبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٣٠/ح١٢٩٦٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤١٦/ح٧٧٤٦ ،

، فإنه لا يصلح إلا بهما »[١] ، وقال: « الحياء والإيمان يجريان طلوعا فإذا خرج أحدهما اتبعه الآخر »[٢].

وكذلك يجب في كل ما عمل لله أن يكون أعلا الأمور وأرفعها قدرا في قيمتها وثمنها ، ويكون له خالصا لابتغاء مرضاته دون من سواه ، فإنه قد قال بعض الحكماء: « ينبغي للعبد أن ينظر ما هو أي: أليس هو عبد ذليل يتعبد »[٣]. وعلى ما هو أي: على ما هو مقيم على ما خُلق له وأُمر به ، أم على ما لم يُخلق له و لم يُؤمر به ، وقد نُهي عنه ورُغِّب في غيره ، وفيم هو أي فيم هو من الأعمال التي يعملها ، لم يعملها لله مخلصا لا يريد بها غيره ، ولا يطلب المترلة بها إلا عنده جل ثناؤه ، أم ليقال: ما أورعه وأكفه وأقبله على شأنه!!!

وكذلك ينظر لمن تكلم لله أم لغير الله ، فيما وجب عليه الكلام فيه ، أو فيما لا يعنيه ، أو فيما قد نهي عنه ، وعلام لا يتكلم عن أن يتقرب إلى الله بكلامه ، ويقضي به ما يجب من حقه ، فيما أوجب عليه من النهي عن معصيته ، أو ليقال[٤]: ما أشد غضبه لله!! وأقومه بواجب حق الله[٥]!!

وكذلك ينظر لمن يصمت لأنه لا يحل له الكلام ، أم ليقال: ما أطول صمته! وأكفه عن دخوله فيما لا يعني!! .وعلام يصمت أعلى ما قد وجب عليه الصمت فيه؟ أم فيما قد وجب عليه الكلام فيه؟ أم ليقال: ما أطول صمته

والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص٦٧/ح٧٩٢ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٢٦٦/ح١٦٤٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج١٢/ص٢٤٣/ح٦٨٤٨ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ج١/ص٦٠/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢١٢/ح٢٥٣٤٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في المخطوطات: أوفى ليقال. ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) سقط من (أ) و(ب): وأقومه بواجب حق الله.

وأكثر احتماله!! وعلام يصمت أعلى أن يسلم دينه ولا يخرجه القول إلى ما لا يحل له؟! وعلى علم هو مكتفي به ، لا علم طلب به الرئاســة ، والرئاســة بالحلم والكظم للغيظ والإحتمال والصبر.

وكذلك يجب على العبد في كل أحواله من أخذه وعطائه ، وحبه وبغضــه ، وقبضه وبسطه ، أن [١] يرى نفسه لله بالمراقبة وشدة الحياء منه ، إلا أن تكون [٢] مترلة عنده من ذكر أقل من مترلة مخلوق مثله ، فإن المخلوق أقــل مــا يوجب لبعض عظماء الدنيا إذا علم منه أنه يعلم موارد أموره ومصــادرها ، ويتفقد ذلك عليه ، وهو ممن يحب أن يتقرب إليه ببعض عمله ، ويعلم منه أن لا يقبل منه شيئا من تقربه إلا ما كان له خالصا ، فإنه لا يقصر عند ذلك في غاية النصيحة والتفقيه لما يكون منه في ظاهره وباطنه ، فيجب علــى أهــل المعرفة بالله أن يكون الله عندهم بأعلى مترلة وأشد هيبــة وأكثــر إجــلالا وأخلص محبة عند جميع خلقه ، إذ كان هو المستحق لذلك دون من ســواه ، وأقل ما يجب على من علم أن الله بأمره عالم وعلى عقوبته قادر أن يكون منه على حذر ، ويقوده علمه إلى الزهد فيما يفنى ، والرغبة فيما يبقى.

وخلة أخرى من الحياء من الله لأن لا يرى قلوبهم ترجو غيره ، أو تخاف غيره ، كما قال عامر بن قيس بن عبد الله العنبري ، وعمر بن عتبة بن قرقد كلاهما قالا: « إنا لنستحيي من الله أن نخاف شيئا سواه » [٣]. والأخبــار في ذلــك تكثر.

فلما هاج الحياء منهم استحيوا من الله فيما أطلق من الطعام والشراب واللباس وغير ذلك ، أن يشتغلوا بشيء منه إلا ما أوصلهم إلى طاعته ، وكان عونا لهم

---

(١) في (ج): وأن.

(٢) في (أ) و(ب): إن لا يكون.

(٣) لم أقف عليه.

عليها ، فما ظنك بحيائهم منه فيما لم يطلق لهم؟! أو يكونوا على نقصان في حدود الحياء من أجل [١] ارتكابه ، فقد فسرنا أوجه الحياء من الله ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله والمراقبة له وأهل الإجلال لمقامه.

والوجه الثاني من المراقبة هو مراقبة الموت ومخافة أن يفوتهم ما أملوه من ثواب الله ربهم ، فهم يعاملونه بالجد والاجتهاد مبادرة الفوت ، لأنهم فهموا عن ربهم ما ندبهم إليه ، فقال جل ثناؤه: و﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]، يقول: وجلت قلوبهم لما يخوفون من سالف أعمالهم الدنية ، ولعلمهم بالمرجع إلى الله ، فيبادرون آجالهم بالإستكثار من طاعتهم ، لأنهم يعلمون أن كل ساعة تمضي بهم كان اشتغالهم فيها بغير ما خلقوا له فهم قد خسروها ، وأنه لو كانت لهم الدنيا بحذاريفها [٢] لبذلوها لترد [٣] الساعة الماضية عنهم ، ليعملوا فيها لم يجابوا إليه ، و لم يقدروا عليه ، فإشفاقهم من الخسران على قدر عملهم بما فاتهم من ثواب عملهم في مقدار ساعاتهم التي عينوها، وأنه لا شيء من أمور الدنيا منذ مبتدائها [٤] إلى تصرمها يوازن ما فاتهم من نعيم ثوابها.

وقال الله عز وجل: ﴿ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١]، الحسن في قوله: و﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، قال: يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم يخافون ألا تنجيهم من عذاب الله،

---

(١) في (ج): في حدوده ، والحياء من أجلّ.

(٢) وظنن فوقها بـ: بحذافيرها.

(٣) في (ج): ليردوا.

(٤) في (أ) و(ب): مبتدائه.

وقـــال تعـــالى: ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبيـاء:٩٠]، فهم صفوة خلقه والمختارون المطيعون من عباده ، وقـال ابـن مسعود: عن النبي صلى الله عليه وآله: « لا تحاسدوا إلا في اثنتين رجل آتـاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا سلّطه علـى هلكته في الحق »[1]. فإذا كانوا في درجة المنافسة أورثم ذلك قصر الأمـل ، ومراقبة الموت مخافة الموت ، فتسابقوا وبادروا كما قال أبو هريرة عن الـنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « بادروا أربعا قبل أربع ، اعمل لصحتك

---

(١) أخرجه المرشد بالله في أماليه ١/٨٤.

وعن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها أو يعلمها)).

أخرجه المرشد بالله في أماليه١/٨٤ ، والبخاري في صحيحه ج١/ص٤٠/ح٧٣ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص٥٥٩/ح٨١٥ ، وابن حبان في صـحيحه ج١/ص٢٩٣/ح٩٠ ، والترمـذي في سـننه ج٤/ص٣٣٠/ح١٩٣٦ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٠٨/ح٤٢٠٨ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٨٥/ح٣٦٥١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٤٩/ح٣٦٩ ، والحميدي في مسـنده ج ١/ص ٥٥/ح ٩٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٩٦/ح١٣١٦٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٢٦/ح٥٨٤٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٩٤/ح١٢٥ ، وأيضـا في مسند الشاميين ج٢/ص٢١٥/ح١٢١٢ ، والبيهقي في سننه الكـبرى ج٤/ص١٨٩/ح٧٦١٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٣٤١/ح١٠٨٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣٩/ح٧٢٩ ، والبخاري في خلـق أفعـال العبـاد ١/ص١١٩/ح٠ ، والطـبراني في معجمـه الأوسـط ج ١/ص٨١/ح٢٣١.

قبل سقمك ، ولفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، ولحياتك قبل موتك » [١].

وأخبرنا أبو مصعب المدني قال: أخبرنا محمود بن هارون الأعرج ، عن النبي صلى الله عليه ، رواه ابو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « بادروا بالأعمال ما تنتظرون هل [تنتظرون] إلا غنى مطغيا ، أو فقرا منسيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرماً مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو المسيح الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » [٢].

وأخبرنا محمد بن معاوية النيسابوري ، قال: أخبرنا كثير بن مروان ، عن عبد الله بن زيد ، عن أبي أمامة ، وأبي الدرداء ، وواثلة بن الأسقع ، وأنس بن مالك ، أن النبي صلى الله عليه وأله وسلم قال: « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود

---

(١) عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: ((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك)).

أخرجه الحاكم في مستدركه ٤/ص٣٤١/ح٧٨٤٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٤٢٥/ح٧٢٩ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢١٩/ح١٤٥١ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٧٧/ح٣٤٣١٩.

(٢) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا ، أو فقرا منسيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٥٥٣/ح٢٣٠٦ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٥٧/ح٧٩٠٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٣٢/ح٨٢٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٤٢٢/ح٦٥٤٢.

غريبا كما بدأ فطور غرباء الذين يصلحون عند فساد الناس »[١] ، وقـــال رجل: يا رسول الله أوصني؟! قال: « إذا صليت فصل صلاة مودع »[٢].
وقال سلمان رحمة الله عليه ، وعائشة ، وغيرهما: « عهد إلينا النبي صـــلى الله عليه وآله وسلم أن يكون زاد أحدكم كزاد الراكب »[٣] ، وإنما أراد بذلك صلى الله عليه وآله وسلم أن من لم يكن له في الدنيا ما يأسف عليه على فراقه ، لم يكن شيء أحب إليه من الإنتقال منها إلى دار عمرانه ، التي قـــدَّم زاده إليها ، وإنما جزع أهل الدنيا لفراقها ، لأنهم عمروها بخراب غيرهـــا ، فهـــم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص١٣١/ح١٤٥ ، والترمذي في ســـننه ج٥/ص١٨/ح٢٦٢٩ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٢٠/ح٣٩٨٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص١٨٤/ح١٦٠٤ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٦/ص١٦٤/ح٥٨٦٧ ، والطـــبراني في معجمـــه الصـــغير ج١/ص١٨٣/ح٢٩٠ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٣٨٢/ح٤٠٨ ، والقضـــاعي في مســـند الشهاب ج٢/ص١٣٨/ح١٠٥١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص١٠٠/ح٧٥٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٣/ح٣٤٣٦٦ ، والدارمي في ســـننه ج٢/ص٤٠٢/ح٢٧٥٥ ، والطـــبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٢٦١/ح١٩٢٥.

(٢) عن أبي أيوب قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رســـول الله علمـــني وأوجز. قال: ((إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعتذر منه ، واجمـــع اليأس مما في أيدي الناس)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١٣٩٦/ح٤١٧١ ، وابن حنبل في مسنده ج٥/ص٤١٢/ح٢٣٥٤٥ ، والحـــاكم في مســـتدركه ج٤/ص٣٦٣/ح٧٩٢٨ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٤/ص١٥٥/ح٣٩٨٧.

(٣) عن عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلعي ثوبا حتى ترقعيه)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٢٤٦/ح١٧٨٠ ، والحاكم في مســـتدركه ج٤/ص٣٤٧/ح٧٨٦٧ ، وأبـــو يعلـــى في مســـنده ج٨/ص٨٠/ح٤٦١٠ ، والطـــبراني في معجمـــه الأوســـط ج ٥/ص٢١٧/ح٥١٢٨.

يكرهون أن ينتقلوا من العمران إلى الخراب ، فعلى قدر عمارة الآخرة يعمل العاملون في خراب الدنيا.

قال رجل لعلي بن أبي طالب عليه السلام وقد دخل منزله: يا أمير المؤمنين ما أرى في منزلك شيئا ، قال: « يا أعرابي إن لنا دارا غير هذه قد حولنا جل متاعنا إليه »[١].

وذكر أن سلمان رحمة الله عليه بكى عند الموت ، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ما ترون هذه الأشياء ودخولي فيها ، وقد عهد إلينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن يكون زاد أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب »[٢]. فالعاملون لله يرون أن كلما خلفوه في دار الخراب فقد خسروه ، وكلما قدموه فقد ربحوه ، فلما قصرت آمالهم راقبوا الموت وبادروا بالجد والاجتهاد ، فكانوا من الذين قال الله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦١].

وقيل لعامر بن عبد الله وكان مجتهدا: إن الجنة تنال بدون هذا ، فقال: « والله لأجتهدن ثم لأجتهدن فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن لا يكن الأخرى لم أرجع إلا على نفسي فأقول: ردني أعمل غير الذي كنت أعمل »[٣].

وقال إبراهيم التيمي: « لو فارق ذكر الموت قلبي لفسد على قلبي »[٤].

وقال سميط بن عجلان: « لو نزل عذاب الله من السماء ما قدرت أن أزيد في عملي مثقال ذرة »[٥] ، وإنما قال ذلك من غاية إجتهاده ، فمن قصَّر أمله

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

حسن عمله ، وطابت له الحياة ، ومن راقب الموت بقلبه سار إلى الخيرات ، فهذا معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن يرقب الموت سارع في الخيرات ».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح »[1].

باب اليقين

وهو الدعامة الثانية ، واليقين على أربع شعب على: تبصرة بالفطنة ، وتأويل الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين. فمن أبصر الفطنة تأول الحكمـــة ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

---

(١) ورد عن أبي بكر أنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: مرني بكلمـــات أقـــولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال: ((قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشـــركه. فقال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك)). أخرجه مســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢٠٨٩/ح٢٧٢٣ ، والبخاري في الأدب المفـــرد ١/ص٤١٢/ح١٢٠٢ ، والحـــاكم في مستدركه ١/ص ٦٩٤/ح ١٨٩٢ ، وابن حبان في صحيحه ج٣/ص٢٤٣/ح٩٦٢ ، والترمـــذي في سننه ج٥/ص٤٦٦/ح٣٣٩٠ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٧٣/ح٣٨٦٨ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣١٧/ح٥٠٦٧ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٩/ح٥١ ، والطيالسي في مســـنده ج١/ص٤/ح٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٣/ص٢٩٦/ح٣٤٥٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٠١/ح٧٦٩١ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٤٤٦/ح١٦٧٢ ، وأبو يعلـــى في مسنده ج١/ص٧٩/ح٧٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٣٢٢/ح٢٦٥٢٣ ، والـــدارمي في سننه ج٢/ص٣٧٨/ح٢٦٨٩ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٨٦/ح٩٣٤.

باب شرح اليقين

واليقين هو معرفة الله بما نوَّر لعباده من أدلته ، وأقام لهم من أعلامه في سماواته وأرضه ، وفي أنفسهم وما يرون من عجائب صنعه ، ولطيف تدبيره ، وذلك [أن] المؤمنين على قدر منازلهم من العلم والاستدلال على الله ، وكذلك منزلة الأنبياء عليهم السلام ، فإذا عرفوه بهذه المعرفة أخلصوا العبادة له ، لما يعلمون من شدة استحقاقه لها ، وقد قال الله تعالى: فا ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقال عز وجل: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر:٣]، أي: العبادة الخالصة ، وما يدان له به ، وما كان غير ذلك مما يشوبه بشيء فليس بدين له.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب وانشرح »[1] ، وهذا هو نور المعرفة واليقين بالله والإخلاص له دون خلقه ، فبهذا النور والعلم الذي ميَّز المؤمنون به بين الحق والباطل ، وبه علوا كل مبطل ، وبه قوي حجة كل محق ، وبه دعو إلى الله من أدبر عنه ، أو ألحد في صفته ، فإذا أقاموا أنفسهم لله هذا المقام في تخلص أنفسهم واستنقاذ عباده من حيرتهم وضلالهم ، أمدهم بمعرفته ، وعصمهم بطاعته ، وأيدهم بتأييده ، وحاطهم بكلاتيه ، فأزادوا عند ذلك يقينا إلى يقينهم ، وتفاضلت أعمالهم ، على قدر تفاضلهم في معرفة ربهم واجتهادهم ، وكذلك الأنبياء ومن اتبعهم في زمنهم.

ومثل ذلك ما روي أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصرة تبرٍ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أنفق هذه عليك وعلى عيالك »[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

وقال سعد بن أُبي ، وعمر بن ثعلب ، وغيرهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال عليه السلام: « إني أعطي أقواما الدنيا وأمنع آخرين ليس معهم من الدنيا شيء ، لما جعل الله فيهم من الصبر واليقين »[١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: « أَكِلُ كل قوم إلى إيمانهم »[٢].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « ما منكم إلا ولو شيئت أن أجد أحد عليه في خلقه ما خلا عمار بن ياسر »[٣] ، وإنما أراد بذلك عليه السلام زيـــادة لزداد اليقين ، لأن زيادة اليقين خطرات ، كما قال عليه السلام: « الإيمـــان ثابت ، واليقين خطرات »[٤]. وقد قال بعض أهل المعرفة: « مثقال ذرة من يقين تملأ القلب نورا »[٥] ، وإنما أراد زيادة اليقين.

وقال الله جل ثناؤه يحكي قول إبراهيم عليـــه الســـلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]، قال مجاهد وغيره: « ليزداد يقينا »[٦] ، وقال غيرهم: « إنما سأل المعاينة لأن قومه سألوه هل رأيت كيف يحيي ربك الموتى؟ فقال: لا ، إلا أني قد علمت ذلك وتيقنته وتأولته »[٧] ، فسأل الله ذلك ليكون إذا راجعهم في الدعاء إلى ربه ، فسألوا عن رؤية ذلك أن يقول: نعم ، ليقطع شغبهم.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٧٣٣٩.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) لم أقف عليه.

وذكر عن ابن أبي طالب عليه السلام أنه ذكر الجنة والنار فوصفهما ثم قال: « نعم من حال بينه وبين هذا الثواب والخوف من العقاب تعبد المرء لمن رجا [١] الدنيا في يديه ، فيستحرى في الأمور سرته ، ويسرع إلى محبته ، ويتعب بدنه لمرضاته ، ويدنس عرضه ، ويجرح دينه ، ويضع شرفه حتى تذهب مروءته ، وحتى يحول هذا العبد بينه و بين ما يوقعه في عقابه ، وهو يدعي بزعمه أنه يرجو الله فيما أتاه ، لا يسيء [٢] من دعواه ، في عمله [٣] وفعله ، يرجو الله في الكبير ويرجو العباد في الصغير ، ويعطي العبد ما لا يعطي الرب ، وكل من رجا عرف عمله في رجائه [٤] ، فما بال الله يقصر به عما يعمل لعبده.

إني أخاف أن يكون في رجائك كاذبا ، أو يكون رجاؤك مخالفا مدخولا ، وكذلك إن خاف عبد من عبيده أعطاه في خوفه منه ما لا يعطي الله وهو في كل خوف خوف الله ورجايه وكذلك من عظمت الدنيا ف يصدره وكثر موقعها عنده أثرها على الله ، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ما يدل على خراب الدنيا وعيبها ، إذ عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، علم أن الله عز وجل بغض شيئا فأبغضه ، وحظر شيئا فحظره ، وصغَّر شيئا فصغره ، فلو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبعض ، وتعظيمنا لما صغَّر لكفانا ، ولقد أمر عائشة بإخراج شيء وقال: إذا رأيته ذكرت الدنيا » [٥] ، محبة منها ألا تتخذ منها رياشا ، فأمالها من القلب ، وأخرجها من النفس.

---

(١) في المخطوطات: بعد المن رجا. ولعلها مصحفة ، ولعل ما أثبت هو الصواب ، أو قريبا منه.

(٢) الكلمة مهملة في المخطوطات.

(٣) في (أ) و(ج): علمه.

(٤) في (أ) و(ب): رحاله. مصحفة.

(٥) لم أقف عليه.

وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر أو ينكر عنده ، فوفق الله عبدا تأسى بنبيه عليه السلام ، وكذلك بأنبياء الله عليهم السلام ، كموسى بن عمـــران عليه السلام حـــين قـــال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص:٢٤]، وكعيسى عليه السلام في زهده ورغبته في ثواب ربه ، والعمل لما عنده ، والرفض للدنيا وأهلها ، وإيثاره على من سواه ، متوكلا موقنا ، صابرا محتبسا ، فأعلى درجات المقربين عند الله وأشرفها وأسناها ما مَّنَّ به عليهم ، ممن تأييداته التي هي ثواب لأعمالهم معجلا من فضل ربهم ، التي يزدادوا بهـــا يقينا إلى يقينهم ، كما قال أبو بكر: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلم عام أول فقال: « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهو يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهو يهدي إلى النار ، واسألوا الله الـــيقين والمعافاة فإنه لم يعط عبد مع اليقين أفضل من المعافاة »[1].

فبدأ باليقين لأنه لا شيء أفضل من اليقين ، وهذا منه عليه السلام حض على الطاعة التي يستوجب العبد فيها من الزيادة ، ويزداد يقينا بذلك ، كما قـــال الله عـــز وجـــل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغـــابن:١١] ، وإنمـــا حض عليه السلام على ذلك لأن معرفة الله واليقين به أخلص العمـــل لـــه ، وباليقين يحسن نظره لعباده ، وأنه لا يفعل بهم إلا ما فيه صلاحهم ، رضـــوا عن الله في كل فعله ، وباليقين رفع الله قدر أصفيائه من أنبيائه ، والصـــالحين من عباده.

وقال ابن عباس: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال له: « إن استطعت أن تعمل لله باليقين في الرضا فافعل ، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير

---

(١) لم أقف عليه.

» [١] ، فأقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم على درجات الرضا اليقين ، لوقوع الخيرة في كل ما فعله.

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الحاذق بتلاوة القرءان - وهو العالم بحدوده - آناء الليل والنهار ، والذي يقرأه وهو عليه شاق له ثواب القرءان مرتين ، بكل حرف عشر حسنات » [٢] ، كما قال عبد الله بن مسعود لقراء القرءان: « أما إنكم تؤجرون بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول: الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، فذلك ثلاثون حسنة » [٣].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن عائشة قالت: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو يتعتع فيه وهو شاق عليه فله أجران)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٨٨٣/ح٤٦٥٣ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص٥٥٠/ح٧٩٨ ، وابن حبان في صحيحه ج٣/ص٤٥/ح٧٦٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص١٧١/ح٢٩٠٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٤٢/ح٣٧٧٩ ، وأبو داود في سننه ج٢/ص٧١/ح١٤٥٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٦/ص٤٨/ح٢٤٢٥٧ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢١٠/ح١٤٩٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٢١/ح٨٠٤٥ ، وابن راهويه في مسنده ج٣/ص٧١٠/ح١٣١٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٢/ص٣٩٥/ح٣٨٦٠ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٥٠/ح٩٥٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص١٢٨/ح٣٠٠٣٦ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٣/ص٣٧٥/ح٦٠١٦ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٥٣٦/ح٣٣٦٦.

(٣) عن عبد الله قال: ((تعلموا هذا القرآن فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما أني لا أقول: بألم ، ولكن بألف ولام وميم ، بكل حرف عشر حسنات)).أخرجه الدارمي في سننه ج٢/ص٥٢١/ح٣٣٠٨.

باب تبصرة الفطنة

وتبصرة الفطنة مرشدة رسوخ اليقين في القلب ، وذلك أن القلب إذا امتلأ من نور اليقين أشرق وأضاء له كل شيء كان أظلم عليه قبل ذلك ، وأشـــرقت الجوارح لشدة نور القلب ، وامتلأت سكينة ووقارا ، فنطق اللسان عن ذلك بالحكمة ، لأنه إنما يعبر عن ضمير القلب ، وأصابت الجوارح آداب الإيمان ، لأنها منتشرة من نور القلب متصرفة بتصريفه ومنادية بتعليمـــه ، وذلـــك أن القلب أمير البدن وهي له تبع ، فإذا صلح القلب صلحت بصلاحه ، وإذا فسد [(١)] فسدت بفساده. كما قال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فســـدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » [(٢)] ، فإذا أصابت الجوارح آداب الإيمان ونطق اللسان بالحكمة ، كان ذلك من شدة اشتعال القلب بنـــور الـــيقين ،

---

(١) في (أ) و (ب): فسدت. مصحفة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٢٩/ح٥٢ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٢٢٠/ح١٥٩٩ ، والنسائي في سننه ج٧/ص٢٤٣/ح٤٤٥٣ ، وابن حبان في صـــحيحه ج٢/ص٤٩٨/ح٧٢١ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٥١٢/ح١٢٠٥ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٣١٩/ح٣٩٨٤ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٢٤٣/ح٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مســـنده ج٤/ص٢٦٧/ح١٨٣٧٣ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٠٧/ح٧٨٨ ، والحميـــدي في مســـنده ج٢/ص٤٠٨/ح٩١٨ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج١٠/ص٣٣٣/ح١٠٨٢٤ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٣/ص٢٣٩/ح٥٢١٩ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٤٢/ح٣٢ ، والطبراني في مســـند الشاميين ج١/ص٢٩٣/ح٥١١ ، والقضـــاعي في مســـند الشـــهاب ج٢/ص١٢٨/ح١٠٢٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٦٤/ح١٠١٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٢١٥/ح١٦٥٣ ، وابـــن الجـــارود في المنتقـــى ج١/ص١٤٤/ح٥٥٥ ، وعبـــد الـــرزاق في مصـــنفه ج٤/ص٤٤٨/ح٢٢٠٠٣ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣١٩/ح٢٥٣١ ، والطبراني في معجمـــه الأوسط ج ٢/ص٢٠٤/ح١٧٣٥.

وأورثه ذلك النظر تبصرة الفطنة ، والإزكان [١] الذي يعطاه المؤمن عند الانقطاع إلى الله والإخلاص له ، وما يورثه من معرفة قدرة الله وعظيم سلطانه وسعة مكانته ، مع ما يخص به من الفطنة لأفعال الخلق والمعرفة بوجوه أفعالهم ، حتى كأنه مطلع على ضمائرهم ، لما قد اعتبروا علمه [٢] من تصرف أسبابهم ، وقد سمى الله جل وعز ذلك: توسما ، فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] ، يعني: المعتبرين المتيقظين ، وسماه ابن عباس وغيره: إزكانا ، وسماه علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: تبصرة الفطنة ، وسماه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غير خبر: فراسة ، وهذه أربعة أسماء تنتظم معنى واحدا ، فطنة المؤمن ، وأدكار المؤمن ، وفراسة المؤمن ، وتوسم المؤمن.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « المؤمن ينظر بنور الله » [٣] ، وقال عليه السلام: « ظن المؤمن كمعاينة الجاهل » [٤] ، فأهل المعرفة بالله في ذلك طبقات.

فمنهم من يفهم بالتوسم في الرجل إذا سمع كلامه ، فهذه درجة قوم لا تجاوز بهم درجتهم.

ومنهم من يفهم ذلك بالنظر إليه ، فهؤلاء أيضا لا تجاوز بهم منزلتهم ، وهم أعلى من الطبقة الأولى.

---

(١) الزَّكَنُ: التفرس والظن. والإزكان: الفطنة والحدس الصادق. لسان العرب مادة: زكن.

(٢) في (ج): اعتبر وعلمه.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ص٢٩٩/ح٣١٢٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص١٠٢/ح٧٤٩٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٨٨/ح٦٦٣.

(٤) لم أقف عليه.

ومنهم من يفهم درجة الرجل إذا ذكر له وعرض عليه قوله ، فيعرفه ويعرف منزلته بالوصف ، وهذه الدرجة لا يتجاوز بها أهلها ، وهم أعلا من الـــذين ذكرنا قبلهم.

ومنهم قوم أعلا من هؤلاء درجة في التوسم ، فهم يعتبرن الأشياء وما تـــؤول إليه عواقبها قبل وقوعها ، قد تبطنوا من خفيات الأمور ، والعلـــم بعواقـــب الدهور ، ونتائج الأسباب ، وما يؤول به بعضها فينظرون [١] إليها كأنها رأي عين ، فلا يخطئ توسمهم ، وهم بعد ذلك مستغرقون بهذه الطبقات الـــثلاث التي هي دون مقامهم ، وذلك أنهم علموا أن الله مؤيد من أطاعه ، وخاذل من عصاه ، فرأوا أهل التضييع [٢] مختلفة أقوالهم وأفعالهم ، علموا عند ذلك أنهم ليسوا أعمال الله ، وإذا رأوا أمور غيرهم تجري على اتســـاق علمـــوا أنهـــم مؤيدون ، وأنهم لله عاملون ، لأن صفة عمال الله أنهم مؤيدون ، فإذا أتـــاهم التأييد من الله والهداية والموعدة ثم كانوا لها قابلين ، كانوا لمثلـــها لقبلـــوهم مستحقين ، وليس من صفته جل ثناؤه قطع ذلك عنهم إذا تلقـــوه بـــالقبول والعمل به ، إلا أن يضيعوا ما يجب عليهم فيه ، ومتى أضاعوه سلبوا التأييد ، وخلوا وما احتاروه بأنفسهم ، فإذا رءاهم العاملون لله بهذه المنزلة من التقصير أو الفترة عما كانوا عليه ، علموا بذلك أنهم ممنوعون بعض كرامات الله التي لا يقطعها ، ثم حكموا عليهم فيما يرونه منهم من مباح أو محظور أو فسق أو كفر ، لعلمهم بأحكام الله على مثلهم ، إذ كانوا في مثل أحوالهم ، وبـــذلك بانت منازل أنبياء [٣] الله عليهم السلام ، إذ لم يطلع منهم في طول دهـــرهم على مناقضة في قول ولا فعل ، ولا فساد في تدبير ، ولا كذب في الأمـــور ،

---

(١) في (أ) و(ب): فينفرون.

(٢) في (ج): التصنيع.

(٣) في (ب): أولياء.

علم أنهم مؤدون ، وأنهم لو كانوا على الله كاذبين لظهر منهم التفاوت والاختلاف في أمورهم ، بخذلان الله لهم ، لأنه من صفة الله أن يخلي بين الكاذبين وبين الأمور التي لا تكون إلا من صفة الصادقين ، لأن الحكيم في حكمته أن يجعل بين الحق والباطل فصلا ، وبين منزلة الصادقين والكاذبين عليه فرقا ، وكذلك صفة المؤمن من العاملين المخلصين ، سيماهم مباين سيماء المموهين.

وإنما تصح تبصرة الفطنة والتوسم لأهله من طريق حسن الظن لا من طريق الحكم بالتوسم والإزكان ، لأنه أطلق للمؤمن أن يحسن الظن بأخيه ويتوسم فيه الخير ، ولا يحكم له بذلك حكما لأنه لا يجوز الأحكام بما يتوهم القلب أو يزكي. وإنما الأحكام بالإقرار والشهادات ، فهذا هو موقع الحكم بالتوسم والفطنة ، لا يجوز غير ذلك، وأن كان الأغلب سوء الظن لأن القطع بسوء الظن منهي عنه ، قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢] ، وروي عن زيد بن ثابت أن عمر بن الخطاب « ألفى رجلا يكلم امرأة في خلافته فعلاه بالدرة ، فقال: يا أمير المؤمنين هي مَحْرَمُ ، فأتى [1] عمر بن الخطاب زيد بن ثابت فأخبره بالذي صنع ، فقال: هل سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر في ذلك شيئا؟ فقال زيد: نعم ، سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨]. فقال عمر: أنت سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول هذا؟ قال: نعم ، فأعاد عليه القول فقال له زيد: سمعتها أذناي ، ووعاها قلبي ، وكتبتها يدي من النبي صلى الله

---

(١) في (أ) و(ب): وأتى.

عليه وآله وسلم. و لم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه ، فجعل عمر هيجا هيجا يبكي »[١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الظن أكذب الحديث »[٢] في حديث طلحة بن عبد الله ، إلا أن يرى المؤمن موضعا يرتاب به ، ويرى لذلك دليلا وشاهدا عليه ، من فعل فيتوسم ويزكن فيه ، على طريق ما رأى من الدلائل ، ولا يحكم في ذلك بالتوسم ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة يراها العبد الصالح أو ترى له »[٣] ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس:٦٤].

وقال غير واحد من أهل العلم: « الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له »[٤] ، وقال ابن مسعود الأنصاري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص١٩٧٦/ح٤٨٤٩ ، وفي الأدب المفرد أيضا ج١/ص١٤٨/ح٤١٠ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٨٥/ح٢٥٦٣ ، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٥٠١/ح٥٦٨٧ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٥٧/ح١٩٨٨ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٨٠/ح٤٩١٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٤٥/ح٧٣٣٣ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٠٨/ح١٦١٦ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٠/ح٢٥٣٣ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٦٥/ح١٠٨٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٩٧/ح٩٥٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٨٥/ح١١٢٣٩ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٣٠/ح٦.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة عن عروة قال: ((هي الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح)). وأخرج عن مجاهد: ((هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له)). الدر المنثور ٤/٣٣٧.

مما أدرك من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاعمل ما شئت »[1] ، فقد فسر باب تبصرة الفطنة مع ما جاء في ذلك من الأخبار ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله.

باب تأويل الحكمة

وهو الشعبة الثانية من اليقين.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة » ، وذلك أن تأويل الحكمة ميراث التبصرة ، فإذا استشعر القلب التبصرة وقف عند تأويل الحكمة ، ليفهم الصواب ثم وعاه فنطق به اللسان ، حتى صارت الحكمة مأوى القلب وشعاره ، وذلك أن الحكمة الإشتغال بدوام الفكر فيما يعني وترك ما لا يعني ، فيؤدي ذلك إخلاص العمل لله تعالى ، وأورثه ذلك حب دوام الذكر والإنس بالله ، أي: الإنس بطاعة الله ، فلما وصل إلى درجة المؤانسة أورثه ذلك دوام الفكر ، ودوام الفكر يورث الاعتبار ، وذلك كله لا يكون إلا بحب الخلوة ، وترك معاشرة القاطعين عن الله ، والمدخلين له في خوض ما لا يعنيه ، والقاطعين له عن الإشتغال بما يعينه ، مما خُلق له وأُمر به. وكذلك جاء الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا علي بن الجعد ، قال: أخبرنا مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن علي بن الحسين قال: قال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٢٨٥/ح٣٢٩٦ ، وفي الأدب المفرد ١/ص٢٠٩/ح٥٩٧ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج١/ص٣٧/ح٨٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٠٠/ح٤١٨٣ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٥٢/ح٤٧٩٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٢١/ح١٧١٣١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٨٦/ح٦٢١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٢٣١/ح٦٤٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص١٨٧/ح١١٥٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١٩٢/ح٢٠٥٧٦ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٣٠/ح٨١٩.

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[١] ، وقال مالك بن دينار: « قيل للقمان: ألست عبد بني فلان؟! فما بلغ بك ما ترى؟! قال: تركي ما لا يعنيني »[٢] ، وكان لقمان عبدا أسود ذا مشفرين ، فرفع الله قدره بالحكمة وتركه ما لا يعنيه ، فأورثه ذلك درجـــة المؤانسة بالطاعة ، فنظر بالحكمة فسماه الله حكيما ، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان:١٢].

وقالت عائشة: « إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان متواصل الأحزان ، دائم الفكر »[٣] ، وذلك كله من آثار المؤانسة بالله ، أي: بطاعته ، وما قرَّب منه وأورث الزلفة لديه ، وبما اختار الاشتغال بذكره ، والإيثار لمحبته على كل محبوب دونه.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أنه كان يحب الخلوة وكـــان إذا فُقِدَ إنما يُوجد في بعض الأودية والخلا بنفسه »[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٥٥٨/ح٢٣١٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣١٦/ح٣٩٧٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٠١/ح١٧٣٢ ، ومالك في الموطـــأ ج٢/ص٩٠٣/ح١٦٠٤ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٣/ص١٢٨/ح٢٨٨٦ ، وفي معجمـــه الصـــغير أيضـــا ج٢/ص١١٩/ح٨٨٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٤٤/ح١٩١ ، وابن الجعـــد في مسنده ج١/ص٤٢٨/ح٢٩٢٥.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت). الدر المنثور ٦/٥١٢.

(٣) عن هند بن أبي هالة قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غـــير حاجـــة)). أخرجـــه الهـــم والحـــزن ج١/ص٢٧/ح١.

(٤) الحديث ورد عن عائشة بلفظ: ((أول ما ابتدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، أن لا يرى شيئا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، فمكث على ذلك

وقال رجل للأحنف: « ما بلغ بك ما أرى؟ قال: تركي من أمرك ما عناك من أمري » [١] ، فرأس الحكمة كله ترك ما لا يعني ، وإنما أريد بذلك ترك الدنيا وأهلها ، والإشتعال بها بالقلب وهو ما لا يعني ، لمن أيقن أنه لم يخلق لها ، وأن الوصول إليها قاطع عن مؤانسة الله والعمل لدار الآخرة ، وهو الذي يعني ومن أجله خلقت الدنيا وأهلها ، وقد قيل: شغلك بما لا يعنيك شغلك عما يعينك.

وكذلك روي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: « حرام على قلب يحب الدنيا أن يذوق الحكمة ، وكيف يذوق طعم الحكمة من آثر الدنيا على الآخرة ، واشتغل بزينة الدنيا عن الإستغال بما يقربه إلى الله » [٢].

وقال عليه السلام: « يا معشر الحواريين ارضوا بالقليل من الدنيا مع كثرة الحكمة ، كما رضي أهل الدنيا بقليل الحكمة مع كثرة الدنيا » [٣].

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩] ، فأهل الحكمة في ذلك رجلان: أحدهما أعلا من الآخر ، وأعلاهما درجة من وهب الله له الحكمة ، فهو يعمل بها ويعبرها بلسانه ، ويعلمها أهل الحكمة الذين تواضعوا للحكمة ، وتذللوا لله في التواضع لمن أفادهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « تواضعوا لمن تعلمون منه العلم » [٤] ،

ما شاء الله أن يمكث ، وحبب إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو)). أخرجه الترمذي في سننه ج٥/ص٥٩٦/ح٣٦٣٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه المرشد بالله ٤٦/١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، والكافي ٣٦/١ ، وأمالي الصدوق /٣٥٩ ، وغرر الحكم /٣٤٩.

وقال للعلماء: « تواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقـــار والحلم ، ولا تعلم الحكمة غير أهلها فتكون طالما لحكمة »[١] ، كما قـــال عيسى عليه السلام: « لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموها »[٢] ، وهو من رواية ابن عباس عن النبي عليه السلام قال: « ألا أن عيسى قام في بني إسرائيل خطيبا فقال: يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم »[٣] ، هذا الرجل الحكيم القلب واللسان ، فهو يعبر حكمة قلبه بلسانه ، فهذا إمام في الحكمة وقائد العلم والحجة لله في أرضه ، وسراج يضيء بنور الحكمة لأهل الجهالة ، وهو الذي قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٥].

والرجل الآخر حكيم القلب يعمل بحكمة ، لم يفلح يفتح له المنطق بالحكمة وهو يفهم الحكمة بقلبه إذا سمعها ويعمل بها ، فهذا رجل منفعته لا تعـــدى نفسه ، وإنما ينفع أهل الإرادة بإرادته وما ظهر من فعله ، وأما الداعي لهم فقد نفعهم بما قد ظهر من فعله وإرادته[٤] ، وبما أبان من حجة ربه ، ونبه عليـــه من باطن حكمته ، وهي منازل الأنبياء والصديقين عليهم الســـلام ، وأهـــل العلم بالله لا يرضون لأنفسهم دون هذه المنزلة.

باب موعظة العبرة

وهي الشعبة الثالثة من اليقين.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشـــهاب ٢/ص١٢٤/ح١٠٢١ ، والحـــارث الهيثمـــي في مســـنده (الزوائد) ج٢/ص٩٦٨/ح١٠٧٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٢٥/ح٦٧٥.

(٤) في (أ) و(ب): وإبادته. مصحفة.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « فمن تأول الحكمة عرف العبرة » ، وذلك أن ميراث تأويل الحكمة موعظة العبرة ، وأهل الحكمة اعتبروا بالأمثال ، وما ضرب الله لهم في كتابه من ذكر الأمم قبلهم ، وما حركهم على الاعتبار به ، وعلموا أن ذلك لا يتم لهم إلا بإصلاح قلوبهم وإلا فأقاموا قلوبهم مقام الماء المعين تحت الأرض ، الذي لا يظهر إلا بكشط ما فوقه من التراب والحجارة. فترعوا عن قلوبهم عند ذلك درن الذنوب المغطي لها بالتوبة الخالعة ، وعلموا أن القلب كالنار التي إن أمدت بالوقود وإلا خمدت ، وكذلك إن أمد [1] بالفكر والاعتبار والفهم عن الله بضرب الأمثال وإلا عمى وطغى ، فأقاموا أنفسهم عند ذلك في الاعتبار والإتعاظ والتيقظ بالفكرة ، حتى كأنهم قد امتحنوا مع من امتحن من الذين نزل بهم من الله ما نزل ، من القوارع والإستيصال ، وفهموا ما أريد بهم من الأمثال ، وما ذكروا من نعم الله عليهم ولطفه بهم ، إذ وعظهم بغيرهم ، ولم يكونوا هم عظة لغيرهم ، فدام شكر نعم الله في قلوبهم ، وحَسنُ بلاؤه عندهم ، فلجأوا إليه عند كل خطرة ولحظة ، وخافوه في السر والعلانية ، فأرضوه بالقيام له في كل ما أمرهم به ، وأستخطوا مَن دونه ليرضوه بسخطهم ، إذ علموا أنه يملك ضرهم ونفعهم ، وتحببوا إليه بأداء شكر نعمه ، وما مَنَّ به عليهم ، إذ لم يجعلهم عبرة لغيرهم ، وجعلهم المعتبرين بغيرهم ، فهم أولو الأبصار ، كما قال الله في قضية بني النضير إذ أجلاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ديارهم فقال: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر:٢] ، يقول: إذ عصوني وكفروا نعمتي ، فأبحت بذلك قتلهم وخراب ديارهم ، كانوا هم القاتلين لأنفسهم ، والمخربين ديارهم لمعصيتهم ، يقول: فاعتبروا أنه

---

(١) في (أ) و(ب): اتمد. إلا أن الحرف الأول من الكلمة مهمل. وفي (ج): أمدوا. ولعل الصواب ما أثبت.

كل من عصاني فاستحق في حكمي عقوبتي وناري فهـــو القاتـــل لنفســـه ، والمخرب لحسده وداره ، تعرض لما يوجب ذلك في حكمي عليه.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩]، يعـــني: ذوي العقول، وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعـــالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبـــراهيم:٤٥]، يقول: فاحذروا أن يترل بكم عند معصيتكم ما نزل بهم.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « نزل القرءان على أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال. فخذوا الحلال ، ودعوا الحرام ، وآمنوا بالمتشابه ، واعملوا بالمحكم ، واعتبروا بالأمثال يأهل المعرفة بـــالله ، وتأدبوا بآداب الله الذي أمرهم ، وأنزَلُوا كل أدب في موضعه ، و لم يُقصِّروا فيما أمرهم به ربهم ، فكان لهم في كل شيء معتبر ، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ - وهم أولوا الأبصـــار - ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١] »[1].

وروي أن رجلا أتى إلى أبي حازم الأعرج فقال: « يا أبا حازم مـــا شـــكر العينين؟ قال: إن رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرا سترته. قـــال: وما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرا أعلنته ، وإن سمعت بهما شـــرا سترته. قال: وما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع بهما

---

(١) ورد بلفظ: ((اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه ، وغرائبه فرائضه وحدوده ، فإن القرآن نزل علـــى خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعـــوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتـــبروا بالأمثـــال)). رواه المتقـــي الهنـــدي في كـــنز العمـــال ج٠/ص٠/ح٢٧٨٢.

حقا هو لله فيهما. قال: وما شكر البطن؟ قال: أن يكون فيه العلم والصبر ، العلم باطنه ، والصبر ظاهره ، ويكون طعامه العلم ، وشرابه الصبر. قال: وما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت بهما منيبا حسدته واستعملت بهما مثل عمله ، وإن رأيت ميتا [١] مقتّه وكففتهما عن مثل عمله. قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله عز وجل: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون:٦-٧، المعارج:٣٠ - ٣١]» [٢] ، فإذا كنت كذلك كنت فاعلا ما فعلت لله مخلصا له لا لغيره ، وأنت شاكر لله حق الشاكرين.

قال: وأما مَن شكر بلسانه و لم يشكر بجميع أعضائه ، فإنما مثله مثل رجل أعطاه الله كساء فأخذ طرفه وترك سايره ، فلم ينفعه ذلك من البرد والثلج ، فأهل المعرفة بالله اعتبروا بسلفهم من الصالحين ، فأخذوا [٣] على مناهجهم وطريقهم فكانوا خلفائهم من بعدهم ، وأشركهم الله في أعمالهم ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وفي حديث أبي ذر ، وأنس بن مالك: « جاء إعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: يا رسول الله متى الساعة؟! فقال النبي: ما أعددت لها يا أعرابي؟! فقال: ما أعددت كثيرا ، من صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: من أحب قوما فهو معهم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » [٤] ، وكذلك من اهتدى بقوم اتبع

---

(١) في (ج): بها ميتا.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و(ب): واتخذوا.

(٤) ورد عن أبي قتادة بلفظ: ((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فماذا أعددت لها؟ قال: حب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم. قال: فأنت مع من أحببت)).

طريقهم ، ومن أحب قوما أحب أن يفعل كفعلهم ، وإن لم يشهدهم وجُعل معهم.

ثم استعمل أهل المعرفة والعبرة من غيرهم فشاهدوا ما فعل بهم بقلـــوبهم ، إذ أمرهم الله بذلك في كتابه وضربهم لهم مثلا ، كأنهم شاهدوهم ونظروا إلى ما أصابهم ، لقولـــه: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٥]، ثم قال: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يونس:١٠٢]، يقول: إما أن يترل الإستيصال أو الموت. وقال تعـــالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحـزاب:٦٢]، يخبر بإهلاك قوم لـــوط: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٣٤٩/ح٣٤٨٥ ، وفي الأدب المفـــرد ج١/ص١٢٩/ح٣٥٢ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠٣٢/ح٢٦٣٩ ، وابن حبـــان في صـــحيحه ج١/ص١٨٥/ح٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص١٤٩/ح١٧٩٦ ، والترمذي في ســـننه ج٤/ص٥٩٥/ح٢٣٨٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١١٠/ح١٢٠٩٦ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٨٤/ح٢١٣١ ، والحميـــدي في مســـنده ج٢/ص٥٠٢/ح١١٩٠ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٣/ص١٨٣/ح٣٠٦١ ، والحارث الهيثمـــي في مســـنده (الزوائـــد) ج٢/ص٩٩١/ح١١٠٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٢١/ح٥٦٢٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج٥/ص١٤٧/ح٢٧٥٨ ، وعبـــد بـــن حميـــد في مســـنده ج١/ص٤٠٣/ح١٣٦٦ ، وابـــن الجعـــد في مســـنده ج١/ص٤٦٣/ح٣١٨٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٤٠/ح١٠٧.

قال أبو إمامة: عن النبي عليه السلام: « يصبح قوم من هذه الأمة على معازفهم وخمورهم ولهوهم ، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير ، فقال النبي عليه السلام: والذي نفسي بيده ليكون في هذه الأمة مسخ وخسف فف وقذف ، وليرسلن عليهم الريح العقيم ، وليرسلن عليهم بقية الحجارة التي أرسلت على قوم لوط » [١] ، والأخبار في هذا كثير وفيما قلنا معتبر لأولي الألباب ، ولأولي النهى والأبصار.

فأهل المعرفة بالله والاعتبار من شدة اعتبارهم قد شاهدوا ما أصاب القوم بقلوبهم ، وهم يخافون مع شدة اجتهادهم واعتذارهم [٢] أن يصيبهم مثلما أصابهم ، من شدة خوفهم ، ولما يعلمون من سالف دنوبهم ، فلما صاروا كذلك صاروا كأنهم كانوا معهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله عهد إليهم في غير خبر ، روى أبو واقد الليثي ، وأبو هريرة ، وغيرهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر أو ذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم معهم. قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إلا هم » [٣] ، فخافوا أن يكونوا الذين عنى

---

(١) ورد عن بن عباس بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليبيتن قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ، ويصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص١٣٥/ح٢١٢٦٦ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٥٦١/ح٨٥٧٢ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٥٥/ح١١٣٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٥٦/ح٧٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١١٦/ح١٦٨.

(٢) في (ج): واعتبارهم.

(٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ستتبعون سنن من قبلكم باعا بباع ، وذراعا بذراع ، وشبرا بشبر ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم معهم. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟! قال: فمن)).

النبي عليه السلام أن يفعلوا فعلا أو يقولوا قولا يلحقوا بهم ، فاشتد اعتبارهم وخوفهم فخلصوا أقوالهم وأفعالهم واعتقادهم ، وصفُوه من الدنس والشبهة ، واستعملوا في ذلك كل اليقين والمعرفة ، فكانوا كما قال علي بن أبي طالـــب رضي الله عنه: « من عرف العبرة فكأنما كان في الأولين ».

أخرجـــه ابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٥/ص٩٦/ح٦٧٠٣ ، وابـــن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٣٢٣/ح٣٩٩٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٨٩/ح٢١٧٨ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٧٥٩/ح٧٥٤.

باب العدل

وهو الدعامة الثالثة.

قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: « والعدل منها على أربع شعب : على غايص الفهم ، وزهرة العلم ، وشريعة الحكم ، وروضة الحلم. فالعدل: هو القول بالحق كله على يقين أبوابه ، في كل ما [كان] للعبد أو عليه ، أو يقول بالعدل في جميع أحواله ، ويؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه ، فلا يقول إلا حقا ، صابرا محتسبا ».

والعدل ينتظم جميع المعاني من القسط في العدل والحكم ، والفعل من الأخذ والإعطاء ، فيما للعبد [و] عليه ، وأشرف درجة العبد الإنصاف من النفس في كل حال ، حتى يقوم العبد بالإنصاف بنفسه ، فيعطي غيره من نفسه ما يأخذه لنفسه من غيره ، فإذا فعل المرء يدل ذلك قائما في درجة العدل ، وكمال درجة العدل أن يرضىَ للناس ما يرضى لنفسه ، وكما تحب أن يحسن إليك من أسأت إليه فأحسن إلى من أساء إليك ، وكما يحب العبد أن يُحلم عنه إذا جهل ، فكذلك يحلم هو عمن جهل عليه ، وكما يحب أن ينصفه الناس في الأخذ والإعطاء فكذلك يجب عليه أن ينصف هو من نفسه ، فإذا رضي للناس ما يرضى لنفسه ، وأحب لهم ما يحب لنفسه ، وكره لهم ما يكره لنفسه ، فقد قام في درجة العدل.

وكذلك روي عن ابن مسعود ، ووهب بن منبه ، أنهما قالا: « التوراة والإنجيل والقرءان تدور على أن ترضى للناس ما ترضى لنفسك »[1].وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ

(١) لم أقف عليه.

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعـــالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء:٥٨].

وروى سهل بن سعيد ، وأبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه: « كان يقسم غنائم بالجعرانة والذهب في حجرة بلال ، فجاءه رجل ثـــائر الرأس ، فقال له: يا محمد اعدل فوالله ما عدلت منذ اليوم!! فقال له النبي عليه السلام: ويلك إن لم أعدل عليكم فمن يعدل عليكم بعدي؟!» (١) ، وقـــال صلى الله عليه وآله وسلم: « لو أفاء الله عليكم مثل سمر تهامة نعما لقســـمته

---

(١) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة حنين رهقه الناس يسألونه فحاصت به الناقة فخطفت رداءه شجرة ، فقال: ((ردوا علـــي ردائـــي ، أتخشون علي البخل ، والله لو أفاء الله عليكم نعما مثل سمر تهامة لقسمتها بينكم ، ثم لا تجـــدونني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا ، ثم أخذ وبرة من وبر سنام البعير فرفعها ، وقال: ما لي ممـــا أفـــاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم ، فلما كان عند قسم الخمس أتاه رجـــل يستحله خياطا أو مخيطا ، فقال: ردوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول عار ونار وشنار يوم القيامـــة)).

أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ج٣/ص١٠٣٨/ح٢٦٦٦ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٣/ص٨٦/ح٥٧٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٨٤/ح١٦٨٢٤ ، والطبراني في معجمـــه الكبير ج٢/ص١٣٠/ح١٥٥٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص١٧/ح١٢٩٥٦ ، والطـــبراني في معجمـــه الأوســـط ج ٢/ص٢٤٢/ح١٨٦٤ ، وابـــن أبي الـــدنيا في مكـــارم الأخـــلاق ١/ص١١٥/ح٣٧٩.

بينكم ، ثم لا تجدونني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا » [١] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا مثل هذه من الخمس ، ثم ضرب بيده إلى وبرة من بعير ، ثم قال: والخمس مردود عليكم » [٢].

قال: وروي عن الشعبي « أن عمر بن الخطاب كان بينه وبين أبي بن كعب خصومة فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه في بيته ، فقال له عمر: أتيناك في بيتك وفي بيته يؤتى الحكم ، فرفع عمر إلى صدر المجلس ، فقال له [٣] عمر: هذا أول جورك جررت [٤] في حكمك ، أجلسني أنا وخصمي مجلسا واحدا ، فقصا عليه القصة ، فقال زيد لأبي: اليمين علي أمير المؤمنين ، وإن شئت أعفيته ، فأقسم عمر ثم أقسم لزيد أنه لا يدرك مجلس العدل حتى لا تكون لي عندك على أحد من الناس فضيلة » [٥].

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان « لو عدلت على أهل الأرض كلهم ثم جرت على رجل واحد لمال جورك بعدلك » [٦]. والأخبار في هذا تكثر.

فمن قام في درجة العدل أنصف الناس من نفسه واقتص لهم منها ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أقص أبا ذر من نفسه » [١]. وقال أبو

---

(١) هذا الحديث هو جزء من الحديث السابق.

(٢) أيضا هذا الحديث هو جزء من الحديث السابق.

(٣) في (أ) و(ب): فهذا له.

(٤) في (أ) و(ب): حررت.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١٣٦/ح٢٠٢٥٠ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٦٠/ح١٧٢٨.

(٦) لم أقف عليه.

هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « من كان عنده لأخيـــه مظلمة فليقص من نفسه ، أو ليتحللها منه ، قبل أن يقتصها منه في يـــوم لا دينار فيه ولا درهم » [٢] ، لا وإنما يقع القصاص حينئذ على جسده.

باب غايص الفهم

وهو أول شعب العدل. فغايص [٣] الفهم هو تأييد من الله يمن به على القابلين ينالون به غايص الفهم ، وهو تأييد ثواب الأعمال ، فقصدوا عنـــد ذلـــك بفهمهم من العلم إلى ما أمرهم الله به ورسوله ، فلم يجاوزوه إلى غيره ، و لم يتكلفوا ويعتقدوا ويعنوا إلا بما صح عندهم من العلم ، و لم يتكلفوا علم ما لم يكلفوا علمه ، إذ علموا أن الله يسألهم عن تكلفهم ما لم يكلفهم ثم تكلفوا ، فخافوا عند ذلك فلم يجاوزوا محكم القرءان والسنة ، فما دلا من فروع العلم ، فواقفوا أنفسهم عند المتشابة من علمهم أنه غير ناقض للمحكم ، ثم يحثـــوا عن العلم الذي اختلف فيه أهل الجهل ، فأصابوا حقيقته بغايص فهمهم مـــن محكم كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وفِطَرِ عقولهم الذي احتج الله به على خلقه

---

(١) أخرجـــه البيهقـــي في ســـننه الكـــبرى ج٩/ص٤٢/ح١٧٦٨٥ ، وأبـــو يعلـــى في مســـنده ج١/ص١٧٦/ح١٩٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص١٢٤/ح٣٠٠٠١ ، وابن أبي شـــيبة في مصنفه ج٣/ص٣٨٣/ح٦٠٣٦.

(٢) أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ٢/ص٨٦٥/ح٢٣١٧ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٦/ص٣٦٢/ح٧٣٦١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦١٤/ح٢٤١٩ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص٨٠٧/ح٢٤١٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٣٥/ح٩٦١٣ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٠٥/ح٢٣٢١ ، والطبراني في معجمه الصـــغير ج١/ص٢١٨/ح٣٤٨ ، والطـــبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٢٧٣/ح١٣٢٦ ، والبيهقي في سننه الكـــبرى ج٣/ص٣٦٩/ح٦٣٠٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٤١٤/ح٦٥٣٩ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٤٠٧/ح٢٧٧١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٩١.

(٣) في (أ) و(ب): بفايص.

، وما أقام به من دلالته في سماواته وأرضه ، فجلوا بذلك عن أنفسهم ظُلم العماية ، وكانوا نورا يُستضاء بهم ، وأئمة يقتدى بهم ، فخضلوا [١] الصعفة من حيرتهم ، وكانوا دعاة إلى ربهم ، وكانوا هم القُوام لله بقسطه في عبيده ، المعبرين عن كتابة وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن حجج الله القائمة في سماواته وأرضه ، وما بين ذلك من أصناف صنعه ، فأولئك هم الذين أمر الله بطاعتهم ، وهم العترة الطاهرين من ذرية نبيكم ، وأقامهم أئمة يهدون بأمره ، وأمر الخلق كلهم أن يسألوهم إذا جهلوا ، وأن يردوا إليهم علم ما اختلفوا فيه ، لأنهم أهل الإستنباط من أهل البحث والنظر ، الذين أمر الله بالرد إليهم ، بقوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩]، قال مجاهد ، وعطاء: « الفقهاء والعلماء من آل محمد » [٢].وقال: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣، الأنبياء:٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣]، فهم الذين علموا علم الكتاب والسنة ، وعرفوا مواقع حجج الله على خلقه في سماواته وأرضه ، وكلما اختلف فيه خلقه ، فأورثهم العلمُ بذلك غايص الفهم ، وكلما نزلت نازلة من خبر شبهة ، وإحداث بدعة ، رجعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه والحجج القائمة ، فغاصوا بالفهم فوجدوا ذلك كذلك باستنباط

---

(١) في (أ) و(ب): فحملوا الضعفة من حيرتهم. وفي (ج): فخلصوا الضعفة من أيدهم. ولفقت النص من الجميع.

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال: ((هم الفقهاء والعلماء)). وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عنه قال: ((أصحاب محمد ، أهل العلم والفقه والدين)). الدر المنثور ٢/٥٧٥.

غوصهم ، وليس ذلك لغيرهم من أهل الجهل ، الذين يضلون بغير علم ولا كتاب مبين ، فإذا كانوا كذلك وقاموا في درجة الفهم عن الله ثبّت الله قلوبهم بتأييده ، وأمدهم بمعونته ، وعصمهم من الزيغ والشبهة بعصمته.

وقد أخبرنا الله عز وجل أنه قد كفى عباده ما يحتاجون إليه بقوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨] ، وفيه مبينات كل شيء ، فالمدركون له علماء آل محمد عليهم السلام.

وقال في التكليف لنبيه عليه السلام قل يا محمد: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص:٨٦]. وروي عن عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « قد ربما ضر المتكلف نفسه »[1] ، وقال: « المتكلف لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى »[2] ، ثم قال عز وجل: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وقال عمر بن الخطاب ، وابن عباس: « لقد اتخذنا يومها عيدا ، نزلت ليلة الجمعة عشية عرفة »[3] ، وقال تعالى: فأ ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد عن ابن عباس بلفظ: ((أنه تلا هذه الآية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وعنده رجل من اليهود ، فقال: لو أنزل علينا هذا لأتخذنا يومها عيدا. فقال ابن عباس: لقد أنزلت في يوم الجمعة ، يوم عرفة أو عشية عرفة)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٦٠٠/ح٤١٤٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٣١٣/ح٣٠١٧ ، والنسائي في سننه ج٥/ص٢٥١/ح٣٠٠٢ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٤١٤/ح١٨٥ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٢٥٠/ح٣٠٤٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٥٣/ح٢٧٠٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص١٨٥/ح١٢٨٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٤٢١/ح٣٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٥٣/ح٨٣٠.

شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩] ، وقال أبو ذر: « قبض النبي عليه السلام وما ترك لنا طائرا يقلب بجناحيه في الهواء إلا أنبأنا من ذلك علما ، عَلِمَه مَن عَلِمَه ، وجهله من جهله »[١].

ومحال أن يكون أمر بترك الأمة يحتاجون إلى ذلك العلم فيه ، ولا يكون موجودا عند أهل الاستنباط المعتبرين عن الله ، بحججه القائمة على خلقه ، غير أنهم سُوَّاسُ لذلك العلم الذي فهموه عن ربهم ، ولا يخرجون منه إلا بقدر ما يحتاجون إليه ، ولا يكلمون الخلق إلا بما يفهمونه عنهم ، ولا يعنتون[٢] عقولهم فيحملون عليها من العلم ما لا تفهمه ، فتنحل قوى عقولهم عند ذلك ، ويكونوا هم سبب تحيرهم ، ولكنهم لما فهموا عن ربهم أنه فَضَّل بعض خلقه على بعض ، كلفوا كلا على قدر طاقته ، وما يحمله وسعهم ، وبهذا الأدب جاء الخبر عن نبينا صلى الله عليه وأئمة الهدى من آله.

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: « كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله »[٣] ، وكذلك روي عن زيد بن ثابت أنهم أتوه في مسألة فقال لهم: « هل وقعت؟ قالوا: لا ، قال: فلم تسألون عنها قبل وقوعها؟! قالوا: نسأل لنعلمها ، فإذا وقعت أجبنا فيها. فقال زيد: إذا علم الله الصدق من قولكم عند وقوع المسألة وفقكم للسداد ، حتى تقولوا فيها بصواب الحق »[٤]. وكان عبد الله بن مسعود إذا سؤل عن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ) و(ب): يعنتوا.

(٣) قال علي: ((حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)). أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٥٩/ح١٢٧.

(٤) لم أقف على هذه الرواية.

مسألة قال: « أوقعت؟ فإن قالوا: لم تقع ، قال: لا أجيب فيها »[١] ، وقد اختلف الناس إليه في تزويج ابنه واشق حتى قال: وقال عمر بن الخطاب: نعوذ بالله أن يترل بنا معضلة لا نعد لها علي بن أبي طالب.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: « إن هاهنا لعلما جماً لو أجد له حملة »[٢]. وأهل غايص الفهم الذين لا يتكلفون بنطق ما لم يكلفوا النطق فيه ، ولا يسألون عما لم تقع ، فإذا وقع الشيء لزمهم النطق فيه بالعلم ، فوجدوه في الكتاب والسنة والأدلة القائمة ، و لم يقولوا في دين الله وأحكامه وشرائعه برأيهم وقياسهم ، بل يغوصون عليه بغايص فهمهم ، حتى يخرجونه من الكتاب والسنة ، كما ذكر ذكك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أراد عمر أن يرجم امرأة أتت بولد لستة أشهر ، فقال: « إن خاصمتكم بكتاب الله خصمتكم ، قال الله: ﴿ حَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف:١٥] ، فخلا عمر سبيلها »[٣].

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٤] ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: « قيمة كل أمرء ما يحسنه ، اغد عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك »[٥] ، فهكذا صفة أهل الاستنباط والبحث والنظر بغايص الفهم ، وهو الذي عنى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فبذاك فليقتد أهل العلم بالله والخشية.

---

(١) لم أقف على هذه الرواية.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم /٤٩٦.

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح١٤٥٠٨.

(٤) أخرجه أبو طالب في أماليه /٢٠٢(١٣٨)،والمرشد بالله في أماليه ١/ ٥٧ ، ٦٨ ، والكليني في الكافي ١/٣٠ ، والطوسي في أماليه /٤٨٧.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم /٨١.

باب زهرة العلم

وهو الشعبة الثانية من العدل ، فزهرة العلم الباطن الذي قد رسخ في القلب من خشية الله ، وهو رأس العلم وزهرته ، وذلك أن العلم بالله يؤدي إلى خشية الله ، والعمل بالعلم على ما وصفناه إنما هو الاقتداء بالكتاب والسنة ، وما أقام الله من الدلالة مع إصابة الحق فيه ، وإصابته على ما شرحناه وبيناه ، ونزيد في ذلك بيانا إن شاء الله تعالى ، ، قال الله جل ذكره: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إلى محكم كتابه ، وما أقام الله من أدلته ، وإلى ﴿ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: إلى سنته الجامعة ، إذا لم يكن من العترة من يُرد إليه ، لأن الكتاب والسنة والعترة الطاهرة أما في أهل الخشية الذين يلجئون إليه عند كل شبهة وفتنة ، بوذلك جاء الخبر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « إنها ستكون فتنة ، قلت يا: رسول الله فما المخرج منها لمن فتن؟ قال: كتاب الله في خبر ما قبلكم ، وحكم ما يأتيكم ، فمن ابتغى الهدى في غيره ، أو سأل عنه غير أهله أضله الله ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن اهتدى به هدي ، ومن دعا إليه هدوا إلى صراط مستقيم »[1].

---

(١) عن معاذ بن جبل قال: ((ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الفتن فعظهما وشددها ، فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن تتبع الهدى في غيره أضله

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أصدق الحديث كتـــاب الله ، وأحسن الهداية هدي محمد صلى اله عليه وآله الطيبين ، وشر الأمور محدثاتها » [(١)] ، وقال ابن مسعود: « إن الله شرع لنبيه عليه السلام سنن الهدى ، وأهل الخشية لله لا يجاوز عملهم الكتاب والسنة ، والأعلام القائمة الداعيـــة إلى الله من العترة ، الذين لا يتكلفون من العلم ما لم يكلفوا ، ولا يتكلمـــون فيمـــا كلفوا إلا في موضعه ، ولا يضعونه إلا في أهله ، لأنهم علماء بالعلم والسياسة للعلم ، ويعملون لله بالعلم في السر والعلانية ، فإذا كانوا كذلك أورثهم الله زهرة العلم ، وهو العلم الباطن الذي هو فهم القلوب لكل معتبر به وصاحب العبرة فيه ، ومن استخراجهم له من [(٢)] البرهان ، وحشاه من الدلالة عليـــه فيورثهم ذلك النطق بالحكمة ، والعبادة عنها والدعاء لمن حد عنها إليهـــا ،

الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لما سمعته الجن قالت: ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ ، هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثرة الرد)).

أخرجه الترمذي في سننه ٥/ص١٧٣/ح٢٩٠٦ ، والطبراني في معجمه الكـــبير ٢٠/ص٨٥/ح١٦٠ ، والدارمي في سننه ٢/ص٥٢٨/ح٣٣٣٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص٢٢٦٢/ح٥٧٤٧ ، والنسائي في سننه ج٣/ص٥٨/ح١٣١١ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص١٤٣/ح١٧٨٤ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج١/ص١٨/ح٤٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٠٢/ح٢٧٤٩ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٩٩/ح٢٧٤٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٤٥/ح٣٣٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٣٠٥/ح٨١٤٨ ، والنسائي في ســـننه الكـــبرى ج١/ص٣٩٠/ح١٢٣٤ ، والقضـــاعي في مســـند الشـــهاب ج٢/ص٢٦٤/ح١٣٢٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٥/ح٥٥٩٣ ، وأبـــو يعلـــى في مسنده ج٩/ص١٦٨/ح٥٢٥٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٠/ح٨٨ ، والشافعي في مسنده ١/ص٦٧/ح٠ ، والدارمي في سننه ج٢/ص١٩١/ح٢٢٠٢ ، والطبراني في معجمه الأوســـط ج ٢/ص١١٢/ح١٤٢٠.

(٢) في (أ) و(ب): ومن استجزا به له من. مصحفة.

وذلك أن العلم عِلمانِ »[١] ، كما روى الحسن عن النبي صلى الله عليه: « العلم عِلمانِ ، فعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم في القلب فذلك العلم النافع »[٢].

وقال سليمان رحمة الله عليه لرجل من بني عبس حين صحبه: « يا أخا بني عبس انزل فاشرب من ماء دجلة ، فقال لي سليمان: كم نقص شربك؟ قال: قلت فما عسى أن ينقص شربي من ماء دجلة؟! قال: فكذلك العلم لا يفنى فعليك بما ينفعك »[٣] ، وروى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله في

---

(١) ورد في رواية عن ابن مسعود أنه قال: ((من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هذه الصلوات المكتوبات حيث ينادي بهن فإنهن من سنن الهدى وإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ولعمري ما إخال أحدا منكم إلا قد اتخذ من بيته مسجدا ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم أو معروف نفاقه ولقد رأيت الرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف فما من رجل يتطهر فيحسن الطهور فيخطو خطوة يعمد إلى المسجد من المساجد إلا كتب الله له بها حسنة ورفعه بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى إن كنا لنقارب في الخطا)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٤٥٣/ح٦٥٤ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٢٥٦/ح٧٧٧ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٨٢/ح٣٦٢٣ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٤٢/ح٣١٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٩/ص١١٦/ح٨٥٩٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢٩٧/ح٩٢٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٥٩/ح٤٧٣١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ١/ص٥١٦/ح١٩٧٩.

(٢) عن الحسن قال: ((العلم علمان فعلم في القلب فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على بن آدم)). أخرجه الدارمي في سننه ج١/ص١١٤/ح٣٦٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص٨٢/ح٣٤٣٦١.

(٣) ورد عن رجل من بني عبس أنه قال: ((صحبت سلمان فأتى على دجلة فقال: يا أخا بني عبس انزل فاشرب ، قال: فنزلت فشربت ، ثم قال: يا أخا بني عبس انزل فاشرب ، قال: فنزلت

حديث الخضر عليه السلام حين قال لموسى صلى الله عليه وآله وسلم: « إنك لعلى علم من علم الله لم يعلمنيه ، وأنا على علم من علم الله لم يعلمكه »[1] ، فذلك قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف:٨٢] ، فهو الباطن وهو العلم النافع ، وهو العلم بباطن الأمور ، خفي سرها وعلم مخزونها ، وهو المورث لخشية الله في السر والعلانية. ومصداقه ما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧]، وقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة:١١].

وقد سمى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العلم بالله رأس العلم حين سأله الأعرابي فقال: « يا رسول الله علمني من غرائب العلم؟ فقال له النبي: ما قد صنعت في رأس العلم؟ فقال: يا رسول الله ما رأس العلم؟ قال: معرفة الله حق معرفته ، ثم قال النبي عليه السلام: اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم قال: تعال

فشربت ، ثم قال: ما أفنى شرابك من هذا الماء؟ قلت: وما عسى أن يفنى. قال: كذلك العلم فعليك منه بما ينفعك ، ثم ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى ، فقال: إن الذي أعطاكموها وفتحها لكم وخولكموه للمسك خزائنه ومحمد حي ، لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينار ولا درهم ولا مد من طعام ، فبم ذاك يا أخا بني عبس ، ثم مر بيبادر تذرى فقال: إن الذي أعطاكموه وخولكموه وفتحه لكم لممسك خزائنه ومحمد حي ، لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينار ولا درهم ولا مد من طعام فبما ذاك)).

أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ص٩١/ح٦٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص٢٦٥/ح٦١٧٣ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص ٩٩٥/ح ١١١١ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٦/ح١٢٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٢٢/ح٣٤٦٧٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ص١٧٥٦/ح٤٤٤٩ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٨٤/ح٣٧١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٣٩١/ح١١٣٠٨.

فتعلم من غرائب العلم ، فرأس العلم معرفة الله »[١] ، وهي خشيته لأن من خشي الله عرف الله خشيى على قدر معرفته ، وهو العلم النافع ، وهو أول علم الباطن ، لأن الله جل ذكره ليس مما يُخيَّل وإنما يُعلم بالأدلة والنظر فيما ذرأ من خلقه ، وبث من آياته ، وذلك كله علم ويقين بباطن وغيب ، يقوم عند أهل اليقين مقام المعاينة ، بما قد سخوا فيه من العلم بما دلت عليه الحجة القاهرة ، والأعلام الظاهرة.

ثم المترلة الثانية من علم الباطن: العلم الباطن لذات باطنه ، فمن كان من أهل الباطن وحصلت له هذه المترلة كان عمله عمل السر ، لأن أهل السر لا يعبدون بعمل ظاهر ، لعلمهم بما يدخل فيه من الآفات المفسدة له ، والمصرفة له[٢] عن جهة الإعلان به ، فإن كان فرضيً ، ولهم أيضا في ذلك من تضاعف الأعمال كما روي[٣] الفضل ، وذلك أن « أعمال السر تضاعف على عمال العلانية بسبعين ضعفا »[٤] ، كما جاء في الخبر ، وقال الله جل ثناؤه وقال الله جل ثناؤه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، فهذا التثبيت هو إسرار العمل وإرادة الله به مخلصا. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٧١] ، فأخبر جل ثناؤه أن إخفاء العمل خير لهم ، لعلمه بما في إظهاره عليهم من الفتنة والفساد ، وما

---

(١) أخرجه السيد أبو طالب في أماليه /٢٠٩(١٤٩) ، والإمام الموفق بالله في الاعتبار وسلوة العارفين /٢٤٨ (٣١٦).

(٢) سقط من (أ) و(ب): له.

(٣) في (أ) و(ب): فرضى ، فلما أيضا في ذلك من تضاعف الفضل وذلك.

(٤) عن عائشة قالت: ((الذكر الخفي الذي لا يكتبه الحفظة ، يضاعف على ما سواه من الذكر سبعين ضعفا)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج٦/ص٨٥/ح٢٩٦٦٤.

يلحق الأعمال من الرياء والعجب وحب السمعة والإمتنان ، الذي يحبطها ويبطل أجورها ، وكذلك قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٦٤] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « حسبي الذكر الخفي »[١]. وعن أبي هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، رجل تصدق بصدقة فأخفى عن شماله ما تنفق بيمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ... »[٢].

---

(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((خير الذكر الخفي ، وخير الرزق أو العيش ، ما يكفي)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٣/ص٩٢/ح٨٠٩ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص١٧٢/ح١٤٧٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢١٧/ح١٢١٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٨٢/ح٧٣١ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٧٦/ح١٣٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٤/ح٣٤٣٧٧.

(٢) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج٢/ص٧١٦/ح١٠٣١ ، والبخاري في صحيحه ج١/ص٢٣٥/ح٦٢٩ ، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٢٣/ح٥٣٨٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٣٣٩/ح٤٤٨٦ ، وابن خزيمة في صحيحه ج١/ص١٨٦/ح٣٥٨ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٩٩/ح٢٣٩١ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٣٩/ح٩٦٦٣ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٥٣/ح١٧٠٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٢٣/ح٢٤٦٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٤٠/ح٧٩٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٦١/ح٥٩٢١ ، والبيهقي في سننه

فمن كان عمله سرا كان ذلك دليلا منه على الإيقان بالغيب ، ويقينا منه لخالقه ، وما ندبه إليه من دار كرامته علم باطن وهو محض اليقين ورأس الخشية ، قال الله جل ثناؤه: و ﴿ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [لقمان:٤-٥].

وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة » [(١)] ، والأخبار في ذلك تكثر ، فذلك زهرة العلم علم الخشية ، وهو علم الباطن لعمل الباطن لدار باطنة وهي الآخرة ، ولا توصل إلى اليقين بها إلا بما ذكرناه من العلم بخالقها ، واليقين بقدرة مُوعِدها [(٢)] ، والعمل الذي يراد به ظاهر الدنيا ، فهو علم ظاهر على اللسان ، يرا بأعمال [(٣)] تعمل ظاهرة وهو التصنع للمخلوقين لدار ظاهرة وهي الدنيا ، فهذا العلم هو مثل العلم بالكلام والنحو والعتب والأحكام ، ليعلو بها العبد ويرتفع بها في الدنيا عند الناس والسلاطين ، وغيرهم من أبناء الدنيا ، وكذلك يعلم أهل هذه الطبقة بسائر العلوم ، وإنما أرادوا به العلو والكثرة في العاجلة ، دون التقرب إلى الله والعمل له لدار الآخرة ، فهم العلماء السوء ، كما قال عيسى بن مريم: « ويلكم يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها و لم يَدَعوا غيرهم يدخلها » [(٤)] ، وقال النبي صلى الله

الكبرى ج٣/ص٦٦/ح٤٧٦٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٢١/ح٣٤٦٦٦،والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص٢٥١/ح٦٣٢٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص٢٣٥٧/ح٦٠٥١ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ٢/ص٧٩٨/ح١٤٢٩ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٧٣/ح١١١٦.

(٢) في (ج): موعودها والعمل.

(٣) كذا في المخطوطات.

(٤) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

عليه وآله وسلم: « يا علماء السوء لا تأخذوا مما تعلمون أكثر مما أعطيتموه ، ويا ملح الأرض لا تفسدوا ، فإن كل شيء إذا فسد دُوي بالملح وإن الملح إذا فسد لم يكن له دواء » [١] ، وقال عيسى عليه السلام: « ويلكم يـــا علمـــاء السوء مثلكم مثل الدِّفلى [٢] زهرها حسن ويقتل ضرها من يأكلها » [٣].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقـــرة:١٥٩]، وقـــال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة:١٦٠]، فجعل توبتهم على شريطة ألا تقبل منهم إلا بالبيان لما كتموا، وقال تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة:٦٣]، وقـــال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

---

(١) قال عيسى عليه السلام: انتم ـملحـ الارض. ولكن ان فسد الملح فبماذا يملح. لا يصلح بعـــد لشيء الا لان يطرح خارجا ويداس من الناس. إنجيل متى ١٣:٥.

وقال عليه السلام: الملح جيد. ولكن اذا صار الملح بلا ملوحة فبماذا تصلحونه. ليكن لكم في انفسكم ـملحـ وسالموا بعضكم بعضا. إنجيل مرقس ٩:٥٠.

(٢) الدفلى: شجر من أخضر حسن المنظر وهي من السموم.

(٣) لم أقف على هذه الرواية في الإنجيل.

وقال غير واحد من أهل العلم: « إنهم أخذوا به الدنيا »[(١)] ، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمعته يقول: « أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان »[(٢)].

وقال الحسن: قرأ القرءان ثلاثة وتعلم العلم ثلاثة ، رجل قرأ القرءان وتعلم العلم فاتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر ، يستأكل به الناس.

وقوم قرأوا القرءان وتعلموا فاستدروا به الولاية ، واستطالوا به على أهل بلادهم. قد كثر هذا الضرب في حملة القران. لا كثّر الله أهل هذا الضرب.

وقوم قرأوا القرءان وتعلموا العلم فهم كما قال الله بعد استعمالهم لما تعلموا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢] ، فهؤلاء في حملة القرءان ، والعلم أعز وأقل من الكبريت الأحمر. أحيا الله بهم الدين وأطفأ بهم جور الظالمين.

وقد روي أن ابن عجلان قال: قوم قرأوا القرءان وتعلموا العلم حتى إذا أحكموهما جميعا عمد أحدهم إلى الدنيا فجعلها على رأسه وضمها إلى نحره ، فرءاه ثلاثة من الناس: رجل أعمى ، وامرأة ضعيفة ، وأعرابي جاهل ، فقالوا: فلان أقرأ لكتاب الله منا ، وأعلم بسنة نبيه منا ، لو لا أنه رأى في الدنيا ذخيرةَ خيرٍ ما جمع منها ما جمع ، ولا ادخر منها ما ادخر ، فاجمعوا كما جمع ، وادخروا كما ادخر ، فمثله كما قال الله: ﴿ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت:١٣] ، وقال عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ص٢٢/ح١٤٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٨/ص٢٣٧/ح٥٩٣.

ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل:٢٥] ، وقال جل ثناؤه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ ﴾ [النجم:٢٩ - ٣٠].

وقال أبو حازم للزهري حين دخل على عبد الملك: « كانت الأمـــراء تـــأتي العلماء إلى بيوتهم ، ويقتبسون من علمهم ، وكان في ذلك صلاح للراعـــي والرعية ، فلما رأى ذلك سفلة الناس وأنذالهم ، تعلموا العلم للدنيا ، فصارت العلماء تأتي الأمراء إلى بيوتهم ، وكان في ذلك هلاك الراعي والرعيـــة » (١).

---

(١) عن الضحاك بن موسى قال: ((مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فأقام بها أيامـــا فقال هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له أبـــو حـــازم فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له يا أبا حازم ما هذا الجفاء قال أبو حازم يا أمير المـــؤمنين وأي جفاء رأيت مني قال أتاني وجوه أهل المدينة و لم تأتني قال يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان تقول مـــا لم يكن ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك قال فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهـــري فقال أصاب الشيخ وأخطأت قال سليمان يا أبا حازم مالنا نكره الموت قال لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم ان تنتقلوا من العمران إلى الخراب قال أصبت يا أبا حازم فكيف القـــدوم غدا على الله قال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله واما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه فبكى سليمان وقال ليت شعري مالنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله قال وأي مكان أجـــده قال إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال سليمان فأين رحمة الله يا أبا حازم قال أبـــو حازم رحمة الله قريب من المحسنين قال له سليمان يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم قال أو لو المروءة والنهى قال له سليمان فأي الأعمال أفضل قال أبو حازم أداء الفرائض مع اجتناب المحـــارم قـــال سليمان فأي الدعاء أسمع قال أبو حازم دعاء المحسن إليه للمحسن قال فأي الصدقة أفضـــل قـــال للسائل البائس وجهد المقل ليس فيها من ولا أذى قال فأي القول أعدل قال قول الحق عند مـــن تخافه أو ترجوه قال فأي المؤمنين أكيس قال رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها قـــال فـــأي المؤمنين أحمق قال رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره قال لـــه ســـليمان أصبت فما تقول فيما نحن فيه قال يا أمير المؤمنين أو تعفني قال له سليمان لا ولكن نصيحة تلقيها

إلي قال يا أمير المؤمنين ان آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم حتى قتلوا منهم مقتله عظيمة فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم فقال له رجل من جلسائه بئس ما قلت يا أبا حازم قال أبو حازم كذبت ان الله أخذ ميثاق العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه قال له سليمان فكيف لنا ان نصلح قال تدعون التصلف وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسوية قال له سليمان كيف لنا بالمأخذ به قال أبو حازم تأخذه من حله وتضعه في أهله قال له سليمان هل لك يا أبا حازم ان تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك قال أعوذ بالله قال له سليمان و لم ذاك قال أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات قال له سليمان أرفع إلينا حوائجك قال تنجيني من النار وتدخلني الجنة قال سليمان ليس ذاك إلي قال أبو حازم فمالي إليك حاجة غيرها قال فادع لي قال أبو حازم اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة وان كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى قال له سليمان قط قال أبو حازم قد أوجزت وأكثرت ان كنت من أهله وان لم تكن من أهله فما ينفعني ان أرمي عن قوس ليس لها وتر قال سليمان أوصي قال سأوصيك وأوجز عظم ربك ونزهه ان يراك حيث نهاك ويفقدك حيث أمرك فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه ان أنفقها ولك عندي مثلها كثير قال فردها عليه وكتب إليه يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان يكون سؤالك إياي هزلا أو ردي عليك بذل وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي وكتب إليه ان موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليها رعاء يسقون ووجد من دونهم اريتين تزودان فسألهما فقالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير وذلك انه كان جائعا خائفا لا يأمن فسأل ربه و لم يسأل الناس فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله فقال أبوهما وهو شعيب هذا رجل جائع فقال لإحداهما فادعيه فلما أتته عظمته وغطت وجهها وقالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فشق على موسى حين ذكرت أجر ما سقيت لنا و لم يجد بدا من ان يتبعها انه كان بين الجبال جائعا مستوحشا فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها وكانت ذات عجز وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى فلما عيل صبره ناداها يا أمة الله كوني خلفي وأريني السمت بقولك ذا فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ فقال له شعيب اجلس يا شاب فتعش فقال له موسى أعوذ بالله فقال له شعيب لم أما

وقال وهب بن منبه: « كان أهل العلم ممن كان قبلكم استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فزهد أهل العلم في دنياهم رغبة في علمهم ، وأهل العلم اليوم بذلوا علمهم رغبة في دنيا غيرهم فزهد أهل الدنيا في علمهم ، لسوء موقعه عندهم » [١]. وذكر أن الحسن مر على باب من أبواب الملوك الجبابرة فرأى أقواما عليهم زي النسك فقال لهم: ما لي أراكم شمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ، وقصرتم أكمامكم ، فضحتم القرءان فضحكم الله ، ثم قال: أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم ، قوموا فتفرقوا فرَّق الله بين أجسادكم وأرواحكم.

وروي أن عيسى بن مريم عليه السلام عاب علماء عدلوا عن الحق ، فقال: « علماء السوء يصفون البعوض من شراركم ويزدردون الجمال بأحمالها ، يصلون الصلاة في زوايا المساجد ، ويأكلون من ذخائر الأرامل [٢] ، ويوقدون في قبور الأنبياء ، مراتب اليتامى تكرمة لهم ويحمل أحدكم العشر على ظهر أخيه ولا يمسه بيده ، يا أشباه القبور المجصصة ، أعلاها حسن ، وفيها النتن » [٣]. وقال أيضا في حديث آخر: « يلبسون مسوك الضأن في قلوب الذياب ، ألسنتكم أحلى من السكر ، وقلوبكم أَمَرُّ من الصبر » [٤] ، والأخبار في هذا

أنت جائع قال بلى ولكني أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا فقال له شعيب لا يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل ان كانت هذه المائة دينار عوضا لما حدثت فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه وان كان لحق في بيت المال فلي فيها نظراء فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة)). أخرجه الدارمي في سننه ج١/ص١٦٣/ح٦٤٧.

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (ب): الأنامل. مصحفة.

(٣) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

(٤) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

تكثر ، فهذا دليل على الظاهرة ، وهو العلم الذي قال النبي عليه السلام: « علم في اللسان وميراثه النفاق »[(١)] ، كما قال أيضا: « أكثر منافقي أمتي قراؤها »[(٢)] ، في حديث حذيفة. فهذا ميراث أهل العلم الظاهر ، الطالبين به الرياء والسعة ، إذ أعمالهم للدنيا ظاهرة والتصنع لأهلها ، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٤] ، وكما قال: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧] ، وقال: و ﴿ مَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة:٣٨] ، ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء:٧٧] ، وقال المسوردي أخو بني بهر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « والذي نفسي بيده ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يبل أحدكم إصبعه السبابة في اليم فلينظر بم ترجع إليه »[(٣)]. وقد فسرنا زهرة العلم والله محمود. وعلم الباطن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن حنبل في مسنده ٢/ص١٧٥/ح٦٦٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص١٧٩/ح٤٧١.

(٣) ورد عن المستورد الفهري بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في البحر فلينظر بم يرجع)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٩٤/ح٢٨٥٨ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص١٧٤/ح٤٣٣٠ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٦٢/ح٢٣٢٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٧٦/ح٤١٠٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٢٩/ح١٨٠٣٧ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٦٨٤/ح٦٥١٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٧٨/ح٨٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٣٠١/ح٧١٣ ، وفي معجمه الصغير ج١/ص٣٢٩/ح٥٤٥ ، والقضاعي

وفرقنا بين علم الباطن وعلم الظاهر ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن فهم » فسر جمل العلم ، وأهل الفهم هم أهل زهرة العلم ، وهم الخلفاء من أهل بيته ، المعبرون عن آياته وبيناته.

باب شريعة الحكم

وهي الشعبة الثالثة من العدل.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن علم عرف شريعة الحكم » ، يريد بذلك: من علم زهرة العلم دلّه ذلك على شرائع الحكم ، وكان حاكما بالعدل لغيره ، مثل حكمه لنفسه ، وهو إصابة الحق في الحكم ، فلا يجاوز به حكم الله وحكم رسوله.

وقال: « إن شريعة الحكم لها أول وآخر ، أولها إنصاف الخلق في الحكم ، وهو التسوية بينهم في الغضب والرضا ، وآخرها الاجتهاد في إعطاء صواب الحق من نفسه » ، يريد بذلك: الحكم لله ولرسوله ، فلا يجاور من ذلك ما أُمر به بعد يقين منه للزوم ما حكم به ، وأنه حكم الله وحكم رسوله ، فإذا أصاب ذلك وأقامه في حدوده لم يتجاوز قدره بميل إلى هوى ولا إيثار لدنيا ، وكان من الصفوة صفوة الرسول وذريته ، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة:٤٢] ، وكان من الذين قال الله: ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥] ، وقال لداود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ [ص:٢٦] ، وقوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا

في مسند الشهاب ج٢/ص٢٩١/ح١٣٨٥ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٢/ص١٢٥/ح٨٣٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٥١٦/ح٣٧٦٦٨.

لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٨] ، فَفَهَّمَ الله سليمان الحكم في ذلك ، و لم يكن أخطأ داود الحكم في ذلك ، إلا أن سليمان كان أعلى حكما في ذلك بعينه ، لأن الله فهمه إياه.

وقال النبي عليه السلام في حديث مختصر: « إن ناقة النبي عليه السلام أفسدت على قوم حرثا لهم ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن على أهل الأموال حفظ أموالهم بالنهار ، وأن على أهل المواشي حفظ مواشيهم بالليل ، فما أصاب المواشي بالليل ضمن أهلها » [١] ، فكان هذا حكم رسول الله عليه السلام في مثل ذلك الحكم ، ثم أخبر الله تعالى أنه آتا داود الحكمة وفصل الخطاب.

وقال قتادة: « اليمين على المدعى عليه والبيان على المدعي » [٢]. وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله: « لو يعطى الناس بدعواهم لأدعى قوم دماء قوم وأموالهم لهم ، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر » [٣] ،

---

(١) لم أقف على هذا الحديث.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) عن ابن أبي مليكة: أن امرأتين كانتا تخرزان في بيت أو في الحجرة ، فخرجت إحداهما وقد أنفذ بإشفى في كفها فادعت على الأخرى ، فرفع أمرهما إلى ابن عباس ، فقال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله ، وأقرؤوا عليها ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله ﴾ فذكروها فاعترفت ، فقال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اليمين على المدعى عليه)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٦٥٦/ح ٤٢٧٧ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٣٣٦/ح١٧١١ ، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٤٩/ح٥٤٢٥ ، وابن حبان في صحيحه ج١١/ص٤٧٧/ح٥٠٨٢ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٧٧٨/ح٢٣٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٣/ح٣١٨٨ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج٣/ص١٩٢/ح٠ ، والطبراني في

فهذا مثل ما حكم به داود عليه السلام ، وكان هذا الحكم من طريق زهرة العلم ، وهو التفهم عن الله لأهل شريعة الحكم والتأييد لهم ، الذين آتاهم الله الحكمة كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩] ، فهذا الخير الكثير من الله لأهل زهرة العلم ، والدليل على أن شرائع الحكم وإصابة حدودها من مواهب الله تعالى وتبيينه ، على الحجة فيها وتوقيفه لذلك: ﴿ فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء:٣٥] ، فمن قصد إلى الله بحكمه ، وطلب الوسيلة إليه ، بصَّره وهداه لرشده ، ونبهه على دلائله ، وهداه للتي هي أقوم من أمره ، لأنه قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، يقول تعالى - وعز عن معاني المخلوقين -: من جاهد عدوه ونفسه في أن لا يقول على الله إلا الحق ، ويتحرى مجني في أموري ، هديته لرشده ، وقيضت له التوفيق في أمره ، وهو مثل ما قال زيد بن ثابت حين « سؤل عن شيء لم يقع؟ فقال: قد وقع ذلك؟ قالوا: لا ، إلا أنا نريد أن نعلم الشيء قبل أن يقع ، فإذا وقع قلنا بذلك فيه. فقال زيد: إن الله إذا علم الصدق من قلوبكم وفقكم لسداد الحق حتى تقولوا فيه بالصواب »[1].

وقال جابر بن عبد الله: « لما نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ بعث النبي صلى الله عليه وآله إليه فجيء به من المدينة ، فكأني أنظر إليه على أتان تحته قطيفة حمراء والناس يكلمونه ، ويقولون: يا سعد رضي القوم بك

معجمه الكبير ج١١/ص١١٧/ح١١٢٢٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٣٢/ح١٠٥٨٥ ، والشافعي في مسنده ١/ص١٥٣/ح٠ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ص٢٧٣/ح١٥١٩٣.

(١) لم أقف عليه.

فأحسن إليهم ، إذ نزلوا على حكمك ، وهو ساكت لا يرد على أحد منهم شيئا ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه فطرح له النبي قطيفة وأجلسه إلى جنبه ، ثم قال: يا سعد قد نزل القوم على حكمك فاحكم فيهم ، فقال: يا رسول الله أرى أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، ويقسم فيئهم ، وتخرب ديارهم ، وتحرق نخيلهم. فقال له النبي عليه السلام: حكمت فيهم بحكم الله »[1].

وفعل النبي عليه السلام ذلك بهم ، فكان حكمه موافقا لحكم الله فيهم ، وذلك من زهرة العلم ، فعرف بزهرة العلم شريعة الحكم ، فوفقه الله لذلك ، وكان سبب ذلك دعوة سعد حين رموه فأصابوا أكحله ، فقال: « اللهم لا تخرج نفسي من الدنيا حتى تشف قلبي من بني قريظة ، فسكن الدم ، قال

---

(١) عن أبي سعيد ، أنه سمعه لما نزل أهل قريظة على حكم سعد ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال: ((إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال: فإني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم. قال: حكمت فيهم بحكم الملك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١١٠٧/ح٢٨٧٨ ، وفي الأدب المفرد ١/ص٣٢٦/ح٩٤٥ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٣٨٩/ح١٧٦٨ ، وابن حبان في صحيحه ج١٥/ص٤٩٧/ح٧٠٢٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣٥٥/ح٥٢١٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص٢٢/ح١١١٨٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩٧/ح٢٢٤٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٦٥/ح٥٩٣٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٥٨/ح١١٠٩٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٤٠٦/ح١١٨٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٨٠/ح١٤٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٣٧٩/ح٣٦٨٣٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٨٩/ح١٣٤١.

جابر بن عبد الله: كأني أنظر وقد كاد يلتحم ، فلما حكم النبي صلى الله عليه وآله فيهم بحكم سعد انبعث الدم فمات » [١].

وقال عبد الله بن عمير: سمعت عطية القرظي يقول: « إن مما أنعم الله عليَّ أن كنت يوم بني قريظة ممن حكم سعد فشكوا في أمري فكشفوا عني فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي فها أنا بين أظهركم » [٢] ، والأخبار في ذلك تكثر.

باب روضة الحلم

وهو الشعبة الرابعة من العدل.

---

(١) عن عائشة أن سعد بن معاذ رمي في أكحله فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم خباء في المسجد ليعوده من قريب ، فقال سعد: ((اللهم إنك تعلم أن أحب الناس إلي قتالا قوم كـذبوا نبيـك وأخرجوه ، وفعلوا وفعلوا ، وإني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، اللهم إن كنت أبقيت بيننا وبينهم حربا فأبقني لهم ، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجر هـذا الكلـم ، واجعل موتي فيه ، فبينما هو ذات ليلة إذ انفجر كلمه من لبته وإلى جنبه أهل خباء ، فسال الـدم حتى دخل الخباء ، فنادوهم: يا أهل الخباء ما هذا الذي يجيئنا من قبلكم فنظروا ، فإذا سعد بـن معاذ قد انفجر كلمه من لبته ، وإذا لدمه هدير ودوي ، قال: فمات عنه)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص١٧٧/ح٤٥١ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٣٨٩/ح١٧٦٩ ، والنسائي في سننه ج٢/ص٤٥/ح٧١٠ ، وابن حبان في صـحيحه ج١٥/ص٤٩٨/ح٧٠٢٧ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٢/ص٢٨٨/ح١٣٣٣ ، وأبي داود في سـننه ج٣/ص١٨٦/ح٣١٠١ ، وابن حنبل في مسنده ج٦/ص٥٦/ح٢٤٣٣٩،

و الطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص٧/ح٥٣٢٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢٦١/ح٧٨٩ ، والبيهقـي في سـننه الكـبرى ج٣/ص٣٨١/ح٦٣٧٩ ، وأبـو يعلـى في مسـنده ج٧/ص٤٥٢/ح٤٤٧٧.

(٢) عن عطية القرظي قال: كنت فيمن حكم عليه سعد ، فشكوا في أمن المقاتلة أنا أم من الذريـة ، فنظروا إلى عانتي فوجدوها لم تطلع فألقوني في الذرية. أخرجـه الطـبراني في المعجـم الكـبير ج١٧/ص١٦٤/ح٤٣٤.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « من حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا ». فروضة الحلم هو جماع الحلم ، وذلك أن الحلم شطر البر كله ، وهو ملك النفس عند الغضب ، فكيف يملكها عند الرضا؟! فإذا ملك العبد نفسه عند الغضب كان أشد الناس قهرا لهواه ، فلم يكاف بالسيئة السيئة ، ولكن يكافي بالسيئة الحسنة ، وكيف بمكأفاة الحسنة؟! وذلك أن العبد إذا قام مقام روضة الحلم ، كان دليله الصفح والعفو عمن أساء إليه ، والتجاوز عن جميع الخلق إذا أعتذروا إليه من إساءتهم ، وتابوا إلى ربهم ، فأما وهم مصرون فلا محل للعفو عنهم ، كما أنه ليس من حلم الله ذلك إلا بالتوبة ، وإنما يكون العفو عند التوبة بإن يكون العبد له أن يقبض فيعفو وأن يكون [1] له أخذ ظلامته فيصفح عند ما يظهر من توبته وبدعِّها لله سرورا منه بتوبة عبده إليه ، فأما من عفا عن المصرين المقيمين على المعاصي فقد خالف الله في أدبه وحكمه ، لأنه تعالى هكذا قال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] بقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥ - ١٣٦] ، فجعل المغفرة على شريطة التروع عن الإصرار بترك الذنوب والرجوع إلى الندم والإستغفار ، وكذلك ينبغي للعالم بأحكام الله أن يستعمل في ذلك أدب الله مع [2] تَحَرُّزه عندما يترل به من الظلامة أن يتعدى في المكافأة بها ، إن آثر من ذلك عليه أن يأخذ الحق من نفسه لهم على قدر طلبه لنفسه منهم ، فإذا كان العبد كذلك رأى أن حق الخلق كلهم يلزمه[3] ، ولا يرى له حقا قِبَل أحد من الناس إلا قام لله بالقسط فيه ، فأورثه

---

(١) في (أ) و(ب): أو يكون.

(٢) في (ب): ما. مصحفة.

(٣) العبارة قلقة ، أما المعنى فواضح. لعله فيها تصحيفا.

ذلك النظر فيما للخلق قِبَله ، فلم ير لنفسه شيئا دونهم ، و لم يحكم لنفسه إلا بما يحكم لهم ، فكان ذلك روضة الحلم.

وقال أيوب السجستاني: « لا يحلم الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس ، والتجاوز عما يكون منهم وانتظار الإنابة لهم » [١]. وقـــال بعض أهل العلم: « وبذل معروفه لهم » [٢]. فمن ذلك ما أخبر الله عز وجـــل في كتابه ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبره ، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ... إلى قوله: ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤ - ٣٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ... إلى قوله: ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠] ، فـــأخبر أن التعدي في المكافأة ظلم ، وأن أشرف العفو وأصل العدل أن [٣] يكـــون إذا عصى الله عبد ألا تعصي الله فيه ، ولا ترآده بكلام يخرجك إلى ذلك ، بـــل تكظم غيظك ، وتكف لسانك ، وتستعمل حلمك ، وتخاف إن أضعت ذلك إسخاط ربك ، وإن آثرت الإقتياد [٤] على العفو كنت كما قال الله: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٩٤] (٥) ، اتقوه أن تجاوزوا من ذلك

---

(١) عن أيوب السختياني: ((لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان ، العفة عما في أيدي النـــاس ، والتجاوز عما يكون منهم)). مكارم الأخلاق ج١/ص٢٨/ح٤٢.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و(ب): بأن.

(٤) الكلمة غير واضحة في (أ) و(ب). وفي (ج): الإيثار.

(٥) في المخطوط: ﴿ ... واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾.

إلى ما ليس لكم في قول ولا فعل ولا نية ، ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وقد روى عن بعض الحكماء أن رجلا سأله فقال: « ما الأعمال؟ فقال: التخلق بالحلم ، فإن الله حليم عن الحاطين فمن حلم عن الخاطئين ، وافق الله في محبته »[١]. ولما نزلت هذه الآية على النبي: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، قال النبي صلى الله عليه وآله: « يا جبريل ما هذا؟ قال: إن الله يأمرك أن تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك »[٢] ، ومعنى قوله: « تعطي من حرمك » ، يقول: إن عصى الله عاص في تضييع ما يجب من حقك ، أو منعك حقا لك ، فلا تعارضه بمثله ، بل تصله بأن تؤدي إليه ما له قبلك من حقه ، وترعى له من ذلك ما قد أضاعه لذلك. فأما العفو فهو ما شرحناه آنفا.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، فذاك مكافأة ، ولكن الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك »[٣] ، وقيل في صفة النبي صلى الله عليه وآله: « ما غضب لنفسه قط ، ولا انتصر لها ، ولا رأى حرمة لله

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله قال: ((أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن شتمك)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج٣/ص٤٣٨/ح١٥٦٥٦ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص١٧٨/ح٧٢٨٥ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص٢٣/ح١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٢٧٠/ح٧٣٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٤٩/ح١٢٨٩.

(٣) لم أقف عليه.

منتكهة إلا كان أبعد الناس من الإثم حتى ينتصر لله »[١] ، وكذلك يجب على المؤمن أن يقتدي في ذلك بنبيه صلى الله عليه ، فلا يدع لله حرمة منتكهـــة يمكنه في ذلك دفع بنفسه وماله إلا أمضاه ، غضبا لله ولدنيه ، واقتداء برسول الله وعترته ، وقد وصف الله نبيه عليه السلام فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ...﴾ [آل عمـــران:١٥٩] الآية ، وإنما عنى بالاستغفار ، أي: للمؤمنين خاصة ، فجمع له تعالى جميـــع مكارم الأخلاق وأمره بها ، وبالندبة إليها ، والـــدليل علـــى أن الاســـتغفار للمؤمنين خاصة قول الله عز ذكـــره: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشـــعراء:٢١٥] ، وقد أدب النبي عليه السلام أبا بكر عند ما تناوله رجل والنبي جالس قال أبو بكر: « فذهبت أكافيه وأرد عليه ، فقـــام النبي عليه السلام ، قال: فقلت: يا رسول الله كنت جالسا فلما قمـــت أرد عليه قمت!! فقال النبي عليه السلام: لما كان الملك يرد عليه وهـــو جـــالس جلست ، فلما قمتَ ترد عليه قام الملك فقمت »[٢].

وقيل لقيس بن عاصم: بم نلت السؤدد؟ قال: بتركى الأذى وبذلي القِـــرى ، ونصري للمولى.

وروي عن عمير بن حبيب وكان له صحبة ، أنه أوصى بنيه فقال: « إيـــاكم ومجالسة السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، مَن تَحلَّم عن السفيه فسد حلمه[٣] ، ومن أحب السفيه ندم على حبه ، ومن لا يقر لقليل ما يأتي به السفيه يقـــر

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و (ب): تحلُّمه.

بالكثير[١] ، ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى ، وليثق بالثواب من الله ، فإنه من يثق بالثواب من الله لا يجد من الأذى » [٢].

وقال رجل للأحنف بن قيس: « ما بلغ بك ما أرى؟ قال: تركي من أمرك ما عناك من أمري » [٣]. وقال الأحنف: « تعلمت الحلم من عموميتي تعلما » [٤].

ويروى عن صفوان بن الأهيم أنه قال له أبو جعفر: « لم سادكم الأحنف ولم يكن بأكثركم مالا ، ولا أجملكم وجها ، ولا أشرفكم بيتا؟! فقال له صفوان: إن شئت أخبرتك في ثلاث وإن شئت في ثنتين وإن شئت في واحدة. فقال له أبو جعفرك هاتها في ثلاث وهاتها في ثنتين وهاتها في واحدة. فقال: أما الثلاث فإني لم أر هذه الأخلاق المذمومة في أحد أغمض منها فيه: البغي والحسد والكبر. قال: هاتها في ثنتين. قال: كان موفقا ملقا ، يلقى بالخير ويوقى الشر. قال: هاتها في واحدة. قال: ما رأيت أحدا أغلب لهواه منه ، وإنما نال من [٥]

---

(١) العبارة قلقة ولعلها مصحفة أو ناقصة.

(٢) ورد عن عمير بن حبيب بلفظ: وكان قد بايع النبي صلى الله عليه وسلم وصي بنية قال لهم: ((أي بني إياكم ومخالطة السفهاء فإن مجالستهم داء ، وإنه من يحلم عن السفيه يسر بحمله ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله ، فإنه من يوقن بالثواب من الله لا يجد مس الأذى)).

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٧/ص٥١/ح١٠٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩٥/ح١٩٩٩٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢٣٤/ح٢٥٥٩٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٧٠/ح.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) في (ب): قال ما. مصحفة.

نال روضة الحلم بقهر غلبة الهوى ، فإذا ضعفت [١] دواعي الهوى ، وضعفت منازعته ذلعت [٢] النفس و لم يطعها إلى التغرر [٣] بهواها ، فحينئذ تعتق القلب من أسر الهوى وغلبة النفس » [٤].

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه في حديث أبي هريرة: « أنه مر بقـــوم يتعاطون حجرا ، فقال لأصحابة: من الشديد عندكم؟ قالوا: يا رســـول الله الصراعة للرجال ، فقال لهم: ليس الشديد الذي يشغل الحجارة ولا الصرعة للرجال ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [٥] ، والأخبـــار في ذلك تكثر.

فمن وصل إلى روضة الحلم طابت له الحياة الدنيا ، وكان الناس منه في راحة وسرور ، ونفسه منه في تعب ومشقة ، ومجاهدة شديدة ، وذلك أنه يأخذ من نفسه لغيره ، ولا يأخذ لها بحقها من غيره ، إلى من الوجه الذي يقيم الحكم لله

---

(١) في المخطوطات: ضعف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في (أ): ذلفت.

(٣) في (ج): التعزز.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشـــديد الذي يملك نفسه عند الغضب)).

أخرجه البخاري في صـــحيحه ج٥/ص٢٢٦٧/ح٥٧٦٣ ، وفي الأدب المفـــرد ١/ص٦٦/ح١٥٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠١٤/ح٢٦٠٩ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٩٤/ح٧١٧ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٤٨/ح٤٧٧٩ ، وابن حنبل في مســـنده ج٢/ص٢٣٦/ح٧٢١٨ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٠٦/ح١٦١٣ ، والطيالســـي في مســـنده ج١/ص٣٢٩/ح٢٥٢٥ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٦/ص١٠٥/ح١٠٢٢٦ ، وابـــن راهويـــه في مســـنده ج١/ص٤٤٧/ح٥١٦ ، والقضاعي في مسند الشـــهاب ج٢/ص٢١٤/ح١٢١٢ ، والبيهقـــي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٣٥/ح٢٠٨٧٤ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢١٦/ح٢٥٣٨٥.

على من فعل ذلك به ، وعلى قدر ما أخرجه وأبانه ، فأما ما كان لنفسه وهبه متقربا به ، ثم عليه أن يزمها عن المزاح وكثرة الكلام ، وترك ما لا يعنيها ، فإذا فعل ذلك أورثه ذلك [١] روضة الحلم وطول الحزن فيما يعنيه ، وكذلك روي عن علي عليه السلام أنه قال: « من كثر ضحكه قلّت هيبته ، ومن مزح استحق به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » [٢].

وقد فسرنا روضة الحلم وهو أعلى درجات الحلم.

وإذا وصل العبد إلى ذلك رضي الخلق كلهم عنه ، لأنه يأخذ لهم بحقهم من نفسه ، ولا يطالبهم بحق نفسه إلا من جهة قيامه بحكم الله عليهم ، على حد

---

(١) في المخطوطات: أورثه الله ذلك. ولعلها زيادة سهو.

(٢) ورد عن علي عليه السلام بلفظ: ((من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن دخل مداخل السوء اُتهم. ومن كثر كلامه كثر خطوُهُ ، ومن كثر خطوُهُ قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار ، ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ، ثم رضيها لنفسه ، فذلك الأحمق بعينه ، والقناعة مال لا ينفد ، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه)). نهج البلاغة ، قصار الحكم /٣٤٩.

وورد أيضا عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كان النار أولى به)).

وعن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر: ((يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن فرح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه)). أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٣٧/ح٣٧٤.

ما شرحنا ، فذلك كمال الإحسان إليهم عامة وإلى نفسه خاصة ، وقد طُبع الخلق على حب من أحسن إليهم ، وبغض من أساء إليهم ، كما قال الـــنبي صلى الله عليه وآله وسلم: « جبلت القلوب على حب مـــن أحســـن إليهـــا وبغض من أساء إليها »[1] ، فإذا كان ذلك يجب للخلق لما يكون منهم ، فهو لله جل ثناؤه أوجب ، إذ كان هو المبتدئ للإحسان ، وهو الآمر بالإحسان ، فبه عرف الإحسان ، ولولا تعريفه فيه وفوائده وهدايته وكثرة خـــواطره لم يُعقل الإحسان. فهذا قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن حلـــم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا » ، نسأل الله البر الرحيم ، أن يمـــن علينا بسلامة الصدور ، والاجتناب لجميع الشرور.

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٥٠/ح٥٩٩.

باب الجهاد

وهو أول الدعامة الرابعة من الإيمان.

فالجهاد على أربع شعب على: الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنآن الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه من شنئ الفاسقين ، و[من] غضب لله غضب الله له.

باب الجهاد

فالجهاد فرض على جميع المسلمين.

والجهاد على معنيين:

معنى يجزي بعضهم عن بعض في مواضع الجهاد.

ومعنى لا يجزي بعضهم عن بعض وهو جهاد النفس الأمارة بالسوء.

فجهاد النفس أن يكون العبد يجاهد نفسه بمخالفة الهوى وهو فرض ، عليه أن يخالف هواه المخالف لطاعة ربه في كل ما أمر به ونهى عنه ، وذلك أن النفس طبعت على محبة المحبوب وكراهة المكروه ، وهي أعدى عدو للمؤمنين ، ومجاهدتها فرض على المؤمنين ، وهو مخالفة هواها في الطاعة والمعصية ، فأما مخالفة هواها في الطاعة والمعصية ، فإنها تكره الطاعة فإذا خولف هواها أجابت إلى الدخول في الطاعة ، ثم دعت التصنع بالطاعة ، لأن هوى النفس بالطاعة أن تمدح بها وتذكر بها ، ويثنى عليها من أجلها لما كان من غيرها ، فإذا خولف هواها بدفع التصنع ، وعرف القلب بما أفيد من فوائد العلم أن التصنع يحبط الأعمال ويبطلها ، أخلص العمل لله بمخالفة الهوى ، فكان ذلك من مخالفة النفس في المعصية ، فإنه فرض على المؤمن أن يجاهد نفسه ألا يقبل ما

يلقي الشيطان من وسوسة المعصية وذلك أن النفس مائلة لغلبة الهوى عليها إلى حب المعصية ، ومائلة إلى ما يلقي من ذلك إليها الشيطان ، ففرض على المؤمنين فخالفوا عن ذلك هواهم ، ويكبحوها عن جماحها وطماحها ، وما يسوقها إلى المنهي عنه من فعلها ، وأن يذكروا مقام الله عليهم في ذلك ، وثوابه ونعمه عليهم ، فيراقبوه بالخشية له ، والحياء منه ، والإجلال لمقامه ، ويتذكروا ما أوعد على ذلك من انتقامه ، فيخالفوا الهوى مخافة الوقوف بين يديه ، والسؤال لهم عن الاستخفاف بأمره ، والجرأة عليه.

وإذا قام العبد بذلك على نفسه ، كان من أهل الثواب الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات:٤٠-٤١] ، ولم يكن من الذين قال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩] ، وقد قال جل ثناؤه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٦٥] ، التثبيت هاهنا هو: مجاهدة النفس بإخلاص العمل ، وطلب الزلفة لديه دون من سواه من جميع خلقه ، وقال: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝ ﴾ [القيامة:١٤-١٥] ، يقول: وهو الرقيب على نفسه مما يكون منه ، والشاهد عليها غدا بما كان منها ، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم... ﴾ [يس:٦٥] الآية ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ ... إلى قوله: فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ ...﴾ [البلد:١١-١٣] إلى آخرها.

وهو مجاهدة النفس عن هواها في طاعته ، واتباع محبته.

وقد ذكر ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره ، قال عليه السلام حين رجعوا من غزوهم: « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

، وهو مجاهدة النفس ومخالفة الهوى »[١] ، وعن النبي عليه السلام أنه قال: « ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله في قتله ، وإن قتلك أدخلك الجنة ، ولكن أعدى عدو لك هي نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك ، وأولادك الذين من صلبك »[٢] ، فهؤلاء أعدى عدو لك ، وفي مصداق ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ...﴾ [التغابن:١٤] الآية.

وكيف لا يجب حذر النفس وهي تدعو[٣] إلى ما في إتيانه خسران الدنيا والآخرة ، ولا أحد وإن بلغت عداوته ما بلغت يقدر أن يحمل على ما فيه خسران ذلك ، إن لم يكن له معين من هوى النفس ومساعدة من الهوى ، فهي على هذا أعدى الأعدا ، فليكن مقدار حذر الفَهِم عن الله على حسب عظيم جناها ، وعلى كبر تصرف معاصيها ، فيما تدعو إليه من عجبها ، وكثرها وزيادها وبذخها.

ومن أقوى الأعوان له على ذلك التفكر ، هل يعجب بمثله عاقل؟! وذلك أن الفَهِم عن الله عز وجل إذا علم أن جميع ما كان منه من برد إحسان إنما كان بمعونته عليه ، وهدايته إليه ، كان الحمد له في ذلك دون غيره واجبا.

---

(١) عن جابر قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال: ((قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح١١٧٧٩.

(٢) ورد بلفظ: ((ليس عدوك الذي إن قتلك أدخلك الله الجنة ، وإن قتلته كان لك نورا ، ولكن عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك ، وولدك الذي من صلبك ، فهؤلاء أعدى عدو هو لك)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح١١٢٦٤.

(٣) في (أ) و (ب): ترحوا. مصحفة.

ثم إذا علم أنه قد سلف له ذنوب قدرهن بإغفاله ، ووجب بحكم الله الوعيد عليه بها ، وقد راجع عنها ولا عِلْمَ له هل ناصح في المراجعة أم لا؟ فإن كان ناصحا في المراجعة فلا عِلْمَ له هل ما أتى من العمل على جهة ما يتقبل مثله أم لا؟ وإن كان قد أتى به على حد ما أمر فلا علم له أيضا لعله أن يـــأتي بمـــا يحبطه. فإذا كان العالم بالله وبأحكامه على حد ما وصفنا ما باله بالعجب بما كان منه من البر ، وهو لا يحيط في أي من المنازل مما وصفنا هو ، وهل رأى حكيما يعجب من أمر من أمور الدنيا يريد به ابتياع شيء لا يعلم أنه لا يقبل مثله في ثمن ما يتبايعه أو لا؟ دون أن يقف على علم ذلك ويتحققه؟! فمـــن أنزل نفسه بالمنازل التي شرحنا ، وفهم أمره على حد ما وصفنا ، لم يعجـــب بشيء مما يكون من طاعته ، ومتى خلص من العجب بها خلص من الرياء بها ، لأن من لم يكن منه عند نفسه من يعجب أهل الفَهِم عن الله بمثله لم يراءهم به ، لأن حكيما لو رأى أمررا من الأمور يحضره حكماء هـــو يعلـــم أنهـــم لا يعجبون بمثله ، ويعلم أيضا أنهم يحكمون على من أعجب به مـــن الـــنقص والعيب ، لم يكن شيء أكره عنده من اطلاعهم على ذلك من أمره ، وإذا نجا العبد من العجب والرياء ، نجا من الكبر ، لأن الكبر إنما هو نتاج وَرِثَه مـــن العجب والرياء ، وذلك أن العبد إذا توهم أنه قد أتى أمرا يعجب بمثله ، أنـــه قد بان بفضيلة على غيره ، فيدخله التكبر على من توهم عليه أن قد عـــلاه وباينه في منزلته ، فإذا كبح نفسه ووقفها ، وفهم ما كان منها وحاسبها ، لم يجد للعجب والكبر والرياء مشاغا ، ولا وجها بوجه من الوجوه ، ومع ذلك إنه لو علم أن عمله مقبول ، وأنه قد أتى جدود ما أُوجب عليه وبعاقبة مـــا يختم له ، وعلم بنجاته ، ثم خطر من وجه النظر لعلم واستيقن أنه لا مســـاغ ولا وجه للعجب والرياء والتكبر من أحد من الحكماء. وذلك أنه لو كـــان للعجب وجه لما كان الإيمان يعجب لما أوصله إلى ذلك وتفضل به عليه ، مما لا يصل نفع ذلك إليه ، وإن كان أعلى المنازل في ذلك ترك المدح والتكـــبر

والعجب به ، وأما أن يكون إذا عمل عملا إنما يرجع بالنفع على نفسه دون غيره ، والمعجب به إلا في أقل المنازل أهل السخف ، فكيف تكون منازل الحكماء؟!

فمن عرف نفسه وعرف ما لله عليه من تواتر نعمه ، ودفع السوء عنه ، وعرف قدر عظمة الله ، وعرف قدر نفسه ، وعرف ضعفها ، وعرف ما يكون منها وإلى ما تدعوه ، لم يداخله العجب ولا الكبر ولا الرياء بشيء يكون منها ، وإن كبر وبلغ غايته أبدا ، ونجا من الكبر فيه والمرايات به ، وحذر نفسه في ذلك حَذَرَ مَن يعلم أنها تبخل عليه بالعمل في نجاتها ، وتميل به إلى كل ما يضرها [1] ويهلكها ويفضحها في عاقبتها على رءوس الأشهاد.

فمن أقام نفسه هذا المقام ، أمده الله بنصرته ، وأيده بمعونته وقوته ، وعصمته وبتأييده. وقد قال النبي صلى الله عليه لأصحابه: « ما تقولون في نفس إن تبعها صاحبها فذل لها ذَمَّته غدا بين يدي الله ، وإن أتعبها وأنصبها مَدَحْتُهُ غدا بين يدي الله؟! ثم قال: تلك أنفسكم التي بين أجنبكم» [2].

قال وهب بن منبه: « أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود عاد نفسك في محبتي ، ودِنِّي بذلك ، واستعن بي على ذلك ، فنعم العون ونعم المستعان » [3].

ويروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة » [4] ، فمن اتبع هواه لم يجاهد نفسه ، وفي ذلك صد له عن الحق ، كما قال الله تعالى لداود عليه

---

(١) في المخطوطتين: ما سرها. لعلها مصحفة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) سبق تخريجه.

السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [ص:٢٦] الآية ، فوكد الوعيد على المؤمنين في اتباع الهوى في الحكم ، وكذلك وجوبه في سائر النهي عنه.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: « إنكم في زمان كثير علماؤه ، قليل خطباؤه ، الصلاة فيه طويلة ، والخطبة فيه قصيرة ، الهوى فيه تابع للعمل ، وخير العمل مجاهدة النفس في الإخلاص بالعمل ، ومخالفة الهوى في ذلك بالميل إلى ترك التصنع ، وسيأتي عليكم زمان كثير خطباؤه ، قليل علماؤه ، الخطبة فيه طويلة ، والصلاة فيه قصيرة ، والعمل فيه تابع للهوى » [(١)] ، يعني: عمل الطاعة باتباع الهوى ، وترك المجاهدة بالإخلاص والنصفة للعمل.

وقال أبو ثعلبه الجنشي: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثَّرة ، وإعجاب كل أمرئ بنفسه ورأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام » [(٢)]. ومعنى قوله عليه السلام: « شح

---

(١) ورد عن عبد الله بلفظ: ((إنكم في زمان الصلاة فيه طويلة ، والخطبة فيه قصيرة ، وعلماؤه كثير وخطباؤه قليل ، وسيأتي عليك زمان الصلاة فيه قصيرة ، والخطبة فيه طويلة ، خطباؤه كثير وعلماؤه قليل ، يؤرخون الصلاة صلاة العشاء إلى شرق الموتى ، فمن أدرك ذلك منكم فليصل الصلاة لوقتها ، وليجعلها معهم تطوعا ، إنكم في زمان يغبط الرجل فيه علي كثرة ماله وكثرة عياله ، وسيأتي عليكم زمان يغبط الرجل فيه على قلة عياله وخفة حاده ، ما أدع بعدي في أهلي أحب إلي موتا منهم ، ولا أهل بيت من الجعلان ، وإني لأحبهم كما يحبون أهليكم)). أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٩/ص١٠٨/ح٨٥٦٧.

(٢)عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية ، قال: آية آية. قلت: قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياما الصبر

مطاع » له ظاهر وباطن ، فظاهره شح الإنسان بماله على نفسه ، وهو على يقين من فراقه ، وباطنه شحه في الحقيقة بمال غيره على نفسه وقد خَوَّله ، وذلك أن ماله عارية لله في يده ، وإن كان في حكمه قد ملكه بتخويله ، وهذا فيما يتعارفه الناس فيما بينهم النذالة ، لأن فيما يتعارف أن من بخل على محتاج بماله فمقصر عن الفضيلة في نفسه ، ومن بخل عليه بمال غيره فذلك غاية النقص والنذالة عندهم ، كيف به عندهم إذا كان حكمه في نفسه بمال غيره؟! والباطن من الشح المطاع الذي له أيضا باطن وظاهر ، شح العبد بنفسه على ربه وهو مالكه ، وفيما يتعارفة الناس بينهم أن من شح على رب مالك بملكه فقد بلغ غاية النقص والشح ، ولا سيما وللمالك عليه من الأيادي على المخَّول له ماله ، لا ما يسوغ له معه البخل عليه بما كان لو كان له ، فكيف بما هو له دونه؟!

وباطن الشح أن العبد لم يشح في الحقيقة على ربه ، لأنه غير محتاج إليه ، ولا منتفع بطاعته ، وإنما أمره بطاعته لينفع نفسه ، فكأنه في حقيقة شحة إنما شح

فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا ، يعملون مثل عملكم)). وفي لفظ: ((أجر خمسين منا أو منهم ، قال: بل أجر خمسين منكم)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٥٤٠/ح٣٠٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٤٦٨/ح٢١٦٨ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٢٧/ح٤٠٠٥ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٢/ح٤٣٣٨ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢/ح١ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٥٨/ح٧٩١٢ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٤/ح٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٢/ص٢٢١/ح٥٨٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٣٣٩/ح١١١٥٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٤٢٩/ح٧٥٣ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٩٣/ح٦٢ ، ١/ص٩٤/ح٦٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩١/ح١٩٩٧٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١١٨/ح١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٠/ح١ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ١/ص٦٤/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٥٠٤/ح٣٧٥٨٣.

بنفسه عن نفسه ، وبخل بنفسه على نفسه ، وعير [١] نفسه في نفسه ، فذلك على الخسران والأسف لمن فهم عن ربه ، وعلم لماذا خلقه؟ ولأي علة تعبَّده؟ وعلى أي سبيل أمره؟ ولأي نعمة عرَّضه؟ وذلك ما قال جل ثنـــاؤه: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن:١٦] ، فعلى حد مـــا شرحنا تفسير قوله: « وهوى متبع وإعجاب كل ذا رأي برأيه » ، في آفـــات العجب والرياء ، وقد قدمنا ذلك بما فيه كفاية إن شاء الله.

ثم ليعلم الفَهِم عن الله أنه قد خلف في زمان الذي عمل البر فيه قد غلبه اتباع الهوى ، فليس يرى رجلا يعمل بشيء من الطاعة إلا رأيته متبعـــا لهـــواه ، متطاولا بها على غيره ، فمتى خولف هواه فيه رأيته قد خـــرج إلى العـــداوة والبغضاء!! غضبا لهواه متغضبا [٢] له ، لا يرجع إلى حلم في دين ، ولا فيـــه لمروة وذلك معنى قول ابن مسعود: « العمل فيه تابع للهوى ». ويروى عـــن عامر بن عبد الله العنبري أنه كان يقول لنفسه إذا قام بها من الليل فملَّـــت في القيام: « قومي يا مأوى كل سوء ، فوالله لا زدتك رحـــف الـــبعير » [٣] ، والأخبار في ذلك تكثر.

فمن مَنَّ الله عليه بمحاسبة نفسه ، وقام لله عليها بقسطه ، أعطاه الله القهر لها ، وأعلاه بالظفر على هواها ، فمده بالعلم المؤيِّد له في جهادها وجهاد عدوها ، وعلم أنها له أعدى من عدوها ، لأن عدوها لا يقدر على اضطهادها ، فإنما بليته منها في اتباعها لما زيَّن لها عدوها ، فأقام نفسه مقام المحارب لها ، وتفرغ من كل شيء إلا من مجاهدتها ، شدةَ حذرٍ منها ، ولعلمه وشـــدة مطالبتـــه لانتهاك حريمها ، والوقوع في غيها ، فإذا كان العبد كذلك ، كان عبدا كيســـا

---

(١) الكلمة مهملة في المخطوطات.

(٢) الكلمة مهملة فلعلها كما أثبت ، أو: متعصبا.

(٣) لم أقف عليه.

بصيرا محاسبا. كما روي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه أنه قال: « سأله رجل فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ فقال صلى الله عليه: أكثرهم للموت ذكرا ، وأشدهم له استعدادا ، أولئك الأكياس »[١] ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه قال: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على الملك الأكبر »[٢].

ومن لم يكن كذلك غلبه هواه بتركه الإعتصام. يريد: الانقطاع إليه ، فلا يلوم إلا نفسه ، فإنه لم يقع في عمائه وتَكَمُّهه وصممه إلا من قبلها. كما روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه أنه قال: « حبك للشيء يعمي ويصم »[٣]. وقال عطاء السلمي: بلغنا أن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان.

---

(١) ورد عن ابن عمر أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فجاء رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله من أكيس الناس وأحزم الناس؟ قال: ((أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدهم استعدادا للموت قبل نزول الموت ، أولئك هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة)).
أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص١٨/ح٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٤١٧/ح١٣٥٣٦ ، وفي معجمه الصغير ج٢/ص١٩٠/ح١٠٠٨ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٩٩٨/ح١١١٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص٣٠٨/ح٠.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) كنز العمال ٠/٠(٤٤١٠٤).

باب الفرق بين العقل والهوى

فالعقل على معنيين:

عقل مخلوق وهو عقل الحجة الذي احتج الله به على خلقه ، يكون مع العبد عندما يعرف النفع من الضر ، والخير من الشر ، وغير ذلك ، فهذا هو العقل الذي يحتج الله به على عباده ، عند تركيبه وقت بلوغه وإيجاب التكليف به ، وقد جعل الله هذا العقل متصرفا في الوجوه ، ومكن به صاحبه درك ما كُلِّف ، والحذر مما خُوِّف ، وقد فهم بعقله المضار والمنافع ، وحبب إليـــه اجتـــرار منافعها ، والهرب من مضارها ، وجعل نافعها لا يوصل إليـــه إلا بتحمـــل مؤونه وضارها [١] ، لا تنصرف عليه إلا بتكلف مشقة ، وجعل مـــع ذلـــك نافعها وإن كان مرغوبا فيه وإن كان لا ثبات له بعد حله له [٢] ، ثم نبه على دار غير داره التي خلق فيها ودعا إليها ورغب فيها ، وزجر عن التخلف عنها بدار مؤلمة مضرة لمن حلها ، وضرب له من المثل على قدر ما شاهده ، وقدَّر الأمر عنده على قدر ما طُبع عليه ، لأنه لا يصل إلا من رغـــب فيـــه ، إلا بالحمل على نفسه ، ولا ينجو مما حذره إلا بالحمل على نفسه ، ولا ينجو من كراهة ما طُبع على كراهته إلا بالحمل على بدنه ، وإنما فعل به ذلـــك كلـــه ليسهل به عليه سبيل ما دعا إليه ، وما أجرى بخلقه له ، ولتكن مسارعته إلى ذلك ، ومنافسته فيه ، على تفاضله في محبوبه ومكروهه ، لأنه قد طبع اعتقاد البعث على قدر ما يعلم من منتفع به والمهروب منه ، فيكون ذلك له أساسا يعمل عليه ، فيما رغب فيه ورهب منه ، فمن فهم عن ربه ، وعقـــل عـــن خالقه ، وتيقن حقيقة أمره ، سهل عليه مضارّة نفسه في طاعة ربه ، واستغل

---

(١) الوضر: الدرن.

(٢) العبارة غير واضحة المعنى.

كل غاية عمل فيها لخالقه ، وأسف على كل خطرة ولمحة فاتته من أجله ، وفوَّت العمل فيها لما خلق له ، فخفت عليه المكابدة ، وسكنت عنه المجاهدة ، وصار إلى درجة أهل اليقين والطمأنينة ، بما قد أيده الله به من نور حكمته ، وحرسه بما مكَّنه ، وصرف عنه كيد عدوه ، وجعل له واعظا من نفسه ، يراقب [١] به سر نجواه حال ذكره ، وخطرات عدوه ، فيكون عند ذلك كما جاء الخبر عن ابن عمر أنه قال: « لن يحب العبد حقيقة التقوى حتى يكون له واعظ من نفسه » [٢] ، والواعظ كما قال النبي صلى الله عليه في حديث وابصة بن معبد ، والنواس بن سمعان ، وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وغيرهم ، قالوا كلهم: « عن النبي صلى الله عليه أنه قال لوابصة حين سأله عن البر والإثم؟ فقال: يا وابصة استد لقلبك ، يا وابصة استعد لنفسك ، البر ما سكن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في صدرك فدعه وإن افتاك فيه المفتون » [٣]. فهذا دليل الواعظ في القلب ، وهو الذي يعرف

---

(١) في المخطوط: يواقب. لعل الصواب ما أثبت.

(٢) لم أقف عيه.

(٣) عن وابصة بن معبد الأسدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوابصة ئت تسأل عن البر والأثم قال قلت نعم قال فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال استفت نفسك استفت قلبك يا وابصة ثلاثا البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك

أخرجه مسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٨٠/ح٢٥٥٣ ، والبخاري في الأدب المفرد ١/ص١١١/ح٢٩٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٢٤/ح٣٩٧ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٩٧/ح٢٣٨٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٨٢/ح١٧٦٦٨ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٧/ح٢١٧١ ، ٢/ص١٧/ح٢١٧٢ ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ١/ص٢٢٥/ح١٧٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص١١٧/ح٧٥٣٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٩٦/ح٩٨٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٦٦/ح٥٣ ، والبيهقي في

به البر من الإثم ، فليل [١] في القلب البر ويدع الإثم وما تشابه منـــه ، كمـــا روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « لا يجد العبد طعم الإيمان حـــتى يدع الإثم وما تشابه منه » [٢] ، ومعنى « يدع الإثم » أي: يدع الحرام ، « وما تشابه » يعني: المتشابه وبعض ما أطلق له ليجعله حاجزا بينه وبين الحرام ، فإذا نزل العبد بهذه المنزلة كان ممن له واعظ من نفسه.

وكذا روي عن النعمان بن بشير ، عن النبي عليه السلام أنه قال: « حلال بَيِّن ، وحرام بَيِّن ، وشبهات بين ذلك ، فمن ترك الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، وكان لما سواه من الحرام أَترَك ، ومن يواقع [٣] الشبهات يوشك أن يواقع الحرام ، كالمرتعي حول الحمى أوشك أن يواقع الحمى ، ألا وإن لكل ملـــك حما ، ألا وحما الله في الأرض المحارم » [٤]. فأهل الوعظ للأنفس هم الـــذين

سننه الكبرى ج١٠/ص١٩٢/ح٢٠٥٧٤ ، وعبد الرزاق في مصـــنفه ج٥/ص٢١٢/ح٢٥٣٣٥ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٢٠/ح٢٥٣٣.

(١) الكلمة مهملة وغير واضحة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المخطوطتين: موافقة. مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه ((إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٢٩/ح٥٢ ، ومسلم في صـــحيحه ج٣/ص١٢٢٠/ح١٥٩٩ ، والنسائي في سننه ج٧/ص٢٤٣/ح٤٤٥٣ ، وابن حبـــان في صـــحيحه ج٢/ص٤٩٨/ح٧٢١ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٥١٢/ح١٢٠٥ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٣١٩/ح٣٩٨٤ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٢٤٣/ح٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مســـنده ج٤/ص٢٦٧/ح١٨٣٧٣ ،

يدعون الشبهات ، كما روي عن أيوب السجستاني أنهم تذكروا الورع عن ابن سيرين فقالوا: « أشد شيء علمنا تخليص الحلال من الحرام ، فجاء حسان بن أبي سيار فقال: فيما أنتم؟ فأخبروه ، فقال: لكني ليس شيء أهون علي من ذلك ، إذا حاك في صدري شيء تركته »[1]. فكان هذا ترك الشبهات ، وهو دليل الواعظ لنفسه ، والمراقب لله في معاملته ، والواهب له نفسه ، والبائع دنيا بآخرته.

والوجه الثاني من الجهاد: جهاد العدو من أهل الحرب ، والبغاة على المسلمين ، من المتبِّرين لأمورهم وأحكامهم ، فهذا فرض عليهم جميعا ، إلا أنه قام به بعضهم أجزأ عن بعض ، إذا كفى ذلك بعضهم بعضا في نفورهم ، وكان بأذن إمامهم في رباطهم وحصونهم ، وسدا إذا أطرافهم فإذا استنفروهم ففرض أن يخرجوا إليهم ، ويبذلوا أموالهم وأنفسهم ليذبوا بذلك عن حريم المسلمين ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [الأنفال:٧٢] ، وقال الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ

والطيالسي في مسنده ج١/ص١٠٧/ح٧٨٨ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٠٨/ح٩١٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٣٣٣/ح١٠٨٢٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٣٩/ح٥٢١٩ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٤٢/ح٣٢ ، وفي مسند الشاميين ج١/ص٢٩٣/ح٥١١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص١٢٨/ح١٠٢٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٦٤/ح١٠١٨٠،

وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٢١٥/ح١٦٥٣ ، وابن الجارود في المنتقى ج١/ص١٤٤/ح٥٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٤/ص٤٤٨/ح٢٢٠٠٣ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣١٩/ح٢٥٣١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٢٠٤/ح١٧٣٥.

(١) لم أقف عليه.

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:١١١] ، ثم بين من يستحق هذا الفوز والثواب العظيم وبما وصفهم به ، ليعمل كل على بينة من ربه ، ولئلا يظن من لا علم له أن كل مقاتل يستحق ذلك ، فقال عز وجل: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ...﴾ [التوبة:١١٢] الآية ، فأخبر أن هؤلاء هم المؤمنون المستحقون لكامل ما وصفهم به للموعود من ثوابه ، والجزيل من كرامته.

وقال عز وجل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ...﴾ [البقرة:٢١٦] الآية.

وقال جابر بن عبد الله ، وعبادة بن الصامت: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على ألا نفر » [١] ، قال جابر بن عبد الله ، وسلمة بن الأكوع ، وغيرهما: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على السمع والطاعة في المنشط والمكسل ، وعلى الفقه في العسر واليسر » [٢]. وقد ذم الله عز وجل أقواما

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن عبادة بن الصامت بلفظ: ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا ، لا نخاف في الله لومه لائم)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦/ص ٢٦٣٣/ح ٦٧٧٤ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٤٦٧/ح١٨٣٦ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١٣٨/ح٤١٤٩ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٤١٤/ح٤٥٤٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٩٥٧/ح٢٨٦٦ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٨١/ح٨٩٤٠ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٤٤٦/ح٩٦٠ ، والحميدي في مسنده

هموا بالتخلف وأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...﴾ [التوبة:٣٨ - ٣٩] الآية.

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه: « الجهاد ماض إلى يوم القيامة ، وآخر من يقاتل أمتي الدجال » [١] ، والجهاد الذي هو جهاد العدو فرض على المسلمين ، على حد ما وصفنا. والجهاد في مجاهدة النفس في تقوى الله ، والإخلاص له بالأعمال والتقرب إليه بها ، وطلب الزلفة لديه ، وخلاصه في تصفية [٢] عمله حتى يكون لله خالصا ، أن يحمد لله على طاعته ، ويُسر بها لا من جهة العجب بها ، ولكن من جهة ما يؤمل عند الله بها ، ولا يستر بمدح

ج١/ص١٩٢/ح٣٨٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٢١/ح٧٧٧٠ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص١٤٢/ح٢٢٥ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٦٣٥/ح٦٠١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٤٥/ح١٦٣٢٨ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٦١/ح١٧٣٣ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٦٤/ح٣٧٢٥٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٩٢/ح٢٧٧.

(١) ورد عن أنس بن مالك بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله ، ولا تكفره بذنب ، ولا تخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار)).

أخرجه أبي داود في سننه ٣/ص١٨/ح٢٥٣٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٧٢/ح١٣٠٨٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٩/ص١٥٦/ح١٨٢٦١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص٢٨٧/ح٤٣١١.

(٢) في المخطوطتين: تصفيقه. لعلها مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

الناس له عليها ، ولا يخطر بباله ذلك إلا من جهة طاعتهم لله لمدحهم بها ، إذ [١] كان الله قد أوجب عليهم أن يمدحوه ويزكوه بها ، ولا بسوء ذمهم له بها ، ولا بسوء ظنهم به فيها ، إلا من جهة معصيتهم الله فيه ، إذ كان الله قـــد زجرهم عنه ، فيكون حينئذ إنما سروره بطاعة الله في كل أحواله ، وغضبه لله في كل أحواله ، ولا يكون لنفسه في ذلك شيء ، إذ كان الذي يجب عليـــه مقيما لسوء ما يعلم منها. وكذلك إذا كان في معصيته يجب عليـــه الـــبغض لنفسه فيها ، والمحبة لكل من أبغضه من أجلها ، والبغضاء لكل من أحبه فيها ، والانقلاع عنها ، والسخط على كل من لا يزجره عنها ، وينبهه على قبيح ما كان منه في تقحمها ، بعيدا كان أو قريبا.

فإذا كان العبد كذلك كان لله في كل أمره خالصا ، إذ كان الله قد أوجـــب عليه أن يكون في كل الأمور له مؤثرا ، ولطاعته واتباع محبته راضيا ما رضيه ، وساخطا لما سخطه ، وأن لا تأخذه فيه لومة لائم في طاعتـــه ومعصـــيته ، وعلى جميع ما كان من أحواله. فإذا استعمل العبد ذلك وقام لله به ، خلص له عمله بتوفيق الله وعونه ، وهذا هو أعلا الجهادين وأشرفهما ، والذي لا يقبل الله عملا مع تضييعه ، ولا يوصل إلى مرضاته إلا برعايته وحفظه ، والاستقامة على ذلك حتى يأتيه اليقين.

والجهاد الأصغر هو الذي قال أمير المؤمنين عليه السلام: « الجهاد على أربـــع شعب: على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المـــواطن ، وشنآن الفاسقين ». وسنذكر ذلك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وإياه نسأل العصمة والتوفيق ، والبلاغ إلى أفضل طاعته ومحبته ، بمنه وقدرته وفضله ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) في المخطوطتين: إذا. ولعل الصواب ما أثبت.

باب الأمر بالمعروف

وهو أول شعب الجهاد. والأمر بالمعروف حب العبد لكل طاعة وبر وأمر بذلك ، وتعليمه لكل من علمه من المريدين ، أو سأل عنه من جميع الخلق كلهم أجمعين ، على النصح لله بذلك في عباده ، وإصلاح بلاده ، والإنارة لحججه ، والذب عن دينه ، والعبارة عن كتابه وسنة نبيه ، والنصح للرسول عليه السلام في أمته ، ولأئمة الهدى بعده من ذريته ، ولجماعة المسلمين من إخوانه ، لأن الأمر بالمعروف فرض على كل مسلم بقسطه ، وحظه من القوة والضعف ، ومبلغ العلم في الكثرة والقلة ، ومخرجه من الجهاد ، وهو فرض على كل مسلم. ومخرج الجهاد من القيام لله بأمره في كل موطن ، ومخرج القيام لله بأمره في كل موطن من النصح لله في كل حال من الأحوال ، المنشطط والمكسل.

فإذا وصل العبد إلى درجة النصح لله فقد بلغ أعلى درجات المطيعين له ، وهي درجة الأنبياء والصديقين من الأئمة من بعد ، وذلك فرض على العبد أن يناصح لله في خلقه وعباده وبلاده ، فإذا بلغ العبد درجة المناصحة فقد جُعل إماما يقتدى بهدايته ، ونورا يضيء في كل ظلام ، وشفاء من كل سقام ، وجلا لكل حيرة ، ومجليا عن كل شبهة ، ومفزعا في كل معضلة ، وكهفا في كل مُلمة ، وعمادا في كل مشكلة ، وفارقا عن كل مبهمة ، فهذه صفة أهل المناصحة لله ، الذين جعلهم أمناء في أرضه ، وسفراء إلى خلقه ، يعبرون لهم ما أظلم عليهم من نور حكمته ، ويكشفون عن حجب خفيات سره ، وما استجن به من البرهان في خلقه ، وبيَّنه في سماواته وأرضه ، وبره وبحره ، وما برى وذرأ من عجائب خلقه ، وتقديره وحكمته ، ويستنبطون على ذلك المحكم من كتابهن والمتجلي من واضح سنة رسوله صلى الله عليه وعلى أهل بيته ، والمبين البارز من أدلته ، فبهم أنقذ الله أهل العماية من عمايته ، وابناش أهل الجراءة من سكرتهم ، وهودهم في بدعهم ، فهم ورثة الأنبياء ، وزهرة

الحكماء ، ومستنبطوا العذب من الماء ، وحياة العباد ، وإنارة البلاد ، والأمناء على الدين ، والقوام بأمور المسلمين ، وهم كما روى وهب بن منبه أنه قال: « أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إنك إن استنقذت سكرانا من سكرته ، كتبك عندي جهبذا »[1] ، فهؤلاء جهابذة الدين ، والنصحاء لله في أنفسهم وفي غيرهم ، صابرين محتسبين على ما أصابهم من الأذى والمكروه في جنب الله ، كما أخبر الله عنهم وأخبر النبي عليه السلام بصفتهم وحالهم ، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ...﴾ [آل عمران:١٤٦] الآية. والربانيون: هم أصحاب الرسل عليهم السلام ، فكانوا أشد ما كانوا لله طاعة ، ووجلا وخوفا ، واستغفارا وإنابة وحذرا ، ووجلا من سالف أعمالهم ، وما تقدم من دني أفعالهم ، وقال جل ثناؤه في صفة لقمان: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾ [لقمان:١٧] الآية ، ثم أدبه بالتقوى فقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ...﴾ [لقمان:١٨ - ١٩] الآية ، فنبه أن الفاعل لما نهاه عنه يقوم في جهله وقبح ما يكون منه مقام الحمير فيما يكون منها ، فهكذا يكون حقيقة الآمر بالمعروف على الحقيقة ، إنهم أهل خشية ومنافيه[2] ، وحياء وتواضع وطاعة في السر والعلانية ، وصبروا على ما نالهم ، وأنهم ممن لا تأخذه في الله لومة لائم.

وقال تميم الداري ، وأبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولرسوله

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) الكلمة مهملة وغير واضحة.

ولكتابه ولأئمة المسلمين ولعامتهم »[١] ، فلم يبق أحد إلا وقد وجب له النصح ، لأن ذلك كله من النصح لله. وقال جابر بن عبد الله: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على السمع والطاعة ، و لم يبايعنا حتى اشترط علينا النصح لكل مسلم »[٢] ، فهذه درجة المناصحة لله في خلقه التي افترضها عليهم ، والأمر بالمعروف فرض على كل مسلم ، أن يُعلِّم الخير كل من سأله وقصد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٧٥/ح٥٥ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١٥٦/ح٤١٩٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٤٣٥/ح٤٥٧٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٢٥/ح١٩٢٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٨٦/ح٤٩٤٤ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٥١/ح٣٢٨١ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٧٠/ح٨٣٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٥٢/ح١٢٦٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٣٢/ح٧٨٢٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص١٣١/ح٩٠٧ ، وفي مسند الشاميين ج١/ص٧٥/ح٩٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٤٥/ح١٧ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٦٣/ح١٦٤٣٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٢٦١/ح٢٣٧٢ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٩٢/ح٢٦٨١ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٤٠٢/ح٢٧٥٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٤٢/ح١١٨٤.

(٢) عن جرير بن عبد الله قال: ((بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم)).
أخرجه البخاري في صحيحه ج٦/ص٢٦٣٤/ح٦٧٧٦ ، مسلم في صحيحه ج١/ص٧٥/ح٥٦ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١٤٠/ح٤١٥٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٤١٢/ح٤٥٤٦ ، والترمذي في سننه ج٤/ص١٥٠/ح١٥٩٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٩٥٨/ح٢٨٦٨ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١٣٣/ح٢٩٤٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩/ح٤٥٦٥ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٨٢/ح١٧٧٤ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٧١٩/ح٦٦٠٢ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٥٦/ح١٨٨٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٢٨٥/ح٦٤٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٢٩٩/ح٢٢٥٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٢٣/ح٧٧٧٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٧١/ح١٠٢٣١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص٢٩٥/ح٤٣٢٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٢٢/ح١٤٨١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٦/ص٦/ح٩٨٢٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٢/ح١١٤٣.

إليه ، وذلك أن الله افترضه عليهم وأخذ عليهم المواثيق به ، فقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ ...﴾ [آل عمران:١٨٧] الآيـــة ، فـــأخبر بســـوء منقلبهم بكتمانهم النصيحة ، وأوجب عليهم بذلك اللعنة والسخطة.

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « من سئل عن علـــم وهو يعلمه وكتمه جاء يوم القيامة وهو ملجم بلجام من نار »[١].

وقال أبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إنما بعثتكم معلمين ، ولم أبعثكم منفرين ، فعلموا الجاهـــل »[٢] ، قال أبو ذر رحمه الله: « مر النبي عليه السلام على المسلمين بمجلسين ، أحدهما يتعلمون العلم ويعلمونه ، والآخر يقرون القرءان ويدعون إليه ويرغبون فيه[٣]

---

(١) ورد عن عبد الله بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أيما رجل أتاه الله علما فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٢٩٨/ح٩٥ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٣٠/ح٢٦٤٩ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٩٧/ح٢٦١ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢١/ح٣٦٥٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٦٣/ح٧٥٦١ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٨٢/ح٣٤٥ ، والطيالســـي في مسنده ج١/ص٣٣٠/ح٢٥٣٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٣٣٤/ح٨٢٥١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١١٢/ح١٦٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٦٧/ح٤٣٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٤٥٩/ح٢٥٨٥ ، وأبو خيثمة في العلم ١/ص٣٣/ح١٤٢ ، وعبـــد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٣١٥/ح٢٦٤٥٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٨٢/ح٠.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المخطوط: إليه. لعل الصواب ما أثبت.

، فقال: كلا المجلسين على خير وإنما بعثت معلما ، فجلس مع الذين يعلمون العلم» [١].

وقال أبو هريرة وغيره: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « العالم والمتعلم في الأجر سواء » [٢] ، وقال جابر بن عبد الله وغيره: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « كل معروف صدقة » [٣] ، وقال عليه

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فرأى مجلسين ، أحد المجلسين يذكرون الله عز وجل ويرغبون اليه ، والاخرون يتعلمون الفقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا المجلسين على خير ، أحدهما يذكرون الله عز وجل ويرغبون اليه ، فان شاء اعطاهم ، وان شاء منعهم ، وأما هؤلاء يتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلما ، وهؤلاء أفضل فجلس معهم)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ج١/ص٨٤/ح٢٢٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩٨/ح٢٢٥١ ، والحارث / الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج١/ص١٨٦/ح٤٠ ، والدارمي في سننه ج١/ص١١٢/ح٣٤٩.

(٢) عن أبي الدرداء قال: ((معلم الخير والمتعلم في الأجر سواء ، وليس لسائر الناس بعد خير)).

أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٨٩/ح٢٧٩ ، وأبو خيثمة في العلم ١/ص١٥/ح٥١ ، والدارمي في سننه ج١/ص٩١/ح٢٤٧.

(٣) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٢٤١/ح٥٦٧٥، وفي الأدب المفرد ١/ص٨٨/ح٢٢٤ ، ومسلم في صحيحه ج٢/ص٦٩٧/ح١٠٠٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٨/ص١٧٢/ح٣٣٧٨ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٤٧/ح١٩٧٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص٣٦٠/ح١٤٩٢٠ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٥٨/ح٢٣١١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٣٦٧/ح١١٢٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٥٢٣/ح١١٧٠١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٦٠/ح٦٤ ، والدارقطني في سننه ج٣/ص٢٨/ح١٠١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٨٧/ح٨٨ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني

السلام: « ما تصدق عبد بصدقة أعظم عند الله من موعظة يعظ بها قوما فيقوم أحدهم وقد نفعه الله بها » [١] ، وقال ابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك: عن النبي عليه السلام أنه قال: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [٢] ، وقال صفوان بن مسكان المرادي: عن النبي [صلى الله عليه وآله وسلم]: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » [٣] ،

ج٤/ص١٣٨/ح٢١١٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٨٨/ح١١٢٤٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٣٧/ح٢٠٤٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٢٧/ح١٠٨٣.

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) عن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي فقال: ما جاء بك يا أصلع ، فقلت: ابتغاء العلم. فقال: لقد بلغني ((أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع)) ، فقلت: إنه حاك أو حال في نفسي المسح على الخفين ، فهل حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئا؟ قال: نعم ، كنا إذا كنا سفرا أو مسافرين أمرنا أن لا نخلع خفافنا ثلاثا إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم ، قلت: فهل حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهوى شيئا؟ قال: نعم ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا وكذا فناداه رجل في أخريات القوم بصوت له جهوري أعرابي جلف جاف ، فقال: يا محمد يا محمد ، فقال له القوم: مه فإنك قد نهيت عن هذا ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو من صوته ، فقال: هاؤم ، قال: المرء يحب القوم ولم يلحق بهم ، قال: المرء مع من أحب ، قال: فما برح يحدثني حتى حدثني أن الله عز وجل جعل بالمغرب بابا مسيرة ، عرضه سبعون عاما للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾.

أخرجه النسائي في سننه ١/ص٩٨/ح١٥٨ ، وابن حبان في صحيحه ج٣/ص٣٨٣/ح١١٠٠ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٥٤٦/ح٣٥٣٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٤٠/ح١٨١١٨ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٨١/ح٣٤١ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ص٨٢/ح٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٩٠/ح٨٨١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٥٤/ح٧٣٤٧ ،

وذلك أن طلب العلم للعمل بالعلم هو الذي يزول عنه الجهل ، فيصبح عمله بالعلم ، لأن كل عمل يعمله صاحبه بعلم وإن قلّ ، هو أكثر عند الله وأزكى من كثير العمل مع الجهل ، كما جاء الخبر: « قليل العلم مع العلم كثير ، وكثير العمل مع الجهل قليل »[1] ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر:٨] ، يقول: هذا من فعلهم هو على التصديق لهم ، والإيقان بخالقهم ، فاستوجبوا بذلك صدق موعده ، وجزيل ثوابه ، وتتابع نصره ، وعموم نعمه ، في عاجل دنياهم وآجل أخراهم ، وهؤلاء هم أهل العلم الباطن ، الذين نظروا إلى دناءة الدنيا بقلوبهم ، ورفعة الآخرة ، فلم يلفتوا إلى الدنيا فهانت في صدورهم ،

والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٩٣/ح١٣٢ ، والدارقطني في سننه ج١/ص١٩٧/ح١٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١/ص١١٤/ح٥٥٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٧٩/ح٢٥٨٧ ، والشافعي في مسنده ١/ص١٨/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج١/ص١٦٢/ح١٨٦٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ١/ص٢٠٥/ح٧٩٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١١/ح١٩.

(١) عن هشام صاحب الاستواء قال: ((قرأت في كتاب بلغني انه من كلام عيسى تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل وإنكم علماء السوء الأجر تأخذون والعمل تضيعون يوشك رب العمل ان يطلب عمله وتوشكون ان تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه الله ينهاكم عن الخطايا كما أمركم بالصلاة والصيام كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته وقد علم ان ذلك من علم الله وقدرته كيف يكون من أهل العلم من أتهم الله فيما قضى له فليس يرضى شيئا أصابه كيف يكون من أهل العلم من دنياه آثر عنده من آخرته وهو في الدنيا أفضل رغبة كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى أخرته وهو مقبل على دنياه وما يضره أشهى إليه أو قال أحب إليه مما ينفعه كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به ولا يطلبه ليعمل به)). أخرجه الدارمي في سننه ج١/ص١١٥/ح٣٦٨.

وقلّت في أعينهم ، فربحوا وأنجحوا ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة:٢٢].

فأما من خالفهم من الذين ذمهم الله من أهل العلم الظاهر ، المحجوبة قلـــوبهم عن اليقين بالآخرة إلا من جهة الإقرار والتصديق ، فمنهم كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ...﴾ [العنكبوت:١٠] الآية ، وقال النبي صـــلى الله عليه [وآله وسلم]: « أكثر منافقي أمتي قراؤها »[١] ، وهذا ميراث أعمالهم الظاهرة.

وقال عمر بن الخطاب: سمعت النبي صلى الله عليه [وآله وســـلم] يقـــول: « أخوف ما أخاف على أمتي منافقوا اللسان »[٢] ، وبه قال كعب بن عجرة ، وأبو سعيد الخدريك عن النبي عليه السلام أنه قال: « سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ولم يرد علي الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وإنه يرد على الحوض »[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ورد عن قيس بن جابر الصدفي ، عن أبيه ، عن جده ، بلفظ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((سيكون من بعدي خلفاء ، ومن بعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعـــد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلا كمـــا ملئـــت جـــورا ، ثم يـــؤمر القحطاني ، فوالذي بعثني بالحق ما هو دونه من يكنى أبا العلاء)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص٢٧/ح١١٢٢٨ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٥١٢/ح٨٤٣٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص١٣٦/ح١٠٢٢٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائـــد)

قال النعمان ، وأنس: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لان بين الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يتبع أقواما في خلافتهم لغرض من الدنيا يسير »[1] ،

٢/ص٧٨٤/ح٧٨٨ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٥١٢/ح٣٧٦٣٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٨/ص١٧٨/ح٨٣٢٥.

(١) عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته : ((ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا كل مال نحلته عبدا حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان وإن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش و لم يذكر أبو غسان في حديثه وأنفق فسننفق عليك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٨٨٩/ح٤٦٥٨ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٩١/ح٢٨٥٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٢٥/ح٦٥٣ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٤٤١/ح٣٣٤٣ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٦٣٨/ح١٩٨٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٧/ح١٦٢٦٦ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٤٦/ح١٠٧٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٣٥٩/ح٩٨٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٦/ح٨٠٧٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٣٠٥/ح١٤٥٥٧ ، والدارمي في سننه ج٢/ص١٩٨/ح٢٢٢٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص٢٠٦/ح٢٩٣٣.

قال الحسن: « قد والله رأيتهم فراش نار ، وذياب طمع ، يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين ، يبيع أحدهم دينه شراء العبيد »[١].

وقال ابن مسعود: « يدخل أحدهم على الرجل ومعه دينه ويخرج من عنده وما معه من دينه لا قليل ولا كثير »[٢] ، فهذه صفة أهل العلم الظاهر ، الذين نظروا بظاهر أبصارهم إلى ظاهر الدنيا ، وحجبوا قلوبهم عن أمور الآخرة الباطنة ، وتركوا أمر الله من أجلهم فيهم.

وأما أهل المعرفة بالله واليقين به ، والفَهمون عنه ، فهم القائلون لله بالصدق في مواطن المحن ، وهم الذين يؤثرون أمر الله على كل حال ، من شدة أو رخاء ، أو عافية أو بلاء ، لا تأخذهم فيه لومة لائم ، كما قال أبو ذر رحمة الله عليه: « إني لأرجو أن لا تأخذني في الله لومة لائم »[٣] ، وقال الله سبحانه: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال جابر بن عبد الله: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] بيعة العقبة ، وقلنا: يا نبي الله على ما نبايعك؟ فقال: على السمع والطاعة في المنشط والمكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وأن تمنعوني إذا قدمتُ عليكم بما تمنعون منه أنفسكم وأهاليكم ، ولكم الجنة. فقام سعيد بن زرارة فقال: يا معشر الأنصار كفوا أيديكم ، فإنا والله لم نضرب إليه من يثرب إلا ونحن نعلم أنه رسول الله حقا،وإن إخراجه اليوم قبل إخراجكم ، ومفارقة العرب كافة ، وإن كنتم على عض السيوف إذا أخذلكم وقتل أخياركم ،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وفارقتكم العرب كافة ، فخذوه على ذلك ، وإن كنتم تخافون من أنفسكم خيفة فدعوه فهو عذر لكم عند الله ، فقالوا: امض عنا يا سعيد بن زرارة ، فوالله لا نستقيل هذه البيعة ولا نقيلها أبدا ، فقاموا إليه رجل رجل فبايعوه ويعطيهم على ذلك الجنة » [١].

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، ((أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من مني من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة فلا يجد أحدا ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له أحذر غلام قريش لا يفتننك ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فواعدنا بيعة العقبة فقال له عمه العباس يا بن أخي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك أني ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلما نظر العباس في وجوهنا قال هؤلاء قوم لا نعرفهم هؤلاء أحداث فقلنا يا رسول الله على ما نبايعك قال تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومه لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين إلا أنه قال رويدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضكم السيف فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل فقالوا يا أسعد إمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها قال فقمنا إليه رجلا رجلا فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة)).

وقال عبادة بن الصامت لأبي هريرة في قصة معاوية حين كلمه أبو هريرة: « يأُخي ما شأن معاوية يشكوك فدعه وما يقول! فقال عبادة بن الصامت: اسكت لم يكن معنا حين بايعنا رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] بيعة العقبة على أن نقول في الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم » [١] ، فذكر عبادة نحو حديث جابر بن عبد الله.

فمن كان من أهل القيام له بالصدق في مواطن المحن والشدة ، كانت هذه صفته و لم يخف غير الله ، وكيف يخاف غيره ويقوم مقامه عنده أهيب من مقام ربه؟! مع فهمه عن الله قوله: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١٣] ، فأضاف بكامل [٢] الخشية له جل ثناؤه دون غيره إلى الإيمان به واليقين بواجب حقه ، وأنه لا أحد أحق بالخشية منه تعالى وعز ، وكان أيضا كما قال بعضهم: « إنا لنستحيي من الله أن نخاف شيئا سواه » [٣] ، قال أبو ذر رحمة الله عليه: « بما تهددني قريش هل هو إلا القتل فوالله للموت أحب إلي من الحياة ، ولبطن الأرض أحب إلي من ظهرها ، وللفقراء أحب إلي من الغنى ، فبما تهددني قريش؟! » [٤] ، فإذا قام العبد بدرجة الصدق في المواطن كان على معنيين:

إما أن يصدق في المواطن فيرجع بأفضل الجهاد والسلامة.

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٤/ص١٧٥/ح٦٢٧٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١٥١/ح١٢٥٥١ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٦٨٢/ح٤٢٥١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٤٦/ح١٦٣٣٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٢٦٩/ح٣٥٧٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) الكلمة غير واضحة المعنى.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

وإما أن يصدق في المواطن فيحكم الله بأفضل الجهاد والشهادة.

وقال الحسن: « يجزي من العمل مع العلم مثل ما يجزي الطعام من الملح »[(١)] ، وروي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله: « أنتم اليوم في زمان العمل ، وسيأتي على الناس زمان يكون العمل فيه خيرا يفتح من العلم ، وإن زحف العالم في علمه زحفا »[(٢)] ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:٧] ، ثم بين أهل العلم منهم فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ، فهم أهل الخشية والمراقبة ، والحياء والسكينة ، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح:٢٦]. فقاموا بعلمهم ، وبما حكم به لهم وعليهم في أرض الله تعالى ، وأدوا إلى عباده الأمر من عنده ، فهم النصحاء القائمون بقسطه في عباده وبلاده ، كما أمرهم الله في كتابه ، وأوجب عليهم في سنة نبيه ، وهم الأئمة الهداة بعده من عترته ، وأتباعهم من أهل ولايته ، فهذا الأمر بالمعروف الذي افترضه الله على المؤمنين ، من حب كل طاعة وبر وفعلهما ، فذلك التعاون على البر والتقوى ، الذي ندب الله إليه عباده بقوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ... ﴾ [المائدة:٢] الآية ، وهو التعلم للخير والتعليم له.

وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... ﴾ [آل عمران:١١٠] الآية ، فلم يوجب لهم الرحمة مع

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

الأمر والنهي إلا باجتماع الطاعة بكمالها ، لأنه قد يكون آمر وناهي غير مؤتمر ولا منتهي ، كما أنبأنا في كتابه قصة من كانت هذه صفته ، فقال: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ...﴾ [البقرة:٤٤] الآية ، وقال تعالى يمدح آخرين ويثني عليهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ...﴾ [النحل:٩٠] الآية ، وقال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ...﴾ [الأنعام:١٥٢] الآية.

والوفاء بعهد الله فرض واجب ، وكذلك التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الأمر بكل طاعة والدعاء إليها بأحسن القول وأعدله ، كما قال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ﴾ [الأنعام:١٥٢] ، وكذلك التعلم لكل بر والتعليم له ، كما قال النبي عليه السلام في حديث أبي ذر قال: « يا رسول الله أخبرني بالإيمان؟ فتلا النبي عليه السلام: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ ...﴾ [البقرة:١٧٧] إلى آخرها ، وقال: يا رسول الله أقلل لي. فقال عليه السلام: المؤمن الذي تسره حسنته وتسوءه سيئته ، فهو مؤمن »[1]. وقد فسرنا معنى السرور بالحسنة وبيناه آنفا.

قال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه السلام: « مثل الإيمان من المؤمن مثل الرأس من الجسد ، يألم الرأس فيألم له الجسد »[2] ، وقال النبي عليه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن بشير بن سعد بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((منزلة المؤمن من المؤمن منزلة الرأس من الجسد ، متى ما اشتكى الجسد اشتكى له الرأس ، ومتى ما اشتكى الرأس اشتكى سائر الجسد)). أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٢/ص٤٠/ح١٢٢٣.

السلام: « مثل المؤمنين بعضهم من بعض مثل البنيان يشد بعضه بعضا »[(١)].
وقال النعمان بن بشير ، وأبو هريرة: عن النبي عليه السلام: « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد ، إذا اشتكى شيء منه تداعا سائره بالحمى والسهر »[(٢)].

فهذه صفات أهل النصح لله في خلقه ، الذين يؤدبونهم بالمعروف ، ويعلمونهم ما افترض الله عليهم من العلم ، بالشفقة والرحمة عليهم ، مع خفض الجناح لهم ، وبذل المعروف والإحسان إليهم ، والتواضع لهم ، واحتمال جهلهم ، والصبر على تعليمهم ، محتسبين بذلك القربة من الله ، فإذا كانوا كذلك شدوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص١٨٢/ح٤٦٧ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٩٩/ح٢٥٨٥ ، والنسائي في سننه ج٥/ص٨٠/ح٢٥٦٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٤٦٨/ح٢٣١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٢٥/ح١٩٢٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٤٠٥/ح١٩٦٤٠ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣١٣/ح٧٧٤٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٦٨/ح٥٠٣ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٤٠/ح٧٧٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٤١/ح٢٣٤١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١١٢/ح١٣٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٩٤/ح١١٢٩١ ، وأبو يعلى في مسنده ج١٣/ص٢٨٠/ح٧٢٩٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٩٦/ح٥٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٢٣٩/ح٥٦٦٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠٠٠/ح٢٥٨٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٤٧٠/ح٢٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٦٨/ح١٨٣٨١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٠٧/ح٧٩٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٠٩/ح٩١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٣١/ح٥٧٤٣ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٢٣٥/ح٣٨٢ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٢٩٤/ح٥١٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٨٣/ح١٣٦٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٥٣/ح٦٢٢٣ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٠٢/ح٦٠٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٩/ح٣٤٤١٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص٦٩/ح٤٦٩٦.

ظهورهم ، وأعانوهم على أداء فرائضهم ، وجعلوا لهم السبيل إلى رضوان ربهم ، ودلوهم على منهاج نبيهم عليه السلام ، وذلك كله من النصح له ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ». وقد فسرنا[ه] والحمد لله ، وإياه نسأل التوفيق ، وبالله نستعين ، وسنفسر باب النهي عن المنكر ولا قوة إلا بالله.

باب النهي عن المنكر

وهو الكلام عن الشعبة الثانية من الجهاد ، والنهي عن المنكر هو بغض العبد لكل معصية ، ونهيه عن كل إثم ، وذلك فرض على جميع المسلمين أن يمنعوا المعاصي وأهلها وينهوا عنها ، بطاقتهم وجهادهم ، لأن الله أبغضها ونهى عنها ، فمن وافق الله في محبته في بغض المعاصي وأهلها ، ونهى عنها وغضب على أهلها بغضب الله عليهم ، فقد أدى ما يجب عليه في كراهة ما كره الله ، وبقدر معرفة العبد بما يجب لله على خلقه ، وعظيم ما ارتكبوا من معصيته ، يكون نهيه عن المنكر ، وإذا علت درجة العبد ورسخ يقينه كان أشد إنكارا للمعاصي وما أشبهها ، وإذا ضعفت معرفته ضعف نكرانه على قدره ، والإنكار على قدر ضعف العبد وقوته ، وعلى قدر علمه وبصيرته ، وعلى قدر إجلال الله في قلبه وكبره.

فالنهي فرض على كل مسلم على قدر طاقته [1] ، واتساع علمه ، ورسوخ بصيرته في نفسه وغيره ، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية ، فقرن الأمر والنهي في الإيمان بالله تأكيدا لفرضه ، وقال تعالى فيما حكى عن

---

(١) في المخطوط: طاعته. ولعل الصواب ما أثبت.

لقمان عليه السلام ليجعله قدوة: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان:١٧] ، وقال: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة:٦٣] ، وقال عز وجل: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة:٧٩] ، وقال: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [هود:١١٦] ، وقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة:٧٨ - ٧٩]. فهذا [1] ذكر النهي عن المنكر في الكتاب وما افترضه الله عليهم ، وأُمروا أن يأخذوا ما آتاهم به الرسول عليه السلام وينتهوا عما نهاهم عنه ، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ...﴾ [الحشر:٧] الآية ، فالفرض على جميع المسلمين النهي عن المنكر والبغض لأهلها ، والفرض عليهم على قدر ضعفهم وقوتهم ، وعلمهم ونقصهم ، وهم على ثلاثة أوجه الناس فيها على طبقات ثلاث:

فأول الوجوه وهو أعلاها وأشرفها عند الله قدرا ، هي درجة المقربين من خلقه وأنبيائه وأصفيائه ، وأئمة دينه من أهل صفته ، وهو النهي عن المنكر

---

(١) في المخطوط: فهذه. ولعل الصواب ما أثبت.

باليد والغضب لله عند انتهاك محارمه ، كما يغضب النمر عند فريسه [١] ، فإن النمر إذا غضب لم يبال قلَّ الناس أم كثروا.

ويروى أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن: « كن محاربـــا كالنمر ، وكن سريعا كالنسر ، وكن ضعيفا كالصبي » [٢] ، يقـــول: كـــن جَرِيًّا كالنمر على أهل معصيتي ، وكن سريعا كالنسر أي: أجهـــض [٣] في طاعتي ، وكن ضعيفا كالصبي أي: اخفض جناحك للمؤمنين ، فلم يرض الله من أهل الصدق إلا بالقيام بأعلا درجات النهي والغضب عند انتهاك محارمه ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ... ﴾ [المائدة:٥٤] الآية ، وقال تعالى في صفة هـــود عليـــه الســـلام: ﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ...﴾ [هود:٥٥ - ٥٦] الآية. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: كـــان الـــنبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إذا غضب لله يتطاير من حوله كما يتطـــاير الوبر عن ظهر البعير ، حتى يسكن من شدة غضبه لله » [٤]. وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله: « المعروف باليد ، فباللسان ، فمن لم يستطع باللسان فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان » [٥] ، وإنما عنى بالمعروف:

---

(١) الفريس: الفريسة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أجهض: أعجل.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مـــن رأى منكـــرا فغيره بيده فقد برئ ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه فقد برئ ومن لم يستطع أن يغـــيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برئ وذلك أضعف الإيمان)).

تغيير المنكر ، لأن تغيير المنكر هو المعروف يأمر به ، فقد ينصرف على نهي المنكر ، وعلى الإزدياد في المعروف والترغيب فيه ، كل ذلك في اللغة جايز.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « المعروف باليد فإن لم يستطع باليد فباللسان ، فإن لم يستطع باللسان فبالقلب وذلك أضعف الإيمان ، وإذا صار العبد إلى ترك تغيير القلب نُكسَ القلب فجعل أعلاه أسفله ، فحينئذ لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا » [(١)] ، فقد فسره علي بن أبي طالب على ما ذكره النبي عليهما السلام ثلاثة وجوه:

فأعلاها درجة اليد وهي التي وصفنا من فعل النبي عليه السلام والأئمة من عترته ، الذين لم يرض لهم بالتقصير في أمره ، وقد ذَكَرَ أهل التقصير عن أمره فذمهم بما كان من تقصيرهم وأنزل بهم عقوبته.

وقال ابن مسعود: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لما وقع النقص في بني إسرائيل ، كان الرجل يرى أخاه على الفاحشة فلا ينهاه عنها ، ثم لا يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، وأنزل فيهم قرءانا ، وليجعلهم معتبرا لمن بعدهم ، وتحذيرا لمن فَهِمَ عن الله خبرهم ، فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ

أخرجه النسائي في سننه ٨/ص١١٢/ح٥٠٠٨ ، ٨/ص١١٢/ح٥٠٠٩ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٣/ح٤٣٤٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩٢/ح٢١٩٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٥٣٢/ح١١٧٣٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٩٧/ح٥٩٩٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٤١٤/ح١٢٠٣.

(١) ورد عن علي بلفظ: ((إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم ، فأي قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر نكس ، فجعل أعلاه أسفله)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص٣٨٦/ح٢٣٣٢٨ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٥١٤/ح٨٤٤٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩٠/ح١٩٩٦٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٧٤/ح٣٧٣٤٣.

لِسَـانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ... إلى قولـــه: كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [المائـــدة:٧٨ - ٨٠].

وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال: كلا والله لتأخذوا على يدي الظالم ، وتأطروهم على الحق أطرا »[1] ، يعني: تجاهدوهم عليه جهادا ، فقد ذم الله القوم مع إنكارهم علـــيهم ، ولم يـــرض الإنكار منهم إلا بالمباينة لهم ، فلما خالطوهم عاقبهم كما أخبر به في كتابه.

وقال عكرمة: أخذ المصحف ابن عباس فقرأ هذه السورة يعني: الأعـــراف ، فلما بلغ قصة اليهود: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ... ﴾ [الأعراف:١٦٣] الآية ، فقال ابن عباس: يا عكرمـــة هذه قرية بحاضر البحر يقال [لها]: أيلة ، كان فيها قوم من اليهود حـــرم الله عليهم صيد السبت ، فكان السمك إذا كان يوم السبت يجيء شرعا حتى يقع في آنيتهم وبيوتهم ، وإن كان غير السبت تحجب في البحر ، فـــلا يقـــدرون

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله: ((إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص ، جعل الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ما رأى منه ، أن يكون خليطه وأكيله وشريبه ، فضرب الله على قلوب بعضهم على بعض ، ونزل فيه القرآن ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ... الآية إلى قوله: كثيرا منهم فاسقون ﴾ ، ثم قال رسول الله: كلا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطرا)).

أخرجه الترمذي في سننه ج٥/ص٢٥٣/ح٣٠٤٨ ، وابن ماجه في ســـننه ج٢/ص١٣٢٨/ح٤٠٠٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٢/ح٤٣٣٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩٣/ح١٩٩٨٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج١/ص١٦٦/ح٥١٩.

عليها إلا بمشقة ، وقال طائفة: لو حفرنا لها الحفائر يوم الجمعة ، فإذا كان يوم السبت وقعت في الحفائر ونأخذها يوم الأحد ، ففعلوا فأثروا وكثرت أموالهم ، فحين علم بهم قومهم قالوا: يا قوم اتقوا الله ولا تستحلوا صيد السمك ، فأبوا أن يقبلوا منهم فافترقوا ثلاث فرق منهم:

فمنهم من استحل صيد السمك السبت.

ومنهم من نهاهم و لم يغير لهم وأقام معهم.

والفرقة الثالث نهت واعتزلت ، وقالوا: والله لا نناكحكم ولا نواكلكم ولا نسايركم حتى تتوبوا ، فإنا نخشى أن يترل بكم العذاب فيصيبنا معكم ، وخرجوا من قريتهم ، فقالت الفرقة التي نهت وأقامت: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٤] ، وقالوا: إما أن تتقوا وتتوبوا فيكتب لنا ثوابهم ، وإما أن يترل بهم العذاب فلا يصيبنا معهم. وقرأ ابن عباس حتى بلغ هذا الموضع: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٥ - ١٦٦] ، قال ابن عباس: فكان أهل القرية الذين استحلوا صيد السبت يصبحون على خمورهم ولهوهم ولهم ضجة في القرية ، فلما أراد الله بهم العقاب أصبحوا ذات يوم وليس لهم صوت يسمع ولا حركة ، فقال بعضهم لبعض: لعل القوم أصبحوا على خمورهم ولهووهم فناموا ، فلما تعالى النهار و لم يسمعوا لهم صوتان قال بعضهم لبعض: يا إخواننا إنا نخاف أن يكون قد نزل بهم العذاب ، فأصعدوا رجلا من فوق السور ، وكانت الأبواب مغلقة عليهم فلما أشرف عليهم نادى بأعلا صوته: يا إخوتاه هؤلاء إخوانكم قردة لها أذناب تعاووا ،

وثم نزل ففتح عليهم الباب فدخلوا عليهم فكان القرد يجيء إلى قرائبه وابـــن عمه ، والقردة تجيء إلى قرائبها وابن عمها فلا يعرفه أنه الرجل حتى يجـــيء ويحرك ذنبه ، فيقول له الرجل: من أنت؟ فلان؟ فيقول: برأسه ، أي: نعم ، ثم بسط يده ويقول: ذلك بما كسبت يدك وتدمع عيناه ، فلما بلغ ابن عباس هذا الموضع بكى حتى علا بكاوءه ، ثم قال: والله ما سمعت الله ذكر أنه نجـــا إلا الفرقة التي نهت واعتزلت ، ولقد أهلك الفريقين جميعا التي غضبتن والتي نهت وأقامت معهم ، ثم تلا ابن عباس ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ... ﴾ [الأعراف:١٦٥] الآية ، فلم يرض الله عز وجل من أهل العلم والقيام له بالتقصير إلا بحقائق التعبير ، وهو النهي لهم والعزلة عنهم والمباينة لهم في أفعالهم وأقوالهم ومستقرهم ومقامهم.

وقال أبو ذر رحمة الله عليه: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآيـــة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « أيما قوم عُمل بينهم بالمعاصي فلم يأخذوا على يدي الظالم إلا عمهم الله على بعقاب مـــن عنده »[1] ، وقال المعرور بن أسود: عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليـــه

---

(١) ورد عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، بلفظ: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما مـــن قـــوم يعمل بين أظهر هم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع ، لم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعقاب)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٥٣٧/ح٣٠٠ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٢٩/ح٤٠٠٩ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٣/ح٤٣٣٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٣٦١/ح١٩٢١٥ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٩٢/ح٦٦٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٣٣١/ح٢٣٧٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٢٧٩/ح١٣٣٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائـــد) ج٢/ص٧٦٥/ح٧٦٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩١/ح١٩٩٧٨ ، وأبـــو يعلـــى في مسنده ج١٣/ص٤٩٨/ح٧٥٠٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص٢٤١/ح٠.

[وآله وسلم] قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « إذا ظهرت المعاصي عمهم الله من عنده بعقاب . قالت: قلت: يا رسول الله وهل على وجه الأرض يومئذ من الصالحين أحد؟! قال: نعم ، قلت: فما بال أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب القوم ثم يصيرون إلى رحمة من الله ورضوان »[١].

وقال ابن مسعود: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أيما قوم عمل بينهم بالمعاصي هم أعز وأمنع لم يأخذوا على يدي الظالم إلا عمهم الله من عنده بعقاب »[٢]. وقالت زينب ابنة جحش زوج النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « انتبه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] من نومه محمرا وجهه ، فقال: ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوح مثل هذه وأشار إلى إصبعه وحلق عشرا ، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم ، إذا كثر الخبث »[٣].

---

(١) أخرجه ابن حنبل في مسنده ٦/ص٣٠٤/ح٢٦٦٣٨ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٢٩/ح٢٦٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٣/ص٣٢٦/ح٧٤٧ ، وابن راهويه في مسنده ج٢/ص٥٢٨/ح١١٠٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) عن زينب بنت جحش قالت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ، قال: نعم ، إذا كثر الخبث)).

أخرجه أبي داود في سننه ٤/ص٩٧/ح٤٢٤٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٩١/ح٩٠٦٣ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٤٨٦/ح٨٣٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٤/ص٥١/ح١٣٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٩٧/ح٢٩٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٠٦/ح١٣٩٧.

وقال جابر بن عبد الله ، وبريدة الأسلمي ، أنه قال لما قدم جعفـــر بـــن أبي طالب من الحبشة رضي الله عنه قال له عليه السلام: « ما أعجب شيء رأيته بأرض الحبشة؟ قال: يا رسول الله رأيت امرأة على رأسها مكتل من طعام ، فمر بها فارس يركض فدفعها فأذراه من رأسها فقعدت تجمعه وهي تقـــول: ويل لك بأي عذر تلقى الله يوم يضع كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم. فقال النبي [صلى الله عليه وآله وسلم]: لا قدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها الحق والضعيف غير متعتع »[١].

وقال مالك بن دينار: « كان حبر من بني إسرائيل يعظ كل جمعة ، فتجتمـــع إليه الرجال والنساء ، وأناله ذات يوم يفجر بامرأة من النساء ، فقال: يا بـــني مهلا جهلا ، فسقط من سريره ، واندق نخماعه ، يعني: قوته ، وأســـقطت امرأته وكانت حاملا ، وقتل ولده وكانوا في الجيش ، ثم أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: قل لفلان الحبر ما كان غضبك لي إلا أن قلت: يا بني مهلا مهلا ، لا أخرجت من صلبك خيرا أبدا »[٢].

وقال مالك أيضا: « رأيت في بعض الكتب مكتوبا: من كان له جار يعمـــل بالمعاصي فلم ينهه فهو شريكه. قال: وأوحى الله إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك مائة ألف ، ستين ألفا من صالحيهم وأربعين ألفا مـــن طـــالحيهم. فقال: يا رب هذا مهلك الطالحين ، فما بال الصالحين؟! قال: إنهـــم كـــانوا يرونهم على المعاصي فلا ينكرون ذلك عليهم »[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في مســـتدركه ٣/ص٢٣٤/ح٤٩٤١ ، وابـــن حنبـــل في فضـــائل الصـــحابة ٢/ص٨٩١/ح١٦٩٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٩٥/ح١١٢٩٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص٢٥٢/ح٥٢٣٤.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وقال وهب بن منبه: « أوحى الله إلى جبريل عليه السلام أن ائت قرية كذا وكذا فاخسف بهم ، فضجت الملائكة وقالت: يا رب فيهم عبدك فلان - وليس هذا القول من الملائكة بسخط لقضاء الله ، ولكن أرادوا بذلك الخبر عن الله ، وهو مثل قوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] - فلما ضجت الملائكة وقالوا ما قالوا ، أوحى الله إلى جبريل: أن أسمعني صيحة أولهم فإنه لم يتغير وجهه غضبا لمحارمي »[1] ، والأخبار في ذلك تكثر. فهذا أحد الوجوه قد فسرناه.

والوجه الثاني من الإنكار هو: الإنكار باللسان لمن لا يبلغ بأهل هذه الدرجة ، وهو فرض عليه أن يعين أهل هذه الدرجة من أبناء الرسول ، وأن يغضب لهم ويرد عنهم ما قيل فيهم من البهت والزور من غير ذلك ، ولا يرضى بأن يُغتابوا ولا يُطعن عليهم لله ، [إذ] كانوا قوامين لله بالقسط في عباده وبلاده ، وقد رفع الله قدرهم ودرجاتهم عنده ، بالقيام منهم بأمره ، فمن ذلك ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾ [النساء:١٣٥] الآية ، وقال تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج:٣٠] حقا لله غير مشركين به.

وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي عليه السلام: « فمن لم يستطع باليد فباللسان »[2] ، وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « حق المسلم على أخيه المسلم خمس ، إحداهن حفظه إذا غاب - يعني: يرد عنه الغيبة - والأربع: يعوده إذا مرض.، ويشهد جنازته إذا مات ، ويشمته إذا

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

عطس ، ويجيبه إذا دعاه »[١] ، وقال عكاشة بن محصن: عن أم ســلمة زوج النبي عليه السلام قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « ســيكون بعدي أمراء يعرفون وينكرون ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم »[٢].

وروى محمد بن حميد الرازي ، عن جرير بن عبد الحميد ، عــن ســليمان الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] قال: « استقيموا لقريش ما استقاموا ، فإذا لم يستقيموا لكــم

---

(١) ورد عن أبي هريرة بلفظ: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حق المسلم على المسلم أن يسلم عليه إذا لقيه ، ويشمته أو يسمته إذا عطس ، ويجيبه إذا دعاه ، ويعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات ، وينصح له إذا غاب)).

أخرجه البخــاري في صــحيحه ج١/ص٤١٨/ح١١٨٣ ، وفي الأدب المفــرد ١/ص٦٧/ح١٥٧ ، ١/ص٣١٩/ح٩٢٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٧٠٥/ح٢١٦٢ ، وابن حبان في صــحيحه ج١/ص٤٧٧/ح٢٤١ ، والترمذي في ســننه ج٥/ص٨٠/ح٢٧٣٦ ، وابــن ماجــه في ســننه ج١/ص٤٦١/ح١٤٣٣ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣٠٧/ح٥٠٣٠ ، وابن حنبل في مســنده ج١/ص٨٩/ح٦٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٥٠١/ح١٢٩٢ ، والطيالسي في مســنده ج١/ص٣٠٣/ح٢٢٩٩ ، والطبراني في معجمه الكــبير ج٩/ص٣٥٢/ح٩٧٤٨ ، والنســائي في سننه الكبرى ج٦/ص٦٤/ح١٠٠٤٩ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٣٣٨/ح٣٢٨ ، والحارث الهيثمــي في مســنده (الزوائــد) ج٢/ص٨٥٧/ح٩١٠ ، والبيهقــي في ســننه الكــبرى ج٣/ص٢٢٣/ح٥٦٣٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص٣٤٢/ح٤٣٥ ، وابن الجارود في المنتقــى ١/ص١٣٨/ح٥٢٥ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٥٧/ح٢٦٣٣.

(٢) لم أقف عليه.

فضعوا أسياقكم على عواتقكم فأبيدوا خضرائهم ، وإن لم تفعلوا فكونوا حراثين وزراعين أشقياء ، تتبعون أذناب البقر »[١].

حدثني أبو عمر ، وعثمان ، عن عمر ، عن أبي محمد ، عن الحسن ، عن ابن حميد ، وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله: « أفضل الشهادة عند الله رجل تكلم بكلمة عدل عند سلطان جائر فقتل عليها »[٢].

وقال أبو إمامة الباهلي: « قام رجل عند الجمرة الأولى فقال: يا رسول الله أخبرنا بأفضل الجهاد؟ فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] شيئا ، ثم قام عند الجمرة الثانية فقال مثلها ، فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] شيئا ، فلما كان عند جمرة العقبة وضع النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] رجله في المغرز غرز الركاب ، ثم قال: أين السائل؟ قال: ها أنا ذا يا رسول الله ، قال النبي عليه السلام: أفضل الجهاد عند الله كلمة عدل عند

---

(١) ورد عن ثوبان بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يفعلوا فضعوا سيوفكم على أعناقكم فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا حراثين أشقياء ، تأكلوا كد أيديكم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص٢٧٧/ح٢٢٤٤٢ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٣٤/ح٢٠١ ، وفي معجمه الأوسط ج ٨/ص١٥/ح٧٨١٥.

(٢) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٤٧١/ح٢١٧٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٣٠/ح٤٠١١ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٤/ح٤٣٤٤ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٠٨/ح١٥١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص١٨١/ح١١٤١.

سلطان جائر »[١]. وقال أبو ذ رحمة الله عليه: « تركني الحق ومالي من صديق »[٢].

والوجه الثالث من الإنكار هو إنكار القلب ، وهو دون الوجوه عند الله ، لأنه أضعف الإيمان وهو فرض على أهله ، فمن لم ينكر المعصية بقلبه عند مـــن لا حيلة له في غير ذلك ، لم يؤد فرض الله في الإيمان شيئا[٣] ، لأن أضعف الإيمان الإنكار بالقلب ، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « وذلك أضعف الإيمان ، فإن عدم إنكار القلب نكس القلب وجعل أعلاه أسفله ، فحينئذ لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ».

قال أبو سعيد الخدري: عن النبي عليه السلام: « فمن لم يســـتطع باللســـان فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان »[٤] ، وإنما جعل الله تبارك وتعـــالى ذلـــك للضعفاء من الخلق ، الذين قـــال الله فـــيهم: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٩٨] ، وبقولـــه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَـآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ... ﴾ [التوبة:٩١] الآية ، فلم يرخص الإنكار بالقلب وحده دون النصيحة.

وقال ابن مسعود: سمعت من النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] حـــديثا مـــا يسرني به حمر النعم ، سمعته يقول: « بحسب امرئ رأى منكرا لا يستطيع لـــه غير أن يعلمه الله من قلبه أنه له كاره »[٥]. فهذا مـــا يكـــون في الإنكـــار للمعصية أن ينكرها بالقلب ، إذا كان ضعيفا لا يقدر على غيره وهو أضعف

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) كذا في المخطوطتين ، و لم يتضح المعنى المراد.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج١٠/ص٢٢٣/ح١٠٥٤١.

الإيمان ، وإن أراد المعصية فهو شريك العاصين ، فقد فسرنا آيات النهي عن المنكر من جميع الوجوه ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق» لأن المنكر من أعمال المنافقين ، قال الله جل ثناؤه: و ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧] ، يقول: تركوا أمر الله فتركهمن فمن غضب للمنكَر وأهله فهو من حزب الشيطان. وقد قال الله عز وجل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة:١٩].

باب الصدق في المواطن

وهو الشعبة الثالثة من الجهاد.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن صدق في المواطن قضى ما عليه » ، وذلك أن الصدق في المواطن هو القيام لله بالحق في كل موطن من المواطن التي افترضها على المؤمنين ، أن يؤثروا الصدق على الكذب ، وخوف الله على خوف المخلوقين ، وذلك أن العبد إذا لزمه الكلام فيما يتكلم به ، فرض عليه أن يصدق ويحرم عليه الكذب ، ويخرج الصدق في المواطن مخرج الحق إذا لزمك الكلام أن تقول بالحق حيث كنت ، وتؤثر الصدق على الكذب ، ولا تخافن في الله لومة لائم. فهذه درجة القيام لله بقسطه في شدة المحن ، فمن قام لله بذلك أورثه درجة الرهبة ، والتعظيم له والإجلال لمقامه والحياء ، وذلك أن أهل الرغبة والتعظيم له نظروا إلى عظمة الله بباطن قلوبهم ، وإلى أمره لهم بالقيام له ، وأنه يملك من ضرهم ونفعهم ما لا يملكه غيره ، وأنه القادر على صرف الأسواء عنهم ، والحائل بينهم وبين شر عدوهم ، فيسهل عليهم أمر المخلوقين عند ذلك ، وعلموا أنه جل ذكره إن خلا بينهم وبين أعدائهم فإنما

فعل ذلك بالنظر منه لهم ، وليعرضهم الصبر على ما أصابهم ، ليستكملوا أبواب المطيعين في السراء والضراء والشدة والرخاء ، فثبتت عزائمهم وصح يقينهم ، وشروا لله عند ذلك أنفسهم ، فصغر عندهم جميع الخلق ، إذ علموا أن الله ناصرهم ومؤيدهم ، كما ضمن لهم بقوله: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧] ، فنهوا له عن كل معصية ، وتجرعوا فيه كل غصة ، وخاضوا فيه كل غمرة ، ولم يرهبوا عند ذلك مخلوقا ، ولم يقعدهم عن القيام بواجب حق الله كثرة عدو ، ولا استحفال[1] جمع ، ولا تعاظم جبروته [2]. فهذه صفة القائمين لله بحقه ، من العالمين بباطن حكمته ، وعظيم جبروته.

وأما أهل العلم الظاهر فإنهم ينظرون بظاهر أبصارهم إلى ظاهر أهل الدنيا ، وليس معهم معرفة الباطن من عظيم جلال الله وواجب حقه ، ولذلك عظم عندهم شأن أهل الدنيا ، وما رأوا من سلطانهم وظاهر سلاحهم وكثرة جمعهم ، فيقع الظاهر من النظر على الظاهر من الدنيا فيدخله رهبة ، لضعف علم باطنه ويقينه ، فينتج له ذنب التقصير في أمر ربه ، والتفريط فيه لخوف سطوة خلقه ، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ... ﴾ [الحج:١١] الآية ، فهذه صفة أهل الضعف والغفلة من علم أهل الظاهر ، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧] ، وعن أنهم غفلوا مما أعد لهم من الثواب على صبرهم

---

(١) في (أ) و(ب): استحفا. مهملة ، والاستحفال: الاحتشاد.

(٢) في المخطوطات: حيرته. إلا أنه ظنن في (ج) بما أثبت. وهو الصواب.

عما نزل بهم من المخلوقين في جنب طاعته ، وما توعدهم [١] به من العقاب عن تقصيرهم في أمره ، و لم يعلموا إلا ظاهر ما شاهدوه بحواسهم ، وقد مدح الله عز وجل أهل الباطن بالقيام لله بحقه ، وذم أهل العلم الظاهر بالتقصير في أمره ، والقعود في واجب حقه ، فأما مدح أهل العلم الباطن فقد ذكره بقوله: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ...﴾ [العنكبوت:١-٣] الآية ، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ...﴾ [آل عمران:١٧٣] الآية ، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١] ، وقال: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ، وقال: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ ... ﴾ [البقرة:٢١٤] الآية ، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ ﴾ [طه:٤٠] ، قال: اختبرناك اختبارا ، وقال ابن عباس في حديث الفتون: « وذلك من الفتون والله خبير » [٢].

وقال أنس بن مالك عن النبي عليه السلام: « لقد أوذيت في الله وما يؤذى في الله أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف في الله أحد ، وإن كان ليمضي عليَّ

---

(١) في (أ) و(ب): وما توعدوهم.

(٢) لم أقف عليه.

ما بين ثلاثين يوما وليلة مالي طعام ولا شراب يأكله ذو كبد جائع ، إلا مـــا يواريه إبط بلال »[١].

وقال الحسن: « خطبنا عتبة بن غزوان بالبصرة ، فقال: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] سابع سبعة ما لنا طعام إلا ورق الحبلـــة[٢] ، حتى إن كنت لأرى خضرته من وراء بطني ، وما من اليوم رجل إلا وهو أمير على مصر من الأمصار »[٣].

---

(١) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقـــد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٥١٦/ح٦٥٦٠ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٤٥/ح٢٤٧٢ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٥٤/ح١٥١ ، وابن حنبل في مســـنده ج٣/ص١٢٠/ح١٢٢٣٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص١٤٦/ح٣٤٢٣ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٩٢/ح١٣١٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣١٣/ح٣١٧٠٤.

(٢) الحَبَلة: بقلة لها ثمرة كأنها فيقر العقرب ، تسمى: شجرة العقرب. والحُبْلة: ثمر السَّـلَم والســـيال والسَّمُر ، وقيل: ثمر عامة العضاة. لسان العرب.

(٣) ورد عن سعد بلفظ: ((رأيتني سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ما لنـــا طعـــام إلا ورق الحبلة أو الحبلة حتى يضع أحدنا ما تضع الشاة ، ثم أصبحت بنو أسد تعـــزرني علـــى الإســـلام خسرت إذا وضل سعيي)).

أخرجـــــه البخـــــاري في صـــــحيحه ج٥/ص٢٠٦٦/ح٥٠٩٦ ، ومســـــلم في صـــــحيحه ج٤/ص٢٢٧٩/ح٢٩٦٧ ، وابن ماجه في ســـنه ج٢/ص١٣٩٢/ح٤١٥٦ ، وابـــن حنبـــل في مسنده ج١/ص١٧٤/ح١٤٩٨ ، والطيالسي في مســـنده ج١/ص٢٩/ح٢١٢ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٢/ص٢٢/ح١١٥٨ ، وابـــن عمـــرو الشـــيباني في الآحـــاد والمثـــاني ج١/ص٢٣٠/ح٣٠٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١/ص١٠٦/ح٥٢٠ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٨٣/ح٧٣٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٠/ح٣٤٠٣٩ ، والـــدارمي في ســـننه ج٢/ص٢٧٤/ح٢٤١٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص١٠٠/ح٢٦١٣.

وقال عبد الرحمن بن عوف: « ابتلينا بعده بفتنة الضراء مع نبينا عليه السلام ، فضمرنا ، وابتلينا بعده بفتنة السراء فلم نصبر »[١]. وقال خباب بن الأرت: « هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] ابتغاء مرضات الله ، فمنا من مضى لسبيله لم تقصه الدنيا و لم تأكل من حسناته شيئا ، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، فالتمسنا له كفنا يسعه فلم نجد له ثوبا إلا نمرة كانت له إذا غطينا بها قدميه بدا رأسه ، وإن غطينا بها رأسه بدأ قدماه ، قلنا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: غطوا رأسه ، واجعلوا على قدميه شيئا من أذخر »[٢] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين وقف على مصعب بن عمير بين يديه فرأى النبي ما به من شدة الجهد والعري ، وعليه أطمار بالية ، فقال: « عجبت للدنيا وتقلبها بأهلها!! ثم تغرغرت عينا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) عن عبد الرحمن بن عوف قال: ((ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا ، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر)). أخرجه الترمذي في سننه ج٤/ص٦٤٢/ح٢٤٦٤.

(٢) عن خباب بن الأرت قال: ((لما كان يوم أحد قتل مصعب بن عمير رحمه الله و لم يترك إلا نمرة ، وكان إذا غطى بها وجهه ورأسه بدت رجلاه ، وإذا غطى بها رجلاه بدا رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غطوا بها رأسه وضعوا على رجليه شيئا من الأذخر)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٤٢٨/ح١٢١٥ ، ومسلم في صحيحه ج٢/ص٦٤٩/ح٩٤٠ ، والنسائي في سننه ج٤/ص٣٩/ح١٩٠٣ ، وابن حبان في صحيحه ج١٥/ص٤٨٦/ح٧٠١٨ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٦٩٢/ح٣٨٥٣ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١٩٩/ح٣١٥٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٥/ص١٠٩/ح٢١٠٩٦ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٨٤/ح١٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٣/ص١٤٥/ح٢٩٤١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٦٢٢/ح٢٠٣٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٠١/ح٦٤٧٤ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص١٣٨/ح٥٢٢ ، وابن المبارك في الجهاد ج١/ص٨٣/ح٩٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٢/ص٤٦٣/ح١١٠٦٨ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ص٤٢٧/ح٦١٩٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٦/ح٣٤٦٦.

[وآله وسلم] وقال: لقد رأيت هذا أجمل فتى في قريش وأعطره بين أثوابه ، وأخرجه من ذلك كله حب الله وحب رسوله » [١] ، وقال خباب بن الأرت: « أتيت رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] وهو متوسد رداءه في ظل الكعبة ، فقلت: يا رسول الله ترى ما نحن فيه من الجهد فادع الله لنا بالنصر ، فاستوى مغضبا ثم قال: كان الرجل ممن كان قبلكم ليحفر له الحفير فيقاع فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فينشر حتى يسقط لشقيه ، دما يحجزه ذلك في دينه وأن يقول الحق ، وإن كان الرجل ممن كان قبلكم ليؤتى بأمشاط الحديد فيمشط ما دون عظمه من لحم وجلد وعصب فما يحجزه ذلك عن دينه ، وأن يقول الحق ، ولكنكم تعجلون ، والذي نفسي بيده ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب بين بصرى إلى حضرموت لا يخاف إلا الله » [٢].

وقال عمرو بن العاص: « ما رأيت قريشا همت بقتل النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] إلا يوما واحدا ، قال بعضهم لبعض في الحجر: إذا رأيتموه احملوا عليه حملة رجل واحد حتى تقتلوه فلا يُعرف من قتله ، فبيناهم كذلك إذ جاء النبي فطاف بالبيت أسبوعا ، ثم أتى المقام فقام يصلي خلفه ، فحملوا عليه حملة رجل واحد عقبة بن أبي معيط ، ثوبه يهزه حتى خر ساقطا لركبتيه » [٣] ،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ص١٣٢٢/ح٣٤١٦ ، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٠٤/ح٥٣٢٠ ، وابن حبان في صحيحه ج٧/ص١٥٧/ح٢٨٩٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٥/ص١١١/ح٢١١٠٧ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٨٦/ح١٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٦٥/ح٣٦٤٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٥٠/ح٥٨٩٣.

(٣) عن عمرو بن العاص قال: ((ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم إلا يوما ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام ، فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطا ، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه

فهذا ما امتحن الله به أهل القيام له بأمره ، حتى أورثهم ذلك الصدق في جميع المواطن ، لما آثروا من طاعة الله ، وتجرعوا من الصبر في ذات الله. فإذا قام العبد بدرجة الصدق في المواطن ، كان على معنيين:

إما أن يرجع بأفضل الجهاد والسلامة.

وإما أن يحكم الله له بأفضل الجهاد والشهادة ، كما روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إن أفضل الجهاد عند الله رجل تكلم بكلمة حق عند سلطان فقتله عليها » [(١)] ، هذه صفة أهل القيل في الله بالصدق في مواطن الامتحان ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، فإذا كانوا كذلك فقد قضوا لله ما يجب عليهم عند ذلك.

وروى أبو سعيد الخدري قال خرج مروان بن الحكم في إمارته في يوم عيد إلى المصلى ، فبدأ بالخطبة قبل الصلاة ، فقال له رجل: أما أنت فقد خالفت حكم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ، يقول: « المعروف باليد واللسان ، فمن لم يستطع [باليد] فباللسان ، فإن لم يستطع باللسان فبالقلب وذلك أضعف الإيمان » [(٢)]. وقال المقداد بن الأسود: « ورجل يثني على عامل لعثمان بن عفان عنده ، فجعل المقداد يحثوا في وجهه التراب ، فقال الزبير بن العوام:

ويقول أتقتلون: رجلا أن يقول ربي الله ، ثم انصرفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ، فلما قضى صلاته مر بهم وهم جلوس في ظل الكعبة فقال: يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح ، وأشار بيده إلى حلقه ، فقال له أبو جهل: ما كنت جهولا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت منهم)).

أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح١١٧٧٦.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أما المقداد فقد قضى ما عليه »[١] ، فقد فسرنا باب الصدق ، ومن يصـــدق في المواطن فقد قضى ما عليه ، كما قال علي رضي الله عنـــه ، ونســـأل الله التوفيق برحمته ، إنه حميد مجيد.

باب شنآن الفاسقين

وهو الشعبة الرابعة من الجهاد.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « من شنىء الفاسقين غضب لله ، ومن غضب لله غضب الله له » ، وشنآن الفاسقين فرض على كل مسلم ، وذلك من النصح لله ولرسوله وللمسلمين ، وذلك أن الفاسق المعلن لفسقه ، المتمرد على ربه ، قد كشف قناع الحياء ، وهتك ستر نفسه بالتعـــدي. قـــال أبـــو مسعود الأنصاري: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إن مما أدرك النـــاس مـــن كلام النبوة الأولين إذا لم تستح فاعمل ما شئت »[٢]. وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إذا نزع الحياء من العبد كـــان بغيضـــا

---

(١) عن أبي معمر قال: قام رجل فأثنى على أمير من الأمراء ، فجعل المقداد يحثو في وجهـــه التـــراب وقال: ((أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في وجوه المداحين التراب)).

أخرجـــه البخـــاري في الأدب المفـــرد ١/ص١٢٤/ح٣٣٩ ، ومســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢٢٩٧/ح٣٠٠٢ ، وابن حبان في صحيحه ج١٣/ص٨٣/ح٥٧٦٩ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٠٠/ح٢٣٩٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٣٢/ح٣٧٤٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩٤/ح٥٦٨٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٥٨/ح١١٥٨ ، والطبراني في معجمـــه الكبير ج١٢/ص٤٣٥/ح١٣٥٨٩ ، والطـــبراني في مســـند الشـــاميين ج١/ص١٦٦/ح٢٧٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٤١٣/ح٧١١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحـــاد والمثـــاني ج١/ص٢٢٥/ح٢٩١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٤٣/ح٢٠٩٢٦ ، وعبد بن حميـــد في مسنده ج١/ص٢٥٨/ح٨١٢ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٤٢/ح١٤٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢٩٧/ح٢٦٢٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

مبغضا »[١]. وقال ابن عباس في حديث طويل: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من يبغض الناس ويبغضونه »[٢]. فإذا هتك الإنسان نفسه أظهر فسقه[٣]، وتمدح به وتميق[٤] بذكره، لغلبة الهوى عليه، حتى حس عنده القبيح، وقبح عند الحسن، وتجبر في فسقه، وعتى في طغيانه، وتطاول على أولياء الله، وتجبر عليهم، ومنع مَن جانبه من إنفاذ حكم الله فيه.

ففرض على جميع المسلمين أن ينظروا إلى هذا وأشباهه بوجه يهمزونه[٥] ويبغضونه على أفعاله المردية، ويقصره على تركه، إذ كان لله مبغضا، ولفعله ساخطا، وذلك أن من هتك ستر نفسه بالإعلان لمعصيته، ولم يراقب في ذلك خالقه، ولا رعى حرمته أوليائه، فلم يستحيي منهم، ويظهر ما

---

(١) ورد الحديث بلفظ: ((إذا أبغض الله عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا بغيضا مبغضا، ونزع منه الأمانة، فإذا نزع منه الأمانة نزع منه الرحمة، فإذا نزع منه الرحمة نزع منه ربقة الإسلام، فإذا نزع منه ربقة الإسلام لم تلقه إلا شيطانا مريدا)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٥٧٩٨.

(٢) عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: ((ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: فإن شراركم الذي يترل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه. قال: أو أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبا. قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره)). أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٠/ص٣١٨/ح١٠٧٧٥، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص١٧/ح٣٩١٠.

(٣) في (أ) و(ب): هتك سره أظهره بفسقه. مصحفة.

(٤) المائق: السيء الخلق.

(٥) في جميع المخطوطات: ما يهمزونه. بَيْدَ أنه ظنن في (ج) بما أثبت، ولعله الصواب.

يكرهون رؤيته من معاصي خالقهم ، فلا حرمة له في الإسلام ، ولا حظ لـــه في الإيمان ، ولا غيبة له ، كما قال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « ثلاثة لا حرمة لهم : إمام جائر ، وفاسق معلن بفسقه ، وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته »[١].

وقال عمر عن النبي عليه السلام أنه قال: « أَتَرعون عن الفاجر ؟ متى يعرفـــه الناس؟ ذكروه بما فيه كي يحذر الناس »[٢] ، فهؤلاء لا حرمة لهم في الإسلام ، ولا غيبة لهم ، لأن الغيبة التي قال أبو ذر عن النبي [صلى الله عليـــه وآلـــه وسلم]: « إنما هي للمسلم الأخ المستور بدين الله » ، كما قال النبي عليـــه السلام: « من قال لأخيه ما فيه فقد اغتابه ، ومن قال ما ليس فيه فقد بهته »[٣] ، فهذا هو الأخ كما قال النبي صلى الله عليه وآله ، فالفاســـق المعلـــن لا

---

(١) ((ثلاثة لا حرمة لهم: فاسق معلن بفسقه ، وصاحب هوى ، وسلطان جائر)). أخرجه المتقـــي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٤٣٩٣٣.

(٢) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، قال: ((خطبهم رسول الله صلى الله عليه وســـلم فقـــال: حتى متى ترعون عن ذكر الفاسق هتكوه حتى يحذره الناس)) .

أخرجه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ١٩/ص٤١٨/ح١٠١٠ ، والطـــبراني في معجمـــه الصـــغير ج١/ص٣٥٧/ح٥٩٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢١٠/ح٢٠٧٠٣ ، والطـــبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٣٣٨/ح٤٣٧٢. وفي كنز العمال ٠/٠(٨٠٧٠) ((أترعون عن ذكـــر الفاجر حتى يعرفه الناس فاذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس)) .

(٣) عن أبي هريرة قال: ((قيل : يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره ، قال: أرأيت إن كان فيه ما أقول ، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته)).

أخرجـــه مســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢٠٠٢/ح٢٥٨٩ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٣/ص٧٢/ح٥٧٥٨ ، والترمذي في ســـننه ج٤/ص٣٢٩/ح١٩٣٤ ، وأبـــو داود في ســـننه ج٤/ص٢٦٩/ح٤٨٧٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٣٠/ح٧١٤٦ ، ومالـــك في الموطـــأ ج٢/ص٩٨٧/ح١٧٨٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٤٦٧/ح١١٥١٨ ، والقضـــاعي في

يسمى: أخاه ، ولا كرامة له ولا مسرة ، لأن المؤمن أخ المؤمن ، والمؤمن هو الولي لله المعظم لمقامه ، والمجتنب لجميع محارمه ، ما ظهر منها وما بطن ، مؤديا لجميع فرائضه ، بل يسارع إلى الله بالنوافل ، فكيف بترك الفرائض واجتناب المحارم؟ فهذا هو المبشر بالجنة ، لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٧] ، وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس:٦٢].

والفاسق المعلن فسقه من المردة أصحاب الزنا وآكل الربا وأموال الناس بالباطل ، وإتيان الذكران من العالمين ، والتطفيف في المكيال والميزان ، وقذف المحصنات ، وما لا يوصف من كثرته ، وهو أعظم جرما من هؤلاء ، وأهتك ستر الأئمة الجورُ وأعوانهم العتاة الجفاة ، فهؤلاء أعداء الله وأعداء رسوله وملائكته وصالحي عباده ، فلا يستحقون في مقامهم في مبارزة الله وتعدّي حدوده أسماء المؤمنين من الإيمان والإسلام ، إذ كانا في الوعد والولاية ، فأسماء هؤلاء أسماء أهل الفسق والعدوان ، المستحقين لسخط الله ولعنته ، وأليم عقابه ، والخلود في عذابه ، بفحش جنايتهم ، وعظيم معصيتهم ، وإصرارهم على فجورهم.

وقد بين الله حكمه فيهم في كتابه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ... ﴾ [آل عمران:١٣٥] الآية ، فلم يوجب المغفرة إلا بشريطة [(١)] التوبة ، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى

مسند الشهاب ج٢/ص٣٠٤/ح١٤١٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٤٧/ح٢٠٩٥٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٣٧٩/ح٦٤٩٣ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢٣٠/ح٢٥٥٣٨ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٨٨/ح٢٧١٤.

(١) في (أ) و(ب): بالشريطة. مصحفة.

نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ... ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] الآية ، ثم قال جل ذكره تأكيدا للبيان في وعيد أهل الصلاة من أهل الذنب والآثام ، والمتعدين لحدود [1] الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ... ﴾ [النساء:١٧] الآية ، فأخبر أن من حكمه أن لا يعفو إلا من بعد توبة ، ثم قال مؤكدا ومحذرا وزاجرا ومنبها ، وواعظا ومخوفا ، وراحما وناظرا: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ... ﴾ [النساء:١٨] الآية ، فأخبر تعالى وعز أنه لا يقبل التوبة عند الموت من الكافرين ، ولا من الفاسقين من أهل الصلاة ، فأزاح الشك في أمرهم ، أنه لا يجوز أن يغفر لهم بعد الموت بلا توبة تكون منهم ، لأنه لو كان ذلك مما يجوز في وصفه وحكمه ، لقبل منهم التوبة عند الموت ، التي بقبولها يكون الغفران ، فلما ردها عند المعاينة و لم يقبلها ، قطع عذر عباده المفهمين عنه ، وحذّرهم بعقابه تحذيرا ألا يؤخروا التوبة إلى وقت لا ينفعهم قبولها فيه ، كما لم ينفع ذلك غيرهم من الكافرين ، ولو لا ما أحب من إعلامه مع قطع عذرهم ، والرحمة لهم ، ما قرن رد توبتهم برد توبة الكافرين ، وإنما أراد بذلك تعالى وعز إزاحة الشك عنهم ، لأنه لو جاز الشك في ذلك وقد قرنه برد توبة الكافر لجاز الشك في وعد الكافرين. وإن كان لم يقبل توبتهم عند الموت ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ ... ﴾ [الزلزلة:٦] إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣] ، وأكد للقاتل الخلد في النار ، ثم أكد ذلك وبينه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

---

(١) في (أ) و (ب): بحدود.

ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ... إلى قوله: وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان:٦٨ - ٧١] ، فأخبر أنه لا يغفر للكافرين ، ولا لغيرهم من الزناة والقتالين ، إلا بالتوبة والعمل الصالح ، فإذا كان لا يجوز ذلك في حكمه ، فأنى لهم بالغفران في القيامة؟ تعالى الله عما يدعيه أهل النقص والجهل والعمى من إخلاف وعيده علوا كبيرا.

ثم أكد ذلك بسنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله فقال عليه السلام: « إن التوبة مبسوطة دون أن يغرغر المرء بنفسه ، ودون المعاينة »[1] ، فإن قال بعض أهل النقص ممن يدعي الشفاعة لأهل الكبائر: فإن الرحمة تتغمدهم بالشفاعة ، لما قد جاء في الأثر: أن « الشفاعة لأهل الكبائر »[2] ، قيل له: إن الأحاديث في الشفاعة مختلف فيها ، وقد قال قوم بالرواية أن الشفاعة تكون قبل دخول النار ، ورغموا أنه لا وعيد في أهل الصلاة ، وكانوا بذلك قد أبطلوا ما أوجبه على العصاة من عباده ، بما ذكرناه في هذه الأبواب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٨٧/ح٦٤٦٧ ، الطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢٧٠/ح ٢٠٢٦ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٢٥/ح٢٤٣٥ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٣٦/ح٤٧٣٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص٢١٣/ح١٣٢٤٥ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٤٠/ح٢٢٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٣٣/ح١٦٦٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٥٨/ح٧٤٩ ، وفي معجمه الصغير ج١/ص٢٧٣/ح٤٤٨ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٦٧/ح٢٣٦ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص١٠٠٩/ح١١٣٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٨/ح١٥٦١٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٤١/ح٣٢٨٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ص٧٧/ح٩١٧٧.

واستوحش من ذلك آخرون من أهل الحديث ، فقالوا: الشفاعة لا تكون إلا بعد العذاب ، ورووا[١] في ذلك أحاديث ، « أنهم يخرجون من النار بعد مـــا امتحشوا ، مكتوب على وجوههم أنهم الجهنميون »[٢] ، وقـــال آخـــرون

---

(١) في المخطوطتين: ووردوا. مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) عن عمرو بن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وأني آتي باب الجنة فآخذ بحلقتها فيقولون: من هذا؟ فيقول: أنا محمد ، فيفتحون لي فأدخل ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له ، فيقول: ارفع رأسك يا محمد ، وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب ، فيقول اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة ، فأقبل فمن وجدت في قلبه ذلك فادخله الجنة ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فاسجد له ، فيقول: ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي أي رب ، فيقول: اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه نصف حبة من شعير من الإيمان فأدخلهم الجنة فادخلهم الجنة ، فاذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلهم الجنة ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له فيقول: ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي ، فيقول: اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأدخله الجنة ، فاذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتهم الجنة ، وفرغ الله من حساب الناس وأدخل من بقى من أمتي النار مع أهل النار ، فيقول: أهل النار ما أغنى عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لا تشركون به شيئا ، فيقول الجبار عز وجل: فبعزتي لأعتقنهم من النار ، فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون في نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة في غثاء السيل ، ويكتب بين أعينهم: هؤلاء عتقاء الله عز وجل ، فيذهب بهم فيدخلون الجنة فيقول لهم أهل الجنة: هؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار: بل هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص١٨٨/ح١٩٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٩٩/ح٦٤٧٨ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٣٠٩/ح٣١٤٨ ، وابن ماجه في ســـننه ج٢/ص١٤٣٨/ح٤٣٠١ ،

بالحديث أنهم معذبون مخلدون في رواية عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « من وجأ نفسه بحديدة ، فهو يجأ نفسه بحديدة ، في النار خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل عمدا فقتل نفسه فهو يتردى في النار خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسا سما فقتل نفسه فهو يتحسا في النار خالدا خلدا فيها أبدا »[(١)].

فلما اختلف الرواة في ذلك لم تقم فيها حجة إلا ما وافق الكتاب والسنة فيها ، وهو إيجاب الوعيد والخلود على ما شرحناه من محكم كتابه ، وقد أبطل الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨] ، ومن ارتضاهم فهم أهل طاعته ، وكذلك أوجب على الملائكة - لهم في الدنيا ليجعل ذلك دليلا على الآخرة - أن يستغفروا لهم ، فقالوا: ﴿ ٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ

وأبو داود في سننه ج٤/ص٢١٨/ح٤٦٧٣ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٨٢/ح٢٥٤٦ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٨٤/ح٨٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص١٦٦/ح١٢٧٧٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٠١/ح٧٦٩٠ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج١/ص٣٥٢/ح٥٠٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٨٧١/ح٩٣١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٩/ص٤/ح١٧٤٩٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٣٠٣/ح١٠٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣١/ح٦٩٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣٠٩/ح٣١٦٨١ ، والدارمي في سننه ج١/ص٤٠/ح٤٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج١/ص٦١/ح١٧٠.

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من تحسى سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١١٤٥/ح٣٤٦٠ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٧/ح٣٨٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٧٨/ح١٠١٩٨.

سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧] ، و لم يقولوا: اغفر للذين عصوا وصدوا عن سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، فاولاء من لم يخالف الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم في الشفاعة ، ثم هكذا أوجب على المؤمنين الاستغفار لإخوانهم بقولهم: اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات عند الدعاء ، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر:١٠] ، و لم يجز لهم أن يقولوا لإخوانهم الذين سبقوهم بالفسق والعصيان!! وكذلك أوجب عليهم في تشهد الصلاة المفروضة عند قولهم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، و لم يقل الطالحين!!

والكتاب والسنة إنما يثبت الشفاعة للمؤمنين التائبين المحسنين ، دون الفاسقين من أهل الكبائر ، فإن قالوا وما يحتاج التائبون إلى الشفاعة؟! وقد قال الله جل ثناؤه[1]: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة:٩١] ، قيل لمن قال منهم: إنهم يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يشفع لهم: ما يصنعون بالشفاعة في تلك الحال وهم كمن لا ذنب له ، وما على المحسنين من سبيل؟! فإن قالوا هم: وإن كانوا لا ذنب لهم فإنما استحقوا دخول الجنة بشفاعة النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] ، ولا فرق بيننا وبينكم في هذا ، إلا أن ترجعوا إلى قول إخوانكم الذي هو خطأ عندكم فتردون وتبطلون حديث الجهمين في الخروج من النار ، وإن رجعوا إلى ذلك احتججنا عليهم بحديث الوعد والخلود الذي قد شرحناه في محكم الكتاب والسنة ، وما أبان الله فيهما من إيجابه الوعيد واللعنة والخلود على العصاة من عباده المصرين غير التائبين ، ولو لا أنّا لم نقصد إلى هذا الكتاب وشرحه لزدنا من حجج الله تبارك وتعالى ، وفيما قلنا بلاغ لمن

---

(١) في (أ) و(ب): قال تعالى جل ذكره.

فَهِم عن الله و لم يعاند حجة خالقه ، وإنما أردنا بما ذكرنا من الأدلة[١] أسماء أهل الطهارة ، وإيجاب الخلود في النار على العصاة من عباده المتهكين لمحارمه ، الصادين عن سبيله ، لما أوجب الله على خلقه من منعهم من ذلك بكل ما أمكنهم ووجدوا إليه سبيلا ، إذا أيقنوا بعداوة الله لهم وإيجاب وعيده عليهم ، ليكون أثبت ليقينهم ، وأرسخ لعداوتهم في ذات الله ، فلذلك ذكرنا هذه الجملة واقتصرنا عليها ، وبالله نستعين على أمور الدنيا والدين.

فلما ثبت ذلك بما شرحنا من حجج الله ، كان واجبا على أهل اليقين المخالفة والإعظام لله ولمقامه وحدوده ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، أن يعادوا[٢] من انتهك محارم الله وعطل حدوده ، وبذر أمواله ، واتخذ عباده خولا ، وماله دولا ، ودينه مهملا ، وفيئهم نهبا ، وعهده مريجا ، دون المباينة له ، ومنعه عن ظلمه ، أو ابتزازه للإمامة المحكوم بها لغيره ، بحكم الله وحكم رسوله ، فإن راجع بهذا الإعذار والإنذار ، وتاب وأناب كفوا عنه ، وأقاموا عليه من حكم الله على قدر ما اجترحه في نفسه من قَتله إن كان قتل ، وجلده إن كان زنا ، وإقامة الحد عليه إن كان قذف ، ورد ما احتجز من الظلامات على أهلها ، وما سوى ذلك مما انتهك على ما حد الله[٣] عليه فيه ووقّته. فإن لم يراجع ويرعوي بالقول ونأبذ الحرب وبغى على أهل الإسلام ، وتسلط بالجبروت ، وعلا بالقهر ، يجعل حكم الله وكلمته السفلى ، وحكم الشيطان وكلمته العليا ، استعمل فيه حكم الله بقوله عز وجل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ... ﴾ [الحجرات:٩] الآية ، فالواجب على من فَهِم عن الله أمره ، وقام لله

---

(١) في (أ) و (ب): إدالة.

(٢) في (أ) و(ب): ألا يعادوا. مصحفة.

(٣) في (أ) و(ب): ممن انتهك على حد الله.

بالقسط في خلقه ، إذا رأى باغيا أن يمنعه من بغيه ، فإن حاربه على ذلـــك حاربه تقربا إلى الله بجهاده ، حتى يفيء إلى أمر ربه ، كما وجب عليه محاربة أعدائه من الكافرين ، حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهـــم صـــاغرون. وكيف لا يجب ذلك مع قوله عـــز وجـــل: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ [المائدة:٣٣] الآية ، ولا محاربة لله أشد بعد الكفر ، ولا أعظم عند الله ممن حَرَبَ أولياءه ، وأهل طاعته ، وأئمته المتولين لأحكامـــه ، وإقامـــة حدوده ، والمقسطين بين عباده ، الحاكمين فيهم بقوله ، وحكم كتابه ، وسنة رسوله ، صلى الله عليه [وآله وسلم] ليبدلوا ذلك كله ، ويحكموا فيه بخلاف ما أنزل الله وحكم به ، فحرب هؤلاء أولى وأوجب من محاربة الكـــافرين ، لأن مخالفة أئمة الهدى يفسد على الأمة أمر دينهم ، ويبطل بذلك جهـــادهم لأهل الكفر من أعدائهم ، إذا كان الله سبحانه إنما أوجب ذلك مع الهداة من أئمته القائمين فيه بحكمه ، والداعين فيه إلى دينه ، والعاقدين فيه لذمة نبيـــه صلى لله عليه [وآله وسلم] ، الموفون بعهدهم وذمتهم ، لا مَن نَقَضَ عهد الله في نفسه وأهل دعوته وأحكام ربه.

وكيف يعقد الذمة لمن جعلها [حربا لله ولدينه ، ويسعى في الأرض فسادا] (١) ، بل لا يراقب في المؤمنين إلا ولا ذمة ، وإذا كان أهل دار الحرب إنما أبـــاح الله قتالهم بعد امتناعهم على من لم يف (٢) لهم بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه [وآله وسلم] ، وحرام على أهل الإيمان معاونة من يحاربهم ، لأن كل ما أخذ منهم (٣) وفعل بهم ظلما أو تعديا لحكم الله ، وبما حده(٤) في قتـــالهم ،

---

(١) في (أ) و(ب): لمن جعلها ان اثرها بل. وفي (ج): من حلقها الله ان اثرها. وما أثبت اجتهاد.

(٢) في (أ) و(ب): من يفي.

(٣) في (ج): يحاربهم أو يقاتلهم وفعل ...

(٤) في (أ) و(ب): حدهم.

وإنما جعل الله [١] ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأئمة الهدى من آله الطاهرين في كل عصر وزمان ، فجاهد على حكم الله من امتنع عليه من أهل الإسلام وإعطاء الجزية ، فإذا غنم أموالهم حكم فيها بحكم الله ، وجعل خمسها حيث أمره الله ، ولم يكن كمن اغتصب المسلمين إمامتهم وأموالهم وغنائمهم وجميع فيئهم ، وصدقاتهم التي جعلها الله معونة لضعفه خلقه ، يقسم ذلك بين الأعوان من أصحابه ، والمعينين له على ظلمه من أهل الحيرة والجهل والعداوة والسفه ، ممن يدعي - بزعمه - الإسلام ، وينصر دين محمد عليه السلام ، واستعان على ذلك بما اغتصب الضعفة والمسلمين والفقراء والمساكين ، على شرب خموره ، وركوب فجوره ، ولباس حريره ، وتشييد قصوره ، ولم يدع محرما إلا انتهكه ، ولا بابا للإسلام إلا ردمه ، ولا منارا للحق إلا هدمه ، ونهض للإسلام من مأمنه ، وبدل سنته وأحكامه ، ولم يحكم بحلاله ولا حرامه ، فأفسد على عباد الله معائشهم ، وموَّه على أكثرهم أمر دينهم.

فهل يشكل هذا البيان الواضح على ذي عقل إذا تدبره؟! ثم تفكَّر فيه واعتبره ، ومع هذا كله أفسد عليهم جمعهم وأعيادهم ، لأن الله جل ذكره إنما جعل القُوَّام بها المهتدين من أئمته ، وحظرها على الفجرة من عباده ، يقول نبيه صلى الله عليه وآله: « يؤمكم خياركم » [٢] ، ولقوله عليه السلام: « لا يؤمنكم ذو جرأة في دينه » [٣] ، وبقوله صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لا يؤمن فاجر برا » [٤] ، وبإجماع أمته أن العدل مستحق لها من آل محمد

---

(١) سقط من (أ) و(ب): جعل الله.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

واختلافهم في غيره ، فلا يزول عن أحد فضل صلاة أو جبوهـــا بإجمـــاع لا باختلاف ، فقد أجمعوا أن الذي يجب من الصلاة يوم الجمعة أربع ركعات ، إلا أن يكون إمام عدل من آل محمد عليهم السلام ، وجماعة مـــن المـــؤمنين ووقت [١] ، فإذا وجد ذلك زال فرض الأربع إلى الركعتين ، واختلفـــوا في الصلاة مع الإمام الجائر ، فأكثر الأمة لا يجيزها ، والذين أجازوها إنما ذهبوا في ذلك إلى رواية شاذة قد تأولها غيرهم على غير ما ذهبـــوا إليـــه ، وهـــي رواتبهم « أن الصلاة جائزة خلف كل بر وفاجر » [٢] ، فقال المخالفون لهم في ذلك: إن قول النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] لا ينقص بعضه بعضـــا ، وقد روي أن سبب هذا القول منه صلى الله عليه [وآله وسلم] إنما كان جوابا لهم عندما سألوه عن قوم كانوا يتقدمونهم في الصف الأول مـــن المنـــافقين ، فقالوا: « يا رسول الله هل يضرنا ذلك شيئا؟ قال: لا ، الصلاة خلف كل بر وفاجر » [٣] ، فإذا كان قُدَّامك في[٤] الصف الأول لا يضرك بعد أن يكون الإمام برا مرضيا [٥] ، وإنما كانوا سألوه عن ذلك لأنه كان أمرهم أن « يليه ذو النهى منهم » [٦] ، وكذلك السنة في كل عصر أن أخيار أهل المحالّ إنمـــا يجب أن يكونوا الأئمة والمؤذنين.

---

(١) في المخطوطات: ووقتا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ب): كان إمامكم في.

(٥) في (أ) و(ب): برا أيضا. مصحفة.

(٦)عن أبي مسعود البدري قال: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوي مناكبنا ، يعني في الصلاة ، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)).

وهذا إنما يُورث على من كان عليه العمل في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الهدى ، مع أن الإجماع قد ثبت من وجه الحجة لمن أنصف من نفسه أنه لا يجوز الصلاة خلف أئمة الجوز في حكم الله وحكم رسوله ، وذلك أنهم قد أجمعوا جميعا أن جماعة لو خرجوا على أبي بكر من أهل القبلة باغين عليه ، ثم غلبوا على مدينة أنه لا يحل لأهل تلك المدينة الصلاة معهم والإمام قائم ، وكذلك لو تغلبوا على عدة مدن لم يحل لهم ذلك ، وأنهم لم يضيعوا فرضا بتركهم الصلاة معهم ، ثم زعمت طائفة منهم لنقص علمها وقلة فهمها عن ربها: أنهم إذا جاءوا فقتلوا المهاجرين والأنصار وأبا بكر ، وأطفأوا نور الله ، وعطلوا أحكامه ، وهدموا دينه ، وأخافوا عباده ، وأفسدوا بلاده ، ولم يتركوا حرمة لله في أرضه نالتها أيديهم إلا انتهكوها ، أنه وجب لهم مع تكامل معصيتهم ما لم يكن يجب لهم مع نقصان معصيتهم ، لو فهمت هذه الطائفة عن نفسها مناقضتها ، لعلمت أن العلة التي منعتها من أجلها أن تُجوِّز الصلاة معهم وجود المعصية ، فهي في هذا الحال أعظم ، وإن كان

أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٣٢٣/ح٤٣٢ ، والنسائي في سننه ج٢/ص٨٨/ح٨٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج٥/ص٥٣٥/ح٢١٦١ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص٢١/ح١٥٤٢ ، والترمذي في سننه ج١/ص٤٤٣/ح٢٢٨ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٣١٣/ح٩٧٦ ، وأبو داود في سننه ج١/ص١٨١/ح٦٧٥ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٤٥٧/ح٤٣٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٧٦٥/ح٢١١٢ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٨٥/ح٦١٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٨٨/ح١٠٠٤١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢٨٧/ح٨٨١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص١٨٠/ح٩٨٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٩٧/ح٤٩٤١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٩/ص٤٨/ح٥١١١ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٨٧/ح٣١٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج١/ص٣٠٨/ح٣٥٢٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص٤٥/ح٢٤٣٠ ، والدارمي في سننه ج١/ص٣٢٥/ح١٢٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٢٥/ح٧٣٩.

منعها القيام الإمام فلا إمام اليوم وإذ ذاك قائم في حكم الله ، لو لا منع البغاة وأعوانهما العتاة من إقامته ، ولكن هذه الفرقة من النابتة وأصحاب الحديث ليس معها علم بما تقول ، ولا يوقف منها على عقد محصول.

فإن قال منهم قائل: أو ليس قد قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:٩] ، فقد أوجب الله السعي؟! فقيل لهم: إن الله قد أوجب السعي إلى ذكره ، و لم يوجب السعي إلى الفرية عليه وعلى أوليائه ، لأن البغاة العتاة المبتزين لأمره إذا قالوا: اللهم أصلح عبدك وخليفتك كذبوا على الله وافتروا عليه ، لأن خلفاءه الهداة المهتدون من عباده ، كما قال لخليله صلى الله عليه: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤] ، وكذلك إذا دعا الجائرون[1] لهم على أعدائهم ، فإنما يدعون لينصروا [2] على أولياء الله من أنبيائه ورسله وملائكته ، والمهتدين من أئمته الصالحين من خلقه من الجن والإنس ، بأن هؤلاء كلهم أعداؤه المفسدون في أرضه ، والمنتهكون لمحارمه ، إذ كان الله لهم عدوا ، فإذا كان حكم الله المنع من معصية الله ، وأقل ما يجب لله على أهل المعرفة به ، إن لم يقم له بالنهي عنه مع قلتهم وضعفهم ، أن لا يحضر موضع الإعلان بها طائعا غير مكره.

وتفسير الآية دالة لمن فهم عن الله أنه لا يحل لهم السعي إلى البغاة الظلمة من عباده ، لأنها إنما ندبت إلى ذكره لا إلى الصد عن ذكر الله ، إنما هو الصلاة ، فإذا كان قد حضر الصلاة خلف من يدعو إليها بما قد أجمعوا على عدد من

---

(١) سقط من (أ) و(ب): وكذلك إذا دعا الجائرون.

(٢) في (أ) و(ب): ينصروا.

سمع النداء من هذا الظالم قبل تغلُّبه على الدار ، فبان لهم فيه بهذا [١] أن الصلاة لم تجب بالنداء للنداء ، وإنما تجب بما أجمعوا عليه: من مصر وإمام عادل وجماعة من المسلمين ووقت ، أولا فلا جمعة بلا جماعة ، وإنما تجب الصلاة أربع ركعات كما أوجبوا على من سمع نداء هذا الظالم قبل تغلُّبه على الدار وأهلها ، فهذا مع ما يدخل الباغي من الضرر على الدين وأهله ، وكثرة ما يظهر فيه منهم ممن يبغي عليهم ، فيحتير ضعيفهم ويشككهم في صحته ، فبلاؤهم على أهله ومضرتهم عليه تكاد أن تكون أكثر من بلاء كل عدو له ، لأنه نهض بالإسلام من مأمنه ، وهدَّه [٢] من قواعده ، أشغل أهله بغير دينه ، وسب[٣] جميع الناصرين له والقائمين بحفظه وحياطته ، فوجب على أهل التقوى والمحامين عن دين ربهم ، والقائمين له بقسطه لعنه ، والبراءة منهم والعدواة لهم ، والإرصاد والإنتهاز لغرتهم ، والتربص بهم الدوائر ، عسى الله أن يمنحهم أكتافهم ، ويفرق على أيديهم جموعهم ، ويكبت عدوهم ، وينصر وليهم بسببهم وعلى أيديهم ، فهم والله لذلك مجزيون ، وإلى الله بتبشيره راغبون ، وعليهم مُجلِبُون ، ولأعدائه مباينون وإلى دينه داعون ، وعلى أعدائه متعاونون ، ولا يعتريهم في ذلك سئامة ، ولا تلحقهم فيه فترة ، لعلمهم بعظيم موقع ذلك من المنفعة للإسلام وأهله ، لا تأخذهم في الله لومه لائم ، مع ما قد أكد لهم ذلك من الروايات عن نبيهم صلى الله عليه [وآله وسلم] وفعل أئمتهم ، كمن فعل ذلك بعد النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] في قتال أهل الصلاة ، الذين منعوا الزكاة ، قالوا: نحن نفرقها ، فقال لهم: لو منعوني عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] لقاتلتهم ، فقال

---

(١) في (أ) و(ب): فبان وبان لهم فيهم.

(٢) في جميع المخطوطات: وهذه. والصواب ما أثبت.

(٣) في (أ) و(ب): سلب.

له أصحاب النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: أليس قد قال النبي عليه السلام: « من قال لا إله إلا الله فقد حقن بها دمه وماله »[1] ، وقال بعضهم: إن فيها « إلا بحقها » ، وهو من حقها ، فلم يرض منهم إلا بالإعطاء أو المحاربة ، ولو كانت المحاربة لا تكون إلا لأهل الصلاة لمنعه أصحاب النبي عليه الســـلام!!

---

(١) عن أوس بن أبي أوس الثقفي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف قال: وكنت في أسفل القبة ليس فيها أحد إلا النبي صلى الله عليه وسلم نائم إذ أتاه رجل فساره فقال: اذهب فاقتله ، ثم قال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله ، قال شعبة: وأشك أن محمدا رسول الله. قال: بلى ، قال: ((إني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص١٨/ح٢٥ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص٥٢/ح٢٠ ، وابن أبي الدنيا في الورع ج١/ص٤٨/ح١٨ ، والنسائي في سننه ج٥/ص١٥/ح٢٤٤٣ ، وابن حبـــان في صحيحه ج١/ص٤٠١/ح١٧٤ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٤/ص٧/ح٢٢٤٧ ، والترمـــذي في سننه ج٥/ص٣/ح٢٦٠٦ ، وابـــن ماجـــه في ســـننه ج١/ص٢٨/ح٧١ ، وأبي داود في ســـننه ج٢/ص٥٦/ح١٣٩٣ ، وابن حنبل في مســـنده ج١/ص١١/ح٦٧ ، والحـــاكم في مســـتدركه ج١/ص٥٤٤/ح١٤٢٧ ، والطحاوي في شرح معاني آثار ج٣/ص٢١٥/ح٠ ، والطيالســـي في مسنده ج١/ص١٥١/ح١١٠٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢١٨/ح٥٩٢ ، والنســـائي في سننه الكبرى ج٢/ص٨/ح٢٢٢٣ ، والدارقطني في ســـننه ج١/ص٢٣٢/ح٧ ، والطـــبراني في مسند الشاميين ج١/ص٩٠/ح١٢٩ ، وابن راهويه في مســـنده ج١/ص٢٩٦/ح٢٧٢ ، وابـــن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص١٨٨/ح١٥٢٣ ، وابن حنبـــل في فضـــائل الصـــحابة ج١/ص٣٨٤/ح٥٧٧ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٢/ص٤/ح٢٠٣١ ، وأبو يعلى في مســـنده ج١/ص٧١/ح٦٨ ، وابن الجارود في المنتقى ج١/ص٢٥٨/ح١٠٣٢ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٤٠/ح٥٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٢/ص٢٤٢/ح٨٥٨٣ ، وابن أبي شـــيبة في مصنفه ج١٠/ص١٧٢/ح١٨٧١٨ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٢٨٨/ح٢٤٤٦ ، والطـــبراني في معجمه الأوسط ج١/ص٢٥٥/ح٨٣٤.

فلما أجمعوا على التسليم وهم لا يجمعون [١] على خطأ ، ثم بدا لهم قبلُ قتال الكفار ، لعلمه بعظيم حذر ذلك على الإسلام إن فتحه عليهم ، وإن كان مَن منع الزكاة يجب قتاله ، فكيف بمن لم يَدَعْ منع الزكاة ولا غيرها مما [٢] هو أعظم منها إلا أتاه.

وعلى مثل ذلك وكان حرب علي بن أبي طالب عليه السلام للناكثين والقاسطين والمارقين ، وهم من أهل الصلاة ، وليس أحد من أولئك إلا وقد كان أقل معصية لله من معاوية حين ابتز الإمامة من المسلمين ، لأنه لم يكن في وقت من الأوقات أعظم إثما منه حين استبد بالأمر دون الفضلاء بالقهر والسيف ، ثم تخطئ إلى قتل حجر بن عدي وأصحابه على ليلة من دمشق ، فكاتبهم عنده الأمر بالمعروف والنهي عن النكر ، وألحق زيادا بأبي سفيان ، خلافا على الله وعلى رسوله ، في تركه للسنة المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] « أن الولد للفراش وللعاهر الحجر » [٣]. فسن قتل الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وسن الفتك بالمؤمنين ،

---

(١) في (أ) و(ب): ما منعه أصحاب النبي عليه السلام ، فلم يجمعوا على التسليم لا يجمعون.

(٢) في (أ) و(ب): ممن.

(٣) أخرجه النسائي في سننه ٦/ص٢٤٧/ح٣٦٤١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٤٣٤/ح٢١٢٠ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٩٠٥/ح٢٧١٢ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١١٤/ح٢٨٧٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٨٦/ح١٧٧٠٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٥٤/ح١١٢٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٥٤/ح٣٦٠٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص١٠٧/ح٦٤٦٨ ، والدارقطني في سننه ج٣/ص٤١/ح١٦٦ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٣١٠/ح٥٤١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٢/ص٩٠/ح٧٨٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٢١٢/ح١١٩٨٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٧٩/ح١٥٠٨ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٣٩/ح٩٤٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٢/ص٩/ح٥٨٥٩ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٤/ص١٤٨/ح٧٢٧٧ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣١٧/ح٢٥٢٩.

واتخاذ عباد الله خولا ، وماله دولا ، وأعداء الإسلام كسرى وقيصر أولياء ، فهو ثابت على تأسيسه إلى يومنا هذا ، بل يزداد كل يوم شرا وفسادا ، والحق اندراسا واضمحلالا ، وعلى أهله شدة ومحنة ووبالا وصغارا ، إلى أن يبعـــث الله أنصاره والذابين عنه ، والدافعين عن حريمه ، فيمدهم بمعونته عندما يعلم من حسن أنياتهم في إعزاز دينه ، ونصر حريمه.

فمن لم يوجب مع ما شرحنا قتال الفئة الباغية كان رادا على الله وعلى رسوله بما أوجب في كتابه ، وأكده الرسول عليه السلام بقوله: « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن أبوا فخذوا سيوفكم على عواتقكم وأبيدوا خضراءهم » [١] ، مع روايات في ذلك كثيرة قد ذكرناها قبل في كتابنا هذا.

ثم إن قوله إلى الطعن على الصحابة الوافين ، كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي لم يكن يفتر ولا يغفل من قتل أهل البغي دائبا مجتهـــدا ، حتى قال: « ما وجدت إلا قتالهم أو الكفر بما أنزل الله » [٢] ، ولم يمتنع عليه إلا كل منقوص لا يهتدى به ، وكذلك فعل القراء وأصحاب الحديث والعلم في خروجهم عليه وغيره.

فإن قال القائل بذلك قولا لم يسلم عليه أحد من الأمة ، إذ الأمة في ذلـــك أربعة أصناف ، كلهم قد رأى السيف: المرجئة أصحاب أبي حنيفة.

والشيعة تراه مع أئمتها.

والمعتزلة.

والخوارج.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نهج البلاغة خطبة/ ٤٣. البساط للناصر /٩٩ بتحقيقنا. ووقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقـــري /٤٧٤.

وقد خرج علماء أصحاب الحديث ، فإنما [يشك في هذا][1] من لا يرى ذلك ممن لا علم له ولا خشية في قلبه ، مثل ما في السنة القائمة والأخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « المقتول دون ماله شهيد ودون جاره شهيد ، ودون مظلمته شهيد »[2].

الذين رأوا السيف من الأمة أكثر ممن ادع النابتة الحشوية ، مع أنه يروى عن عبد الله [بن عمر] أنه قال: « ما آساء على شيء إلا صيام الهواجر والقيام في

---

(١) العبارة في المخطوطات هكذا: فإنما نبعى في بدى. وهي مهملة ، وغير واضحة المعنى. وما أثبت للتقريب فقط ، والله أعلم بالصواب.

(٢) عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٢/ص٨٦٦/ح٢٣٢٠ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص١٢٥/ح١٤١ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١١٤/ح٤٠٨٤ ، وابن حبان في صحيحه ج٧/ص٤٦٨/ح٣١٩٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩/ح١٤١٨ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٦١/ح٢٥٨٠ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٤٦/ح٤٧٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٧٩/ح٥٩٠ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٧٤٢/ح٦٦٩٧ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٢/ح٢٣٣ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٤٥/ح٨٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص١٥٣/ح٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٣٠٩/ح٣٥٤٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٤٧/ح٢٢٣ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٢٣/ح٣٤٠ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٤٠٩/ح٥٦٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٦٦١/ح٦٣٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٦٥/ح٥٨٥٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٩٠/ح٧٤٤ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٦٦/ح١٠٥ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٥٦/ح١٦٩٨ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٥٤/ح١٠١٩ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ص١١٥/ح١٨٥٦٨ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٤٧/ح٢٦٠٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٤١/ح٧٨٩.

آخر الليل وألا أكون قاتلت الفئة الباغية مع علي بن أبي طالب عليه السلام » [(١)] ، وهذا بابن عمر أشبه ، فبهذا وأشباهة من الحجة ما أوجب أهل العلم بالله والإجلال لمقامه والغضب له قتال أهل البغي لما في إزالتهم من ظهور الإسلام وعلو أهله ، ولما في نياتهم من فساد جميع الإسلام وقتل الدائنين به ، والمحامين عليه ، والناصرين له ، والذين بذلوا مهجهم وأموالهم ، والمهاجرين عن أوطانهم في إحيائه وتأميل إعزازه ، أو تأتيهم آجالهم وهم على ذلك من حالهم ، ويكونون قد أبلغوا المعذرة فيما بينهم وبين خالقهم ، ولما خافوا من عقوبة التضييع لذلك ، وأخذوا بالإستطهار على أنفسهم ، لما سمعوا الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النساء:١٠٧] ، ولا يجادل أحد عن أعداء الله ممن اقتطع بجداله عن محاربه من ابتز أمر المسلمين. وعمر بن الخطاب يقول: « من ابتز إمرة المسلمين عن غير مشورة فاقتلوه » [(٢)].

---

(١) عن سعيد بن جبير قال: ((لما أصيب ابن عمر قال: ما تركت خلفي شيئا من الدنيا آسى عليه غير ظمأ الهواجر وغير مشي إلى الصلاة)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص٢٣٠/ح٣٥٥٧٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج٨/ص١٨/ح٧٨٢٣.

(٢) عن عبد الرحمن بن عوف قال: حج عمر فأراد أن يخطب الناس خطبته فقال له عبد الرحمن بن عوف: أنه قد اجتمع عندك رعاع الناس وسفلتهم فأخر ذلك حتى تأتي المدينة ، قال: فلما قدم المدينة دنوت قريبا من المنبر فسمعته يقول: إني قد عرفت أن ناسا يقولون: إن خلافة أبي بكر كانت فلتة وإن الله وقى شرها ، إنه لا خلافة إلا عن مشورة ، ولا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا ، وإن ناسا يقولون: ما بال الرجم ، وإنما في كتاب الله الجلد ، وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقولوا: أثبت في كتاب الله ما ليس فيه ، لأثبتها كما أنزلت)). أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ص٥٠/ح٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٢٧٢/ح٧١٥١ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٣١/ح٣٧٠٤٢.

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ... ﴾ [هود:١١٣] الآية ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ... ﴾ [الممتحنة:١] الآية ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ... ﴾ [آل عمران:١١٨] الآية ، فنهى تعالى وعز أن نحبهم ولا يحبوننا بقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] ، قال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أَتَرْعَوُنَ عن ذكر الفاسق؟ فمتى يعرفه الناس؟! أذكروه بما فيه »[١].

أخبرنا يزيد بن محمد بن مقاتل أن النسيابورى قال: أخبرنا الجارود بن يزيد بن طريف بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « أَتَرْعَوُنَ عن ذكر الفاسق متى يعرفه الناس؟! »[٢] ، قال الحسن: « لم يبق من فضل عبادة إلا الوقيعة في أهل الريب »[٣] ، فشنئان الفاسقين أن يذكروا بما فيهم نصحا للمسلمين ، أن يعرفوا[٤] بمعايبهم ، ويعلموهم حكم الله فيهم ، ليعينوهم[٥] بذلك على حربهم ، والعون لهم على إزالتهم ، ويمنعوهم بإفهامهم ما يجب من ذلك عليهم ، من ترك معونتهم والدخول معهم في أمورهم ، وأن لا يخا لطوهم ولا يلابسوهم ، ولا يزوجهم[٦]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ب): يعرفهم.

(٥) في (ج): ليتبعوهم.

(٦) في (أ) و(ب): ولا يزوجهم. وفي (ج): ولا يتوخوهم. ولعل الصواب ما أثبت.

فيتمنون لذلك دفع السوء عنهم ، وليكن حذرهم منهم على قدر معرفتهم ، وعلى حسب ذلك يكون عندهم كل من عصى ربهم وانتـــهك حُرَمـــه ، أن تكون مباينته له ونفوره منه وبغضه له على قدر جنايته وجراءته وتقحمـــه ، وذلك أن الرجل ربما يخطب إليه حرمته فيخطبها فاسق معاين بفســـقه [١] ، وهو لا يعرفه ، فيسأل عنه أهل الخبرة به ، فإن قالوا له بما فيه كانوا قد أدوا النصيحة ، لأنه فرض عليهم أن يتناصحوا ، وإن لم يقولوا له بما فيه كانوا قد خانوا ، كما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه [وآله وســـلم]: « مـــن استشاره أخوه وأشار بغير رشده فقد خانه ، ومن خانـــه فقـــد خـــان الله ورسوله » [٢].

وكذلك في المعاملة وجميع ما يكون فيه المشاورة ، وإن لم يستشره فواجب أن ينبهه فيه ويشير فيه عليه بالصواب ، ويهديه فيه إلى الرشد والسداد ، فـــرض عليه أن يبتديه فيه قَبِلَ أم ترك إذا أمكنه ، وإلا فقد خان الله ورســـوله ، لأن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، ثلاثا ، قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولرسوله ولدينه ولكتابـــه ولجماعـــة المسلمين » [٣] ، وقال: « لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى للناس ما يرضـــى

---

(١) في (أ) و(ب): معين فسقه. مصحفة.

(٢) عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من تقول علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه ، ومن أفتى فتيا بغير ثبت فإثمـــه على من أفتاه)).

أخرجـــه البخـــاري في الأدب المفـــرد ١/ص١٠٠/ح٢٥٩ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ج٢/ص٣٢١/ح٨٢٤٩ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٨٤/ح٣٤٩ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٣٤١/ح٣٣٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١١٢/ح٢٠١١١.

(٣) سبق تخريجه.

لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه »[١] ، فكما أنه يكره أن يكون على خطأ في قول أو فعل في أمر الدين والدنيا ، فلا ينبهه عليه نصحاؤه ، فكذلك يحب عليه لجميع الخلق النصيحة ، على ما يمكنه ويجد إليه سبيلا ، فكيف إذا استشاره؟! هذا به أولى ، وعليه أوجب ، وله ألزم ، فمتى رضي الفاسق عندما يُسأل عنه ، لم يكن[٢] قد أدى النصيحة إلى أخيه ، و لم يكن للفاجر حرمة ولا غيبة. هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « أترعون عن ذكر الفاجر حتى يعرفه الناس ، أذكروه بما فيه يعرفه الناس »[٣] ، وإنما الغيبة في الحقيقة المنهي عنها بقوله صلى الله عليه [وآله وسلم]: « من ذكر من أخيه ما فيه فقد اغتابه ، ومن قال فيه ما ليس فيه فقد بهته » ، فهو كما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه رأى بعض نسائه عائشة وقد مرت مارية القطبية بها أم إبراهيم ابنه عليهما السلام ، وأشارت إليها بقدمها أنها قصيرة ، على وجه الهزوء منها ، والعيب لها بذلك ، فجعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك منها غيبه لها إذ عابتها فيها لا عيب فيه عنده ، وما ليس من كسبها.

وكذلك إذا غاب الرجل أخاه بقبيح مخارج كلامه لنقص خلقه ، أَوَكل ما أشبه هذا مما لا فعل له فيه ، من قبحه في المنظر وغيره ، فهو غيبة لا يحل له ذلك ، وعليه الاستغفار والندم لما كان منه إليه. وكذلك إن عابه بأمر قد كان فعله وتاب منه ، أو عابه بأمور تشغله عن المناجاة ، على جهة الوقيعة ، فهو

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ) و(ب): فمن رمى الفاسق عندما يسأل عنه كان قد أدى. وفي (ج): فمتى رضي عن الفاسق عندما يسأل عنه كان قد أدى النصح إلى أخيه سيما في الفاسق عندما يُسأل بأن قد أدى النصيحة و لم يكن. ولفقت النص من الجميع.

(٣) سبق تخريجه.

غيبة لا يحل له ، فأما أن يقول فيه شيئا ليس فيه قل أو أكثر فهو هتب ، كما قال النبي عليه السلام ، فأما إذا كان فيه معصية قد أصر عليها ، أو لم يتب إلى الله منها ، فينبغي أن ينبهه على ذلك في ستر ، فإن لم يراجع فالواجب عليـــه هتكه والتنبيه على سوء حالته [1] أن يكون في ذلك هتك نفسه ، وإيجاب حد عليه في ظاهر الحكم ، إذا كان الذي اطلع عليه منه مستورا في الظاهر عنـــد الناس ، فأما إذا لم يكن كذلك فالذي يجب عليه من هتكه ما قاله النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أذكروه بما فيه يعرفه الناس ».

ومن ذلك ما روت عائشة ، والحارث بن صرار الخزاعي ، وغيرهما: ، عـــن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إن خزاعة أتت إلى النبي (ص) صلى الله عليه [وآله وسلم] فأسلموا وكان رئيسهم الحارث بن صرار الخزاعي ، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار قريش ، وإنا لا نســـتطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، وإني صائر إلى قومي فأجمع صدقات من أســـلم منهم ، فإذا كان في رأس الحول أرسل إلينا من يقبض صدقاتنا ، فقال له النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: نعم ، ووعده ، فلما كان في رأس الحول أرسل إليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فلما صار في بعض الطريق خاف فرجع وقال: يا رسول الله أتيت الحارث بـــن ضـــرار وقومه فحددوا لي القتال وهموا بقتلي ، فوجه النبي صلى الله عليـــه [وآلـــه] وسلم جيشا إلى الحارث بن ضرار وإلى خزاعة ، فلما كان الجيش في بعـــض الطريق لقيهم الحارث بن ضرار في سروات قومه وقد حملوا صدقاتهم ، فقال أمير الجيش: يا حارث بن ضرار أردت قتل رسولَ رسولِ الله ، ومنعت الزكاة ، وارتدت عن الإسلام! فقال الحارث: والذي بعثه بالحق مـــا أخـــرجني في سوات قومي إلا إبطاء خبر رسول الله عني فقدم المدينة ، فلما أتى النبي صلى

---

(١) في (أ) و(ب): هتكه على سوء حلقه له أن.

الله عليه [وآله وسلم] قال: هيه يا حارث أردت قتل رسولي ، ومنعت الزكاة ، وحددت له لقتال؟! فقال الحارث: والذي بعثك بالحق ما أخرجني في سروات قومي إلا إبطاء خبرك عني ، وهذه صدقات قومي ، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات:٦] ، فسمى الله الوليد بن عقبة فاسقا ، ونهاهم أن يقبلوا ما قال لهم الفاسق »[١].

وقال ابن مسعود: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أنا أندى منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأشد منك في الكتيبة جنانا ، فقال له عليه السلام: « اسكت فأنت فاسق فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨] ، فسمى الله الوليد هاهنا: فاسقا»[٢] .

فلا ينبغي لعبد أن يتورع عن ذكر الفاسق المعلن بفسقه ، والإمام الجاير وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته ، ففرض على المؤمنين إخبار الناس بما فيهم ليحذروهم ، نصحا لله ولرسوله وللمسلمين ، وذلك من عرى الإيمان ، كما قال أبو ذر رحمة الله عليه عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »[٣] ، وقال الله جل ثناؤه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية ، فأهل المعرفة بالله والإجلال

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن المغازلي في مناقبه /٣٢٤(٣٧٠) ، (٣٧١) ، وأحمد بن حنبل في الفضائل ، والبغدادي في تاريخه ٣٢١/١٣ ، وابن جرير الطبري ٦١/٢١ ، وابن كثير في تفسيره ٤٦٢/٣.

(٣) سبق تخريجه.

لمقامه هم الذين لا يتولون من حاد الله ورسوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية.

وقد قال عبد الله بن مسعود: لا ينبغي لأولياء الله من أهل دار الخلود أن يكونوا من أولياء الشيطان ، من أهل دار الغرور في محبتهم ووهم ، فإذا لم يوآدوهم و لم يخالطوهم كانوا قد وافقوا الله في محتبه ، وأدوا إلى الله النصيحة فيهم بما قالوا ، أو سخطوا عليهم ولعنوهم للعنة الله لهم وسخطه عليهم. فذلك هو الغضب كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن شيء الفاسقين غضب الله له » ، وبذلك فليقتد أهل العلم بالله والإجلال له ، ثم اعلموا أن تثبيت الله وحبله لا ينقطع عمن [1] استمسك به ، ولا يذهب بمن تمسك به إلى غيره ، وعن قليل تنقطع الأسباب بالظالمين ، حتى يتبرأ بعضهم من بعض ، فبعدا للقوم الظالمين ، [2] ، والعاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب والحمد الله ، وصلى الله على محمد النبي المصطفى وعلى آله وسلم تسليما ، ورحم وكرم كثيرا مباركا طيبا.

---

(١) في (أ) و(ب): لمن.

(٢) سقط من (أ) و (ب): ما بين القوسين.

كتاب

الهجرة والوصية

كتاب الهجرة والوصية

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلواته على محمد الأمين وآله الاكرمين.

الحمد لله رب العالمين، هادي من اهتدى من المهتدين، وولي رشد من رشد من الراشدين، هو الله الذي دل على وحدانيته وربوبيته، بما أظهر لهم في أنفسهم من آثار قدرته، بتقديره وتدبيره إياهم، وحكمته في تأليف خلق أعضائهم وأبدانهم، باطنها وظاهرها، وما في ذلك وفي حواسهم الخمس، من أبصارهم التي بها يبصرون، وشوامهم التي بها يميزون بين الأرايح الطيبة، والمشمومات المتنة، وحاسة الذوق من اللسان والفم، التي بها يميزون ويفهمون مذاق كل ما له طعم، وحاسة السمع التي يدركون بها كل مسموع من الأصوات، ويفهمون ما فيه من ضر ونفع، والحاسة الخامسة التي في جميع البدن وهي حاسة اللمس اللامسة، التي بها يوجد كل حر وبرد، ويابس ورطب وخشن ولين.

مع ما لا يحصى ولا يؤتى عليه بعدد من آثار حكمته وتدبيره، في جميع كل ما صنع ودبر من الإنسان وغير الإنسان، وجميع ما في الأرض برها وبحرها من الدواب والطير والحيوان، المختلفة في صورها وهيئاتها وتركيبها وأغذيتها وأصواتها وظلها، وكل ما في السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس وجميع الحيوان، والشمس والقمر والنجوم، وما يحدث الله بجريها وطلوعها

وأفولها من تغير الأزمان، وما يدرك به الليالي والأيام من العدد والحساب، وإحاطة الفلك بذلك كله ودوره على أعلاه وأسفله دائبا لا يفتر طرفة عين، عند فكر من فكر ونظر، ولا في غفلة الغافلين، وما في الحيوان في البر والبحر من الإنسان وغير الإنسان، من عجيب صنعته أزواج الإناث والذكران، وتصريف نسولهم في الأرحام، وما يكون منها يبيض في العش والأكنان، واختلاف أحوالها في الصور والهيئات والاعتدال والألوان، التي إنما تحيط العقول والفكر إذا اجتهدت وتفرغت لإحالة التفهم والنظر، بقليل من كثير، وصغير من كبير، ما يحيط به صانعها الذي صنع كل عجيب حكمة وابتدع.

ولا بد أن يفهم كل ناظر نظر، ومفكر عاقل فكر، أن لما ذكرنا من المبتدعات من مبدع، إذ لا بد لكل موضوع مصنوع محدَث من واضع، كما لا بد باضطرار لكل مدبَّر من مدبِّر، وكما لا بد لكل مرفوع وإن لم يُر مَن رفعه من رافع، وكذلك لكل مصوَّر أو مبني وإن لم يُر مَن صوره وبناه فلا بد له من مصوِّر بان، وكذلك فلا بد للإنسان وغير الإنسان من الحيوان من خالق لهم، ومصور صوَّرهم وتولى صنعهم وتدبيرهم وابتداعهم وتصويرهم، وذلك فهو الله الواحد الحكيم، الأول قبل كل أول، والقديم الجواد، الذي كل جود من فضل جوده، الرءوف الرحيم، الذي هو أرحم وأرأف بجميع ما خلق من الوالد الرحيم بولده، بل رحمة الآباء والأمهات من فضل رحمته، ولا بد لكل مدبَّر محكَم ومصرَّف من مدبِّر حكيم مصرِّف.

وبلا شك فلا بد لكل ما وجد مبتدَعا محدَثا مصوَّرا مصنوعا مؤلفا، من مبتدِع صانع محدِث مؤلِّف مصوِّر، بل قد شهدت فطر العقول عند كمال فطرتها قبل جولانها بالنظر وغوص الفكرة، أنه رب كل الأشياء، مما في الأرض وفي السماء، وولي صنعتها، وذلك في جميع الناس، وكل البشر سودانهم وحمرانهم من كل الأجناس، معرفة طباع وفطرة، إذ لا يحتاج فيها إلى نظر وفكرة، وهو الله الذي لا تشبهه جميع الأشياء، ولا تشبهه في شيء من

صفاتها، لأنه لو أشبه شيئا من أجزائها أو كلها، للحق به ما يلحق بها من صفاتها وأسمائها، حتى يكون بكثير مما وصفت به موصوفا، إذ كان كل شبيه لما يشبهه مثيلا، ولحاله أو ببعضها معروفا، والله تبارك وتعالى الواحد الحق في الوحدانية، الأول الذي لا مثل له في القدم والسبق والأولية، البعيد من شبه ما برأ وفطر وصنع من البرية، بل هو الله الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ - كما قال سبحانه - وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وهو الله ذو القوة التي لا تبلغها قوة، والقدرة العالية فوق قدرة كل قدير، كل من خلق سبحانه من خليقته فهم مفطرون على معرفته بأبين معرفة، أنه ليس له نظير ولا صفة، كما يعرف الأطفال بإلهام الله إياها بغير فهم ولا فكر، بل بما ركب الله فيهم من غريزية الطباع والفطرة.

وكذلك يقال فيما قد اتفقت به الأخبار، وجاء في كثير من الآثار، أن الملائكة والجن والإنس والبهائم كلها والأطفال مفطرون على معرفة الصانع الإله الباري ذي الجلال والإكرام، فللملائكة في المعرفة به وبجلاله وعظمته أفضل مما للجن والإنس والبهائم في معرفتها بربوبيته، خلاف معرفة ذوي العقول المكلفين، وهي معرفة طباع وولوه غريزية، لا كمعرفة ذوي العقول الناطقين، وكل بني آدم من أهل الإيمان والمشركين، فيثبتون الله صانعهم وصانع كل جميع ما يرون، لا يشكون في ذلك جحودا لصانعهم ولا يمترون، وإن ضلوا بعبادة الأوثان.

وقد ذكر الله ذلك عن مشركي أهل الجاهلية في آي من القرءان، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧]، فهو الله الأول قبل كل أول، وهو الله الآخر الباقي بعد كل ما خلق وجعل، وهو

الله المعروف الظاهر في فطرة العقول بأيقن الإيقان، وهو الله الباطن الخفي عن درك العيون، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الحديد:٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحي القيوم، ذي العظمة والجلال الذي لم يزل ولا شيء غيره ولا يزال، كان قبل كل خلق وزمان، ولا يزال إلى غير غاية ولا ميقات أوان، لا يتبدل ولا يتغير، ولا يلم به عرض من الأعراض فيتحول، جل عن ذلك وتقدس من ليس له نظير ولا مثيل، فاطر كل موجود، وليس يحيط (١) به شيء من الأشياء، جل وعلا عن صفة المحدود، ذو البقاء والثبات والدوام، لا تجري عليه ولا تناله ساعات الليالي والأيام، وكيف يجري عليه أو يحيط به من ليس بينه وبينه مشابهة ولا صلة، وما هو سبحانه خَلقَه وصَنعَه، ولم يزل متقدما قبله.

وإذ الليالي والأيام وما مضى وبقي من الزمان عدد حركات الفلك ودور الشمس والقمر، والنهار علامته ظهور الشمس، وجريها في السماء فوق الأرض ووجودها، والليل فعلامته تغيُّب الشمس تحت الأرض وفقدها، والشهر فهو قطع القمر للفلك ونزوله في جميع بروجه، فإذا أتى على بروجه كلها بسيره وجريه ودوره فذلك شهر، والسنة هي نزول الشمس ودورها على جميع منازلها من الفلك، فإذا نزلت في جميع منازل البروج وقطعت الفلك فذلك سنير السنة، وبدور هذه النجوم وبالسنة والشهر والليلة واليوم يدبر الله سبحانه ما خلق.

والزمان فهو عدد حركات جري الشمس والقمر والفلك، وهذا العدد وقته حساب القمر الذي وقّته الله للإنسان وغير الإنسان، قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ

---

(١) في المخطوط: محيط. ولعل الصواب ما أثبت.

﴿ [فاطر:١١]، والكتاب هاهنا فهو العلم من الله بما يعطي خلقه ويهب لهم من الأعمار، فيكون معلوما عنده علما لا يتغير، فشبهه الكتاب بثبت ثبات ما لا زيادة في ولا نقصان، كثبات ما رقم بالخط من الحساب، تمثيلا من الله سبحانه لثبات علمه بما كتب، فهو في اللسان العربي لا يحتمل غلطا ولا زيادة ولا نقصان بعد تصحيحه ورقمه، ولا يتوهم من يعقل أن الكتاب هاهنا خط من الخطوط، بل هو الأمر الثابت في علم الله وحكمته.

وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن:٥]، يريد بالحسبان: الحساب، فليس شيء مما خلق الله تبارك وتعالى في الأرض ولا في السماء إلا وهو يجري عليه الزمان، من الإنسان وغير الإنسان، غير أن السماوات من المخلوقات هي أبعد في الضعف والبلاء والأوقات، لأن السماء أكرم بنية من الأرض، وهكذا فضَّل الله بعض الخلق على بعض.

وكذلك ما في الأرض أوهى - يا بني - وأضعف مما في السماء السفلى، وما في السماء من نجومها وملائكتها أقوى وأبقى، بتبقية الله ما في الأرض السفلى من الإنسان وغير الإنسان، قال الله تبارك وتعالى وهو يصف ضعف الإنسان وبدو خلقه ثم قوته، في أوسط عمره، ورجوعه إلى الضعف والبلاء في آخر مدته وأيامه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الروم:٥٤].

فسبحان خالق الأرض والسماء!! الذي ليس لغيره دوام ولا بقاء، كل ما سواه فإلى زوال وفناء، هو معمِّر المعمَّرين، ومفني من مات وهلك من الميتين، لا تجري عليه سبحانه مدد الأزمنة والدهور، وهو مدبِّر الخلق والأمور، وإليه المنقلب والمعاد والمصير.

وبعد - يا بني وولدي - فهذه وصيتي لكم واختياري، حين كبرت سني، وجربت الأمور وأدبر عمري، وأشرفت على الرجوع إلى صانعي وإلهي

وخالقي، وخفت أن يحول الموت الذي لا بد منه لكل مخلوق بينكم وبيني، فتبقوا أغمارا جهالا بما فيه رشدكم، وألا تجدوا بعدي مَن يفهمكم بما فيه صلاحكم، في أموركم ومعايشكم، لما سترون من اختلاف أخبار الناس عليكم في الأديان، ومصالح المعاش والآداب وأخبار البلدان، واختلاف الناس في هذا كله قليله وكثيره، إنما هو باتباع أهوائهم، واختلاف عقولهم وآرائهم، وما قبلوا من غي أو رشاد أو خطأ، والخطأ الغالب عليهم من آبائهم، إذ حقت الفرقة لكم بالوفاة، وأن تبقوا بعدي بين قرابة وعامة أكثرهم جفاة، وكنتم أحداث الأسنان، لم تخبروا حوادث الدهر والزمان، ولم تفهموا أمور الناس واختلافهم في الأديان، ولا كيف التأني في المعايش ومصالح الإنسان، وما يحسن من الأمور والأخلاق، ومواضع البُلَغ والأرفاق.

فرأيت يا بني أن أضع لكم إن شاء الله ما تحتاجون [إليه] أعظم الحاجة في أصول الدين طرفا، وأن أرسم لكم الصواب إن شاء الله تعالى، وبعون الله وهدايته في أمر معايشكم والاختيار، لكم ولمن لعل الله أن يهبكموه مِن نَسلٍ بعدكم من قبل وصيتي، من ولد جدكم القسم بن إبراهيم رحمة الله عليه، تزول به عنكم شكوك الحيرة، وتُكفَون به إن شاء الله في الاختيار والإعتباد طول الأمد في التجارب والخبرة، ولم أضع لكم ما وضعت من وصيتي إياكم في هذا الكتاب إلا بعد طلوعي في العمر على الستين، وبعد - والحمد لله - ما أحطت بكثير مما لا يستغنى عن خبرته من أمر الدنيا والدين (١) حتى أتيت فيه على أكثر ما يُحتاج إليه في البحث والخبرة، وبعد أن نظرت في كثير من علم العرب وكثير من علم العجم، وبعد أن خبرت بالمحاضرة وتخبَّرت بالمسألة أخبار كثير من البلدان والأمم، فمن الأمم من خبرته بالمشاهدة والمعاينة والمجاورة والمساكنة، ومنهم من تخبَّرت عنه من يخبره ممن يجاوره ويساكنه، ممن

---

(١) في المخطوط: الدين والدنيا. ولعل الصواب ما أثبت.

أثق بفهمه وصدق قوله وحديثه، حتى كأني رأيتهم في بلدانهم، وكأني عاينت جميع أمورهم وشأنهم، ومن البلدان ما رأيته عيانا، وسكنته زمانا.

فأما الذين فهمت شأنهم وأديانهم، وآدابهم وأخلاقهم، فللعرب من اليمن ومن نزار، الأبرار منهم والفجار، والفرس وأهل خراسان، والسند والروم والسودان، فهؤلاء الأجناس والعرب منهم قد خَبِرتهم في بلدانهم وأوطانهم، وفهمت ما هم عليه من مذاهبهم وأخلاقهم، فأما من سميت من أجناس العجم فقد خَبِرت بعضهم في بلدانهم، وفهمت كثيرا مما هم عليه في أرضهم من شأنهم.

فمما سكنت وخبرت وتخبرت من أرض العجم العراق، أقمت به سنين ببغداد والبصرة حينا وزمانا، ودخلت الأهواز ورأيت أهل كورٍ كثيرة من أهل خراسان، وفهمت برؤيتهم والأخبار عنهم ما هم عليه أو أكثره في بلدانهم، من الأخلاق والشأن، ودخلت بعض أرض السودان، من البجة وطرفا من مواضع الحبش.

وأما المغرب والبربر والجزائر والبحرين، فإن أبي رحمه الله كان قد أقام بمواضع من أرض المغرب دهرا، وساد إلى أقصاها أشهرا.

والشام وغيرها من بلدان الإسلام، فقد بحثت عنها بحثا شافيا، حتى كنت بالاستخبار عنها وبالفتش والعناية ما كان لأبي عنها من الاختبار، فصرت عن معاينتها مستغنيا مكتفيا، ولو كانت الخبرة والعلم في الأمور والبلدان لا يكتفى فيها بصحيح الخبر والإستغنا في فهمها إلا بالعيان، لما فهم أحد ما لم يعاين، ولا كان له بغائب إيقان، ولكثرة الأمم وبلدان العرب والعجم، عن أن تُدرك بالعيان وتفهم، ولكن كل غائب يثبت عنه صحيح الخبر فذلك يشفى فيه ويدرك به منه مثلما يدرك بالمعاينة والنظر. ولو لم يكن ما ذكرنا يدرك ويفهم إلا بالعيان، لَمَا فهم أحد ما لم يعاين، ولَقَصُر عن ذلك أطول عمر الإنسان.

وسأنبئكم إن شاء الله تعالى عن كثير مما صح عندي من أخبار الأمم وشأنها، وأخبار كثير مجملة من أخبار بلدانها، إذا جاء وقت الإخبار عنها في مواضعه، فتمسكوا إن شاء الله بفهم ما أخبركم به، فإن في ذلك كفاية لكم كافية، وخبرة قد كفيتكم تحصيلها شافية، فلست آلوكم تحصيلا لصحيح الأخبار، وما لم يدرك مثله أو بعضه إلا بعد اختلاف أخبار الناس، أو بعد عمر طويل وأعمار.

فتفهموا - إن شاء الله ولا قوة إلا بالله - ما سأبينه لكم، والتوفيق والمعونة من عند الله، تستغنوا بتحصيل ما حصلت لكم من الخبر، عن انتظار التجارب التي لا يحصل لكم منها يقين الفهم إلا بعد طول العمر، وأنا سأضرب لكم مثلا جامعا في قبول ما كفاكم الله خبرته، حتى جمعته لكم في آخر عمري معا، وذلك من المثل فيَّ وفيكم، وفيما ألقيه من محصول حقائق الاختبار في الدين والدنيا إليكم.

مثل رجل كان له وُلدٌ صغار جهال أغمار، يحتاجون إلى خبرة - الأمور في الدين والدنيا - كثيرة، واختبارهم لذلك بطلب بينه وبينهم مسافة بعيدة مسيرتها ستون سنة، وكان أبوهم قد أخبرهم خبرها، ودخلها وعاين أكثرها، فأخبرهم عنها وهو والدهم لا شك في نصحه لهم، وعطفه بالرأفة والرحمة والرقة عليهم، فرأى أن يُفهِّمَهم ما يحتاجون إلى فهمه، لما خشي أن لا يبلغوه، ولا يحيطوا فيه بمثل اختباره وعلمه، فشرح خبر تلك البلاد لهم، وعلم أن ما أحاط هو به مما يحتاجون إليه ولا يستغنون عنه، لن يدركوه إلا في آخر أعمارهم التي شبهها بمسافة البلد، والبلد فمثل الأمور التي لا يستغنون عن خبرتها ولا يستغني عنها أحد، لأني لم أفهم الأمور التي سأشرحها لكم إلا بعد طول التعمير، والمسافة إلى الإحاطة بالتجارب التي لم أدركها إلا بعد التمييز، من الفهم والنظر ستين سنة أو نحوها.

فإنكم إن لم تكتفوا بما أخبرت وحدثت وجربت، وأردتم اختبار ذلك لأنفسكم، لم تفهموا منه بعض ما فهمت إلا بعد أن تعمروا شبيها مما عمرت عند إختلاق جدَتكم إن الله عمَّركم وأخَّركم، وحينئذ لا يبقى إلا اليسير من أعماركم، فمن كان عقله منكم صحيحا، فسيعلم إن شاء الله أني لم آله إلا رحمة له من الغلط نظرا صحيحا ونصحا، بل لعلي أن أكون بسبقي لكم أقوى منكم فهما، وأحسن تفقدا للأمور وتفهما. والله أسأل أن يهبكم البابا وعقولا وعلما.

فخذوا يا بني ما قد كفاكم الله اختباره، واقبلوه وأَقرُّوه في العمل به من قلوبكم قراره، والله أسأل لكم العون والرشاد، والتوفيق في أمور دينكم ودنياكم للصواب والسداد، فإنه لا يجتهد لكم قريب ولا بعيد من بعدي في النصح لكم والنظر والشفقة عليكم من الغلط اجتهادي، والله أسأل لكم ولي العون والرشد والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم الكريم، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وعلى آله الأبرار من ذريته وآله.

[التوحيد]

فأول ما أنا قائل لكم، وشاهد به معكم وقبلكم، أن الله ربي وربكم، وخالقي وخالقكم، ربنا ورب آبائنا الأولين، وأنه خالق السماوات والأرضين، وما بينهن وما فيهن من الخلق أجمعين، الذي أحياني وأحياكم بعد أن لم نكن شيئا، وهو الذي يميتني ويميتكم سبحانه ولن يزال حيا.

فأشهد وتشهدون أن لا رب ولا إله غيره، وأن إليه منقلبي ومنقلبكم، ومعادنا ومعاد كل مخلوق ومصيره، وأنه إلهنا الذي خلقنا وبرأنا، وخلق قبلنا أمهاتنا وآبائنا، فعطفهم بالرأفة والرحمة علينا، فمن إحسانه ونعمه، نِعمُ الآباء وإحسانهم إلينا.

وأشهد وتشهدون معا أحياء وعند الوفاة ويوم النشور: أن محمدا رسول الله وخيرته ومصطفاه، وأنه قد بلغ رسالات ربه، وصدع مجتهدا صابرا مجاهدا بتبليغ ما أمر به، فلم يقصر في شي من أمرر الله وطاعته، و لم يزل مجتهدا مجدا في الله طول حياته، حتى صار إلى الله راضيا مرضيا، مقدسا رفيعا عند الله زكيا، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما، وزاده من زيادات كراماته تشريفا وتعظيما.

وأشهد وتشهدون أن إلى الله المنقلب والمصير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

[حب الله شكر لنعمه]

فأول ما أنا به موصيكم حب الله وتقواه وطاعة خالقكم وبارئكم، الذي صنعكم وفطركم، وصوَّركم فأحسن صوركم، خلقا من بعد خلق في ظُلَم الأرحام، كما قال الله سبحانه وتعالى وهو يخبر عن خلق الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، وهكذا كما قال تبارك وتعالى: أنشأكم وقدركم، وفي هذه التارات والطبقات من التصوير نقلكم وصوركم، وهو أولى بكم وبملككم من آبائكم وأمهاتكم، إذ ليس للوالدين فيكم حجة غير الحركة التي كانت بها النطفة في الرحم، ثم كان سبحانه هو الذي دبَّرها وصرَّفها ونقلها، حتى أتم من خلقه ما أراد أن يتم، رأفة ورحمة وجودا وكرما، فوهبكم لآبائكم، وابتدأكم بخلقكم، من غير حاجة منه إليكم، بل لما أراد من الإفضال والجود عليكم، ثم لم تزالوا تتقلبون في نعمه، وفضله وعطاياه وكرمه، صغارا وكبارا، وليلا ونهارا، ومع كل نَفَس وطرفة عين.

يعرفكم سبحانه في أول ما ذكرنا وآخره أنه ربكم، ومالكم ومدبركم ورزاقكم، إذ ليس من نعمة أنعمها أب وأم عليكم إلا وهي منه، لا صنع فيها لصانع ولا لوالد، غير أنه أجرى ذلك على يدي الوالدين وأوصله إليكم، والذي أوصل إليكم بالوالدين من النعم فنعمه فيما ظهر وبطن أكثر من ذلك أضعافا وأعظم، إذ هي مع كل نفس ولمحة عين وطرفة، وفي كل نوم وهدوء، وعند كل سكون وحركة، ونعمه كما قال تبارك وتعالى أكبر وأوفر وأدوم

من أن تعدى وتحصى. قال الله سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال جل وتقدس: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس:١٧-٢٣]، فذكر نعمةَ صنعِ العظام الأولى التي أبتدأ بها الإنسان، طَولاً منه وامتنانا وتفضلا، من خلقه له وصنعه إياه، ثم ثنى بذكر النعمة في طعامه الذي به غذاؤه، ومنه مادته وبدا إدامته وإبقاؤه، فقال تبارك وتعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢]، يعني سبحانه: بُلغةً لكم في الغذاء الذي به دوامكم في هذه الدنيا وبقاؤكم، ومتاعا وبلغة لأنعامكم إذ ما أنزله من السماء فصبه صبا هو الذي أنبت به ما ذكر أنه شق الأرض عنه شقا، من الحب والعنب.

والحب فهو: الحبوب كلها، المتغذى بها من البر وغيره من الحبوب التي أنبتها للعباد، وكثّرها وبثها في البلاد، فلم يجعلها للمطيعين دون العاصين، بل منَّ بها على البشر كلهم أجمعين.

والقضب فهو: القضب المعروف الذي أنبته الله في الأرض كلها، وجعله غذاء ومنفعة لدواب أهلها.

والزيتون فهو: شجر الزيت الذي به يأتدمون.

والنخل فمنه: الرُّطَب والتمر الذي يأكلون.

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾، فالحدائق هي: الأرضون التي تضم الأشجار كلها، التي جعل الله لبني آدم منافعها.

والغُلْب من الحدائق فهي: الملتفة العامرة القوية، التي قد استغلبت واغلولبت، فهي غلبٌ قد تمت والتفت وكملت.

والأبُّ فهو: الأصول التي جعلها الله للبهائم والمواشي نابتة عند المطر وبعده، وفي أوقات الجدب من الأشجار النابتة، والأصول القوية الثابتة، التي بها قوام دوابهم وبهائمهم، التي خولهم الله إياها، وجعلها قوام معايشهم.

فمَن أولى يا بني أن يشكر أبدا؟! ويطاع في كل ما به أمر، ممن أنشأنا وأنشأكم، وخلقنا وخلقكم، فصوَّر وعدَّل وركَّب الأبدان، فسوَّى وقدَّر، وأحكم كلما خلق غاية الإحكام بحكمته في جميع ما بطن وظهر.

فهو سبحانه أولى وأحق بنا من الآباء والأمهات، لأنه الصانع لنا، المصوِّر المنعم علينا بجميع النعم الظاهرات علينا والخفيات.

وأين وإلى أين المعْدَلُ عن إعظامه وإجلاله وشكره؟! فيا ويل لمن غفل عن اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، فنهانا عما لا يرضيه، وأمرنا بأداء ما يرضيه، فلهى ساهيا عما يحق ويجب من تسبيحه، وخشيته وذكره.

فعليكم يا بني أبدا ما بقيتم، وما بَلَغْته قوتكم وما استطعتم، باستشعار حبه، والكلف بذكره في باطن ضمائركم، وخوفه ورهبته في علانيتكم، وخفي سرائركم، وأن يكون حياؤكم منه أكثر من حيائكم من أمهاتكم وآبائكم، ومحبتكم له أعظم أضعافا لا يؤتي على عددها من محبتكم لأولادكم وأحبابكم.

فمن ذا وأين ذا الذي هو أولى بكم، ومن جميع الخلق بالتقوى والطاعة والمودة والحب، من الله الإله البر الرؤوف الرب الكريم، الذي تحتمل منا لا يحتمله آباؤنا البررة، ويحلم عنا مع وجوب عظيم حقه علينا، فيما نفرط فيه من

طاعته، وإغفالنا ذكره، ولو لا فضله وحلمه ورأفته وكرمه، لما حلم عنا ولا أخَّرنا طرفة عين، إذ خالفناه وعصيناه، فيما عنه نهانا، أو به أمرنا.

فأبدؤا يا بني بطاعته وتقواه، يَكُفُّ الله بطاعته وخشيته كل من يطيعه منكم ويخشاه جميع ما يهمه منكم من أمر آخرته ودنياه. فقد رأيتم كيف كرم الله ورحمته ولطفه وإحسانه وتوفيقه،ورأفته بجميع خلقه، مع معاصيهم وظلمهم لأنفسهم بإغفالهم عظيم ما يجب له عليهم من واجب حقه، لا يقطع بذلك عنهم ما يتصل بهم ليلا ونهارا من عطايا نعمه ورزقه.

فاتقوا الله ربكم وبارئكم، ذا الإحسان والنعم عليكم، معطي جميع النعم دقيقها وجليلها والخيرات كلها، عباده وخلقه من أهل الأرض والسماوات، فلله سبحانه وتعالى الدنيا والآخرة، ومنه تعالى النعم فيها الظاهرة والباطنة.

فاتقوا الله فالوصية لكم يا بني أفضل وأجزل من كل نفيس وعظيم من العطية.

وتقوى الله يا بني فهي الانتهاء عن كل ما حرم الله من جميع كبائر المعصية، وطاعة الله والمصير إليها، والإيثار لها، والصبر عليها، والنجاة في الدنيا والآخرة لها، من كل عظيمة وبلية.

ألا ترون يا بني كيف يقول الله سبحانه لرسوله وهو يذكر ما الرسول عليه من طاعته وحبه، فأمره تعالى أن يقول لأتباعه وأصحاب فيما كانوا يزعمون أنهم عليه من حب الله تعالى، فقال الله لنبيه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١]، ثم أخبرهم بالذي يتبعونه عليه، وما الحب لله الذي أمرهم به، فقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ ﴾ [آل عمران:٣٢]، فخبَّرهم تقدَّس ذكره أن من لم يطعه ويطع الرسول فقد كفر، وأنه لا يحب إلا المطيع له ولرسوله، يبين ما ذكرت لكم في آخر قول الله سبحانه هاهنا، فآخره موصول منه سبحانه في هذا الأمر بما قبله من القول، بيَّن فيه أن الحب له طاعته وطاعة رسوله، ثم قال سبحانه:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ [آل عمران:٣٢] يعني سبحانه: فإن أعرضتم وتوليتم عن طاعتي وطاعة رسولي التي بها أُمرتم فإن الله لا يحب الكافرين.

فعليك يا بني بطاعة الله وتقواه، وبغض معصيته وعداوة من عصاه، فتنجوا بإذن الله يا بني بطاعة الله من كل بلاء وشر، وتظفروا بالفوز والملك الباقي الأكبر، من ثواب الله لمن أحبه الله بالطاعة، وتنجوا يا بني بتقواه من عذاب النار والخلد فيها، الذي حل بأهل المعصية ومن تهاون بأمر الله فعصاه وخالفه.

فحرموا على أنفسكم في أيامكم القصيرة، ومدة حياتكم اليسيرة، ما حرَّم، واتقوه بالانتهاء عن معاصيه وعظايمها وكبائرها التي عظَّم، فإنه لم يحرم سبحانه إلا خبيثا قبيحا، كتحريمه لحم الخنزير والميتة، وحرم الدم المسفوح، فأي خبيث أو ممقوت منتن غثيث أخبث من الميتة والدم المنتن المسفوح؟! وكذلك ما حرم من الخنزير لنتنه وقبحه، فهو أقبح من كل مقبوح، وقد عوض بتحريم لحم الخنزير والميتة والدم إحلال ما لا يحصى من لحوم الطيور والدواب والبهائم.

[وصيته باجتناب الزنا]

وحرم سبحانه الفاحشة من الزنا، فإن الزنا - يا بني - عند الله من أكبر الكبائر، وأعظم الفحشاء، لما في ذلك من فساد الأنساب، وخراب الدنيا، والدَّخل في الأولاد والأرحام، وبطلان ما حكم الله به في ذلك من الأحكام، فليس في الزنا إربة في شهوة إلا وفي النكاح أفضل منها، بل في الزنا أعظم المعصية في مواقعه الفاحشة العظمى الكبيرة، التي قد أكد الله النهي عنها، وإنما يزني الزاني بمرأة من النساء قد أحل الله بالنكاح أجمل منها جمالا، وأفضل منها حالا، والحمل فيما يتوق إليه الرجل من المرأة كمالا.

فلو لم يحرم الله الزنا في كتبه جميعا، لكان في العقول أنه لا يجوز ولا يحسن ولا يصلح في معقول جميع البشر كلهم معا، أن يأتي فاسق ظالم متعد في حرمة غيره ما يكره أن يؤتى إليه في امرأته وحرمته.

كيف وقد حرم الله الزنا في جميع كتبه وأحكامه، وحَرَّمته جميع رسله؟!

فالحذر له الحذر، فإنه من أعظم ما نهى الله عنه وزجر، والبعد منه البعد في الكبر والصغر، فإن الله وله الحمد قد عصم أباكم منه صغيرا وكبيرا، فلم يات ولله المنة عليه في ذلك زنا قط جهرة ولا سرا.

قال الله تبارك في الزنا وتحريمه، والنهي عنه وتعظيمه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء:٣٢] (١)، وقرن الزنا بالكبائر والفواحش العظام الكبار، التي وعد عليها وعليه الخلود في عذاب النار، فقال في الزنا وفيها، وفيما وعد من العذاب عليه وعليها، وقرنه بالشرك وعبادة الأصنام، وقتل النفس - التي نهى الله عنها الحرام - وهو يصف حال من نجا من عذاب النار، من أوليائه وأهل طاعته الأبرار، وأن صفتهم وما به نجاهم الانتهاء عن هذه المعاصي العظائم الكبار، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩]، فحرم الله قتل النفس إلا بالحق، وحرم قتلها ظلما، وأحله إذا كان المقتول كافرا ظالما، ولم يحل الزنا في فقر ولا غنى، ولا أباحه قط سرا ولا علنا.

فالحذر له الحذر، والهرب منه الهرب يا بني، فإن الله قد أغناكم عنه غنى واسعا، موجودا بالنكاح لكرايم النساء، وجعل منه بدلا في كل ناحية وفج من

---

(١) في المخطوط: ﴿ ... إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾. ولا يوجد آية بهذا اللفظ.

فجاج الدنيا، بالأزواج الحلال الحسان، بالمهور اليسيرة، والأثمان في ملك اليمين القليلة، قال الله سبحانه وتعالى في صفة المؤمنين، وهو يخبر منهم عن الناجين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾ [المؤمنون:١ - ١١]، فأخبر الله سبحانه وتعالى في هؤلاء الآيات أن من فعل فيها وفيما وصف منها ما به أمر، وانتهى عما نهى عنه في هؤلاء الآيات وازدجر، كان عنه سبحانه راضيا، وجعله للفردوس في جنات النعيم دارثا، وكان فيها باقيا مخلدا.

فماذا يا بني في هذه العشر الآيات؟ من الوصايا من الله الشرائف الكريمات؟ فأي وصايا لا تبلغها وصايا؟! وقد أمرت بفضائل الخيرات والمكارم، ونهت عن منكر جليل من فاحش البلايا.

وكم يا بني لسيدي وسيدكم، ومولاي ومولاكم، في كتابه من هذا القرءان العظيم الذي نزل على نبيه من وصية ووصية جامعة؟ وعظة بالغة وعظات حكيمة نافعة؟ فقفوا إذا قرأتموه على وصايا الله فيه الجامعة، تعرفوا إذا وقفتم وتفهمتم الأمور كلها الضارة والنافعة.

[التحذير من اللواط]

واحذروا يا بني - عصمكم الله - الخطيئة والفاحشة العظمى، التي ليست خطية ولا فاحشة أعظم منها فوق الأرض ولا تحت السماء، وهي الفاحشة

الكبرى، وقد نهى الله عنها وزجر في مواضع كثيرة من القرءان، نهيا وتحريما مؤكدا مكررا، وهي من أنكر المنكر، عند من آمن وكفرن من كل أسود وأحمر، وهي إتيان الذكور، وذلك عند الله من أفحش الكبائر والشرور، ولو لم ينزل الله من ذلك نهيا وتحريما، لكان ذلك في معقول البشر والخلق كلهم جميعا حراما، وخروجا من المعقول كبيرا، فضيعا قبيحا هائلا منكرا، أن يكون ذكرٌ يركب وينكح ذكرا، لأن الذكران إنما خلقهم الله لمزاوجة الإناث، لما في ذلك مما أراد الله سبحانه بالناس من النماء والتناسل والكثرة والإنبثاث، فاعلين لا مفعولا بهم، والفعل منهم إنما أحله الله لهم في أزواجهم وملك أيمانهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١]، وقال في تحريم إتيان الذكور مرددا، وفيما عاقب به من فعل ذلك وما هو عليه من سخطه لمن أتاه موكدا، وهو يذكر عن نبيه لوط، وما كان من إنكاره على قومه لهذا الذنب العظيم عند الله المسخوط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف:٨٠ - ٨١]، وقال: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وقال سبحانه عن لوط، صلى الله عليه وسلم فيما كان ينهاهم عنه من الذنب الأعظم المسخوط: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل:٥٤ - ٥٥]، وقال سبحانه وهو يخبر عن تدميره لهم، وما عذبهم به من الخسف بهم، ورميهم بالحجارة قبل الخسف، وما حل بهم

من الدمار والحتف: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود:٨٢ - ٨٣].

[أحاديث وآثار في اللواط وعقوبته]

وفي الخبر الثابت الصحيح وما أنزل الله عليهم من الحجارة والعذاب الأليم: ((أن ملكا من الملائكة أُمر بقلع أرض قوم لوط، سخطا من الله سبحانه عليهم فيما كانوا يأتون من عظيم الفاحشة، فقلع أرضهم بهم من أسفلها، وحملها بهم على جناحه عند الصبح حتى أقلها، وأمر الله نبيه لوطا أن لا يلتفت إليهم، لأن لا يرى عقوبتهم وهولها فيفزع صلى الله عليه وسلم ويذعر، لما يرى بعذابهم من الفضاعة والهول الأكبر وذلك أنه ذُكر أن الملك لما قلع أرضهم بجناحه وهم فوقها، رماهم الله بحجارة من سجيل وهو يقلبهم وأرضهم في الهوى، ورُموا فيما ذُكر من الأخبار بشهب من النيران فأشعلتهم، وأخذتهم الحجارة من السجيل فرضختهم، ثم قلب الملك حين علا بهم في الجو أرضهم، فجعل عاليها سافلها عقابا لهم)) [1].

فأي أمة بجرم أو ذنب ممن أهلك من الأمم دمروا بمثل هذا التدمير؟! وعذبوا لشدة سخط الله عليهم بمثل هذا العذاب الهائل الكبير؟!

وكذلك ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه ((أتي بذكرين من الرجال أتيا الفاحشة من اللواط، فأمر بهما فرفعا إلى أعلا سورِ حائطٍ عالٍ، ثم نكسا فطرحا إلى الأرض من فوق السور، وأتبعا الحجارة رميا

---

(١) لم أقف عليه.

))، حكما منه عليه السلام فيهما بمثل ما أمكنه من تشبيه عقوبتهما بما فعل الله بقوم لوط في مثل فعلهما وخطيئتهما [١].

وجاء الخبر المنقول الثابت الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((اقتلوا الفاعل والمفعول به)) [٢]. ولم يجعل لقتله تأخيرا عنه، ولم يأمر فيه بضرب ولا حد من الحدود إلا القتل.

والحذر الحذر يا بني في الحداثة من أسنانكم والكبر، لهذه الخطيئة العظمى والذنب الأكبر، فإنه عند الله سبحانه من أكبر الكبائر وأنكر المنكر، فاحرسوا منها أنفسكم وذراريكم، واحذروا أن يخلو بهم في صغرهم أحد ممن تجهلون خبرهم من جميع من يأوي إليكم، حتى تكمل عقول أولادكم، ويفهموا ما حرم الله عليهم، وما في هذا ومثله من عقوبة خالقهم وسخط بارئهم، لأن هذه العظيمة من الفواحش مما قد سلم الله والدكم - ولله المنة عليه - صغيرا وكبيرا منها، فلم يأت ذكرا ولم يأته ذكر - ولله المنة عليه - في ذلك الأكبر، وبالله عصمة من اعتصم، وسلامة من سلم.

---

(١) رواه الإمام الهادي في الأحكام ٢/٢٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص٣٠٧/ح٨٩٢، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٧/ح١٤٥٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٥٦/ح٢٥٦١، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٥٩/ح٤٤٦٢، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٦٩/ح٢٤٢٠، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٩٥/ح٨٠٤٧، والطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص٢١٢/ح١١٥٢٧، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٣٢٢/ح٧٣٣٧، والدارقطني في سننه ج٣/ص١٢٧/ح١٤٣، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٥٦٦/ح٥١٦، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٣١/ح١٦٧٩٤، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٣٤٨/ح٢٤٦٢، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٠٠/ح٥٧٥، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٠٨/ح٨٢٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ص٣٦٥/ح١٣٤٩٤، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٨/ص٢٣٤/ح٨٤٩٧.

[التحذير من الخمر]

واحذركم يا بني ثم احذركم، وأنذركم يا بني عصمكم الله ثم أنذركم، الخطيئة المحرمة في كتاب الله، وهي باب إذا أدخله إبليسُ العبدَ طرحه دخولُه في كل بلية من مساخط الله، فإنها أم الخطايا، وباب البلايا، الذي يفضي بمن دخله إلى كل شر، ويوقعه في كل فاحشة.

ومنكر هذه الخطيئة التي حذرتكم فهي ما نهى الله عنه وحرمه من شرب المسكر، فإن الله لم يحرمه إلا لما فيهم من الشرور، وما يحمل عليه ويصير إليه مَن شَرِبَها من قبائح الأمور، فإن الله سبحانه قد بين العلة التي حرمها لها وسماها اسما جامعا، فأفهم سبحانه وأسمع من كان ذا فهم وعقل سامعا، أن العلة التي حرم لها الخمر، هي ما ذكر أنها تحمل عليه ويصير إليه مَن شَرِبَها من قبائح الفعل والمنكر، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة:٩١]، فذكر تبارك وتعالى فِعْلَ الخمر، وما تحمل من شَرِبها من قبائح الأمر، عندما يصير إليه من السكر، وما يوقع سكر الخمر بين مَن سَكِرَ بشربها من العداوة والبغضاء، والنسيان لذكره، وما يصد به السكر مَن سَكِرَ عن الصلاة والذك.

فزعم مَن فَسَقَ من سفهاء هذه الأمة، ومَن جهل اللسان العربي من هذه العامة، أن الخمر إنما هي ما عمل من العنب، وليس ما قالوا في هذا بمعروف في اللسان عند العرب، إنما الخمر عند العرب في عربي اللسان، وما يفهم عند العرب في البيان، ما خمر بالتعفين حتى أسكر، وقد يخرج اسم الخمر في اللسان أن يكون ما أفسد العقل وخامر، فكل مخامِر للعقل بالاسكار من الأشربة فهو خمر، والمخامرة فهي المخالطة، فما خالط من الأشربة العقل بالاسكار وخامره فهو خمر مخامِر، وكذلك يفعل في المخامرة للعقل كل شراب مسكر، فما

خامر وأسكر العقل كمخامرة الخمر وإسكارها فَفَعَل فعلَها، كان عند كل مَن فهم عن الله مثلها، وإنما حرمت الخمر لمخامرتها للعقل بالإذهاب والسكر، وما يحمل عليه من الإثم والشرور والمنكر.

ولا فرق بين إسكار الأنبذة والخمر، بل النبيذ أشد للعقل إذهابا ومخامرة وإسكارا، فيما أخبرني به مَن شربهما جميعا ممن يدعي ملة الإسلام وممن سألته من النصارى، فكل هؤلاء يزعمون أن النبيذ إذا شربوه كان أشد في السكر من خالص الخمر، والنبيذ فيما يقولون أشد للعقل مخامرة بالفساد والسكر، وأَحْمَلُ لمن شربه على أبواب الفضائح والفجور والكفر.

[تحريم الخمر في السنة]

وفي الخبر المنقول الذي لا شك فيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه: ((حرم كل ما أسكر قليله، كتحريمه من كثيره، وأنه أقام الحد على من شرب الخمر، وعلى الشارب لغيره من النبيذ نبيذ الفضيخ[1] والتمر)) [2]، فأجرى هذه الأشربة كلها التي تسكر مجرى الخمر، لأن فعلها فعل واحد في المخامرة للعقل بالإذهاب والسكر، وما تحمل عليه وتوقع فيه مَن شربها من الفجور والإثم والشر.

فأجمعوا جميعا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) [3]، وأنه صلى الله عليه وآله: ((حدَّ مَن شرب النبيذ والخمر

---

(١) الفضيخ: عصير العنب، والعنب المفضوخ: المشدوخ.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الهادي في الأحكام ٢/٤٠٩. وأخرجه النسائي في سننه ٨/ص٣٠١/ح٥٦٠٧، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٢٠٤/ح٥٣٨٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٣/ح١٨٦٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١١٢٥/ح٣٣٩٢، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٨/ح٣٦٨١، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩١/ح٥٦٤٨، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٤٦٧/ح٥٧٤٨، والطبراني في

حدا واحدا دج)) [١]، وكذلك ذكرت العامة عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: ((الخمر من خمسة أشياء: من العنب والتمر والبر والشعير والعسل)) [٢]، فأجرى هذه الخمسة الأشياء الخمسة إذا عمل منها المسكر مجرى الخمر وسماها خمرا.

وقد أَخبَرونا غير مرة أن الخمر في اللسان العربي: الشراب المخامر، المخالط للعقل للإفساد والسكر.

وذكر أن عمر بن الخطاب قال في ابنه عبيد الله بن عمر: ((بلغني أن عبيد الله وأصحابا له شربوا شرابا لهم لأسألن عنه، فإن كان يسكر حددته وحددت أصحابه حد الخمر، فسأل عنه عمر فأُخبر أنهم شربوا شرابا يسكر، فلم يسأل عن الشراب قليلا شربوا منه أو كثيرا، وحد ابنه عبيد الله وأصحابه)) [٣]، ورأى الشراب إذا كان يسكر خمرا.

معجمه الكبير ج٤/ص٢٠٥/ح٤١٤٩، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٦/ح٥١١٧، والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٥٥/ح٤٨، وابن راهويه في مسنده ج٢/ص٣٩٩/ح٩٤٩، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٦/ح١٧١٦٧، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٩/ح٨٦٠، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٧٢/ح١٦١٦.

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن ابن عمر قال: خطب عمر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد ألا وإن الخمر نزل تحريمها يوم نزل وهى من خمسة أشياء: من الحنطة والشعير والتمر والزبيب والعسل، والخمر ما خامر العقل، وثلاثة أشياء وددت أيها الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيها الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢١٢١/ح٥٢٥٩، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٣٢٢/ح٣٠٣٢، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٥/ح٣٦٦٩، والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٥٢/ح٣٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٨٩/ح١٧١٢٥.

(٣) لم أقف عليه.

وأجمع أهل المدينة وفقهاءوهم وغيرهم: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أُتي برجل شرب مسكرا لم يذكروا أنه كان خمرا، فلما أيقن صلى الله عليه وآله وسلم أنه شارب، وذلك أنهم ذكروا في الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالرجل أن يُستَكْنَهُ ويُشم ريح الشراب منه، فلما أُخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن ريح الشراب موجود من الرجل، ثم لم يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثرَ مِن شربه أو أَقلّ، وحكم عليه بأن يضرب حدا، ودعا بالسوط وأتي بسوط يابس قاحل، وإنما كانت السياط حينئذ تُعمل من جلود الإبل، فخشي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن ضَرب بذلك السوط أن يقتله، و لم يرد قَتْلَه صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما أراد أن يؤدبه وينكله، فقال: ائتوني بسوط دون هذا، فأتي بسوط ليس بالقاحل اليابس، ولا بالمارن المفرط في اللين، فأمر بالرجل فحد وجلد في ظهره ثمانين)) [1].

فاحذروا يا بني ثم احذروا شرب الكثير والقليل بل أقل القليل من كل شراب أسكر، فإن الشراب المسكر باب كل بلية وفسق وفجور وشر.

ولا اختلاف بين هذه الأمة، الخاصة منهم والعلماء والجهلة من العامة، أن السكر حرام، ثم ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) [2]، وحرم الله الخمر التي تخامر العقل بالسكر.

---

(١) عن أبي إسحاق قال: ((إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتي برجل سكران فقال: يا رسول الله إني لم أشرب خمرا، إنما شربت زبيبا وتمرا، فأمر به فضرب الحد ونهى عنهما أن يخلطا)).

أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ص٧٨٣/ح٢١٣٠، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٦/ح٥٠٦٧، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٦٢/ح١٩٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

وأجمعت الأمة على تحريم قليلها وكثيرها، وما الخمر في الإسكار، وما تحمل عليه من المعاصي الكبار، إلا كغيرها.

وقد ذكرت علماء العامة والخاصة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التغليظ في النهي عن شرب المسكر والتحريم لكل ما أسكر، فإنه قال عليه السلام في الشارب: ((إن شرب فاجلدوه، ثم إن عاد فاجلدوه، ثم إن عاد فاجلدوه، فإن عاد فاضربوا عنقه)) [١]. فأجرى صلى الله عليه وآله وسلم في حكم الله وحكمه بعد ثلاث مرار وشرب الرابعة مجرى أهل الكفر والجحدان والمعاندة، فأباح دمه و لم ير له حرمة المؤمن، ولا من هو على الملة.

وروي عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من الحنطة خمر، ومن الشعير خمر، ومن التمر خمر، ومن الزبيب خمر، ومن العسل خمر)) [٢].

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ٨/ص٣١٣/ح٥٦٦١، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٢٩٥/ح٤٤٤٥، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٠/ح١٤٤٤، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٥٩/ح٢٥٧٢، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٦٤/ح٤٤٨٢، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص١٣٦/ح٦١٩٧، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٤١٢/ح٨١١٢، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ص١٦١/ح٠، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٠٧/ح٢٣٣٧، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٢٨/ح٦٢٠، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٢٧/ح٥١٧١، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص١٤٧/ح٢٣٥، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٣١٣/ح١٧٢٧٨، وأبو يعلى في مسنده ج١٣/ص٣٥٣/ح٧٣٦٣، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٥٥/ح٤٠٨، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٤٠٦/ح٢٧٦٥، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٢/ح٨٣١، والشافعي في مسنده ١/ص٢٨٥/ح٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٩/ص٢٤٥/ح١٧٠٨١، والدارمي في سننه ج٢/ص١٥٦/ح٢١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٦٨٨/ح٤٣٤٣، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٣٢٢/ح٣٠٣٢، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٨٨/ح٥٥٤٤، وابن حبان في صحيحه

وروي عن علي عليه السلام أنه قال: ((الخمر من خمسة أشياء: من التمر والزبيب والحنطة والشعير والعسل)) [١].

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قام على المنبر بالمدينة فقال: ((يا أيها الناس نزل تحريم الخمر حين نزل وهي من خمسة أشياء: من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير)) [٢]. والخمر ما خامر العقل.

وروت العامة جميعا لا اختلاف بينهم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسم أنه قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) [٣]، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كل مسكر حرام)) [٤].

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((من مات وهو مدمن خمر لقي الله وهو كعابد وثن)) [٥].

ج١٢/ص١٧٦/ح٥٣٥٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٨/ح١٨٧٥، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢٥/ح٣٦٦٩، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٩٥/ح١٣١٥٩، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٠٦/ح٥٠٦٧،

والدارقطني في سننه ج٤/ص٢٤٨/ح٥، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٢٤٥/ح١٢١٩١، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٦٨/ح٢٥٣١، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢١٧/ح٨٥٢، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٦٧/ح٢٣٧٥١، والدارمي في سننه ج٢/ص١٥٤/ح٢٠٩٦، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٢٣/ح١١٠٣.

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه الهادي في الأحكام ٢/٤٠٨. وأخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١١٢٠/ح٣٣٧٥، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٧٢/ح٢٤٥٣، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٥٩٢/ح٥٤٩.

وذكر عن حرثن بن عبد الله اليزني عن ديلم الحميري، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ((يا رسول الله أنا بأرض باردة نعالج فيها علاجا شديدا، وإنا نتخذ شرابا من القمح نتقوى به على أعمالنا، وعلى برد بلادنا. فقال: هل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فاجتنبوه. ثم جئته من بين يديه فقلت له مثل ذلك. فقال: هل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فلا تشربوه. قلت: يا رسول الله فإن الناس غير تاركيه! قال: فإن لم يتركوه فاقتلوهم)) [١].

وروى ابن علية، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((كل مسكر حرام)) [٢]. قال: وقال ابن عمر: ((كل مسكر خمر)) [٣].

وروي لنا بعض المحدثين عن أبي بكر، عن وكيع، عن الأوزاعي، عن أبي كثير، أنه قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ((الخمر من هاتين الشجرتين العنبة والنخلة)) [٤].

---

(١) خرجه أبي داود في سننه ٣/ص٣٢٨/ح٣٦٨٣، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٣٢/ح١٨٠٦٣، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٢٢٧/ح٤٢٠٤، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٣٤/ح٥١٩٩، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٢/ح١٧١٤٣، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٦٦/ح٢٣٧٤٢، و ابن أبي شيبة في مصنفه ج٥/ص ٦٦/ح ٢٣٧٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج٣/ص١٥٧٣/ح١٩٨٥، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٩٤/ح٥٥٧٣، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص١٦٤/ح٥٣٤٤، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩٨/ح١٨٧٥، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١١٢١/ح٣٣٧٨، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٧٩/ح٧٧٣٩، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج٤/ص٢١٢/ح٠، ٤/ص٢١٥/ح٠، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٥/ح٢٥٦٩، والنسائي في سننه الكبرى

وحدثنا بعض المحدثين عن جعفر الرماني قال: حدثنا علي بن قادم، قال: حدثنا عبيد الله بن عمرو القرشي الجزري، قال: حدثنا زهير، قال: حدثنا حميد الطويل، عن أنس، عن أبي عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب، وسهيل بن البيضاء: ((أنهم كانوا في نفر من أصحابهم في بيت أبي طلحة وأنس يسقيهم، حتى كادأن يأخذ فيهم الشرابن قال: فمر رجل من المسلمين فقال: ألا هل شعرتم أن الخمر قد حرمت؟! قال: فوالله ما قالوا حتى نتبين أو نعلم، قال: فقالوا يا أنس اكفأ ما بقي في آنيتك، قال: فهرقتها قال: فما عادوا فيها حتى لقوا الله)) [1]، قال: وإنما كان الشراب من البسر والتمر. قال أنس: هي كانت خمرنا يومئذ.

وحدثني بعض المحدثين، قال: حدثنا جعفر الرماني، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن محارب بن زياد، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((الزبيب والتمر هي الخمر)) [2].

حدثنا بعض المحدثين، عن جبير بن عبد الواحد، قال: حدثنا عباد بن يعقوب، قال: حدثنا خالد بن حيان الجزري، عن زيد بن راشد، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من شرب مسكرا نجس ونجست صلاته أربعين يوما، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد

ج٣/ص٢١٠/ح٥٠٨٢، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٩٠/ح١٧١٢٧، وأبو يعلى في مسنده ج١٠/ص٣٩٩/ح٦٠٠٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ص٧٨٣/ح٢١٣٠، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٦/ح٥٠٦٧، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٦٢/ح١٩٤٠.

الرابعة كان حقيقا على الله أن يسقيه من طينه الخبال)) [١]. قال خالد بن حسان: عن زيد بن راشد، عن الحسن، عن أبي سعيد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((مسكر أو لم يقل خمرا)) [٢].

ولكفى من الخبر في تحريم الله من الأشربة لجميع السكر بقوله سبحانه في التنزيل، وهو يذكر النعمة فيما أخرج لعباده من ثمر الشجر المأكول: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧]، فقدم السكر، وأعلم عباده أنه عنده من المسخوط المنكر، بكلام بليغ عند العرب يفهمونه من المقدم والمؤخر، لأن ذكر السكر في هذه الآية بعد ذكر النعمة في مأكلول الثمر، من الكلام المفهوم عند العرب تقدم أو تأخر، كأنه عنى سبحانه: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧]، تذكيرا لهم بالنعمة في حسن الرزق، ثم قال: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾، سخطا منه تعالى بما يصرف الثمر إليه أهل الفسق من تهيئته مسكرا، إذ كان السكر عند الله مسخوطا منكرا، وإنما نزل القرءان باللغة العربية التي هي أبلغ عند العرب في البيان، فيُؤخر عن موضعه ومعناه متقدم مع أول الكلام في مكانه، إذ كان ذلك أبلغ في اتساق بلاغة اللسان، وما هو عند

---

(١) عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال)).
أخرجه أبي داود في سننه ٣/ص٣٢٧/ح٣٦٨٠، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٢٨٨/ح١٧١٢١.

(٢) لم أقف عليه.

العرب أجود في تصريف نظم البيان، كقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه:١٢٩]، فأخر هذا الكلام مع أوله، وإن كان قد دخل بينه نظم البلاغة وفَرَّق بين فواصله، فإنما أراد تبارك وتعالى: ولو لا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما.

ففي هذا يا بني ما نبهكم وكفاكم، فالحذر من قليل شرب المسكر وكثيره، لما هو مسخوط محرم عند ربكم ومولاكم.

فالحذر يا بني من المسكر قليله وكثيره الحذر الحذر، فإنه حبالة إبليس التي أوقع بها من لا نظر له لنفسه من الخاصة والعامة في كل منكر، وفجور وشر. ولو لم يترل الله عنه نهيا ولا فيه تحريما، لكان السكر والمسكر عند كل ذي لب عاقل منكرا عظيما، لما يصير إليه مَن شربه من فُقدِ عقله، والافتضاح بذهاب فهمه وحيله، وكشف عورته والتمرغ في سلحه وبوله، مع ما هو أعظم من ذلك عظما، من إتيان الفجور عند السكر الذي جعله الله مسخوطا عنده محرما.

فلم أعلم - والحمد لله - لكم أبا ولا جدا إلى علي عليه السلام أعلمه يشرب قط نبيذا ولا مسكرا، بل كلهم يرى ذلك من أكبر الفواحش منكرا، ومن عظائمها وكبائرها فسقا وخبثا وشرا. تولاكم الله يا بني بالانتهاء والإزدجار والحذر والاجتناب والاعتزال لكل ما أسخط خالقكم وربكم ذا الكبرياء والعزة والجلال، وسلمكم الله مما قد عم أهل زمانكم ودهركم من الشرور والحيرة والخذلان بارتكاب كبائر المعصية، وما يستبيحون بجهلهم وظلمهم لأنفسهم وقلة يقينهم بما حذروهم الله من عقابه من المنكرات والفواحش المهلكة المردية.

[اعتزال المدن]

فليس النجاة لكم ولمن معكم إلا الهرب في البوادي والأودية والجبال منهم، والتحبب إلى خالقكم بهجرهم والبعد عنهم، فإن في مساكنتهم والاختلاط بهم

فساد القلوب، والخبال الأكبر، لما هم عليه وفيه من فعل كل فجور وفسق وشر، إلا أقل القليل منهم.

فالهرب الهرب والبعد البعد عنهم، فإن المدن والقرى موضع اللؤم والشر والبلاياء، بما تجمع وتضم من شرار الناس والأوغاد، وما ينضم فيها ويأوي إليها من أخلاط الأجناس، وسقاط شرارهم من كل بلاد فيها، وفيها سقاط الأمم، ورذلات العرب والعجم، من حمران الأجناس وسودانهم، المعتربين عن بلدانهم وأوطانهم، والمختلفين في عقولهم وهممهم، وألوانهم ومذاهبهم، وأخلاقهم ودياناتهم، فالحياء والاحتشام عندهم وبينهم مرفوض ومطروح، وكلهم فغريب عن بلده وموضعه لا يستحي من خنا ولا خزي أتاه وركبه ولا فضوح، ولكل جنس منهم ضمته هذه القرى والمدن في بلده وأصله طباع وخلق، وهو عندهم كيِّس محمود، وعند من يعقل همج قبيح، فلسوادانهم في الطرب والزفف واللعب والمنازعة إلى ما يغلب على طباعهم في بلادهم من الشرور وقبايح الأمور، ما لا يبلغه في الطرب والزفف واللعب نواهق الحمير، والحُمران أجناسهم مذاهب أخرى، كثيرة لا تحصى، من كل شر وبلاء، وفسق ومجون وخنا، من إتيان كثير منهم للذكور، وشهوة من لا تشتهيه الحمير، ولا البهائم الخنازير منها ولا غير الخنازير، من إتيان الذكران، وهذا البلاء.

وهذه الفاحشة العظمى، فيما بلغني فأصلها وبدؤها ومخرجها من أرض العراق وفارس وخراسان، إلا من عصم الله من الأمم، أو من كفّه ورَدَعَه عن ذلك دين وورع وطباعُ كرم، مع ما تضم المدن والقرى من عساكر المتغلبة والسلاطين، وما يضم إلى العساكر ويأوي إليها من سقاط الناس والأجناس والشياطين وما في المدن والقرى من منكرات الفواحش والبلاء، واستجازتهم كبارهم وصغارهم اللفظ بالفحش والخنا، فهو بين كبارهم وصغارهم عادة

قد أَجْرَوا أنفسهم عليها، لا يستوحشون منها، ولا يعظمونها ولا يتناهون عنها.

فالمنكرات بينهم لإكثارهم منها ولجاجتهم فيها معروفة، والقبايح لظهورها بينهم لا يستوحشون منها بل هي مألوفة، والغالب على كل مكان عند القرى والمدن والسفساف والسفل، الذين لا يستحيون من غي ولا ردى، ولا من فضائح العمى، يبولون ويتغوطون على أبوابهم وفي أفنيتهم، ولا يطهرون ما يسكنون من بيوتهم، ويكشفون في أفنيتهم وأزقتهم البول والخلاء وما أمروا به من ستر عوراتهم، فهم كالبهائم التي لا تنطق ولا تعقل، وكل من لم يتنح عنهم ويبعد منهم، فهو مشارك لهم في سوء فعلهم، وآثم ظالم لنفسه في مجاورتهم والاختلاط بهم، لأن أقل ما لله عليه إذا لم يمكنه الإنكار على مَن يُسخطه سبحانه ويعصيه، فلم يستطع منهم من معاصي مساخط الله تبارك وتعالى أن يهاجر عنهم ويبعد عنهم، في أوسع أرض الله تبارك وتعالى قال في تنزيله ووحيه وما عهد فيه إلى عباده محذرا في تركهم أمره ونهيه، وهو يذكر من توفاه الملائكة ممن رضي من المستضعفين وغيرهم بمجاورة أهل الظلم والمعصية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء:٩٧].

فتفهموا يا بني قول ملائكة الله ربكم لمن ظلم نفسه بمساكنة من ظلم وعصى ربه، فإنما عنى بقولهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، أي: ما فعلتم في أيام حياتكم فيما أمرتم به من الإنكار على من جاهر بالمعصية خالقكم وربكم؟ فقال الظلمة الخاسرون عند الندامة والحسرة وهم يعذرون: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧]، فلم تكذبهم الملائكة فيما ذكروا من استضعافهم وضعفهم، وقالت الملائكة لهم محتجين عليهم لربهم، مبكتين لهم مُوقِّفين على ما ارتكبوا من

عظيم ذنبهم في المجاورة والمساكنة، وترك الانتقال عن أهل المعصية والمجاهرة: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾[النساء:٩٧].

ثم أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة الذين خاطبهم عندما توفتهم رسله من الملائكة، فذكر تعالى سخطه عليهم وحكمه فيهم، فقال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[النساء:٩٧]، فلو لم يترل الله نهيا عن مساكنة أهل المعصية لكان ينبغي لمن عقل أن يفر ويهرب بنفسه وولده وحرمه من مجامع الناس وقراهم ومدنهم، لظهور فساد الناس في المدن والقرى، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، وهم أظهر الناس فسقا، وألأمهم لؤما، وأدقهم أخلاقا.

فالكرم والكريم يا بني في المدن والقرى عند أكثر أهلها غير مرضي ولا ممدوح، وذوا الدنآءة والبخل واللوم عندهم مقبول مرضي غير معيب ولا مفضوح، وما بالقرى والمدن في الكبار والصغار من منكرات المجنون والشرور والفحشاء، أكبر وأعم وأظهر من أن يؤتى له على عدد وإحصاء، مع ما في المدن والقرى يا بني من فساد اللغة والكلام واللسان، واختلاط غثاء الناس مع الحمران والسودان، وتبرج الحرم، لفساد من بالقرى من العرب وسفساف العجم، فالغيرة من أهل المدن أو أكثرهم على الحرم متروكة مطروحة، والحرم بتبرجها في الأسواق والطرق مفضوحة.

فأف يا بني ثم أف لمن كان ذا حرية وكرم وأنف سكن في هذا الدهر المدن والقرى، ما دامت على مثل ما هي عليه من ذكرهم هذا من المنكرات التي ذكرنا فيها والفحشاء، وما غلب على أهلها الكبار منهم والصغار والنساء، من الخنا والفساد واللوم والزنا، والدناءة والنذلات والردى.

فأين أنتم يا بني عن طاعة ربكم؟! فيما أمركم به ودلّكم عليه من المهاجرة وترك المجاورة لمن يسخطه ويعصيه؟! والامتثال لمسالك أهل الشرف من

آبائكم وسلفكم وأولكم، في ترك المدن والقرى ومجاورة أهلها، والتنحي إلى البادية والاعتزال عن سفاف (١) القرى وغوغائها وسلفها.

[هجرة الإمام القاسم الرسي]

فأقرب مَن به في ذلك تقتدون، وبفعله في الهجرة عن أهل القرى والمدن تأنسون، جدكم الأقرب أبي وأبوكم القسم بن إبراهيم رضي الله عنه ورحمه، وقبل عزلته وهجرته منه، وقد كان رحمة الله عليه زمانا طويلا من عمره بالمدن مدن الحجاز ومدينة مصر ساكنا، داعيا إلى طاعة الله، فلما لم يسر في أهل القرى والمدن إلى طاعة الله ربه وحقه ومرضاته مستجيبا، ولم ير فيها إلا غرقا في الجهل والمعاصي لا تائبا إلى ربه ولا منيبا، ورأى القرى والمدن أصل كل منكر وضلال، وتجمع الفجار والفساق والأرذال الدناة والأفسال (٢).

تبرأ إلى الله منهم، وهاجر إلى البادية والجبال عنهم، فوفقه الله للصواب في ذلك وأرشده، وأراه له الخيرة في الدنيا دنياه وأسعده، فخلا بنفسه وأهله وولده، وجرى حكمه عليهم وعلى من تحت يده، فصار - نظرا واختيارا، بعد أن أحاط بالمدن والقرى وأهلها اختبارا - إلى بادية المدينة وجبالها، وتنحى عن المدينة وأهلها، وحل في جبل من باديتها، يسمى: (قُدْساً) (٣) فكان به حينا وكُنا به معه أطفالا صغارا، لا نعاين فسقا ولا فجورا ولا منكرا.

ثم انتقل إلى (وادي الرس) وجباله، فكان خاليا فيه بولده وعياله، ما أمرنا فيه من أمر أطعناه، وما عرَّفنا في الدين من حق أو قول في الهدى والصواب قبلناه.

---

(١) السفساف: الرديء من كل شيء.

(٢) الأفسال: الغوغاء من الناس.

(٣) قال الهجري: جبال قُدْس غربي ضاف من البقيع، وقد جبال متصلة عظيمة. وفاء الوفاء ١٢٨٧/٤.

ثم انتقل إلى فرع آخر من جبل يسمى: الأشعر من جبال جهينة، بعد أن أقام عمرا طويلا وسنين كثيرة في وادي مزينة، فكان منه بجبل وفرع يدعا: فرع السور حتى توفي فيه رحمة الله عليه وقبض.

وكان قد عاهد الله وأعطاه من نفسه أن لا يسكن هو ولا أحد يطيعه من ولده ما بقي حيا مجامع الناس بين المدن والقرى، لما ذكرت لكم يا بني قبل هذا من قولي وفسرت، مما تجمع القرى والمداين من أهل الفسق والفواحش والمنكر والردى، وما في أهل المدن والقرى والمداين من أهل الفسق والفواحش من الجهل والمعاندة في الدين، وما بها وما في أهلها من الفساد والمفسدين، وأهل المجاهرة بكبائر المعاصي والظلم المعتدين.

[طبيعة البادية وأخلاق أهلها]

فجعل الله الروح والراحة في بدنه، وأعقبه سكنى البادية واعتزالُ الناس العفافَ والصلاح في أهله وولده، فأقام في البادية والجبال قبل وفاته نحوا من أربعين سنة، لم يخل فيها قط من لطائف الله وصنعه وسعة رزقه، مع البعد والتطهر عن شرار خلقه، في أطيب مساكن من تلك الأودية الطاهرة، والجبال والبوادي الصحيحة البريئة من الوخامة التي تكون في المدن من الأرياح المنتنة والسكك القذرة والأزقة والطرق التي فيها غير طاهرة، وأبخزة الكراييس (١) والنجاسات المفسدة للجو والهواء، المورثة للأمراض والوباء.

بل كنا معه رحمه الله مع أطيب الغذاء مما يكون في البادية في أطيب المساكن والمَحالَ، من أودية البوادي والفروع التي فيها من الجبال، نتنسم صافي الهواء، ونشرب أكثر مدة دهرنا ماء الغمام والسماء، وننال فيها بلطف الله طيب الغذاء، مما يكون في البادية من سمين لحوم الماشية، وما جعل الله في المواشي من

---

(١) الكراييس: جمع كرياس، وهو الكنيف. سمي: كرياسا، لما يعلق به من الأقذار فيركب بعضه بعضا ويتكرس.

أشربة اللبن الخالصة السائغة، في أطيب الساحات طيبا، وأطهرها طهارة، وأفسحها منظرة، وأصفاها هواء، وأقلها كدرا، لا نسمع خنا، ولا نرى فسقا ولا منكرا، ولا صوتا معلونا، كُبرا [١] ولا وترا، مع قوم نختلط بهم أحسن قوم جوارا، وحرمهم فأشد الناس استتارا، من خير أبناء العرب وأهل البادية، أشكر قوم للمعروف شكرا، وآلفهم إلفا، وأحسنهم جوارا، ومن جاورهم فاعتزلهم، وكف الأذى والمكروه عنهم، كثر ثناؤهم عليه وشكرهم له، وسلم منهم، وكانوا له إذا أحسن قليلا إليهم، وبث أقل المعروف فيهم، كالخول والأعوان، إذا استكفاهم بعض الأمور كَفَوه، وإن استعانهم على نائبة تنوبه أعانوه.

[أخلاق أهل المدن]

وأهل القرى يا بني وسفساف من في المدن من سكانها كلهم تجارهم وصناعهم وغيرهم، وكذلك من اختلط بالأسواق والقرى من العرب وجاورهم، فهؤلاء كلهم ليسوا بذوي حرية ولا ذمام، ولا يتخلقون بخلق من أخلاق الكرام، ولا يوفون بموعد وعدوه، ولا يوجدون حق الجوار لمن جاوروه، وإن استعانهم جارهم على نائبة لم يعينوه، وإن وعدوه وعدا أخلفوه، وإن قالوا له قولا لم يَصْدقوه، وكلما كان عليهم فيه أدنى كلفة وأقلها لم يكتلفوه، وليس للجار عندهم غير الخداع له والمنافقة، فإنهم إذا لقوه تملقوه، وإن استرفقهم بسلف أو رفق لم يرفقوه، وكذلك كل من اختلط بالقرى والأسواق من العرب، فهو في اللوم ودقة النظر وسوء الأدب كأهل القرى والأسواق، يتخلقون بأخلاقهم، ويفسدون بفسادهم.

فالبعد يا بني عن أهل القرى والمدن لكم ولمن معكم خير من قربهم، وأسلم لكم في دينكم، وفيما بين ربكم وبينكم، وليست العزلة عن المواضع التي تجمع

---

(١) الكُبْر: الطبل.

أخلاط الناس، ويحيط بكم ما فيها من شرور الأشرار، وما فيهم من الدنس والأنجاس، كالبوادي التي تتسع بأهلها، وتضم من فيها من سكانها، كما تجمع القرى وتضم وتخلط بين من فيها من رذالة اشرارها وسفلها، لأن كل ساكن في البادية فهو وحده يمكنه أن يكون في عزلة وناحية.

وسكان القرى متضامون في السكك والدور مجتمعون، يرى بعضهم ما في بعض من الفساد والمنكر والشرور، ويأنس بعضهم ببعض فيما يفعلون من منكرات الفجور، ثم لا يجد من يسكن بينهم بدا من مضامتهم ورؤيتهم ومعاينة فواحشهم وفسقهم، وما يبتلى به من سوء جوارهم، ونذالة أخلاقهم، ولؤم كبارهم وصغارهم، واستحسانهم بينهم للؤم الأخلاق، وقلة إنكارهم للدناءة والخنا، وما فيهم من فواحش الريب والبلاء، أعظم وأكبر من أن يؤتي له على صفة أو يحصى، يتكلم سفسافهم، وأهل أسواقهم، وأكبر كبارهم وصغارهم، بأفحش الفحش وأعور الكلام علانية جهارا، فلا ترى أحدا منهم أنه يجب عليه أن يكون منه لما سمع من ذلك إنكارا، فنساؤهم وأكثرهم في الأسواق متبرجات، وأكثر اللواتي لا يخرجن متطلعات من الكوى والأجنحة غير مستحييات.

فلم تروا يا بني هذا ومثله ظهر في القرى وعم؟! حتى لا ينكره منكر من أهل القرى ولا يحتشم منهم محتشم، فأنا أخبركم يا بني لم كان هذا في المدن والقرى بلا غلط ولا توهم، وذلك إنما هو لأن القرى والمدن تجمع وتضم من رذالات الأجناس، وحشو سفساف الناس، وسقاط العجم وشرارهم، فيختلطون ويجتمعون غرباء عن أوطانهم وبلدانهم، فمنهم من هو مملوك مرقوق، ومنهم من هو غير مملوك وهو لئيم الأصل، قليل الحياء للمجنون والدناءة والجفاء والمروق، والعتاوة والفسوق، فقد اختلطوا وماج بعضهم في بعض، فملوا بالشرور لقلة الحياء، ولؤم الأمهات والآباء، ولأن بعضهم لا يعرف بعضا، جميع القرى في الأرض ومن اختلط بهم، ممن كان له أصل أو

نسب من قريش والعرب، أو من له حرية نفس من العجم، أو من كرام أجناس الأمم، فلغلبة من ذكرنا من القرى من سقاط الناس، ورذالة الأمم والأجناس، قد غمر هؤلاء في كثرتهم وقلوا، وصار العدد والمال واليسر، والرذالة والسفل، وافتقر كل من له حرية وقل عددهم، وصار من له أصل ودين بين هؤلاء الذين قد ذكرنا قد خمل وذل، لأن الغلبة في الدنيا الدنية، وهذه الدار الأولى من الدنيا الدنية، إنما هي للحشو الأكثر في العدد، ولا سيما إذا لم يكن لسلاطين الحق والعدل على السفساف والرعاع بحكم الله يد.

فالناس اليوم يا بني في مدن القرى مختلطون، يموجون ويختلط بعضهم في بعض كما تموج أمواج البحر بالماء، ليس فيهم ولا منهم محق يقوى عليهم، وأحكام الله وآدابه في كتابه لا تنفذ فيهم، فقد اختلط عِلْية [1] من في المدن والقرى بسفلهم، وطال اختلاطهم وثواهم [2] بينهم، حتى جروا على سيرتهم، وصاروا لا يستقبحون قبيحا، ولا يرون دناءة ولا فاضحا فضوحا؛ والإلف للغلبة السفلة، وصارت السفل لكثرتهم وغلبتهم قد رهقتهم الذلة، واحتاج هؤلاء الذين لهم أصول وحرية إلى أولئك، فكلهم في مذهبه وخلقه هالك.

قد استحس من في القرى والمدن من بقايا كرام الناس، ما يستحس مَن غلب على المدن والقرى من سفل الأجناس، لغلبة الغوغاء والرذالة وسقاط الأمم والسفلة على القرى وكثرة عددهم فيها، فقد غرق بينهم وخزي وذل وقل كل من آوى إليها من أهل الدين والحسب، وكاد أن يبطل بل قد بطل كل ذي دين ونسب.

فالمهرب المهرب يا بني من القرى والمدن، الهرب الهرب، فلو لم تهربوا منها وتباعدوا إلا لِذلّ الأحرار وفقرهم بها، وأن السفساف ومن لا خطر له ولا

---

(١) عِلْية القوم: كبارهم ومقدموهم.

(٢) الثوى: المقام.

دين قد غلبوا وكثروا وحازوا جميع معايشها، فذكرهم بالقرى والمدن الذكر الرفيع العالي، وفيهم اليسر والثروة والعدد والأموال، وتوارثوا مع ذلك الحيرة في الدين والضلال، ممن كان قبلهم في القرون الخوال، من أهل الشرف في أخلاقهم، والعلو في ولادتهم وأنسابهم، لأمور عرضت من حسد وضغائن حالت بينهم وبين طاعة ربهم، لا يمكننا شرحها كلها، ومَن فَهِمَ فروعها فتدبرها فهم أصولها، فقد اشتبه أهل الأرض في معصية الله ورسوله، ومخالفتهم لأنبيائه صلوات الله عليهم وتنزيله، فلكهم أو أكثرهم ضال عن أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وآله، في مذهبه واعتقاده وقوله وفعله.

[أسىً وتوجع لفساد الزمان]

فيالها حسرة ويالها مصيبة في الإسلام ما أعظمها وأجلها!! ويالها أمة من العرب والعجم ما أغفلها عما أمرت به في كتاب ربها!! وما أبطلت من حدود الله ونبذت من عهوده لحيرة جهلها!! وما لَبَّسَتْ عليها ظَلمةُ بني أمية وغيرهم، معاندة للإسلام لما كانت عليه ظلمة بني أمية من حيرة جهلها، وعداوة نبي الله بجحودها وضلالها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فقد أُصبنا وغُبِنَّا بما لم يُصَب به أحد ولم يجتح مجتاح ولا مغبون، فأي مصيبة يا بني أو بلية، أو جائحة نزلت بأحد أو رزية، أصيب بها أحد فيما مضى من الدهر وبقي، أعظم من مصيبة من لم يطع خالقه فيخشاه ويتقي؟! فيقوم بما أمره الله به من طاعته، ويؤثر رضاه بمباعدة أهل معصيته.

وإذ قد أصبحنا يا بني وأصبحتم، وخلقنا في عصرنا هذا أو خلقتم، في هذا الوقت والحين والزمان، الذي لم يكن في الدنيا عصر ولا زمن أوحش ولا أبلى ولا أهول منه منذ خلق الله البشر والإنسان، بل لم يكن مثله منذ برأ الله الإنس الآدمية ولا الجان، وكل دهر أو زمان أو عصر أهله ومَن خلق فيه أعظم بلية من دهرنا، وما قد غلب وعم على أهل ملتنا من الجهل والضلال في

الدين، إذ قد صارت الخاصة والعامة في أرض الله وبلاده مفسدين، ولما أمر الله به رسوله في كتابه وعلى لسان نبيه جاحدين، فأكثر الناس ضال تائه عن الله ورسوله وهو يحسب أنه مهتدي، ناقص دينه الذي أمر الله به ورسوله وهو فَرِحٌ ويعتدي، قد رضي من دينه بالتمني على الله مع تقصيره لتجارة المخلصين، الذين كانوا بتقواهم وطاعتهم برحمة الله ورضوانه مخصوصين، فرجوا وأملوا إذ زعموا وجهلوا وضلوا، أن يكونوا من أهل الطاعة لله و لم يتقوه، كما اتقوا، و لم يعملوا من الصالحات كما علموا، وغرهم الشيطان فأضلهم وأغواهم، إذ لَبَّس عليهم علماء السوء الراكنون إلى غرور دنياهم، فأغفلوا ونسوا ما قال ربهم ومولاهم لمن كان هو خلافهم، ومن كان بعيدا من مثل خطاياهم، ومن لم يركب ما ارتكب أهل هذا الزمان، من كبائر الفواحش والعصيان، إذ تمنوا في أيام الرسول ورجوا طرفا من الرحا والأماني، فقال سبحانه لهم على لسان نبيه منبها ومحذرا، أن يتمنى متمن عليه مع المقام على الذنوب وترك التوبة أن يكون لهم غافرا، فقال سبحانه في ذلك للمؤمنين، وهو ينهاهم أن يكونوا بأهل الكتاب من اليهود والنصارى في التمني على الله للمغفرة وعفو السيئات متشبهين، فنهاهم وحذرهم أن يكونوا لمثل ما يتمنون متمنين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء:١٢٣ - ١٢٤]، فلم يوجب الرحمة لأحد من خلقه بالأماني، و لم يوجبها إلا لمن عمل الصالحات وآمن من كبائر العصيان.

كذلك قال أيضا سبحانه في موضع آخر من محكم كتابه وهو يذكر ما لهم من الرحمة والغفران، لمن كان ذا تقوى وإيمان: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الأعراف:١٥٦]، فأخبر سبحانه أن رحمته التي وسعت كل شيء لا يكتبها إلا للمتقين.

وقال تبارك وتعالى في موضع ثالث محكم من كتابه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص:٢٨]، وحاشا الله العدل الحكيم أن يكون مَن عصاه وفجر في دينه كالمطيعين الأبرار.وقال في موضع رابع في محكم كتابه، وهو يخبر عن حكمه الذي لا يحكم أبدا بغيره بين عباده: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية:٢١]، وما نزل في القرءان من حكمه بالعقاب على أهل المعصية، وحكمه بالثواب والعفو لأهل التقوى والطاعة، أبين وأوضح وأكثر وأزهر من أن يعمى عنه إلا مَن خدع نفسه وغرها، ومات عقله وهلك ودمر.

وإنما يا بني جرى هذا التبيين مني والكلام في هذا الموضع، لأن لا تغلطوا في مثل ما غَلِطَتْ فيه مِن التمني على الله جهلةُ العوام.

وسنعود إلى ما كنا فيه من اعتزال جماعة الناس في المدن والقرى والهجرة إلى الله عنهم، والتقرب إليه بالبعد منهم، وسأذكر لكم يا بني بعد ما ذكرت لكم من تنزيل الله، وما ذكر فيه من قول ملائكته للمستضعفين الذين لم يهاجروا عمن يشآقه ويعصيه، أن يقولوا لمن هذه صفته ممن يتوفون : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء:٩٧]، تعني الملائكة صلوات الله عليهم بقولهم لمن يتوفون: ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ ماذا فعلتم فيما به أمرتم من إنكار المنكر؟! والنهي والأمر بالمعروف لمن جاور؟ ﴿ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فلم تقل ملائكة

الله: كذبتم، ولكنهم قالوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]، فاحتجت ملائكة الله على المتوفين الذين ساكنوا العاصين، بما كانوا مستضعفين وعليه قادرين من الهجرة عن العصاة في أرض الله الواسعة، وأن يكونوا لهم غير مجاورين، قال الله أحكم الحاكمين: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧]، وقال تبارك وتعالى منبها دالا لعباده المؤمنين على مجانبة العاصين، وأن يكونوا في بلاده الواسعة لعبادته معتزلين متوحدين: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت:٥٦].

[هجرة الأنبياء عليهم السلام]

فلم تزل الأنبياء والصالحون منذ كانت الدنيا إذا بلغوا رسالات ربهم قومهم فلم يتوبوا من خطاياهم يهاجرون عنهم ويتنحون.

[هجرة إبراهيم]

فذكر الله عن خليله إبراهيم ورسوله، وإبراهيم في كرامته على الله وقدره عند الله، وهو يذكر سبحانه مهاجرته من مدن قومه وقراهم، إذ أبوا عليه ما بعثه الله به إليهم مما فيه رشدهم وهداهم، لأنه صلى الله عليه وآله لما أيس منهم، هاجر إليه تبارك وتعالى عنهم، فلما رءاهم مقيمين على الأمر المذموم عند الله المسخوط، وآمن له ابن أخيه لوط، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت:٢٦]، وكانت هجرته صلى الله عليه وآله هو ولوط ابن أخيه إلى البادية والجبال، لا إلى ما يجمع الناس ويضمهم من المدن والقرى، التي تورث الغفلة لمن فيها ويأوي إليها من أهل الضلالات والجهل والمعاصي والخبال. فهاجر بنفسه وابن أخيه وسارة زوجته ومماليكه، ومن يجري حكمه عليه، حتى نزل بالبادية من جبل بيت المقدس،

فتفرغ هناك خاليا بنفسه ومن أطاعه ممن تحت يديه، وصار إلى ذلك المكان من جبل بيت المقدس، وهو يومئذ جبل خال ليس فيه قرية ولا عمران، منفردا معتزلا لأهل المنكر والفواحش والعصيان، فكان منه في خلاء وبادية، اتخذ فيه حيوان الماشية، من الغنم والحمير والإبل، فبارك الله فيما اقتنى من ذلك وملكه وكثّره.

فذُكر في صحيح الخبر أن ما اتخذ من ذلك نما وانتشر، حتى صارت معه أقاطيع كثيرة من الغنم، وفنون وعدة من الإبل، فكانت ثلاث مائة، وقال بعضهم: ستمائة من الإناث والذكران والحمير، واتخذ من الرقيق صلى الله عليه وآله رجالا ونساء كانوا له خَوَلا تحت يده، فعلمهم طاعته وعبادته، فآثروا أمره وطاعته، فبارك الله في خَوَله ورقيقه فتناسلوا حتى بلغوا مائتين في عددهم ملئوا مَحَالَهم، الذي هو فيه صلى الله عليه وآله هو وهم من باديتهم وبلدهم.

واتخذ ابن أخيه لوط خولا وحيوانات من الماشية كثيرا، وحفر لهم إبراهيم لكثرة ماشيته بيارا شتى، ثم إنه كان بين حشمه وحشم لوط تضايق، لكثرة ما أنمى الله لهم من الحيوانات، فضاقت بهم المياه، فأوقع ضيق المياه بين الخول لكثرة مواشيهم تنازعا، وكان هو وابن أخيه قد حفروا بيارا ومياها كثيرة في بوادي الجبال وغور الأرض، يتقلبون فيها شتاء وصيفا، خالين بطاعة الله وتقواه، سائحين بذكره وعبادته في تلك الخلوات والمحال الظاهرات.

فلما تنازع رعاته ورعاة ابن أخيه بما كثر من ماشية لوط ومواشيه، فقال إبراهيم لابن أخيه، قول الأنبياء الكرام: يا ابن أخي لا أحب أن تقع الضغائن بين خَوَلك وخولي، فانظر ما في أيدينا من المياه التي حفرنا وبوادينا فاختر أي الناحيتين شئت، إن شئت فاختر بوادينا التي في غور فلسطين، وإن شئت فاختر الجبال المقدسة التي نكون بها صايفين، فخيَّره صلى الله عليه وآله أي البلدين شاء، ومياههما ما كان منها جبليا أو غورا وسهلا، فاختار لوط عليه

السلام غور فلسطين ومياهها وسهلها وبواديها، فاعتزل فيها فصار بخوله وماشيته إليها.

[فقام إبراهيم في بيت المقدس]

وأقام إبراهيم في جبل بيت المقدس، وكان ابن أخيه يغشاه بنفسه ويتردد إليه، وفرقوا بين من معهم من الخول والرعاء، لأن لا يقع بينهم من التنازع والتضايق مثل ما يقع بين أهل الجهل والعمى، وكان يخرج صلى الله عليه وآله داعيا إلى ربه فيما خَوله الله من آفاق البلاد، فخرج قبل مهاجرته من بلده ومولده وهي أرض خراسان والجزيرة إلى أرض العراق، داعيا إلى الله وإلى توحيده، فحبسه نمرود ملك العراق زمانا، ثم خلّصه الله.

[قصة إبراهيم مع فرعون مصر]

وكان قد خرج بعد هجرته ومصيره بيت المقدس إلى أرض مصر داعيا إلى الله، فهمَّ به فرعون أن يقتله، فرأى في منامه ملكين نزلا من السماء قد مليا ما بين السماء والأرض، ينهيانه ويزجرانه أن يعرض له، فاستيقظ فزعا، وأرسل إلى إبراهيم فأجازه وحباه وأعطاه، وأهدى إليه هدايا كثيرة، كانت فيها هاجر جارية كانت عند فرعون من قبط مصر، فوهبها إبراهيم زوجته ابنة عمه سارة. وكانت سارة عاقرا لا تلد، فأقامت هاجر مملوكة لسارة زمانا، حتى عجزت سارة وارتفع الحيض عنها وقعدت عن الولد، فكلمت إبراهيم في أن تهب له هاجر جاريتها، وقالت لإبراهيم: لعل الله أن يهب لك منها ولدا نبيا، فوطىء إبراهيم هاجر جاريته فوهب الله منها إسماعيل صلى الله عليه، فسُرَت سارة به وأحبته وتبنته، فشكر الله لها ما فعلت بإبراهيم، ووهبها من نفسها إسحاق، بعد كبر سنها وارتفاع حيضها.

[قصة سارة مع هاجر]

فلما رأت سارة هبة الله لها إسحاق أبغضت إسماعيل بعد حبه، وباعدته وأمه بعد تقريبها وتقريبه، وألحت على إبراهيم ابن عمها في تبعيد هاجر عنها، وإبعاد إسماعيل ابنها، وقالت: أخرج عني الأمة وولده، وضربتها وآذتها وأساءت إليها، بعد ما كانت عليه من إكرامها وإكرام ابنها.

فلما ألح البلاء منها على هاجر، أخذت بيد ابنها إسماعيل وتنحَّت وتغيَّبت عن سارة، فلم تدر أين تذهب وقعدت تبكي تحت بعض الشجر، فنزل عليها ملك من السماء فقال: يا هاجر يا جارية سارة ما تصنعين هاهنا؟ فشكت إليه ما تلقى وابنها من سارة من الضرب والأذى، فقال له الملك: يا هاجر أمة سارة ارجعي إلى مولاتك فتعبدي لها، واصبري على ما ينالك من أذاها، فإن الله جاعل لك ولابنك فرجا ومخرجا، وجاعل ابنك هذا نبيا، وواهب لك منه نسلا كثيرا لا يحصى عددهم، يكونون وحش الإنس، ويكون لهم نبأ وشأن، وتكون أيديهم مبسوطة بالقوة والبأس، على كل الأمم والأجناس، وهذا من قصة إبراهيم وإسماعيل وسارة وهاجر مثبتٌ في التوراة التي أنزلها الله على موسى [1].

---

(١) نص التوراة هكذا: وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها ـسارةـ. تكوين ١٥:١٧.

فسقط ابراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ـسارةـ وهي بنت تسعين سنة. تكوين ١٧:١٧.

فقال الله بل ـسارةـ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. واقيم عهدي معه عهدا ابديا لنسله من بعده. تكوين ١٩:١٧.

ولكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك ـسارةـ في هذا الوقت في السنة الآتية. تكوين ٢١:١٧.

فاسرع ابراهيم الى الخيمة الى ـسارةـ وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملّة. تكوين ١٨:٦.

وقالوا له اين ـسارةـ امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. تكوين ١٨:٩.

فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت ـسارةـ سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. تكوين ١٨:١٠.

فضحكت ـسارةـ في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. تكوين ١٨:١٢.

فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت ـسارةـ قائلة أفبالحقيقة الد وانا قد شخت. تكوين ١٨:١٣.

فانكرت ـسارةـ قائلة لم اضحك. لانها خافت. فقال لا بل ضحكت. تكوين ١٨:١٥.

وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها ـسارةـ. تكوين ١٧:١٥.

فسقط ابراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ـسارةـ وهي بنت تسعين سنة. تكوين ١٧:١٧.

فقال الله بل ـسارةـ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. واقيم عهدي معه عهدا ابديا لنسله من بعده. تكوين ١٧:١٩.

ولكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك ـسارةـ في هذا الوقت في السنة الآتية. تكوين ١٧:٢١.

فاسرع ابراهيم الى الخيمة الى ـسارةـ وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملّة. تكوين ١٨:٦.

وقالوا له اين ـسارةـ امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. تكوين ١٨:٩.

فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت ـسارةـ سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. تكوين ١٨:١٠.

فضحكت ـسارةـ في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. تكوين ١٨:١٢.

فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت ـسارةـ قائلة أفبالحقيقة الد وانا قد شخت. تكوين ١٨:١٣.

وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها ـسارةـ. تكوين ١٧:١٥.

فسقط ابراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ـسارةـ وهي بنت تسعين سنة. تكوين ١٧:١٧.

فقال الله بل ـسارةـ امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. واقيم عهدي معه عهدا ابديا لنسله من بعده. تكوين ١٩:١٧.

ولكن عهدي اقيمه مع اسحق الذي تلده لك ـسارةـ في هذا الوقت في السنة الآتية. تكوين ٢١:١٧.

فاسرع ابراهيم الى الخيمة الى ـسارةـ وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا. اعجني واصنعي خبز ملّة. تكوين ٦:١٨.

وقالوا له اين ـسارةـ امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. تكوين ٩:١٨.

فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت ـسارةـ سامعة في باب الخيمة وهو وراءه. تكوين ١٠:١٨.

فضحكت ـسارةـ في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ. تكوين ١٢:١٨.

فقال الرب لابراهيم لماذا ضحكت ـسارةـ قائلة أفبالحقيقة الد وانا قد شخت. تكوين ١٣:١٨.

فانكرت ـسارةـ قائلة لم اضحك. لانها خافت. فقال لا بل ضحكت. تكوين ١٥:١٨.

تكوين ٢:٢٠ وقال ابراهيم عن ـسارةـ امراته هي اختي. فارسل ابيمالك ملك جرار واخذ ـسارةـ.

فاخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا واماء واعطاها لابراهيم. ورد اليه ـسارةـ امرأته. تكوين ١٤:٢٠.

لان الرب كان قد اغلق كل رحم لبيت ابيمالك بسبب ـسارةـ امرأة ابراهيم. تكوين ١٨:٢٠.

وافتقد الرب ـسارةـ كما قال. وفعل الرب لسارة كما تكلم. تكوين ١:٢١.

فحبلت ـسارةـ وولدت لابراهيم ابنا في شيخوخته. في الوقت الذي تكلم الله عنه. تكوين ٢:٢١.

ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذي ولدته له ـسارةـ اسحق. تكوين ٣:٢١.

وقالت ـسارةـ قد صنع اليّ الله ضحكا. كل من يسمع يضحك لي. تكوين ٦:٢١.

وقالت من قال لابراهيم ـسارةـ ترضع بنين. حتى ولدت ابنا في شيخوخته. تكوين ٧:٢١.

ورأت ـسارةـ ابن هاجر المصرية الذي ولدته لابراهيم يمزح. تكوين ٩:٢١.

فقال الله لابراهيم لا يقبح في عينيك من اجل الغلام ومن اجل جاريتك. في كل ما تقول لك ـسارةـ اسمع لقولها. لانه باسحق يدعى لك نسل. تكوين ١٢:٢١.

وكانت حياة ـسارةـ مئة وسبعا وعشرين سنة سني حياة ـسارةـ. تكوين ١:٢٣.

[هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة]

ثم إن الله أمر إبراهيم بإخراج هاجر وإسماعيل إلى مكة ومكة يومئذ بادية خلاء، وواد من أودية تهامة خاو، ليس بها دار ولا بناء، فأنزل إبراهيم ابنه إسماعيل وهاجر في موضع الكعبة، وكان بمكة قوم من اليمن من جُرهُم، فأمر إبراهيم ابنه إسماعيل أن يتزوج فيهم، فتزوج منهم امرأة، ووهبه الله منها ولده، وكثّر بمكة ذريته وعدده.

[بناء الكعبة]

وبنى إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما - كما ذكر الله - الكعبة، ورفعا منها القواعد من البيت، ودعا إبراهيم وإسماعيل لذريتهما - كما ذكر الله - من

وماتت ـسارةـ في قرية اربع التي هي حبرون في ارض كنعان. فاتى ابراهيم ليندب ـسارةـ ويبكي عليها. تكوين ٢٣:٢.

وبعد ذلك دفن ابراهيم ـسارةـ امرأته في مغارة حقل المكفيلة امام ممرا التي هي حبرون في ارض كنعان. تكوين ٢٣:١٩.

وولدت ـسارةـ امرأة سيدي ابنا لسيدي بعدما شاخت فقد اعطاه كل ما له. تكوين ٢٤:٣٦.

فادخلها اسحق الى خباء ـسارةـ امه واخذ رفقة فصارت له زوجة واحبّها. فتعزّى اسحق بعد موت امه. تكوين ٢٤:٦٧.

وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية ـسارةـ لابراهيم. تكوين ٢٥:١٢.

انظروا الى ابراهيم ابيكم والى ـسارةـ التي ولدتكم. لاني دعوته وهو واحد وباركته واكثرته. اشعياء ٥١:٢.

واذ لم يكن ضعيفا في الايمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا اذ كان ابن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع ـسارةـ. رومية ٤:١٩.

بالايمان ـسارةـ نفسها ايضا اخذت قدرة على انشاء نسل وبعد وقت السن ولدت اذ حسبت الذي وعد صادق. عبرانيين ١١:١١.

الدعوة، وقال الله مخبرا في كتابه عن دعاء إبراهيم خليله لذرية إسماعيل ابنه: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ...﴾ [البقرة:١٢٧ - ١٢٨] إلى آخر الآية.

ووضع إبراهيم أعلام الحرم، وشرف الله إسماعيل بمكة حتى انتشر في البلاد خبره، وعظم شرفه وقدره، بما أظهر بأبيه وبه بمكة من أعلام النبوة، وما ظهر بهما وعلى أيديهما من البراهين البينة، وبالحج واستجابة الناس لإبراهيم إذ أذن بالحج إليه، وألبس الله البيت الهيبة والعظمة عند كل مَنْ قَدِمَ ووفد عليه، وجعل الحرام أمنا لا يخاف أحد فيه، فأمنت الوحوش النافرة حواليه، مع آيات بينات قد ذكرها الله في القرءان وبيَّنها في تنزيله بأحسن البيان.

[تكاثر ولد إسماعيل]

فلبث ولد إسماعيل بمكة وحواليها وفي بواديها، حتى ضاقت بهم لكثرتهم بوادي الحجاز، وزحم بعضهم بعضا، وكلما عزت قبيلة زحمت ودفعت عنها الأخرى، وانتشروا في البوادي والبراري حتى بلغوا في البوادي ما أشرف على العجم العراق، وبلغوا من ناحية الشام ومصر واليمن، وأقصى ما يتصل بهذه البلدان من البوادي والبراري، وصلحت مكة لخيارهم وأشرافهم، ولآبائهم وأبنائهم من قريش وبني كنانة.

فلم يزالوا كذلك حتى أخرج الله النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء على يده بما جاء به من النبوة والدين والخير والهدى.

ونشر الله ولد إسحاق عليه السلام بالشامن فكانوا بالبوادي بالشام لا في القرى أصحاب ماشية وسير وسياحة في طلب ما يصلح مواشيهم من الرعاء، فأخرج الله منهم من أخرج وذكر في بني إسحاق من الأنبياء، فلم تزل

البوادي وما بَعُدَ من القرى في أول الزمان وآخره مساكن للرسل والأنبياء، والصالحين والأتقياء.

[أحاديث نبوية في الهجرة]

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد مهاجرته إلى المدينة، من ترغيبه عليه السلام في سكنى البادية والشعاب والأودية، ما لا اختلاف على رواية الناس فيه.

فذكر عن عائشة وغيرها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كان يَتَبدَّى إلى أطراف المدينة وبواديها وتلاعها)) [١].

وكذلك روت العامة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كان إذا كان أيام الشتاء والمطر تبدى)) [٢]. ثم قالت عائشة وغيرها: ((إلى هذه التلاع والشعاب إلى حول المدينة)) [٣]. وقالوا: ((إنه صلى الله عليه وآله وسلم يتبدى إلى أطراف تلاعها ونواحي البادية حولها)) [٤].

وذكروا في الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول بعد مهاجرته، وبعد إعزاز الله له وظهور حكمه وأمره، وهو يُرغِّب من معه وحوله في التخلي، والتفرد والاعتزال في الشعاب والتنحي: ((إن أغبط الناس عندي لمؤمن في بطن واد من هذه الأودية، أو شعب من هذه الشعاب، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، حتى تأتيه الوفاة)) [٥].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي أمامة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أغبط الناس عندي، مؤمن خفيف الحال أو الحاذ، ذو حظ من الصلاة، وأحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس،

هذا يا بني قوله وترغيبه في اعتزال الناس في أيامه، ومع ظهور حكمه، والناس يومئذ هم الناس، ليس فيه الآفات والعاهات التي في البشر اليوم ولا الأدناس.

وذكر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما لا اختلاف بين العلماء الأخيار فيه، أنه قال عليه السلام: ((إذا كان المطر قيظا والولد غيظا، وفاض اللئام فيضا، وغيض الكرام غيضان فأعُترّ عفر [١] في جبل وعر، خير من ملك بني النضر)) [٢]. وهذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسم صفة أزمنة تكون بعده، ومنها الزمان الذي نحن وأنتم يا بني فيه.

فقد لعمري فاض في زماننا وقبله بحين طويل اللئام فيضا، وغيض الكرام غيضا، فأعتر عفر يا بني كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((في جبل وعر، خير من ملك بني النضر)) [٣]، وبنوا النضر يا بني هم قريش، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله أن الأعتر العفر والسكنى بها في الجبل الوعر، خير لأهل التقوى والبر من الاختلاط في مثل هذا الزمان وما أشبهه بأهل المنكر والشر.

لا يشار إليه بالأصابع، ذو كفاف وصبر على ذلك، ثم نقد بيده فقال: عجلت منيته، وقلت بواكيه، وقل تراثه)).

أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ج١/ص٣٩/ح١٣، و الترمذي في سننه ج٤/ص٥٧٥/ح٢٣٤٧، و ابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٧٩/ح٤١١٧، و ابن حنبل في مسنده ج٥/ص٢٥٢/ح٢٢٢٢١، و الحاكم في مستدركه ج٤/ص١٣٧/ح٧١٤٨، و الحميدي في مسنده ج٢/ص٤٠٥/ح٩٠٩، و الطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٠٥/ح٧٨٢٩.

(١) العُفر، من الظباء: التي يعلو بياضها حمرة.

(٢) عن أبي هريرة قال: ((إذا كان الشتاء قيظا، والولد غيظا، وفاض اللئام فيضا، وغاض الكرام غيضا، فشويهات عفر بجبل، خير من ملك بني النضير)). رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٨٧٢١.

(٣) لم أقف عليه.

ولم يزل عقاب الله يا بني فيما مضى، إنما يقع بالأمم في المدن والقرى، وكذلك وعيد الله فإنما هو لهم، قال الله لا شريك له: ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:٩٨ - ٩٩]، وقال تبارك وتعالى في موضع آخر وهو يذكر عذابه لأهل القرى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:٤]، فقال عز وجل في موضع رابع من كتابه: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَٰلِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ ﴾ [الأنبياء:١١].

وذكر تعذيب الله لأهل القرى في مواضع كثيرة من القرءان، لما لم يزل عليه أهل القرى من كثرة الفساد فيهم والمنكر والعصيان، ولم يكن أهل القرى يا بني أكثر شرا ولا فسادا، ولا أشد الخلق مخالفة عن الهدى ولا عنادا، منهم في زماننا ودهرنا هذا، مع ما في القرى من فساد اللسان، وظهور العجمة واللكنة عن البيان.

[الصفات الحميدة لأهل البوادي]

وأهل البادية فلو لم يكن فيهم مع ما يرغب به عاقل لبيب في أن يأوي إليهم إلا لثباتهم في الكلام، وفصاحة ألسنتهم، وما هم عليه أكثر أهل البادية من الاقتصاد على أقل الكفاف في معيشتهم، والزهد في الدنيا الظاهر في لباسهم وآنيتهم، والجود والسخاء بقليل ذات أيديهم، وبذلهم وكرمهم إذا نزل بهم حق ينوبهم، أو آوى إليهم ضيف يأويهم، فالمقل منهم حينئذ في الجود بما في يده كالمكثر، والفقير في الاجتهاد بما يمكن في أداء الحق الذي نزل به وإكرام الضيف الذي حل بفنائه كالمؤسر، يؤثره عند ذلك على نفسه وعياله، ويبذل

ويجود بما لا يجود به القروي من ماله، هذا مع إقبال أهل البادية على شغلهم، ومعايش أنفسهم وعيالهم، وافتراقهم في منازلهم ومحالهم.

فكل إنسان منهم يمكنه أن يكون وحده، وأن يحجز حرمته عن الفساد وولده. وهذا ما لا يمكن يا بني في أهل القرى، ألا ترى أهل القرى لا يقدر بعضهم على الاعتزال عن بعض، لأنهم في سكك ودور وبناء، مع طيب البادية يا بني وصحة الأبدان فيها وغذائها، وطيب نسيم رياحها وصفا هوائها ومائها، وما فرش الله فيها بما لا يبلغه فرش الملوك من رمالها وبطحائها، التي ليست فيها ولا قربها أنتان الأنجاس، ولا يغشاها ولا يقر بها من لا حياء له ممن في القرى من غوغاء الناس.

ومع ما في البادية يا بني من المناظر الحسنة من الشجر المختلف والنبات، والدواب من الوحوش الهاملات، وخلوة القلب بالفكر فيما وضع الله لخلقه من العبر والآيات، وما يرون فيها ويعاينون من الجبال التي نصبها الله الشوامخ الراسيات، وما في أهلها وسكانها من فصيح الكلام واللغات، ومعرفة من جاورهم بغريب العربية والبلاغات.

مع ما في البادية يا بني من إمكان اتخاذ المواشي ذوات الأرحام، من الإبل والبقر والحمير والأغنام، التي لا يُتكلف لشيء منها كلفة، ولا يُؤتى لما جعل الله فيها من المعايش والغنى عن الناس على صفة، تكون للرجل بالبادية الناقة الواحدة فتصير نوقا كثيرة بالتناسل وإبلا، ويكون للرجل الشاة الواحدة والشاتان والخمس شياه فتعود بالتناسل في غير طويل من الزمان مالا وأغناما كثيرة، لا يتكلف صاحبها لها علفا ولا مؤنة، وقد تكون له البقرة أو الأتان من الحمير فيرزقه الله تناسلها ونتاجها حتى تصير مالا ذا عدد كثير، والشاة الواحدة والناقة المفردة لا يُقوى عليها ولا على علفها ومؤنتها في مدينة ولا قرية، لما يلزم لها وفيها من الغرامة والنفقة الثقيلة، فليس شيء مما ذكرنا مما

رفق الله على الإنسان من الإناث ذوات الأرحام، ومتناسل الحيوان، يتناسل بالقرى والمدن ولا رعي ولا مكان.

والماشية يا بني فيها وفي تناسلها ودرها وألبانها، وما يرفق الله به عليكم من أثمان حلوبتها وأسمانها، معايش رائقة، وبُلغٌ ومعونة من الله مباركة نافعة، يكف الله بها وجوهكم عن نجلاء الناس ولؤمائهم، وأهل الدناءت والشح من عوامهم، فإن لم يكن لكم مع الماشية في البادية شيء من البيار والمزارع، استغنى كل واحد إن شاء الله منكم وارتفق وانتفع.

[هجرة السلف الصالح من المدن والقرى]

و لم يزل يا بني مَن مضى من الأسلاف من قومكم في قديم الزمان، تكون لهم البوادي ويتخذونها ويسكنونها في كل بلدة وبكل مكان، و لم تزل الأشراف قط يتبوئون البادية، ويعتزلون عن القرى والمدن في الصحاري والبرية في كل ناحية.

فاعتزل في أول الدهر والناس حينئذ ناس في أكبر الشأن والأمر، بنو حسن فَتَبَدَّوا.

أولهم زيد بن الحسن بن علي عليهم السلام، في بادية من المدينة تسمى: البطحاء على أربعة أميال، فاحتفر بها بيارا وبنا بها مساكن متباعدة بعضها عن بعض ودورا. فلم يزل بها ولده بنو حسن بن زيد حتى فرقتهم منها هذه الفتن التي وقعت بالحجاز، فكانوا بها أصح قوم أبدانا، وأجلدها جَلَدا، وأنظرهم ألوانا.

واتخذ يا بني عمكم عبدُ الله بن الحسن فيما مضى من الدهر والزمن بادية لنفسه وولده، سويقة [1] وأكنافها وأوديتها وشعابها، فاحتفر بها بيارا وعينا

---

(١) سويقة: موضع قرب المدينة.

بالحزرة [١] في قربها، فيها بنو عبد الله بن الحسن بن الحسن إلى اليوم، وبعضهم قد اتسعوا وحلوا في بوادي ينبع والغور.

فبنو عمكم بنو عبد الله بن الحسن يا بني منذ نزلوا البادية أكثر قومكم عددا، وأجلدهم جلدا، وأوسعهم منازل وبلدا، وأكثرهم في معايشهم ارتفاقا بالمواشي من الإبل والغنم، فأقربهم لمجاورتهم العرب إلى أخلاق الحرية والكرم، قد دربتهم وخرجتهم البادية وأهلها. فجلدوا واشتدت أبد أنهم في منازلهم إن حضروا وقووا على السفر إذا احتاجوا إلى أن يسافروا، فهان وخف عليهم في السفر سرى الليل، وكبارهم وصغارهم يركبون صعاب الرواحل وصعاب الخيل، رجال ذووا رجلة مخشوشنون، بأدنى اللباس والغذاء مكتفون، قد زال عنهم بسكنى البادية الاسترخاء والتفكك، والوهن والكسل والكسح والتركك، لا يشبهون من ف المدينة وقربها من قومهم في لباس أولئك برقيق الثياب، وقلة صبرهم عن لين الطعام وبارد الشراب، قد زال عنهم في البادية ما لزم أكثر الطالبين بالمدينة من قبيح الألقاب.ولا يعرفون ما يعرف أولئك بالمدينة من اللعب بالحمام، لأن هؤلاء الذين بالمدينة جيرانهم وأخدانهم [٢] العرب الأحرار الكرام، ومَن بالمدينة من آل أبي طالب فأخدانهم وجيرانهم المولّدون [٣] من السودان والسفل اللئام، فكل من هؤلاء وأولئك بمن نشأ معه وجاوره مقتد ومتأس فقد ترك مَن بالمدينة من العبيد والسفل من جاورهم وحادثهم من آل أبي طالب بهم في الدناءة والسقوط متشبها، متمثلا بمذاهبهم محتذيا.

ولآل الحسين بَوَادِي العقيق والعريض.

---

(١) الحزرة: واد من أودية الأشعر، بأسفله العين التي تدعا: سويقة. وفاء الوفاء ٤/١١٩٠.

(٢) الخدن: الصديق.

(٣) المولّد: العربي غير المحض.

ولآل جعفر بَوَادي الفرش (١) وبَوَادي الغور، فلكل بطن منهم بَوادٍ ومعتزلات، ولهم منازل في البوادي والخلوات.

ولآل عثمان باديتان، وادي بدر وبلد العيون تسمى: دعان.

ولآل عمر بادية تسمى: بادية الخلائق والحمراء.

ولآل أبي بكر بوادي الثمر والأجمال.

ولآل طلحة بواد.

ولبني مخزوم وتميم بوادي حول مكة.

ولبني عامر من قريش وفهر بواد كثيرة.

وكان يقال: لا يتم شرف قوم من الأشراف حتى تكون لهم بادية، ولم يزل يا بني كل من يمتعض ويأنف ويمترأ (٢) وإن لم يكن ذا دين من بطون أشراف قريش، إلا ولهم بادية، بل لكل بطن منهم بَوَادٍ ومعتزلات، ومنازل في البوادي وخلوات.

[تحذير أبنائه من سكنى مكة والمدينة والعراق لعداوة أهلها]

واعلموا يا بني أنكم لو لم تعتزلوا المدن في هذا الزمان والقرى، إلا لغلبة عداوتكم وعداوة آبائكم على سكان المدن، وما هم عليه جميعا من مخالفتكم ومخالفة أسلافكم في الرأي والتدبير.

ولا أعلم في أهل المدن كلهم أشد لكم بغضا ومقتا وعداوة من أهل قصبة المدينة ومكة، ففيهم أصل عداوتكم وبغضائكم، وأهلها الذين علّموا أهل الآفاق التدين بخلاف دينكم وآرائكم.

ولا تسكنوا في هذا الزمان قصبة المدينة ولا مكة، وعليكم ما بقيتم بسكنى ما حول المدينة من البادية، والمجاورةِ في بَوَادي الحجاز من أهل الكفاف والعفاف

---

(١) الفرش: موضع على اثنين وعشرين ميلا من المدينة. وفاء الوفاء ١٢٨١/٤.

(٢) التمعض: الغضب. والتمرأ: تكلف المروءة.

من العرب في البوادي، ولا تختلطوا ولا تجاوروا من العرب أهل اللصوصية والفتنة، ولا تكثروا دخول المدينة ومكة إلا لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو لحج بيت الله الحرام، أو لأخذ حاجة تحتاجون إليها من الأسواق، أو لفتنة هايجة مخوفة غالبة، تخافون معها انقطاع الميرة والطعام، فإن كان عندكم ذخيرة، وكانت عندكم بُلغة ونفقة وميرة، ففي البادية من الأودية والجبال والفروع والمحال في شواهق الجبال من يعزكم عند كل فتنة إن شاء الله تعالى.

وكذلك فلا تسكنوا مدن العراق ولا مدينة الكوفة، فإنهم قد صاروا إلى غاية العداوة والنفاق وليس لكم بلد ولا لأولادكم أنقى من بوادي الحجاز.

تولاكم الله بالتوفيق والإرشاد، في الدين والدنيا وسكنى البلاد.

واعلموا يا بني أن ذكر البلاد وأخبارها، وذكر الأمم والأجناس وأمورها، سأشرح لكم إن شاء الله منه ما قد ذكرت لكم في أول كتابي هذا، إني سأشرحه وأبينه لكم بالخبرة والتجربة، ما قد كفيتكم المؤنة فيه، فأوضح لكم إن شاء الله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت لي ولكم وفيه، وهو رب العرش الكريم.

وإنما دعاني هاهنا إلى ذكر البادية، ما عرض في وصيتي لكم من ذكر الهجرة عن جماعات المدن والقرى والفجرة الغاوية، فلما أعلمتكم أنه لا مهرب منهم، ولا هجرة إلى الله عنهم، إلا إلى البادية، تعزلكم عن كل فتنة، وما هو أسلم عند الفتن من القرى والمدن، لأن أهل الفتنة إنما يطلبون الغنائم والنهوب في أماكن القرى وطرقها، والناس فلا يطلبون من اعتزل في أودية البوادي، وجبالها الصعبة الرواسي، ولذلك وضعت لكم ووصفت لكم تفصيل البوادي، وما فيها من المرفق والعزلة عن أهل العداوة لربكم.

ولكن سأعود إن شاء الله تعالى إلى ما ابتدأت به من وصيتكم بطاعة خالقكم وربكم، وحذر معصية بارئكم وإلهكم. والآن آخذ من وصيتكم في إتمام

النسق الأول، حتى إن شاء الله وسلّم، وأعان ووفّق وفهّم، آتي لكم على صفة ما تحتاجون إليه وإلى تمييز ما تعملون إن شاء الله عليه، في معرفة البلدان، ومن حولكم من الأمم والأجناس، وبعض ما تحتاجون إليه إن شاء الله لأنفسكم، ومن وهبه الله لكم من أولادكم وأهلكم وحشمكم، وما لا تستغنون عنه من الرأي في سياسة حرمكم وخدمكم.

فتفهّموا إن شاء الله بإقبال وصيتي، واقبلوا ما قد صفيت لكم اختياره من تجربتي، فلا شك إن شاء الله تعالى عندكم وعند غيركم في أني لم آلكم تسديدا ونصحا، وتفهيما لما أوصيتكم به وإيضاحا لذلك وشرحا.

وسأوصيكم وأنبئكم يا بني ببعض ما أوصى الله به ونبيه في الكتاب، من صالح العمل وجميل الأخلاق والآداب، فإنه لا وصية في كل حين أحسن من وصية الله تعالى، ولا تعليم ولا تنبيه لجميل خلق ولا أدب، أحسن ولا أفضل من تعليم الله وتفهيمه.

[التحذير من الكذب]

فمما نهاكم الله عنه وزجر، الكذب في القول والشهادة والخبر، فلا تقولوا يا بني زورا ولا كذبا، ولا تخبروا خبرا باطلا، فإن الله يمقت الباطل والكذب وقولَه، ولا يحب ولا يهدي أهله، يقول الله في كتابه، وهو يذكر ما يحل بمن كذب من سخطه وعقابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النحل:١٠٥]، وقال سبحانه وهو ينهى عن الكذب وشهادة الزور، وهو يصف عباده الناجين، ويخبر سبحانه وهو ينهى عن الكذب أحد كبائر الذنوب التي يعذب عليها المعذبين: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان:٧٢]، ولكفى

بقول الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨]، نهيا عن الكذب لمن كان ذا عقل أولي الألباب، فلو لم يترل الله عن ذلك نهيا لكان الكذب منكرا، قولا كان الكذب أو شهادة أو خبرا، ولكان ينبغي أن يتركه من كان ذا نسب وحسب حدا.

وقد قال جدكم القاسم رحمه الله عليه في النهي عن الكذب شعرا. فقال رضي الله عنه:

ما لكريم النصاب والكذب ... ذاك فعال اللئام في الحسب
لو أعطي الحرُّ أن يفه كذباً ... مُلك جميع الملوك من عرب
ما رضي الحُرُّ أن يميل به ... لزعمة من زعائم الكذب
والزور أمرٌ قلاه خالقنا ... وذمَّهُ في مُنْزَلِ الكتب
والعبد إلف له يقلبه ... يميل منه في كل منقلب
يكذب إما لرغبة طمعاً ... أو رهبة للمجون واللعب
أعيذ نفسي ومَن وَلدتُ ومن ... أحببت من قول كل مكتذب

[التحذير من كثرة الضحك والمزاح]

فإيايكم يا بني ثم إياكم وكثرة الضحك والمزاح، فإن الإفراط في ذلك مما لا يفعله أهل المروءة والعقل والصلاح، فإن (١) ذلك لا يوجد ولا يكون، إلا من أهل السخافة وقلة الدين، لا فيمن اتقى وأصلح، و لم يزل الصالحون من الرسل والأنبياء، وذوي الديانة من أهل المروءة والتقى، يقل مزاحهم ولعبهم، وفرحهم وطربهم، وإنما يُعرف أهل اللب والعقل والصلاح، والرزانة والوقار والخشوع بترك اللعب وكثرة الفرح والطرب والمزاح.

(١) في المخطوط: والصلاح، (وكثرة الضحك والمزاح) فإن. لعل العبارة زيادة سهو والله أعلم.

وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أكثرُ ضحكه أن تبدو ناجذاه)) [١]، والناجذان فهما ما يلي النابين من الأضراس، وذلك هو التبسم لا غير في مفهوم جميع الناس.

وكانت تقول العرب في قديم الزمان: إن بني هاشم كانوا يُعرفون بقلة الانهماك في الضحك، وإن ضحكهم كان تبسما، تترها منهم عن القهقهة في ضحكهم وتكرما، حتى اختلطوا بأهل المزح من الأجناس، وقاربوا بالحضانة والولادة سفساف الناس، فانهمَكوا في دهركم هذا مفرطين في سرف المزح والضحك، وانهتك به في مروءته من آل أبي طالب وغيرهم من انهتك.

فإياكم يا بني ثم إياكم والتمقت بكثرة المزح والفرح والضحك عند خالقكم وإلهكم ومولاكم، فإنه سبحانه يقول في كتابه فيما أدب به عباده من كريم آداب أنبيائه بالاستحسان والرضى، قول قوم فرعون لهارون فيما مضى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦]، وقال في موضع آخر من كتابه ذامًّا للمرحين: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء:٣٧].

[التحذير من السرقة والحث على الأمانة]

وأما يا بني ما كره الله من السرق والخيانة، وترك أداء الأمانة، فقد كان هذا في الجاهلية عند أهلها من الكفار مذموما، وكان مَن فعله في الجاهلية لئيما معاقبا مقيتا ملوما. ثم حكم الله في السارق بقطع يده لسخطه عليه، فقال فيما

---

(١) عن الضحاك بن عثمان الحزامي قال: ((لما كان من أمر صفية وحسان واليهودي ما كان، بلغنا أنهم ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم قالت صفية، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأيت أقصى نواجذه، وما رأيته ضحك من شيء قط ضحكه منه)).

رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٣٧٦٠.

نزل على نبيه من كتابه: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة:٣٨]، وقال مؤكدا لأمره في أداء الأمانة إلى أهلها، مرغبا في مكرمة تأدية الأمانة وفعلها: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨].

فوالله يا بني إنه ليستحسن من الرجل الكافر، والعجمي الخبيث المحتقر، أداء الأمانة إذا استؤمن عليها، فكيف بالمستأمَن من ذوي الشرف والحسب ألا يؤدي أمانته إلى مَن وثق به واسترسل إليه فيها؟!

ولقد ذكر الله أداء الأمانة عن بعض كفرة أهل الكتاب، منبها بذلك لذوي الورع في الدين والألباب، فقال: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران:٧٥] ذمًّا منه سبحانه لمن ترك أداء الأمانة وإن كان كافرا.

وأداء الرجل يا بني لأمانته فمن صيانته لنفسه وتكرمته لها، ولم تزل الخيانة مذمومة مسخوطة في جميع الأديان والأمم كلها.

[الصدق]

وأوصيكم يا بني بالصدق في الوعد والإخبار، فإن الصدق عند الله من كرم صالح عمل الأبرار، وقد أمر الله بالصدق في مواضع كثيرة من القرءان، وحلى به ووصف أهل الصلاح والإيمان، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥]، فجعل الصدق صفة لصالح الرجال والنساء، ودليلا على الإسلام والإيمان من أشرف الصفات، وجعل الصدق للإسلام والإيمان علامة ثانية من العلامات.

وقال أيضا وهو يصف حدود صفات من رضي عنه من أهل التقوى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، فجعل الصدق سبحانه والصبر والقنوت - وهو الدعاء من الداعي قائما لله - والإنفاق مما رزق وتَرْكَ البخل من صفات المتقين الأبرار، وقد ذكر الله الصدق بالرضا منه والوصية منه به وكرر ذلك تكرارا بعد تكرار، وذكر صدق الوعد فريضة، وجعله من فاضل الأعمال الصالحة التي مدح بها إسماعيل نبيه صلى الله عليه، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم:٥٤]، فكان صدق الوعد مما رضي به عن إسماعيل نبيه صلى الله عليه وآله وجعله له مدحا شريفا سنيا.

[وصايا القرءان]

ولكفاكم يا بني بوصايا الله في القرءان أدبا ووصايا، فإن الله تبارك وتعالى قد أمر عباده في كتابه من صواب الرشد والحكمة بما هو أفضل مما وهبهم الله من العطايا، ففيه فانظروا، ومنه فاقبلوا، وبنوره فاستنيروا، وما أمرتم به في الكتاب أن تفعلوه فافعلوا، فليس خير يبتغى إلا والقرءان به آمر، ولا شر يتقى إلا وكتاب الله عنه ناهٍ زاجر.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦].

فما هذا يا بني في هذه الآية من جوامع الوصايا بالخير والمعروف والكرم، إذ بدأ في وصايا هذه الآية بأوجب الحقوق، وبيَّن حق الخالق وعبادة الله وترك الإشراك به إذ حقه الحق الواجب الأعظم ثم ثنى تبارك وتعالى بعد ذكر عبادته وإيجاب عظيم حقه، بالوصية بحقِ مَن حقُه بعده من أوجب حقوق خلقه، بحق الوالدين اللذين منهما خلق الولد، وهما اللذان ربياه صغيرا وغذواه برزق الله، وكانا في الشفقة عليه والمحبة له والإحسان إليه على ما لا يبلغه بعد الله غيرهما أحد.

ثم وصى في هذه الآية سبحانه بالرأفة والرحمة والصلة بعد الوالدين والإحسان إليهما إلى ذوي الرحم الأقربين، والإحسان إلى ذوي القربى، فهو العطف عليهم - كما قلنا - بالرأفة والرحمة، والصلة لمحتاجهم ومضطرهم بالعطية والهبة، والصبر على ما لا تخلو القربى منه بالحسد والنفاسة على القريب، إذا بان عليه بفضل أو رئاسة، في بُلغ الدنيا أكثر قليلا منهم سعة وجِدَة. فلا يخلونَّ حينئذ من تنقصيه وعيبه والوقيعة فيه، وحينئذ يجب الصبر منه على ذلك للقربى والصفح عنهم وترك مكافأتهم، وذلك الإحسان الذي فرض لهم عليه.

واليتامى فقد أوصى الله في هذه الآية بهم، والإحسان إليهم والرحمة لهم، مما بلوا به من الصغر من فقد والديهم.

ثم أوصى سبحانه في هذه الآية بالمساكين، وهم ذوو العسرة والفقر الشديد، والسُّؤال المحتاجون فأمر بالإحسان إليهم. والإحسان فهو نفعهم وما يتصدق به عليهم.

ثم أوصى سبحانه بابن السبيل، وهو المسافر الغريب الضعيف الذليل، الذي قد تغرَّب عن وطنه وبلده، وانقطع به في بلغه وزاده، وقلة ذات يده، فأمر تعالى بالإحسان إليه. والإحسان إلى ابن السبيل فهو ضيافته ورفده، حتى يخرج من غربته وتضمه بلده.

ثم أوصى تبارك وتعالى بحفظ الجار، ذي القربى في النسب وقريب الجوار. وأوصى بالجار الجنب وهو المتنحي مترله إلى الجار الجنب [١]، والأجنبي فهي المتنحي عن ذي القرابة والنسب. والإحسان فهو الدفع عنه بما أمكن دفعه من المضار والإمساك عما يغمه ويؤذيه، واحتمال بعض خطاياه أو حسده ما لم يصل إلى ما يسخط الله تعالى فيركب كبائر معاصيه.

ثم أوصى تبارك وتعالى بحفظ الصحبة من صاحب الجنب، وهو المصاحب في السفر الأجنبي الذي ليس مترله منك بقريب، وليس بينك وبينه معرفة ولا قرابة، فأوجب سبحانه له حقا بالرفقة والصحابة. ثم أوصى سبحانه وتعالى في هذه الآية بوصية شريفة عنده مكرمة، من الإحسان إلى المماليك العبيد الذين خولهم [٢] من يملكهم، والمملوك فهو إنسان كمالكه وإن كان الله قد جعلهم سخرة لهم، والإحسان إليهم فهو أن لا يقصر في النفقة عليهم عما يغنيهم ويكفيهم، وأن يكسو في البرد والقُرَ ما يدفيهم، وأن يكسو في الصيف ما يواريهم، ويتجاوز لهم - إلا في حد من حدود الله - يغفر ذنوبهم، ولا يفرط الفرط الشديد المسرف في شتمهم وسبهم، فإن غلبوا بالمجانة [٣] والمعصية فبيعهم أصلح وأسلم، وأشبه بالإحسان وأكرم، من تعذيبهم وضربهم، إلا أن يرجو المالك أن ينفع فيهم تأديبهم، فيؤدبهم ويعاقبهم عقابا وسطا، ولا يصير من أدبهم إلى أدب مسرف مفرط يكون لله سخطا.

ولكن بما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المماليك من الخبر، دلالة على رضى الله سبحانه في الرفق بالمماليك لمن فهم ونظر، فإنه قد صح في منقول الآثار، وما لا شك فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من

---

(١) في المخطوط: الأجنبي. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) خول: ملك. والخول: المماليك.

(٣) المجانة: من المجول.

الأخبار، أنه أوصى في مرضه ونزول موته، فقال نظرا لأمته: ((أوصيكم بالضعيفين المرأة والمملوك)) [١]، وذُكر أيضا عنه في الوصية بالمماليك أنه قال للأحرار وهو يوصيهم بما ملكت أيديهم، ويعلمهم أن من يملكون بشرٌ كَهُم يؤذيهم ما يؤذيهم، فقال صلى الله عليه وآله: ((أرقاءكم أرقاءكم، لم يُخلقوا من حجر، ولم ينحتوا من شجر، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون)) [٢].

فقال الله سبحانه وتعالى في آخر هذه الآية والوصية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦]، والله سبحانه لا يحب ولا يرضى للإنسان الضعيف الفاني التكبر والاحتيال، لأنه وضع الإنسان في الدنيا موضع الوهن والصغار والانحطاط في كل حال. فكم يا بني في هذه الآية من وصية حكيمة؟! ونصائح للناس رضية كريمة؟!

وقال الله سبحانه وهو يوصي من هو به رؤوف رحيم من هذا الإنسان: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠]، فكم في القرءان الحكيم، وتنزيل الله الكريم من موعظة شافية كافية لقوم يعقلون؟! ففيه يا بني فانظروا، وبنوره في ظلمة حيرةِ دهركم فاستنيروا، ففيه الدلالة إلى كل

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٢٥٠٠٤.

(٢) رواه الإمام زيد في المسند /٣٩٠، والهادي في الأحكام.

وورد بلفظ: عن تعبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ((أرقاءكم أرقاءكم، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٤/ص٣٦/ح١٦٤٥٦، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٨٨/ح٨١٠٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص٣٦/ح١٥٧٢٨.

رشد وخير، جعلكم الله ممن اهتدى في ظُلَم هذا الدهر وحيرته بضياء كتاب الله المبين.

ولكفاكم يا بني بنهي الله عز وجل عن كل شر ومنكر، ترغيبا منه تعالى في كل خير وبر، بقوله سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فلا أقل ولا أصغر لمؤمن عند الله سبحانه من الخير والشر، في حكمه شيء لصِغَره وحقارته يسقط ويُحتقر من مثاقيل الذر. ولكفى في النهي عما حرم الله من الحرام بقوله ونهيه، في آخر سورة الأنعام لنبيه: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢ ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

والفحشاء يا بني التي نهى الله عنها فهو كل فاحش قبيح مستنكر، وذلك فيما قد ألهم الله معرفته كل غوي وبَرًّا، وليس يفعل أحد شيئا صغر ولا كبر من الفحشاء والقبيح، إلا وقد رُكِّب في طباعه وألهم معرفة ذلك كل أبيض وأسود أعجمي وفصيح، ألا تستمعون لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس:٧-١٠]، فركّب الله يا بني كل نفس ومعقولها،

قبل ما عملت من عملها، معرفة ألهمها إياها، تفهم بها ما تأتي من برها وإثمها. وكذلك الفواحش كلها والنفس لما يفعل منها منكره، وكذلك إذا اتَّقَتْ وبَرَّتْ فقد ألهمت النفس وعرفت الأعمال الصالحة البرة.

وفيما ذكر الله سبحانه من النهي في القرءان، عن المنكر والفحشاء والعصيان، ما أغنى وكفى عن تفسيرنا له بالبيان.

وسأعود يا بني إن شاء الله إلى ذكر جُمُل أوصيكم بما أوصى الله به فيها من الطاعة، وفعلُكم لها وأَثَرَتُكم إياها هي الغنائم الكبرى في الدنيا، وبها النجاة عند الله والظفر بثواب الله وحسن جزائه في الدار الأخرى.

وسأذكر لكم يا بني من ذ لك إن شاء الله جُملا مختصرة، إن عملتم بها رجوت أن يكون فيها نجاتكم عند المعاد إلى الله في الدار الآخرة.

[التوحيد]

فأول - إن شاء الله - ذلك ذكر بارئكم وخالقكم وربكم، والفكرة في وحدانيته وجلاله وعظمته، وأن لا تتوهموه مشبها لشيء من خلقه وبريته، ولا مثلا ولا شيئا كالأشياء مشاكلا لشيء مما خلق في أرضه وسماواته.وأن تعلموا إذا فكرتم فجالت بكم الفِكر في جميع ما يدرك العقل والحواس، ويحيط به مما ظهر أو غاب أفهام الأولين والآخرين من الناس، من كل حيوان حي، من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو شمس منيرة، أو نور من الأنوار مضي، أو معظَّم مشرق مستحسن بهيٍّ، أرضيا كان ذلك أو سماويا، وتحول به في قلوبكم فكرة، أو تهموه في دنيا أو آخرة، أن تعلموا أن ربكم وإلهكم وصانعكم وصانع كل شيء خلاف لهذا كله، وأنه غير مشبه لشيء من الأشياء كلها التي خلق في سماواته وأرضه. وأن حقيقة الإيمان به أنه هو الله الذي هو خلاف الأشياء كلها، لا يشاكله ولا يشابهه شيء مما في السماوات العلى ولا مما في أرضه وسفلها.

وحقيقة الأيمان به أبدا، والصواب - والحمد لله - فيها والهدى، أنه خلاف كل ما أدركته العقول أو خطر بالبال، في الكرم والعظمة والكبرياء والجلال.

[و] حقيقة اليقين في المعرفة أنه لا يدركِ بحيطة ولا تحديد، ولا تمثيل ولا صفة، وكيف يُوصفُ من لا تدركه العقول، ولا الفِكر ولا الحواس؟! ومن تعالى وجلّ عن شبه أهل السماء من الملائكة وتقدس، وعلا عن أن يشبه الأنوار ذات البهاء المضيئة، وحاش الله أن يشبه أو يماثل الإنسان الذي هو من الصور الأرضية، بل هو سبحانه الواحد الحق في الوحدانية، والذي لا تدركه الأبصار، ولا يوصف بحدود ولا أقطار، ولا تقاس عظمته وجلاله وقدرته بشبه ولا مقدار، أعظم من كل شيء عظمته عظما، وأكرم من أن تدركه الأوهام أو تناله الفِكَر كرما، كل كبير معه صغير، وكل معظّم عند ذكره حقير.

فإلهكم يا بني وربكم فسبحوا واذكروا وحبه والوَلَهَ إليه فاستشعروا، ونعمه عليكم فافهموها وإن لم تحصوها واشكروا. وشكركم له وحمدكم فإنما هو بالطاعة والعمل الصالح، لا بالإقرار واللسان، بل بالركوع والسجود والتسليم لأمره والخضوع، والفكرة فيما أبدى من حججه وآياته، وما أراكم من برهان ربوبيته في أرضه وسماواته.

فاسمعوا لإلهكم العظيم وبارئكم الكريم وأطيعوه، واخشوا من خالقكم الرؤوف الرحيم بكم واخضعوا، واحمدوه بألسنتكم وسبحوه، واسجدوا له واركعوا، فإنما حمده وشكره عبادته وطاعته وذكره واتباع ما يحب ويرضيه، واجتناب كلاما نهى عنه من سخطه ومعاصيه، وموالاة أوليائه، ومحبة أحبائه، من رسله وأنبيائه، ومعادات أعدائه، والإيمان به وبملائكته، والتصديق برسله وكتبه.

[الصلاة]

وبعد الاعتقاد منكم يا بني بالإيقان والإيمان، فخذوا أنفسكم بما أمركم به من تطهير الأعضاء والأبدان. فإذا توضأتم فأسبغوا الوضوء، حتى تنظفوا ما أمرتم به من كل عضو. واعلموا أن الوضوء هو التطهر الأصغر، وإن أجلّ منه في الطهارة والأكبر التطهر والتنظف من كبائر المعاصي. وأن ذلك هو الباب الأكبر، الذي من دخله صار إلى النجاة.

واعلموا يا بني أن الصلاة إنما وضعت وفرضت لذكر الله تعالى والثناء عليه، والفكرة في جلاله وعظمته وما يقرب إليه، وما أنعم به عليه من عظيم نعمه، وما وعد من كريم الثواب في طاعته، وما خوَّفه به من أليم عقابه عذابه على معصيته، فمن لم يكن هكذا فهو ساه في صلاته.

وإنما وضعت الصلاة لذكر الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]، وقال الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون:٤-٥]، والسهو عنها فهو السهو عن ذكر الله تعالى فيها، والإقبال بالفكر والقلب عليها.

فافهموا يا بني - رحمكم الله - قول ربكم ودلالته لعباده وخلقه، على ما في الصلاة والركوع والسجود من رضاه وتعظيم حقه، إذ يقول سبحانه لنبيه وهو يرغبه في الصلاة ويدعوه إليها، ويخبره عن الفضائل في الصلاة وما جعل فيها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، والصلاة - يا بني - فهي السجود والركوع، والقيام والخضوع لله والخشوع، وتمامها وقوامها ونظامها ذكر الله فيها، وإقبال القلب لذكره عليها (١)، ألا ترون كيف يقول الله عز وجل: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾،

---

(١) في المخطوط: فيها. ولعل الصواب ما أثبت.

والصلاة فلها موقع كريم عند الله، وهي في جميع الأديان عند أهلها مما يقرب إلى الله تعالى.

وقد رغب فيها يا بني في مواضع كثيرة من القرءان، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من يتبعه من أهل الإيمان، وقال تعالى منبهاً لنبيه وأوليائه لما في الصلاة من المعونة لهم على تفريج غمومهم وكروبهم، مع ما فيها من القربة إليه ورضاه: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥]، وكبرها يا بني الذي ذكر الله هاهنا فهو ثقلها على أهل القسوة واللهو الغافلين، فلا تدعوا يا بني الأخذ بحضكم منها، والإستكثار من نوافلها، وقلة الغفلة عنها، فإن فيها الروح والفرج من الغموم، وكيف لا تكون كذلك وإنما أقيمت وتفرغ فيها لذكر الله الكريم، وأي شغل من الأشغال أو عمل من الأعمال أشرف شرفاً وأجل قدراً من عمل يشتغل العبد فيه من الدنيا ودنسها، ويقبل في صلاته على الخضوع لله صامداً لخالقه وربه ذاكراً.

فهي كما جاء أنه كان في الأذان الأول النداء بها (حي على خير العمل) وهو خير ما أقبل عليه الإنسان وبه اشتغل، قال الله سبحانه الحكيم العليم، وهو يدعو إلى الصلاة والركوع والسجود أبناء خليله ونبيه إسماعيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٧ - ٧٨]، فدلهم اختصاصا لحبه سبحانه لأبيهم إبراهيم وإسماعيل على عمل من أعمال البر يحبه ويرضاه سماه عبادة وخيراً وفلاحاً.

ألا ترون يا بني كيف يقول: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾، ولكفى بهؤلاء الكلمات في هذه الآية دليلا على فضل الصلاة والفلاح.

يا بني في جميع القرءان فهو الربح والأرباح، فما سمعتم في القرءان قد أفلح، فمعناه قد ربح أو أربح، والمفلحون فهو الرابحون.

وفي الصلاة يا بني وفضلها ورضوان الله عمن فعلها من أهلها ما بدا الله بها في صفة المؤمنين، وجعلها أول فريضة على المسلمين، وقدمها قبل غيرها في شرائع الدين، ألا ترون أن الكافر المشرك إذا تاب من شركه وأسلم، كان أول ما يؤمر به أن يبتديه الصلاة لربه وبارئه، قال الله لا شرك له وهو يقدم الصلاة في منزل القرءان، عند ذكره وصفته لأعمال أهل الإيمان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ١ - ٩]. فذكر سبحانه صفات المؤمنين التي كانوا بها عنده في الآخرة ناجين، فبدأ فيها بالصلاة عند ذكر أولها، ثم ختم بالمحافظة عليها عند صفاتهم في آخرها.

فتفهموا يا بني - وفقكم الله - في هذه الآيات ما ذكر الله سبحانه من هذه الأعمال التي ورثهم بها الفردوس، وهي ستة أعمال من الحسنات، فقد كفاكم الله الدلالة على النجاة بها إن فعلتموها نجوتم وفزتم بجميع الخيرات، وما ذكر الله به الصلاة من فضلها فهو في آيات لا نحصيها من القرآن، ولا نأتي هاهنا على ذكرها كلها.

وذكر يا بني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يرغب في كثرة الركوع والسجود لله ويدعو إليه، ويقول: ((الصلاة خير موضوع فمن شاء استكثر ومن شاء أقل)) [١].

وذكر أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يكثر من نوافل الصلاة ليلاً ونهاراً، ويقول عليه السلام: ((جعلت قرة عيني في الصلاة)) [٢].

وذكر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه: ((كان من كثرة صلاته ونوافله ليلاً ونهاراً يصلي حتى ورمت قدماه، فقيل: يا نبي الله ما يحملك على هذا، وقد

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: ((دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فاغتنمت خلوته فقال لي: يا أبا ذر إن للمسجد تحية، قلت: وما تحيته يا رسول الله؟ قال: ركعتان فركعتهما، ثم التفت إلي فقلت: يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ قال: خير موضوع فمن شاء أقل ومن شاء أكثر. قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الإيمان بالله، ثم ذكر الحديث ... إلى أن قال: فقلت: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي. قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر ...)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٨٢/ح٣٦١، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٦٥٣/ح٤١٦٦، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٨٤/ح٢٤٣.

(٢) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((حبب إلي النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة)).

أخرجه النسائي في سننه ٧/ص٦١/ح٣٩٣٩، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١٢٨/ح١٢٣١٥، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٧٤/ح٢٦٧٦، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٤٢٠/ح١٠١٢، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٨٠/ح٨٨٨٧، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص٣٩/ح٧٤١، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٧٨/ح١٣٢٣٢، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٢٠٠/ح٣٤٨٢، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص٢٤١/ح٥٢٠٣.

غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال عليه السلام: أفلا أكون عبداً شكورا)) [١].

فالصلاة يا بني الصلاة الصلاة فإن فيها فرج غموم قلوبكم، وأنس وحشتكم، ورضوان ربكم، فلا تغفلوا ما بقيتم عنها، واستكثروا ما استطعتم منها، فقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لكثرة رغبته فيها، يكثر الصلاة في ليله ونهاره كثيراً، وأنه كان يلزم ذلك مقيما ومسافرا، حتى أنه كان ليصلي نوافله على ظهر دابته يركع ويسجد، ويكبر ويتشهد حيث توجهت الدابة.

وذكر أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: ((إن أغبط الناس عندي لمؤمن ببطن واد من هذه الأودية أو شعب من هذه الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة حتى تأتيه الوفاة)) [٢].

---

(١) عن المغيرة قال: ((قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه. فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: أفلا أكون عبدا شكورا)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٨٣٠/ح ٤٥٥٦، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧١/ح٢٨١٩، أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر ١/ص٢٨/ح٧٣، والنسائي في سننه ج٣/ص٢١٩/ح١٦٤٤، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٠/ح٣١١، وابن خزيمة في صحيحه ج٢/ص٢٠١/ح١١٨٢، والترمذي في سننه ج٢/ص٢٦٩/ح٤١٢، وابن ماجه في سننه ج١/ص٤٥٦/ح١٤١٩، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٥١/ح١٨٢٢٣، والطيالسي في مسنده ج١/ص٩٥/ح٦٩٣، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٣٥/ح٧٥٩، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٤١٩/ح١٠٠٩، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٤١٨/ح١٣٢٥، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٢٩/ح١٩٠، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص١٦/ح٤٥٠٨، وأبو يعلى في مسنده ج٥/ص٢٨٢/ح٢٩٠٠، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٩٧/ح٢٩٥.

(٢) سبق تخريجه.

وقال الله تبارك وتعالى لنبيه مرغباً له ولمن تبعه في التقرب بالصلاة إليه، وأخبره أن الصلاة حسنات يذهبن السيئات، فتفهموا قوله تعالى تعلموا أنها من كرائم القربات لديه، إذ يقول سبحانه لنبيه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤]، وذكر تبارك وتعالى ما يرضى في الصلاة ويجب بقوله تعالى عند ذكر الكافر الناهي عن الصلاة: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق:١٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١٤ - ١٩].

وذكر الصلاة فدل على فضلها عند مدحه لإسماعيل نبيه وابن خليله صلى الله عليه حين أخبر أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا، وقال تبارك وتعالى لنبيه محد صلى الله عليه وآله وسلم مسلياً له عن الرغبة في الدنيا، وأمره له بما هو انفع وأربح وأكبر من الدنيا كلها قدراً من الصبر على الصلاة التي تقرب بها من الله، إذ هي أعظم ثوابا من جميع الدنيا وزهرتها التي يمد إليها الإنسان عينيه، قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه:١٣١ - ١٣٢]، فرغب الله نبيه يا بني في الصلاة ونهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به المغرور زهرة دنياه، وأخبره بما أعد في الآخرة من الرزق الباقي لأوليائه، ودله على ما يناله به ويعطاه من التقرب إليه بالصلاة والصبر عليها، وأمر أهله منها بما يرضيه، فقال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾، وأعلمه أن

رضاه في التقرب إليه بالصلاة له، وأنه يرزقه ولا يحتاج إلى رزق، فيسأله جل عن ذلك من يُطعم ولا يُطعم الله، البعيد من شبه خلقه، العلي الأكرم.

[وصيته في ذكر الله]

وعليكم يا بني بذكر خالقكم وبارئكم فإن ذلك مما يحق له سبحانه عليكم، وذكركم له بالليل والنهار، فعمل صالح لم يزل من أعمال الأبرار، ومن الأولى بأن يذكر ولا ينسى، وأن يثنى عليه ويسبح في الصباح والمساء ممن خلقكم وفطركم بعد إذ لم تكونوا شيئا، ومن لولاه تبارك وتعالى ما كان أحد منكم حياً، ومن يغذوكم في كل حين برزقه ونعمه، ويجود عليكم بفضله وكرمه، فنعمه عليكم تروح وتغذوا متصلة، فمن أولى منه جل جلاله سبحانه بأنه لا تكون أنفسكم عن ذكره غافلة، فاحمدوه وكبروه وسبحوه فأكثروا ذكره بالغدو والآصال، فإن ذكره وتسبيحه وتكبيره من صالح الأعمال، فإن يقول سبحانه لعباده المؤمنين، وهو يأمرهم أن يكونوا له من الذاكرين، إذ لا يرضى لعباده أن يكونوا عصاة كافرين، بل الذي يرضى لهم أن يشكروه وهو أشكر الشاكرين، فقال سبحانه لعباده المؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال سبحانه في الذكر وأمر عباده به في السفر والحضر وبعد إفاضتهم من عرفات، وبعد الوقوف له يوم الحج الأكبر: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ﴾ [البقرة:١٩٨ - ٢٠٠]،

فأمرهم تبارك وتعالى بعد قضاء مناسكهم بذكره وأن لا يدعوا ذكره في سائر سببهم، وأن يكثروا من ذكره كما يكثرون أو أشد من ذكر آبائهم وأمهاتهم، وقال تبارك وتعالى - يا بني - وهو يأمر عباده بعد الصلاة له، بذكره على كل حال من أحوالهم، قياما وقعودا وعلى جنوبهم: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء:١٠٣]، وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلكم وهو يأمره بتسبيحه وتكبيره في علانيته وسره: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، فأمره تبارك وتعالى بذكره على كل حال.

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((من قال سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، كتب الله له بها عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات)) [1].

---

(١) أخرجه محمد بن منصور المرادي في الذكر الحكيم /٣٥١(٤٣٠).

وورد بلفظ: عن كعب قال: ((اختار الله الكلام، فأحب الكلام إلى الله لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، فمن قال: لا إله إلا الله فهي كلمة الإخلاص، كتب الله له بها عشرين حسنة، وكفر عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر فذلك جلال الله، كتب الله له بها عشرين حسنة، وكفر عنه عشرين سيئة، ومن قال: سبحان الله، كتب الله له بها عشرين حسنة، وكفر عنه عشرين سيئة، ومن قال: الحمد لله، فذلك ثناء الله وثناؤه الحمد، كتب الله له بها ثلاثين حسنة، وكفر عنه ثلاثين سيئة)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٢/ص٣٠٢/ح٧٩٩٩، والحاكم في مستدركه ج١/ص٦٩٣/ح١٨٨٦، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٢١٠/ح١٠٦٧٦.

وذكر عن علي عليه السلام من وجوه كثيرة حديث مشهور معروف عند أهل البيت عليهم السلام والعامة، وقد سمعته غير مرة أن عليا عليه السلام قال لفاطمة عليها الرضوان: ((إن الطحن واختدامك نفسك قد جهدك فلو أتيت أباك فسألتيه خادما، فقالت: فانطلق معي، قال: فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له فقال: ألا أدلكما على عمل خير لكما من ذلك، تسبحان الله إذا أويتما إلى فراشكما ثلاثا وثلاثين، وتحمدانه ثلاثا وثلاثين، وتكبرانه أربعا وثلاثين، فتلكما مائة على اللسان وألف في الميزان. قال علي عليه السلام: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كل صلاة فريضة وعند كل نوم، فقال له رجل: ولا ليلة صفين يا أمير المؤمنين، فقال: ولا ليلة صفين)) [1].

---

(١) ورد بلفظ: عن علي ((أن فاطمة عليها السلام اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبي، فأتته تسأله خادما، فلم توافقه، فذكرت لعائشة فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك عائشة له، فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم فقال: على مكانكما حتى وجدت برد قدميه على صدري. فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماه، إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماه)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١١٣٣/ح ٢٩٤٥، وفي الأدب المفرد ١/ص٢٢٢/ح٦٣٥، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠٩١/ح٢٧٢٧، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٣٣٤/ح٥٥٢٤، والترمذي في سننه ج٥/ص٤٧٧/ح٣٤٠٨، وابن ماجه في سننه ج١/ص٣٠٠/ح٩٢٧، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣١٥/ح٥٠٦٢، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٨٠/ح٦٠٤، والحاكم في مستدركه ج٣/ص١٦٥/ح٤٧٢٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج٣/ص٢٣٣/ح٠، ٣/ص٢٩٨/ح٠، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٦/ح٩٣، والحميدي في مسنده ج١/ص٢٥/ح٤٣، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٣/ص٣٣٩/ح٧٨٧، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٧٤/ح٩١٧٢، والبيهقي في سننه الكبرى

وذكر يا بني عن جدكم الحسن بن علي عليهما السلام حديث معروف عنه، قال: سمعه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من صلى صلاة الصبح ثم جلس يذكر الله إلى أن تطلع الشمس كان له سترا وحجابا من النار)) [1] .

واذكروا قول الله سبحانه وهو يرغب في الذكر ويدعو إليه عباده المؤمنين ونبيه خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال سبحانه وهو يأمر نبيه وعباده أن يكونوا له مسبحين: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝ ﴾ [ق:٣٩-٤٠]، يعني تبارك وتعالى: أدبار الصلاة عند الفراغ منها، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ ﴾ [الروم:١٧-١٨].

[قصة سليمان وأمره بضرب أعناق الخيل]

وقال وهو يخبر عن نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم، ويذكر ما كان عليه من ذكر ربه وتسبيح قبل توار الشمس بالحجاب، وهو سقوط عين الشمس، وقد عرض عليه ما أعطاه الله من أجناس الخيل الفاضلة الجياد، والعرب تسمي الخيل: خير، فشغله صلى الله عليه وسلم العجب بفضل ما أعطاه الله من أجناس الخيل عن تسبيحه كل عشية يذكر الله حتى توارت الشمس بالحجاب،

ج٧/ص٢٩٤/ح١٤٤٩٥، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص٢٣٧/ح٢٧٤، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٥١/ح٦٣، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٧٧/ح٢٦٨٥، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١١١/ح٣٤٥.

(١) أخرجه السيد أبو طالب في أماليه /٤٧٨ (٦٣٨).

فأمر حين أغفله العجب بها والنظر إليها عن تسبيح الله وذكره يوم عرضت عليه ساعة من العشي حتى ذهب وقت تسبيحه برد الخيل عليه آسفا على غفلته بالنظر إليها والعجب بها حتى توارت بالحجاب، يعني: بالشمس، فردت الخيل عليه، فأمر بضرب أعناقها ومسحها بالسوق وعرقبتها، وقال الله سبحانه: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص:٣٣]، والمسح: الضرب بالسيف لأعناقها، وسوقها: قطعها بالسيوف أسفاً إذ شغلته عن ذكر الله، لأن ثواب تسبيحة واحدة أكبر وأفضل من الخيل أسفاً على فوات تسبيحه ساعة واحدة.

وقال الله وهو يثني على المؤمنين والمؤمنات بالذكر له في الأوقات: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥].

فلا تدعوا - يا بني - تعاهد الذكر لله، والتسبيح بالبكر والعشيات قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

[وصيته في الحج]

والحج فقد علمتم ما جاء فيه من الثواب، وأنه قيل أن أقل ما للحاج الخالص النية فيه من عظيم ثواب الله، وأنه يخلف عليه نفقته، ويخلف بالحفظ له في أهله ومهمه وولده، حتى يرجع من سفره لحجته، وأن الحجة المبرورة ليس جزاؤها إلا الجنة، وأن الحج والعمرة ينفيان الفقر كما ينفي الكير خبث الحديد، فلا تدعوه ما أمكنكم إن شاء الله تعالى.

[وصيته في الصدقة]

والصدقة فقد رغب الله فيها ودل عباده المؤمنين عليها، فقال في صفة ما يرضى عن المؤمنين والمؤمنات: ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥].

[وصيته في صلة الرحم]

وصلة الرحم والتغافل عما يكون من ذوي الأرحام من الظلم فمن وجه البر والخير، وفي ذلك من الأجر وثواب الله الكبير ما لا يخفى على ذوي الألباب والتفكير، قال الله عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الرعد:٢١]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦]، فإذا أوصى الله به في هذه الآية من الوصايا التي ترضيه، ويثيب عليها الثواب العظيم الكبير، وبر الأرحام وصلتها مما يعمر الله به الديار، ويزاد به في البقاء والأعمار، فلا تزهدوا في البر لذوي أرحامكم والصلة، فإن ذلك من أبواب البر عند الله العظام الفاضلة.

ولا بد يا بني من أن يكون في القرابة وذوي الرحم بعض من يحسد ويقطع ويظلم، فإذا كان كذلك من أحد منكم، و لم يكن في الدين فاسقاً ولا سفيهاً عاهراً فاجراً، فصلوا القاطع وإن قطع، واحملوا عنه وإن آذاكم وجهل وظلم، فإن ذلك من الإحسان عند الله والله مع المحسنين، والصبر على ذلك عنهم من الكرم والحلم الذي وصف الله به المؤمنين، قال الله تعالى في دفع السيئة بالحسنة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:٣٤]، وهذا في الأبعدين وفي الناس أجمعين، فكيف في ذوي الرحم الأقربين.

واعلموا يا بني أنه لا بد أن يكون بين ذوي الأرحام من الشيطان والترعات وبعض ما يسمع منهم مما يؤذي النفوس في بعض الأوقات، فمن صبر لذلك حيث أحرقه الأذى، فتغافل وكظم حتى يهدأ الغضب ويطفأ، كان محموداً عند الله محسناً وبالحلم والصبر بعد مغتبطاً، وكان المحسن عند الله معاناً، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨].

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله المتقين أنه قال: ((ليس الواصل من يصل من وصله، إنما الواصل من يصل من قطعه)) (١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابن عمه، وابن أبيه وأمه، والناصر لله وله ولدينه علي بن أبي طالب رحمة الله عليه: ((يا علي ألا أدلك على أكرم الأخلاق وأحبها إلى الله؟ قال: بلى يا نبي الله. قال: تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك)) (٢)، ولم يصل أحد الرحم ويعفو منها عمن أساء وظلم، إلا طال بإذن الله عمره وكثر رزقه ووسع الله له، فلا

---

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٢٣٣/ح٥٦٤٥، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٨٩/ح٤٤٥، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص٨٢/ح٢٤٣، والترمذي في سننه ج٤/ص٣١٦/ح١٩٠٨، وأبو داود في سننه ج٢/ص١٣٣/ح١٦٩٧، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص١٦٣/ح٦٥٢٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٢٧/ح١٢٩٩٩، والطبراني في الأحاديث الطوال ج١/ص١٩٩/ح٣، وفي معجمه الأوسط ج ٦/ص٣٦٣/ح٦٦٢٣.

(٢) ورد بلفظ: عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله قال: ((أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج٣/ص٤٣٨/ح١٥٦٥٦، والحاكم في مستدركه ج٤/ص١٧٨/ح٧٢٨٥، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص٢٣/ح١٩، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٢٧٠/ح٧٣٩، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٤٩/ح١٢٨٩.

تزهدوا في صلة الأرحام، فإن ذلك من الإيمان والإسلام، وأخلاق ذوي المروءة والحلم وأفعال الكرام.

ومن قطع يا بني من ذوي رحمه من قطعه كان قاطعاً مثله وشريك في ظلمه، فمن صبر على غيظ قطيعة ذوي رحم كان عند الله محسناً مأجوراً، ولما أمره الله به من صلة الرحم مؤتمرا مشكورا، وكان الله بعونه معه وله معيناً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨]، وقال الله سبحانه وهو يصف المؤمنين، ويخبر عن ما لهم من الثواب والفوز يوم الدين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد:٢١-٢٤]، فبدأ تبارك وتعالى في صفة عباده المؤمنين بالصلة لما أمر الله به أن يوصل، والذي أمر الله به أن يوصل فهو ذو الرحم، والرحم ابتغاء وجهه سبحانه على المكاره، والكظم على الغيظ، والإنفاق سراً وعلانية، وأن يدرؤا بالحسنة السيئة من ذوي الرحم وغيره، فلا يجازوا من أساء بإساءته، ثم أخبر تعالى أن لهم عقبى الدار وهو ثوابه جل جلاله للأبرار، فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾. فأخبر أنه لا يلحق بهم مع رضاه عنهم من الآباء والأزواج والذرية إلا من عمل من الصلاح والصالحات مثل عملهم، ثم أخبر عن الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل وهي صلة الرحم، أن عليهم بقطيعة الرحم والفساد في الأرض اللعنة،

ولهم سوء الدار، وهو عذاب النار نعوذ بالله ونستجيره منها، ونسأله العون على ما يبعدنا من تقواه عنها.

فعليكم يا بني بما أمر الله به أن يوصل من صلة الرحم، والصبر على ما لا بد أن يرى من قطيعة بعضهم بالإحتمال والحلم ترشدوا، وبذلك تسعدوا، وتعانوا عليهم وتوفقوا وتسددوا، فلستم تجازون معصية من عصى الله بقطيعتكم مثل طاعة الله في صلته، والتزين بالبر والحلم عمن أفرط منهم في قطيعته، وتوقي ما يقولون به على قطيعتكم من المعاصي والدناءة والعيوب، ولزوم العفاف والصلاح، واجتناب الكبائر من الذنوب، فإن الناس ليسوا عنهم وعنكم بغافلين، وسيبين لكم إذا فعلتم ما أمرتكم به من الحلم والصلة للرحم أنكم لهم في الفضل والخير فائتون، ولا تختلطوا بهم بالإنهماك اختلاط من يغفل الحذر والتحرز، ولا تنقبضوا عنهم من انقباض من تكبر عليهم، ولا تعززوا فاستعملوا الصبر لهم، والإعراض عنهم عند ما لا بد أن يكون من نزغات الشيطان بالحسد، وذلك في القرابة قديما وحديثا ما لا يخلو منه أحد.

[وصيته في سياسة النساء]

وهذا ما أصنع لكم يا بني من الرأي الذي جربت من سياسة النساء الحرائر منهم والإماء، وما ينبغي أن يجربن عليه ويفعل في أمرهن، لأنهن في آدابهن وعقولهن وأخلاقهن قد تنكرن وتغيرن في زمانهن هذا ودهرهن.

فخيرهن يا بني ذوات العفاف والدين، ومن اختار منهن ذوات العفة والصلاح والدين فهو الرابح الراشد غير الخاسر ولا المغبون، ومن مال منهم إلى الحُسْن والجمال وإن لم يكن لمن كان منهن حسن جميل ولا صلاح في دينها، وتحجب وصيانة عند أوليائها، واستقامة في مذاهبهم في الصلاح والأدب والدين والحجاب، كان خاسراً مغبوناً، وبدى له من أخلاقهن في الدين والأخلاق ما لم يزل معه نادماً محزوناً.

فينبغي لمن أراد تزويج الحرائر أن يتثبت تثبتاً شديداً المساءلة عن صلاحهن ودينهن وسيرة أوليائهن، ورجالهن من الآباء والإخوة، ونسائهن ذوات القرابة لهن، فإن كانوا أهل عفاف ومروءة وطهارة، وحجاب لحرمهم، فسيرة نسائهم في أنفسهن لا تشكوا كسيرة رجالهن وأوليائهن، وإن كانوا أعفاء صلحاء، فالنساء لا يكدن يكن إلا على سيرة أوليائهن ورجالهن، وإن كان أولياؤهن الغالب عليهم وعلى نسائهم سوء السيرة وترك التحجب، فاحذورا يا بني الدخول فيهن والتزوج لهن، فإن الغالب عليهن ما يغلب على رجالهن، إن كان شراً فشراً، وإن كان خيراً فخيراً.

فمن أراد منكم يا بني خطبة ارمأة تُذكر بجمال أو غنى، فليسأل عن وليِّها وعفافه، ومذهبه في دينه وصلاحه، فإن كان ذا عفاف وصلاح، ومقالة في دينه بالهدى والصواب، وكان لحرمته ذا صيانة بها، وكانت المرأة التي هو وليها ذات عقل وجمال، وحمد في دينها بالثناء عليها في الصيانة لنفسها، واستقامة الأحوال، ففيها لمن رغبٍ منكم الرغبة، ورجوت بإذن الله أن تحمدوا بالدخول في تزوجها العاقبة، وأن تروا منها المحبة أكثر.

ثم استخارة الله قبل خطبتها والدخول في ملاكها مراراً كثيرة، وكان توكلكم في أمرها على الدعاء إلى الله في الإقدام على تزويجها بالخيرة.

وقد ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((تتزوج المرأة على جمالها وعلى حسبها ومالها وتتزوج على دينها))، ثم قال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((فعليك بذات الدين تربت يداك)) [1]، يعني عليه

---

(١) عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تنكح المرأة لأربع: لمالها وحسبها ودينها وجمالها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص١٩٥٨/ح٤٨٠٢، ومسلم في صحيحه ج٢/ص١٠٨٧/ح١٤٦٦، والنسائي في سننه ج٦/ص٦٨/ح٣٢٣٠، وابن حبان في صحيحه ج٩/ص٣٤٥/ح٤٠٣٦، والترمذي في سننه ج٣/ص٣٩٧/ح١٠٨٦، وابن ماجه في سننه

السلام: فإن فاتت ذات الدين، وآثرت عليها ذات الحسب والجمال والمال خسرت في دينك ودنياك، فعليك يا بني بذات الدين فإن جمعت مع الدين حسباً أو جمالاً أو مالاً ففيها بلا شك الرغبة بالحق اليقين.

واعلموا يا بني أن سياسة النساء الحرائر منهن والإماء، إنما هي على ما يجربن عليه أول ما يدخلن بيوتهن، ونظرن إلى من يملكهن بإجراءهن على الحجاب والصيانة، وساسهن بحوز الدواخل عليهن جرين له على ذلك ما دامت بينه وبينهن الصحابة، وحذرن في ذلك خلاف ما أجراهن عليه، وإن هو أراهن سهولة عند دخول الدواخل عليهن اغتررن فيه وأجرينه على إدخال من لا يفهمه، ولا يحيط بغيبه من حشم أهلهن وجاراتهن، ومواليهن اللواتي متى سهل لهن إدخال مثل ما ذكرنا كان حرياً أن يكون ذلك داعياً إلى فسادهن عليه، ولم يأمن أن يكون منهن المفسدات للمرأة والمصغرات عندها جميل ما يفعل، والمحسنات عندها ما لا يحسن ولا يجمل.

فرأس سياسة النسال حرائرهن والإماء، شدة الضبط والحجاب، وأن لا يؤذن لهن في إدخال من لا يفهمون سرها ولا يأمنون إفسادها وشرها.

يا بني وقد ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((النساء عيٌ وعورا، فاستروا عيهن بالكسوت، وعوراتهن بالبيوت)) [1]، يريد: سترهن بالبيوت الحجاب لهن عن الدواخل، وإلزامهن بالحجاب الصموت.

ج١/ص٥٩٧/ح١٨٥٨، وأبو داود في سننه ج٢/ص٢٢٠/ح٢٠٤٧، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٢٨/ح٩٥١٧، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٧٥/ح٢٦٨٠، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٦٩/ح٥٣٣٧، والدارقطني في سننه ج٣/ص٣٠٣/ح٢١٢، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٨٠/ح١٣٢٤٤، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٢٩٢/ح١٠١٢، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٣٤/ح٣٢٨، وعبد الرزاق في مصنفه ج٣/ص٥٦٠/ح١٧١٤٩، والدارمي في سننه ج٢/ص١٧٩/ح٢١٧٠.

(١) ورد بلفظ: ((النساء خلقن من ضلع وعورة، فاستروا عورتهن بالبيوت، واغلبوا على ضعفهن بالسكوت)). رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ص٤٤٩٨٧.

واعلموا يا بني أن المرأة وإن حجبها زوجها غاية الحجاب، فربما غفل الزوج عن المملوك المحقور عنده اتكالاً على ذلته، وأنه يفرق منه ويخافه ويهابه، فيدعوه الإسترسال بمحقرة العبد والاتكال على ذلة المملوك وهيبته له بالملكة والرق أن يدخله على حرمه وامرأته، حتى يأنس بهن ويألفهن، ويأنسن به، وهو ذكر من الذكران، وقد ركب الله في طبع الإناث الصغو إلى الذكور، فيقع في غفلته عن الحذر للوغد والعبد ومحقرته له ما يكره من الأمور.

وكم وكم من امرأة شريفة جميلة حسينة، قد دعاها دخول الوغد ومحقرته وألفه، وإقباله عليها وإدباره إلى أعظم الريبة.

فلا يدخلن على ما تحجبون - من نسائكم وحرمكم - من تحتقرون من أوغاد العبيد، فإن ذلك إن فعلتموه لم يؤمن أن يسهل عليهن من محادثتهن لهم، وأنسهم بهم مما يدعوهن إلى المحذور المشقي الهائل الشديد.

فأحجبوا يا بني عن نسائكم وحرمكم، ذكران الرقيق المحقور منهم والغوي والرشيد، الفحول منهم والخصيان، فهم لا يؤمنون على داهية ولا فحشاء ولا عدوان، وإنما المرأة على ما جعلت عليه من وهنها وضعفها، ووليها ما لم تتق الله صاغية إلى الرجال لميلها وإلفها.

ولذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه: ((نهى الرجل عن الخلوة مع امرأة))، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((ثالثهما الشيطان)) [1]، والغالب على الرجال والنساء الميل من الذكر والأنثى، والصغو من الأنثى إلى الذكر إلا من عصمه الله بالخشية والتقوى والبر.

---

(١) عن جابر بن سمرة قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال: ((أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب، حتى يحلف الرجل ولم يستحلف، ويشهد ولم يستشهد، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان، ومن سرته حسنته وساءته سيأته فهو مؤمن)).

فاحذورا يا بني الحذر الحذر كل الحذر من أن تدخلوا أبداً على الجرم رجلاً كان خصياً أو فحلاً، قبيحاً كان أو وضيا صبيحاً، وكم عسى أن يتردد ويدخل ويحادث ويألف حتى لا يؤمن منه ما لا يخاف ولا يتوهم ولا يعرف، فإن عصم الله من يدخل عليه من النساء بالطهارة والخوف لله والتقوى، لم يؤمن إذا كثر دخول المماليك عليهن أن يظن بهن من السوء ما لم يكن فيهن ولا منهن، وأقل ما في دخول المماليك على النساء ما لا يجوز ولا يحتمله غيور من وقوع أبصار المماليك على محاسنهن وصور أبدانهن، وأن يصفوا لمن لا يدخل من شرار الناس صفتهن، وهذا ما لا يحتمله أهل الغيرة والأنف، فمكروه فيما بقي من الدهور وسلف.

وتعرفوا يا بني عند نسائكم وحرمكم بالغيرة والتغلظ والتشدد في الحجاب، وانهوهن عن كثرة القيام بالليل ورفع الأصوات، ومروهن بالتحجب والتستر وخفض الصوت، فإن في الغفلة عما حذرتكم ما خير به الموت، ولا تُطمعوا أحدا من مماليككم وجيرانكم في التقرب من أبواب دوركم، ولا حيث يسمعون أصوات حرمكم، فإن هذا رأس السياسة للنساء، حرائرهن والإماء،

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٤٠٠/ح٥٥٨٦، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٦/ح١٧٧، والطيالسي في مسنده ج١/ص٧/ح٣١، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٨٧/ح٩٢١٩، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٥٠/ح٤٠٤، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١٣٣/ح١٤٣، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٨/ح٢٣،والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٠/ح١١٣٤.

فمن تراخى في الحجاب، وتقريب المماليك والأصحاب، من بيوت الحرم وأبوابهن، لم يؤمن أن يتولد من غفلته ما ذكرت فيهن من الفضائح، والذي أمرتكم به هو الذي لم يزل عليه كل غيور من الرجال وصالح، حاطكم الله وحاط لكم، وحفظكم وحفظ عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا تُطمعوا النساء في زيارة القرائب، فربما جاء من الغفلة عن ذلك وتسهيله بعض المكاره والمصائب.

كتاب
التفسير

كتاب التفسير

(من سورة الحجر)

قوله عز وجل: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا - والله اعلم - عند ما يرى الكافرون من نصر الله لنبيه وللمؤمنين، وإظهاره له على أعدائه وتمكين ما جاء به من الدين، فربما ودوا وتمنوا حينئذ أن يكونوا مسلمين، ثم تأباهم غوايتهم وشقاوتهم، إلا اتباع ما جرى من الضلال عليه آباؤهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الأيكة اسم من أسماء الشجر، إذا عظمت الشجرة فجازت إلى الغاية من العظم التي هي في الكبر النهاية، فقيل لها: الأيكة، فيشبه - والله أعلم - أن تكون هذه الأيكة من الشجر، كان يعبدها قوم شعيب صلى الله عليه، كما يعبدون الأصنام التي ينحتون من الشجر، وقد قال بعض المفسرين: إن الأيكة اسم القرية التي كانوا يسكنون.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: تأويل هذه الآية في أولها وهو الشاهد على آخرها، قوله سبحانه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾. وهي القرية التي عصى الله أهلها، وكذبوا نبيه، فأمطر الله

عليهم حجارة من سجيل كما ذكر، فأهلكهم بها وطحنت الحجارة دورهم، وغيَّرت ما كان من حالهم، ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾. فأخبر أن ما كان من فعله عز وجل بهم وإمطاره الحجارة عليهم آيات المتوسمين، والمتوسمون: فهم ذوو العقول والفكر والتمييز، لأن العرب تسمي المتوسَّم ما تُفكر فيه وتُبين وعُرف، فتقول: توسمت فيه الخير، وتقول: توسمت فيه الشر، فقال عز وجل إن فيما فعلت بهؤلاء المبطلين لآيات لمن عقل وفكر وميز من المتوسمين الناظرين، ثم قال: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾. والسبيل: فهو الطريق وهي قرية على طريق الشام، يختلف الناس عليها من الشام إلى الحرمين، ويرون فيها من آثار عقوبة الله سبحانه وما نزل بها من الخراب والدمار.

فحذر الله سبحانه مشركي قريش مَن قد رأى تلك الدار واختلف عليها، ما نزل بأهل البلد وبها عند عصيانهم الله سبحانه.

ثم قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾. معنى ﴿ ءَايَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾، أي: عبرة وتحذيراً للمؤمنين، لأن أهل الإيمان لهم قلوب خاشعة، ونفوس إلى الله مقبلة، فذكر الله عز وجل أنهم يعتبرون بها، ويتفكرون فيما نزل بأهلها.

(ومن سورة النحل)

قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا ومثله وما كان نظيراً له من جحد الظالمين المستبينين لظلمهم، وإساءتهم في الدنيا، عند معاينة الملائكة ووفاتهم وفي الآخرة، إنما هو عند عظيم ما يعاينون وحل بهم ويطلعون عليه، مما أعد الله من العقوبة لهم، فيطيش منهم عند ذلك الروع والأحلام، ويختلط

عند الفزع منهم العقول، فيخلطون في الكلام، ويجحدون الاساءة لما يعاينه المسيء من النكال ويراه، كما يجحد المملوك من الآدميين في دار الدنيا عظيم ذنبه، لما يخاف ويحل من كبير العقوبة، وإن لم ينفعه الجحد، روعا وفزعا واختلاطاً، لعظيم ما يعاين وانقطاعا.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السبت يوم موسى صلى الله عليه، الذي أمر أمته بإعظامه وترك الأعمال فيه.

وقد ذكرت اليهود: أن في التوراة أن الله خلق الخلائق كلها في الأيام الستة، أولها الأحد وآخرها الجمعة، وأن يوم السبت كان يوماً خالياً من أن يكون الله صنع فيه خلقا، فقدسه إذ خلقه يوماً مفرداً بعد كمال ما خلق من خليقته، وأحدث هذا اليوم بعد كمال ما أظهر في غيره من حكمته، وجعله يوماً مقدساً تأول فيه، قالوا لأنه كان يوم فراغ.

فإن يكن في التوراة على ما ذكروا، فهو مثلٌ نُبهوا به وعُبِّروا، ليعلموا أن الله قد أتم ما أراد من خلقه في الستة أيام، أخبرنا على لسان النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] في القرءان فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق:٣٨]. لأنه لما خلق في الستة الأيام التي قبل السبت ما خلق، وكان يوماً فرغت فيه القدرة من تمام جميع الخلق، وتأصّل الأقوات، وتقدير ما يتوالد من متناسل ذلك بعضه عن بعض، فيما بين السموات والأرض، إلى يوم القيامة والميقات، كان السبت خالياً، واسمه يدل أنه من خلقِ جميعِ الأشياء خلوٌ خالياً.

ولذلك قيل للجلود التي لا شعر عليها: سبيته، وسميت الجمعة بهذا الاسم لأنها كانت آخر الأيام الستة التي جمعت جميع ما بقي من الخليقة، وهي آخر الأيام، ويقال: إن الساعة - والله أعلم - فيها تقام.

وجعل الله السبت يوما أمر موسى عليه السلام بتعظيمه، وأن يكون يوم راحة لكل مشتغل من أمته من عمله، ليذكروا بذلك عجيب ما أخبرهم الله عنه من تمام الخلق في الستة الأيام من قبل كونه، وإنما أمر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم - والله أعلم - للجمعة بالتبجيل والإعظام، لأنه خاتم النبيين والجمعة خاتمة الأيام.

قوله عز وجل: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معنى ذلك: أنه يوقع اسم الضلال عليه وينسبه إليه ويدعوه به، فلما أن كان ذلك جاز، أن يقول عز وجل: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾. أي: بإيقاع اسم الضلال عليهم، فلما أن استوجبوا بفعلهم سماهم ضالين، وهذا موجود في لغة العرب، إذا قال رجل لرجل: يا ضال، قال: فلان ضلّلني، ويقول السامع: فلان ضلل فلاناً، ولم يضلله عن منهج ولا عن حجة، وإنما سماه: ضالاً، فلما أن سماه ضالاً قال: ضلله، فعلى هذا يخرج معنى قوله سبحانه: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾. أي: يوقع أمر الضلال على من يستأهل ذلك بفعله، ويستوجبه بجرمه.

ولو كان الله عز وجل كما يقول الظالمون، ليقضي عليهم بالمعاصي قضاء حتم، ويقضي عليهم بالطاعة قضاء حتم، كما قضى عليهم بالخلق، فجعل منهم أسود وأبيض وأسمر وأصفر، وظويلاً وقصيراً، ما ذمهم على معاصيهم، ولا عاقبهم على فعلهم، ولا حمدهم على إحسانهم ولا على طاعتهم، إذ كان ذلك منه قضاء، كما لم يحمدهم ولم يعاقبهم على بياضهم وسوادهم واختلاف ألوانهم، إذ ليس لهم فعل يذمون عليه، ولا يحمدون فيه، لأن المحمود مُدخَل في فعله، غير مخيَّر في نفسه، ولكن جعلهم سبحانه مخيرين في الطاعة والمعصية، ممكنين في الاستطاعة، وأبان لهم طريق النجاة، وأبان لهم طريق الهلكة، ثم قال: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال:٤٢]. فعاقبهم على اختيارهم للمعصية، وأثابهم على اختيارهم للطاعة.

والشاهد على ما قلنا من تخييره لهم، وتركيبه الاستطاعة فيهم، وأنهم غير مضطرين ولا مقهورين، قول الله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل:١٠٧].

فأخبر سبحانه أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فلو كانوا مجبورين مقضياً عليهم ما استحبوا شيئا، ولا قدروا من بعد أن هداهم يستحبوا العمى، هذا كتاب الله عز وجل ينطق بخلاف ما قالت المجبرة، ومن ذلك ما قالت الجاهلية به مثل قول المجبرة، فَسيَّبوا وبَحَرُوا وحَمُوا .(١)

وكان هذا فعلهم في إبلهم وغنمهم، فإذا كان منهم رجل غائباً، نذر إن رده الله أن يسيِّب بعض إبله، وكذلك في الحام إذا ضرب في إبلهم الجمل حتى يضرب معه أولاد أولاده، خلّوه وقالوا: قد حمى ظهره.

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أمرهم أن يأخذوا إبلهم وغنمهم التي قد أرسلوها، وكانت قد أضرت بالناس، تشرب مياههم وتكثر ضرهم، فقالوا: يا محمد إن هذا أمرٌ أمرنا الله به وقضاه علينا، فلا نستحل أخذها، فأكذبهم الله عز وجل فيما قالوا عليه، فقال: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة:١٠٣]. فلو كانت أفعال العباد بقضاء من الله عز وجل كما يقول الجاهل ما أكذبهم الله فيما ادعوه عليه، ولكنهم مخيرون في أفعالهم غير مجبورين على أعمالهم، فسبحان من لا يظلم العباد!! ولا يقضي عليهم أبداً بفساد!!

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾.

وقد يكون أيضاً من الضلال الخذلان، على ما يكون منهم من الجرأة والعصيان، فإذا كانوا كذلك وقع عليهم اسم الضلال ولزمهم الخذلان، وليس هو سبحانه يجبرهم على معصية، ولا يخرجهم من طاعة، ولو كان ذلك كذلك، لكان فعلَه لا فعلَهم، وكانت إرادتَه لا إرادتَهم، ولم يكن لهم في ذلك ذنب فيذمون عليه، ولا عمل فيعاقبون فيه، عز عن ذلك ذو العزة والسلطان، بل هو بريء من أفعال العباد، متعال عن الظلم والفساد.

وكيف يقدر أحد أن ينسب معاصي العباد إلى الله سبحانه، وهو يقول في كتابه: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨]. فلو كان التنزيل من الله عز وجل بقضاء عليهم ما نسبه إليهم، ولا قال: ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾، فلما أن كان الفعل لهم، ذكرهم الله به ونسبهم إليه، وفي ذلك ما يقول سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣]. فكان بُدُوُّ النعم والإفضال من الله عليهم، وكان التغيير منهم لا منه، فذكر عز وجل تغييرهم لما أنعم الله عليهم به، ولو كان منه لنسبه إلى نفسه، وما ذمهم على فعله، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٨].

أفيقول الكذاب: لَوَوا ألسنتهم به وقضى عليهم بالكذب عليه، فإن قال بذلك قائل كان من الظالمين، ولعذاب الله من المستوجبين، لأن الله سبحانه ينفيه عن نفسه، وينسبه إليهم، والله يقول الحق، ويأمر بالصدق، ويذم على الكذب، ويقول عز وجل: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ

ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء:١١٢]. فهذا قوله للمخلوقين، وذمه لهم على رميهم بخطاياهم المسلمين، فكيف يجوز على رب العالمين أن يقضي على خلقه بقضاء، ويترل فيهم أمره وما يشاء، ثم ينسبه إليهم، ويحيله عليهم، ويعذبهم عليه ويذمهم أشد الذم.

ومن ذلك ما يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس:٥٩]. فقال: جعلتم منه حراماً وحلالاً، فلو لا أن لهم فعلاً قد تَعَدَّوا فيه ما قال: جعلتم، ولقال: خلقت، وما قال عز وجل: ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾. فأخبر تبارك وتعالى بافترائهم عليه، ومخالفتهم له، فكيف يجوز لأحد من المسلمين أن ينسب إلى الله أفعال الظالمين، فهو سبحانه يبرئ نفسه من ذلك في كتابه المستبين، فما يقول بذلك إلا من كانت حاله كما قال الله: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٥].

ولعمري إن من اتبع المتشابه وخلا المحكم لَكَمَا قال الله سبحانه: ﴿ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧]. وإن من تعلّق بآية متشابهة ثم فسرها بجهله، وقاسها بعقله، لبعيد الصواب، ناءٍ عن الحق والجواب، يخبط أبداً في عشواء مظلمة، ويُحَكِّم الآيات المتشابهات على الأمهات المحكمات، ولقد أخبر الله عنهم، وعن ما يكون من فعلهم، فقال: ﴿ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾. والفتنة فهي: إهلاك المسلمين وتضليلهم، وتحييرهم عن الحق، فعابهم الله سبحانه بذلك.

الكتاب فإنما هو نور وبيان، وهدى وبرهان، يهدي به الله من الحيرة، وينقذ به من الهلكة، وليس من آية متشابهة إلا وفي كتاب الله تحتها آيات كثيرة محكمات، ولها مفسرات، فأغفلوا المحكم، وطلبوا المتشابه، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣]. فأخبر سبحانه أن له مترجمين، وبغامضه عالمين، ولحكمه مصيبين، وسنفسر كل ما ذكر من المتشابه بحجج بينة، وجلاية نيرة، ونكتب تحت هذه الآية المتشابهة خمسا وستا من كتاب الله يشهدن على قولنا، ويحكمن بالصدق لنا، ومن حكمن له الكتاب فهو المصيب في فعله، المحمود في قصده، ولو كان أفعال العباد بقضاء من الله سبحانه وقدر، كما يقول الجاهل، ثم عاقبهم عليه لكان ظالماً لهم، متعدياً عليهم، إذ لا حيلة لهم في قضائه، ولا مَصَدَّ لهم عن مشيئته، ونعوذ بالله أن نقول ذلك في ربنا، أو ننسبه إلى خالقنا، إنا إذا لمن الجاهلين.

وكيف يقول بهذه المقالة عاقل فطن، أو عارف بالله موقن، والله سبحانه يكذبهم في كتابه حين يقول: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة:٦-٨]. فقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾، فلو كان قضاءه عليهم ما قال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾، لأنه لا عمل لهم، ولا سبيل إلى شيء إذا قضى عليهم، فدل سبحانه بأنهم مفوضون لا مجبرون، ثم قال: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾ [الكهف:٤٩]. ثم قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [الزخرف:٧٢]. فأخبر سبحانه أنهم أُورثوها وأُعطوها بأعمالهم، وحسن طاعتهم، ولو كانوا مجبورين ما جعل لهم أعمالاً، إذ العمل لهم لا لغيرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣]. ولو كانوا مجبورين ما سُئلوا ولا نُسب العمل إليهم، كما لم ينسب خلقهم فيما جعل الله من رزقهم إليهم.

ثم قال: ﴿ أَلَمْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الجاثية:٣١]. فأخبر أنهم استكبروا وعملوا وكانوا بفعلهم مجرمين، ولعذابه من المستوجبين، ثم قال سبحانه للكافر الظالم الكذاب عند قوله: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر:٥٧]. فأكذبه الله في قوله، فقال: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر:٥٩]. أفيجوز لأحد من المؤمنين، أو مَن عرف الله من الموحدين، أن يقول إن هذا الكافر الذي قال: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر:٥٧]. إذ قضاء عليه بالكفر والله سبحانه يكذبه في ذلك ويلومه فيه، ويعذبه عليه.

فإن قال بهذا قائل فقد أكذب كتاب الله، وعاند الله سبحانه، وإن قال: إن الكافر كذب في قوله، واجترأ في فعله، فقد رجع إلى الحق والصواب، ثم قال سبحانه: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء:٧]. فذلك يدلك أنهم مخيرون، ومن الاستطاعة مَمَكَّنون، ودل أن من عمل صالحاً لنفسه، ومن أساء فعليها، وما كان منهم من إحسان وطاعة وإيمان فلهم، وما كان منهم من معصية وسواية [1] فعليهم، وجعل لهم سبحانه على الاستطاعة ثواباً، وأوجب لهم على المعصية عقاباً.

---

(١) السواية: السوء.

ولا يجوز في عدل الله الواحد الكريم، أن يأمر بطاعته ويرسل النبيين، معذرين ومنذرين ومبشرين، إلا وقد جعل لهم إلى ما أمر به من الطاعة سبيلاً، وأبان لهم إليه طريقا، ولا ينهاهم عن معصيته ويذمهم في مخالفته، إلا وقد أمرهم بتركها، ومكّنهم من اعتزالها والرفض لها، لأنه سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، متعال عن ظلم عبيده، رؤوف بخلقه، وفي ذلك ما يقول عز وجل: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء:١٤٧]. فلو لا أنهم قد مُكّنوا من الطاعة، وخلق لهم سبحانه الاستطاعة، ما قال:﴿ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾. وكيف يقدر على شكر وإيمان، أو دين أو إحسان، من قد منع من ذلك، وقضى عليه بضده حتماً؟! أو كيف يندبهم إلى ما قد حال بينهم وبينه؟! وهو الرحمن الرؤوف بهم، المتفضل عليهم.

ويقول سبحانه: و ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف:٥٨]. فقد صفح ذو العزة عنهم في هذه الدنيا، وأملى لهم وأعذر، فكيف يوآخذهم في الآخرة بما لم يجترموا، وما لم - في أعمالهم ساعة - يعملوا، وهذا من المقال فاسد مدخول، لا يقبله إلا كل عقل مخبول.

إن الله عز وجل أنزل كتابه، وجعل فيه شفاء الصدور، وبيان الأمور، وفيه الحق والبيان، والعدل والإحسان، ولن يضل مَن تعلّق به، وعمل بأحكامه، ووقف عند أمره.

وهل يقدر أحد أن يقول: إن الموصي بقضاء من الله وقدر، بعد ما بيَّن الله في كتابه، إلا أن يكون مكابراً لعقله، تاركاً لتمييزه، فمثله كما قال الله سبحانه: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧]. فأصبح بتركه الحق غَوِيَ رشده، وترك يقينا قصده، وإلا فمتى يستجاب من قال إن الله يقضي بالمعاصي ويدعو ربه على ستر العورة، وهو يزعم أن الساتر لها الذي

أدخله فيها، وجبره عليها وألزمه إياها، وممن يطلب غفران الذنب؟! وهو يزعم أن الذي يغفره هو الذي أوقعه في الذنب، وألزمه الخطيئة!! فكيف يستغفر الله من فعله؟! أو يتوب إليه من قضائه؟! هذا قول محال، والله سبحانه منه بريء وعنه متقدس أن يقضي بالفساد، ولا يقضي بظلم العباد، فإليه نرغب في التوفيق والسداد، إنه ولي كل نعمة، والدافع لكل نازلة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ومما سئل عنه من زعم أن أفعال العباد بقضاء من الله وقدر واستطاعة تحدث عند الفعل، أن يقال له: هل يقدر من كان مثلنا في طولنا وقدرنا أن يمس السماء، أو يأخذ القمر؟

فإن قالوا: لا يكون ذلك ولا يمكن.

قيل لهم: فإن رُفع إلى السماء، أو أحدث الله سبباً بقدرته على ذلك؟

فإذا قالوا: لا يقدر بما ذكرتم من هذه الأشياء.

قيل لهم: أفليس هذه الأشياء غيره؟

فلا بد من قول: نعم.

فيقال لهم: أفيجوز أن يكلف الله الكافر الإيمان؟

فإن قالوا: نعم، يلحق الإيمان قبل نزولها.

قيل لهم: فكذلك أيضاً يجب أن يلحق الإنسان السماء من قبل نزول سبب يقدر به على ذلك.

فإذا قالوا: لا يمكن حتى تحدث استطاعة من الله له في ذلك.

قيل لهم: أفيجوز أن يكلف الكافر الإيمان، والإيمان لا يكون من الكافرين، حتى يحدث لهم قوة هي غيرهم، كما لا يجوز أن يكلفنا أن نلمس النجوم ونحن لا نقدر على ذلك حتى يكون السبب الذي هو غيرنا، فبينوا لنا ذلك، وافرقوا بين المعنيين، فلن تجدوا إلى غيره سبيلاً إلا الرجوع إلى الحق.

ومما يسئلون عنه من حكم كتاب الله، أن يقال لهم: خبِّرونا عن قول الله تباركت أسماؤه، وجل ثناؤه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٦-٢٧]. أفليس قد أخبر الله عز وجل أنه إنما يريد البيان لهم والتوبة والهدى، وأراد الكافرون الزيغ والردى؟

فإن قالوا: نعم، رجعوا إلى الحق، وتركوا قول الباطل، وإن [1] قالوا: بل الله أراد الميل وقضى به عليهم، خالفوا الله في قوله، ونسبوا إليه ما لم ينسبه إلى نفسه، وصدَّقوا قول المبطلين، وشكُّوا في قول رب العالمين، فهذا من أقبح مقال، وأحول محال.

ثم قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠]. وزعمت القدرية المجبرة أن الله يقضى بضد العدل والإحسان، ويريد الجور والعصيان، والله سبحانه ينفي ذلك عن نفسه بما بين في كتابه، أفيجوز لمسلم يؤمن بالله أن يُصَدِّق الظالمين في كذبهم، ويترك ما أراد الله عز وجل من إرادته وحكمه وعدله؟! والله أحق بالصدق والعدل منهم، وتعالى عما يقول فيه الظالمون، وينسبه إليه الجائرون.

ويقال لمن قال إن الله يقضي بخلق أفعال العباد: خبِّرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ

---

(١) في المخطوط: فإن. ولعل الصواب ما أثبت.

عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٨]، أفيقدر أحد أن يقول: إنهم صدقوا في قولهم: إن الله لم يشأ إيمانهم؟

فإن قال بذلك قائل، كذّب الله وصدّقهم، ومن قال بذلك فقد كفر وتعدى، وخرج في أمر الله إلى الباطل والاستهزاء.

فإن قالوا: بلى، كذبوا على الله، وقد شاء منهم الإيمان ودعاهم إليه، و لم يشأ منهم الشرك، رجعوا عن قولهم، وصاروا إلى الحق في دينهم.

ومما يسئلون عنه، أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٧]. أفيقولون: شركاؤهم الذين زينوا لهم قتل أولادهم ليردوهم بقتل أولادهم؟

فإن قالوا: نعم، هم المزينون لهم دين الله رجعوا عن قولهم، وقالوا بالصدق على ربهم.

وإن قالوا: بل الله قضى بذلك عليهم، وزين لهم، فقد ردوا كتاب الله وتركوا الحق والصواب، وصاروا بقولهم إلى شر مآب.

ومما يسئلون عنه أن يقال لهم: خبرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ قَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢]. فلا يخلو أمره سبحانه لنبيه عليه السلام، أن يقاتلهم من أحد المعنيين:

إما أن يكون كفرهم ومعصيتهم بقضاء منه عز وجل، قضى به عليهم وأدخلهم فيه، فليس في قضاء الله حيلة لهم، فقد ظلمهم إذحال بينهم وبين الإيمان، وقضى عليهم بالكفر والعصيان، ثم أمر نبيه بقتلهم وقتالهم، وحض على جهادهم، وأمر نبيه بقتلهم، وأن يكلفهم من التوبة أمراً لا سبيل لهم إليه،

فكأنه إنما عذبهم على فعله، وعاقبهم على إرادته وقضائهن عز وجل عن ذلك، وتعالى ربنا الواحد الكريم.

أو تكون الطاعة التي أمر بها نبيه بقتالهم حتى يفيئوا إليها هم عليها قادرون، وبها مستمسكون مخيرون، فقتالهم واجب، والفرض من الله فيهم لازم، حتى يتركوا هوى أنفسهم، ويرجعوا إلى طاعة ربهم، فمن رجع إلى هذا القول صح قوله، وسلم من معصية ربه.

ومما يسئلون عنه، أن يقال لهم: خبرونا عن المُقْعد الذي خلقه الله [مقعدا] هل تلزمه الصلاة قائما لا يحل له غير ذلك؟! وإن صلى قاعداً لزمنا التغيير عليه، كما يلزمنا التغيير على من صلى قاعداً وهو يطيق القيام؟!

فإن قالوا: يلزم المقعد أن يصلي قائماً، فقد كلفوه ما لا يطيق، ولا يجد إليه سبيلا.

وإن قالوا: يصلي قاعداً وهو عند الله معذور، وعندنا غير مذموم، لأنه ممنوع من ذلك لا حيلة له إليه، لأن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، فقد أصابوا الحق، ورجعوا عن الباطل إلى الصدق.

فيقال لهم: فما بالكم عذرتم هذا المقعد وحكمتم له عند الله بالسلامة؟ إذ كان لا يطيق القيام لما ابتلاه الله به، ولم تعذروا مَن منعه الله من الطاعة، وقضى عليه بالمعصية، كما قضى على المقعد بالقعود، فلم يكن له حيلة، كذلك قضى على العاصي بالمعصية، فلم يكن له إلى الطاعة سبيل، فيجب في عدل الله عز وجل ألا يعذب من حكم عليه وقضى بالكفر، إذ منعه من الطاعة، ويجب على المسلمين أن لا يكرهوا ما أراد الله، وأن يقوموا بعذر هذا الكافر المقضي عليه، كما قاموا بعذر المقعد في الصلاة، إذ لا حيلة له إلى غير ذلك، وإلا فما الفرق بين القضائين، والحكمين؟ لا فرق بينهما عند من أنصف وعقل، إلا أن يكابر مكابرة، فيشهد بالعجز على نفسه، ولا تجب مناظرته، لما بان مِن جهلِه، وقلة فهمه.

ومما يُسئل عنه من قال: إنه لا يكون مستطيعاً للفعل إلا عند الفعل ونزوله: خبرونا عن رجل أعتق عبيداً له متى استطاع أن يعتقهم في حال هم فيها مماليك، أم في حال هم فيه أحرار؟!

فإن زعموا أنه استطاع أن يعتقهم في حال هم فيها عبيد، فقد زعموا أن الاستطاعة قبل الفعل!! لأن حال العبودية فيهم قبل حال العتق.

فإن قالوا بذلك، فقد أنصفوا ورجعوا إلى الحق، وتركوا قولهم.

وإن زعموا أنه استطاع أن يعتقهم وهم أحرار، فقد زعموا أن الناس يستطيعون عتق الأحرار، وهذا خروج من العقل والصواب.

(ومن سورة بني إسرائيل)

قوله عز وجل: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الإعراض منه صلى الله عليه وآله وسلم عنهم هو الاشتغال بذكر ربه وعبادته، في بعض الأوقات دونهم، فأمره إذا أعرض عن الاشتغال بهم، وخلا بنفسه من عبادة الله وذكره دونهم، أن يقول لهم قولاً ميسوراً، والميسور هاهنا: اليسر من القول، وهو القول الحسن اللطيف المقبول.

(ومن سورة مريم)

قوله عز وجل: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني أي: لم أكن لما أعلم من رحمتك ورأفتك واستجابتك لمن دعا بما يعطيه عند الدعاء من مواهب نعمتك بأشقى خلقك في سعة رحمتك، بأن تجيبني من الإجابة عند دعوتك، تواضعاً من زكريا صلى الله عليه، وأنه لا يزكي نفسه، ولا يوجب لها الإجابة من الله إلا بإحسانه وفضله وامتنانه، وأنه لم يوجب على الله إجابته في دعائه، إلا

بفضل الله ورحمته وجوده في عطائه، هذا وزكريا نبي من أفاضل الأنبياء في طاعة الله وعمل البر والتقى.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: العتي: القديم الذي قد بلغ صاحبه غاية ما يكون من قسوته ويبسه وشدته عند الهرم.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: القوة هاهنا ما وهب الله ليحيى من فضل اللب والفهم والحكمة، فكانت القوة التي جعلها الله فيه من ذلك قوة قَوَّتْهُ، ونعمة ذكرها الله أنه أنعم بها عليه شريفة سنية، فمن فضل قوته ما آتاه الله في الصبا من حكمته، فكان في ذلك على أفضل ما يكون عليه الكبير الكامل من الأنبياء في كمال سنه وإطاقته، والحنان: الرحيم.

قوله عز وجل: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني أمراً نافذ فيه المشيئة، لا بد أن تكون فيه الآية التي أراد الله مقضية.

قوله عز وجل: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني: أصارها وألجأها.

قوله عز وجل: ﴿ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السري هاهنا الولد الذي وهبه الله لها البر التقي، ومَن أسرى أو أنبل أو أتقى من عيسى صلى الله عليه؟! وأين عطية أو ولداً وهبه أفضل مما وهبه الله وجعل تحتها منه؟!

قوله عز وجل: ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الصوم هو المعروف من صيام الأيام، وهو الإمساك عن الشراب والطعام، غير أنه كان من معروف صوم

العُبَّاد من بني إسرائيل مع الإمساك من الشراب والطعام، الوقوف بالصمت عن الكلام، لاتقاء اللغو واللفظ بالآثام.

قوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الفري الفاحش، والفرية والشتيمة الفاحشة.

قوله عز وجل: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذه الكلمة تقال عند جهل الجاهل، يقولها عند طيش الجاهلين الحلماء من المتقين، وتوقير إبراهيم عليه السلام لأبيه في أبوته وبره بالوالد، قبل أن يبين عنده ما بان له من مشآقته لله وعداوته، هذه الكلمة منه صلى الله عنه مخرجها مخرج توقير ورفق بأبيه، عند دعائه له من أمر الله إلى ما دعاه إليه، فلما عصاه واستكبر عن الهدى والحق فأباه، بان له أنه عدو لله، كان من إبراهيم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من ترك الاستغفار له والتبرؤ منه، وقطع الولاية بينه وبينه والإعراض، قال الله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].

قوله عز وجل: ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم: أي: مجتهداً.

قوله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: قيل: إن الله رفع إدريس صلى الله عليه إلى السماء، فكان سماوياً، وهذا ما لا ينكره أحد يعقل من المؤمنين ، أن يفعل بمن شاء من أنبيائه الصالحين.

قوله عز وجل: ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: البُكيُّ: الباكون.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذه دلالة من الله سبحانه على أن من ضل وعصى، كلما مُدَّ له من التأخير والأجل كان ذلك أروى وأشر. وكان عذابه إذ لا يتوب من خطيئته في طول المدة والمهل، أكبر وأعظم وأوفر وأجلُّ، لأنه كلما مد له في مهله، كان أكبر لما يُرتكب من سيئات ذنوبه، وكان أكبر لما يحله الله من العذاب في معاده.

قوله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يخبر الله تبارك وتعالى أن آجال العصاة الكفرة من العبيد، آجال عدد تفني عن قليل وتبيد، وإنها ليست بآجال بقاء وتخليد.

قوله عز وجل: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الود المحبة والرضى عنده وعند الصالحين من أهل الأرض، وجميع الملائكة من أهل السماء، ولكفى بهذه فضيلة ونعمة جليلة، أن يكون من ثوابهم في حياة دنياهم ومرجعهم، رضى الله عنهم ووده ومحبته لهم، وود أهل سماواته والصالحين ممن في أرضه إياهم.

قوله عز وجل: لـ ﴿ تُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: اللد: من كان يبدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قريش والعرب من أهل الجاهلية، فيدبرون عما يلزمهم من حجج الحق، ويجحدون ما يبين لهم من ذلك ويتناهون، وهم الذين ذكر الله فقال: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف:٥٨].

قوله عز وجل: ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الركز في اللسان هو الذكر والحس.

(ومن سورة طه)

قوله عز وجل: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: لا يتوهم أحد لعل من الله وعسى، شكا منه سبحانه ولا امتراء، وذلك مخرجه عدل في الحكم، وما يجوز عند الامتحان من هذا الاسم، فلما أن كان الله تبارك وتعالى إنما يعذب ويعاقب بعد الإعذار والحجة، وكان الرسول موسى صلى الله عليه لا يحيط بما يحيط الله به في كل غيب وشهادة، وكان الله عالماً بأن الحجة إنما تجب على فرعون بتبليغ موسى له الرسالة، كان مخرج موسى تسهيلاً على موسى لمحنة الكلفة، في تبليغ فرعون مع عتوه وخوفه له ما أمره به في تبليغ الرسالة، وصحت لعل في المقالة، لأنه وإن علم أن فرعون لا يكون مؤمناً، فقد علم أنه لو اختار الإيمان لكان ممكنا، فطوى سبحانه العلم فيها عن موسى بأنه لا يؤمن بقوله: ﴿ لَعَلَّ ﴾ في المستطاع الممكن.

وكذلك قول الله سبحانه: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾. فقد علم تبارك وتعالى أنهم إذا أحسنوا تِيبَ عليهم وأثيبوا، ولكن عسى هاهنا مخرجها مخرج تأديب من الله وترهيب، وتنبيه على ترك الثبات ممن أحسن على إحسانه، اتكالاً على ما مضى في وقت من الأوقات من صالح عمله، وليكون العبد وجلاً مع رجائه وأمله.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾.

يقول: يسرف.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني بـ ﴿ كُلَّ شَىْءٍ ﴾: جميع ما أنعم الله به عليهم، وأعطاهم من عطاء النعم، بما هو عليه من رحمتهم والرأفة بهم والفضل والجود والكرم، وأعطاهم جميع النعم التي آتاهم، لم يقتصر على ذلك حتى فهَّمَهم الحق في دينه وهداهم، فآتاهم من الهدى أعظم النعم كلها عظماً، لما يثيبهم على الهدى من نعيم جنته فضلاً وكرماً.

قوله عز وجل: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السوى: المكان المستوي البارز في الأرض الذي لا يخفى، و ﴿ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾: يوم عيدهم الذي فيه يتزينون فيحلفون، ووعدهم من يوم عيدهم في أوله وضحوته، قبل افتراق الناس من مجمعهم ورجوعِ مَن يرجع منهم إلى بيته، وكأنه أراد بذلك فضيحتهم على رؤوس الملأ، وكان الأعياد لم تزل في أول النهار قديماً، لأن صدر النهار أفضل من آخره.

﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾. معناه: يستأصلكم.

قوله: ﴿ فَنَسِىَ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هو نسي هارون أن يذكِّرهم بأنه لا يرجع إليهم قولاً، تذكيراً وتنبيهاً.

قوله: ﴿ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝ ﴾. هو: مَنَّتني نفسي، والتسولة: المنية، سواء قيل: سولت لنفسك أو منيت نفسك.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ ﴾. فقال: العوج في الأرض: الإلتواء والإرتفاع والإنخفاض الشديد الفاحش، والأَمْتُ: القليل اليسير، بين التعادي والإختلاف الذي ليس بكثير.

﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾. الهمس: الوطىء الخفي كوطىء خفاف الإبل التي همس مشيتها، ليس بذي صوت علي، قال الشاعر:

— — — — .....

يعني بالهميس: الوطىء الخفي الحسيس، فالناس في حشرهم، ولما هم فيه من فزعه وذعرهم، وانحلال قواهم، لما عاينوا ما دهاهم، مشيهم همس خفي وأصواتهم منقطعة فلا يتكلمون، ولا يسمع لجرس ألسنتهم إلا حسٌ بأقدامهم إذ يمشون.

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾. أي: لا يدركه علمهم إلا بما علّمهم وفَهَّمهم من تثبيت اسمه وربوبيته، وأنه لا يشبهه شيء من خليقته.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يقول: ذلت الوجوه وخشعت.

قوله عز وجل: ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المعنى في ذلك - والله أعلم - لعلهم بما خوَّفهم الله به من وعيده في كتابه، فلعلهم يتقون ولا يعصون، ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾، فيتفكرون ويتذكرون.

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معنى ذلك - والله أعلم - أي: لا تعجل بالإنذار بالسورة أو الآية المذكورة فيها القصة، والقصص أو الموعظة من قبل تمامها وكمالها وقضائها، وأمرك بتبليغ إيجابها.

(ومن سورة الأنبياء)

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الإستحسار: الإعياء.

قوله عز وجل: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يذكر - والله أعلم - من قصة هذه الغنم أنها كانت غنما تفلّتت ونفشت ليلا، والنفش في لسان العرب إنما يكون بالليل من البهائم لا نهاراً، فذكروا أنها أكلت بعض ما في الحرث من حبه وثمره، ... [1] ثم إنهم تحاكموا فيما يقال إلى داود صلى الله عليه فقضى فيما ذكروا بها لأهل الحرث، وقال بعضهم: بل قضى بالقيمة، وكانت القيمة أكثر من ثمن الغنم.

فذكر أن سليمان صلى الله عليه أفتى فيها بخلاف ما حكم به أبوه داود صلى الله عليه من القضاء على أهلها، أن يجعل لأهل الأرض ما في بطون الغنم من أولادها، ولم يعرض لأهلها وتركها في يد صاحبها.

وقضى بالنسل الذي في بطون الغنم لصاحب الحرث، إذ كانت إنما أفسدت عليه ثمرة أرضه ونسل حرثه، فقضى في ذلك سليمان صلى الله عليه بالحكم المصيب الذي رضيه الله، وذكر في كتابه فَهْمَه له.

وكذا جاء الحكم والخبر فيه عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أنه تحاكم إليه أهل ماشية وأهل ضيعة، أفسدت الماشية عليهم بعض ما فيها من الزرع والثمرة، فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أهل المواشي

---

(١) بياض في المخطوط.

بضمان ما أفسدت مواشيهم وقيمته ليلاً، وأسقط عنهم الضمان وقيمة الفساد نهاراً.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: إن قال قائل قضية داود بخلاف قضية سليمان كان صواباً أم خطأ؟! فإن كان صواباً فكيف يكون الواقع يختلف حكمهما وهما صوابان؟! وإن يكن خطأ فالنبي يخطيء في مثل هذه الجليلة من المسائل؟!

قيل له: قد حكم داود بوجه من الحكومة مصيب يزيل الخطأ، وحكم ابنه سليمان بما هو أحسن عند الله وأكثر صواباً، وأشد في العدل تمكنا وتوسطا.

قوله عز وجل: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: عنى الله تبارك وتعالى القرى، التي دمرها وأهلكها بالمعاصي فيما مضى، أهل محرم عليها أن ترجع إلى عمارتها، ... [1] وأهلها والسكنى فيها، لأنه ليس من قرية أهلكها الله إلا بالانتقام والغضب، فلن تعمر أبداً إلى يوم القيامة بعد غضب، والحرام اسم في نفسه حيث انحرف وانصرف، فهو تغليظ المنع وهو المنع بعينه، فعنى الله عز وجل ﴿ حَرَامٌ ﴾ أنه منعٌ ممنوع لكل قرية أهلكها من الرجوع بالعمران إلى حالها، أو أن يرى أحد من نسل أهلها، وكذلك اللسان العربي فيما حرم الله من جميع الآثام والمعاصي، فإنما معناه المنع بعينه.

قوله عز وجل: ﴿ هُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الحدب هو كل ما ارتفع من الأرض واحدَوْدَبَ، كالتلاع والرُّبا والآكام، وما أشرف من الأرض فهو حدب، ونسولهم إسراعهم في المشي وعجلهم، عند أمر الله النازل في القيامة بهم.

---

(١) بياض في المخطوط.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: آذنتكم في اللسان والبيان إنما هو أعلمتكم، والسواء فهو المكان العالي الذي ليس بذي ستر ولا خفاء.

(ومن سورة الحج)

قوله عز وجل: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: النصر من الله قد يكون منه سبحانه بالعلو في الدنيا والغلبة، وقد يكون يوم المعاد والآخرة، وقد يكون النصر منه تعالى بإظهار العلم والبرهان والحجة، ويكون تأخير النصر في الدنيا عن أوليائه زيادة لهم في الدرجات والمثوبة.

قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: التفث ما يصيب المحرم لتقشفه من الغبار، والشعث في الشعر والبشر، فأمره الله بقطعه وقضاءه، وقضائه فهو قطعه بعينه، وذلك عند رمي الجمار، فإذا قضوا مشاعرهم قطعوا تفثهم، وقضوا نذورهم التي نذروا في حجهم، من صدقة أو دم أو قربة، نذروها من البر يتقربون بها إلى ربهم، فالطواف بالبيت طوافان: أحدهما الطواف بالكعبة عند دخول مكة، والطواف الآخر طواف الزيادة.

قوله عز وجل: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يقول: أَعلِمْ الناس وصوِّتْ بهم، وأسمِع وأظهِر فريضة الله في الحج عليهم.

قوله عز وجل: ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: العاكف فيه من أهل مكة، ومن صار إليها من النواحي البادية، فهم فيه كلهم سواء، ليس بعضهم أولى بالصلاة فيه من بعض، وهم سواء في الطواف والصلاة والمقاعد، وهو لكلهم

مسجد لا يتعدى فيه أحد، ولا يستحقه قوي دون ضعيف، سواء المحقور فيه والمعظَّم الشريف.

قوله عز وجل: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: منافعهم ما يجب من ثواب الله لهم بطاعتهم له في أداء مناسك حجهم، ومنافعهم وبركة محضرهم ومواسمهم، بما يكون من تجارتهم، وما يصيبون من مرفق أرباح بيعاتهم، التي جعلها الله لهم، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى في كتابه من توسعة في طلب الرزق في أيام الحج لعباده: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨].

قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الصوآف القيام كانت في قيامها مشدودة الأيدي بالعقل، أو إطلاقا غير معقولة، وذلك إذا أقيمت صفا عند نحرها موجهة إلى القبلة، ثم قام من ينحرها إليها، فالواجب عليه ذكر اسم الله عليها وهي صواف، إذا هوى للباتها ناحراً عند نحرها، وقبل وقوع النحر عليها، فإذا خرَّت سقوطاً إلى الأرض ومالت واجبة جنوبها، فكلوا حينئذ منها، وأطعموا البائس الفقير، فذلك الأجر فيه وعليه من أعظم ما فيها من الخير.

قوله عز وجل: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا خبر من الله سبحانه على أن الأغذية والمطاعم لا تناله، وأنه لا يأكل سبحانه ولا يطعم، ولا يناله لحم

يُغتذى به ولا دم، بل هو الذي ﴿ يُطْعِمُ - سبحانه كما قال - وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤].

ثم أخبر أن التقوى تناله، ونيل التقوى له رضاه بفعلها، وقبوله لها من أهلها، فذلك هو نيلها له، ووصولها إليه.

وأخبر تبارك وتعالى أنه إنما أحب البُدن والذبائح في الحج وجعلها من شعائره، لما يريد برحمته من نفعها للضعيف في ارتفاقه بلحمها، واستغاثته بما يصير إليه منها، على فقره وعسره، رحمة منه للمساكين والفقراء، وثوابا أعطاه على ما أحب من البُدن الأتقياء.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يخبر الله سبحانه عما وقع بتخليته للناس وتمكينه لهم من الاختيار فيما يفعلون مِن فعل الشر، وما يختارون مِن فعل البر، أن ذلك مما وقع به التبار والتعادي بينهم، وأن في تضآرهم وتمانعهم دفعا من الله بعضهم من بعض، عن الفساد والإيعاث في الأرض، الذي فيه هدم البِيَع والصلوات، وتخريب المساجد التي يذكر اسم الله فيها بالغدوة والعشيات، فدفاع الله بعضهم ببعض هو المانع لهم من تخريب المساجد والصوامع والبيع والصلوات الذي هو تعطيلها، والتدافع الذي بينهم والتمانع هو الذي به شُغلوا عن هدم البيع والصلوات، والصوامع فهي التي يكون فيها الرهبان، وهي معروفة لمترهبي النصارى في البلدان.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المشيد العالي المشرف الرفيع المزخرف، فأخبر الله سبحانه عن القصر المشيد الذي كان بسماكيه عامراً،

والماء من البئر المعطلة الذي كان مورداً مرة أهلا، وعن تعطيلها وخرابها وزوال عامرها، تذكيراً بزوال الدنيا وفنائها، وتحذيراً للاغترار بشرابها.

قوله عز وجل: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المنسك هو ما تُقُرِّبَ بفعله إلى الله من أداء معلوم فرائضه في الدين، فليس من أمة من أمم الأنبياء إلا وقد فرض الله عليهم شرعة ومنسكا يكونون فيه بطاعة الله ناسكين.

(ومن سورة المؤمنين)

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: أي: فاز. ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾. أي: الباطل. ﴿ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾. أي: مؤدون. ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾. أي: سبع سماوات أطباقا بعضها فوق بعض. ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾. أي: يكون أفضل منكم. فـ ﴿ اوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾. الربوة: المكان المرتفع. و ﴿ قَرَارٍ ﴾: السهل. ﴿ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾: هو ما سال من الموضع المرتفع كما تسيل العيون. والمعين فهو في اللسان العربي: العين الثابتة التي تقل عن أن تدعا باسم العيون، فتلك معين كانت في جبل أو في ربوة.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الأمة في لسان العرب: القصد يؤتم. يقول الله سبحانه: إن قصدكم الذي تقصدون، وأمتكم التي تأتمون واحدة، يعني سبحانه: طريقاً واحداً غير اثنين، إذ كلهم مأمورون بعبادة الله وحده، وبالسلوك في سبيله وقصده، وخلع الأنداد من دونه، والشهادة له

بواحدانيته، وأنه لا إله ولا رب غيره، فربهم الله ومَعمَدُهم وأمتهم الذي هو قصدهم سبحانه وتعالى، وله المثل الأعلى.

و ﴿ تَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾. المعنى فيه: فتقطعوا عن مذاهبهم، واختلفوا في مقالاتهم، ﴿ زُبُرًا ﴾. أي: قطعاً عن الجماعات مفترقين في الدين، سالكين في صلاتهم في طرق مختلفات. ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾. لا ينصفون حجج الله وما دعاهم إليه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيتوبون.

قوله عز وجل: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الغمر مثل الغريق يغمره الماء، فمثّل قلوبهم بالغمرة التي وقع فيها غرق، وذلك لغفلتهم وإعراضهم، وبأنهم لمَا سمعوا من الحق فقلوبهم عن ذلك في غمرة، وأعمالهم التي هم لها عاملون، فأشغال دنياهم وإيثارهم شهواتهم وأهوائهم التي هم لها على دين الحق مؤثرون، فهم من ذلك كله في لجة، فيها قلوبهم في غمرة كغمرة الماء، غرقة فهم فيها غرقون. الـ ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ [1]: الحين من الدهر والأمد، قال: والحين: الزمان.

قوله عز وجل: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معناه: هزواء، لأنهم كانوا يسخرون ويهزؤُن بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، فيما يدعونهم إليه من أمر الله والحق والدين، فلما كثر أذاهم لهم، وهزوءهم وسخريتهم بهم، أمسك بعض الإمساك عن تذكيرهم لما بلغ منه من الأذى بهزوءهم، وما نالهم من

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

شرهم، قال سبحانه:﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِى ﴾. ومعنى ﴿ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِى ﴾: تركوكم من التذكرة لشدة سخريتكم واستهزائكم.

(ومن سورة النور)

قوله عز وجل: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا تحريم من الله سبحانه على المؤمنين لنكاح الزراني من النساء العواهر المعلنات بالفجور، وتحريم منه على المؤمنات لنكاح الزناة من الرجال المعروفين بالفسق والزنا والعهور.

أخبر الله سبحانه أن الزانية لا ينكحها إلا زان، وأنه لا ينكحها أحد من أهل الطهارة والإيمان، وأخبر أن الزاني لا ينكح مؤمنة، ولا ينكح إلا زانية أو مشركة، لأن المؤمنة لو جعل لها ملء الأرض ذهبا ما نكحت زانيا، ولا رضيت أن تكون له زوجة.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾. تحريماً على المؤمنين لنكاح الزانية، وتحريماً على المؤمنة لنكاح الزاني، وتفريقا من الله بين الإيمان والطاعة، وبين من عصى بكبائر العصيان.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: ﴿ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾: العفائف، و﴿ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ﴾: المؤمنات اللاتي قد أغفلهن ما يَعلَمْنَ من طهارة أنفسهن وإيمانهن وعفتهن، عما يقول به المفترون القاذفون، الباهتون الكاذبون، من الافتراء والقذف بباطل الكذب لهن.

قوله عز وجل: ﴿ ٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ هاهنا المنسوب إلى الطيبات، لطيب العفة والطهارة مما قال الكاذبون ورموهن به مبطلين من الفاحشات، اللواتي هن طيبات طاهرات عنها بعيدات.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ (١) وهل يجوز أن تظهر للكوافر؟

فقال: النساء من كُنَّ من معارفهن وقرابتهن ذوات العفة، المأمونات عليهن. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: فهو من أهل العفة، لا من أهل الفسق والشطارة والمجونة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: المزجى من الدوآب والسحاب هو القليل عند سوقه، البطيء السير الذي إنما يزجى بالإكراه في سيره.

﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: السماء هاهنا: السحاب، والجبال - والله أعلم - ما كثف من السحاب وعَظُمَ، وقد زعم بعض من يقول من العامة: أن في السماء جبالاً من برد، والتأويل الأول، والله أعلم بالصواب والقصد.

وقوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ (١) الآية.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ...﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: قد فعل ما وعد سبحانه، فكان ممن استخلف في الأرض أفضل المؤمنين بعد نبيه علي بن أبي طالب، ذا القرابة برسوله، وكذلك استخلف الخلفاء الصالحين من أهل الإيمان من ذريته وآله، ومن استخلف بالصلاح والإصلاح والاستحقاق ورأَّسَ وأَمَّر مع علي بن أبي طالب من أصحاب نبيه، فهذا وعد وعده الله المؤمنين، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهم ثابت مقيم، فأنزل الله عليه هذا الوعد، وروى فيه صدق ما أخبروا به من الخبر، فملكوا في أيامه، واستخلفوا بأمره وتأميره على آفاق أرض العرب، من اليمن وعمان والبحرين ومكة ونواحي الشام، في قرى لا تحصى من قرى العرب الكبار، ثم استخلفوا بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بحكم الله بالاستخلاف لمن جعل له الفضل منهم، وإيماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإشارته بالاستخلاف إليه.

قوله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ... ﴾ (٢) الآية.

---

(١) كمال الآية: ﴿ ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(٢) كمال الآية: ﴿ ... وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا جواب مسألة كانت من بعض المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو خبر من الله ابتدأهم به يدل على سقوط فرض المجاهدة بالقتال في سبيله على الأعمى والأعرج والمريض الممنوع بمرضه، ويخبر الله سبحانه أيضا عن أنفس المؤمنين، أنه لا جناح عليهم في الأكل في بيوت الأصدقاء بغير أذن، ومَن ذكر من ذوي القربى والأرحام والأقربين، لما أسقط الله بالأخوة في الإسلام، والصداقة المحفوظة عند الأحرار الكرام، والقرابة التي جعلها بين ذوي الأرحامن من الحشمة والوحشة في تناول الطعام، إذا احتاج إليه المؤمن أخذه بإذن الله فيه، ودعائه بلا توحش ولا تحشم، وإنما هذا بما يحتاج إليه من الأكل عند غشيان بيوت هؤلاء المذكورين من ذوي الرحم، والأخوة والصداقة، لا إذن في ادخار طعام ولا نقله، ولا أخذ وَرِقٍ ولا ذهب بغير إذن ولا نفقة، ولو كان ما يحل من بيوت مَن ذكر الله سبحانه من القرابة والصداقة إنما أحله الله بالإذن منهم، لكان الإذن أيضا يحل به طعام أهل البعد والأعداء، لم يكن لقوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾، خاصة إذن في طعام مَن سمى، لأن كل قريب وبعيد وولي وعدو بعد الإذن يكون جائزاً.

(ومن سورة الفرقان)

قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني سبحانه: جعل المرسلين، والمرسل إليهم أجمعين، فتنة بعضهم لبعض، والفتنة هاهنا: اختبار ومحنة، فاختبر

جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

صبر المرسلين وطاعتهم بأداء الرسالة وتبليغها، وامتحن الذين أرسل الرسول إليهم بالإيمان والتصديق برسالتهم، وما جاءوا به من الحجج البينة، الدالة على النبوة، وبما امتحنهم به مع رسله وعلى أيديهم من فرائض دينه وطاعته، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته، فبعضهم كما قال الله سبحانه: ﴿ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾، والفتنة اختبار - كما قلنا - ومحنة، كما قال في موضع غير واحد، وكرره تكريراً من البلوى منه والاختبار، للعصاة الكفرة والمطيعين الأبرار، فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد:٣١].

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: ﴿ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾: يوم القيامة، يشققها بالسحاب وهو من آيات الله العظيمة، وحينئذ كما قال الله تبارك وتعالى، ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾، وهو كما قال الله: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾، لما يعاينون فيه من صدق الوعيد الذي كانوا ينكرون، ووقوع ما كانوا يكذبون به مما يحذرون، وتشققها بالغمام هو: خروجها من فتوقها وشقوقها.

﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: التتبير: الإبطال والتدمير.

﴿ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾. أي: لا يأملون ولا يظنون النشور، الذي أخبرهم الله عنه، والبعثة لأبدانهم من القبور. والأجاج: الذي قد بلغ في شدة الملوحة ما يخرج به إلى المرارة.

﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: معناه: ممنوعاً، لأن كل محجور فممنوع، وما حُجر من الأشياء فقد مُنع وحظر. ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧٧]، يعني: سوف تلزمون ما كرهتم من الدعاء إلى الدين، فيكون دعاؤكم لزاماً لازماً.

(ومن سورة الشعراء)

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم رضي الله عنه: قد تقدم القول منا في مثل هذه الآية في سورة الحجر، عند قوله سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحجر:٧٨].

قوله عز وجل: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الريع: الموضع يكون بين جبلين صغيرين، أو في طرف الجبل الصغير، مستوى المكان يتهيأ ويحسن فيه البنيان.

﴿ فَٰرِهِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: الفرهون كلمة عربية تقوم مقام فرحين، والفَرَهُ: الفرح المفرط في فرحه، والفرح فعل وخُلق يكرهه الله من أهل الدنيا، قال الله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦].

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: القسطاس: القسط، والإقساط في العدل، والوفاء في الميزان.

قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا توقيف من الله للمكذبين، الذين كذّبوا رسوله صلى الله عليه وآله، فيما جاء به عن الحق من الحق المبين، بما كانوا يسمعون في ذكر النبي ومبعثه من علماء بني إسرائيل قبل بعث الله لنبيه، لأن من كان يجاور قريشاً والعرب باليمن والواد وخيبر ويثرب من علماء بني إسرائيل، كانوا يذكرون من أمر النبي، ويرونه ويجدونه في كتبهم، قبل بعثة النبي، آية وحجة وبينة قوية.

ثم قال سبحانه في آخر الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾. يعني - والله أعلم -: ما سلك الله من ذكر نبيه وأخباره ومبعثه، في آذان المشركين وقلوبهم قبل بعثته، حتى وقع ذكر مبعثه بما كان يروي علماء بني إسرائيل لهم، تقديما من الله في الإحتجاج عليهم، ثم أخبرهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

(ومن سورة الروم)

قوله عز وجل: ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ... ﴾ الآية.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا خبر من الله سبحانه عن غلبة كانت للروم غُلِبُوها.

﴿ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾. وقد يمكن - والله أعلم - أن تكون الغلبة التي غُلبت الروم ما كان من نصب الراية التي بعث لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأرض مؤنة من الشام، وهي أدنى الأرض التي كانت تلي أرض الإسلام، في أيام الرسول عليه السلام .

لان الله بعد إكرامه يوم مؤتة لجعفر وزيد وعبد الله بن رواحة، بما أكرمهم به من الشهادة نصر راية رسول الله تلك يومئذ وهي في يد خالد بن الوليد فيما ذكروا، فأنهزم الروم وغلبوا، وفرح المؤمنون بنصر الله إذ نصر، فكان هذا غلب الروم والغلب الذي غلبوه، هو والله اعلم غلب المؤمنين في ذلك الروم،

ورؤية النصر الذي أحبوه، ثم رجع الخبر من الله - والله أعلم - بالإضمار في المعنى، واللسان العربي إلى الاختصار للكلام والقصص، والتطويل للمختصر والإيجاز، فقال سبحانه: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾. يعني - والله أعلم - في هذه المرة ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ۝ ﴾ مرة ثانية.

ثم أخبر من وقت الخبر الثاني بآية عجيبة كانت مخبرة عن علم غيب، عُلِم قبل وقوع الغلب الثاني، بأنها ستكون عليه ثابتة، ثم أخبر الله في قوله: ﴿ بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾، بما هو أكثر في الدلالة على عجيب الآية واليقين، فكانت البضع سنين مدة ما بين وقعة مؤتة وبين فتح الشام، ففرح المؤمنون بنصر الله في تلك الأيام لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولدعوة نبيه، وما أظهر الله من أمر الإسلام بالغلب والقهر لأهل البلدان، من ملوك الروم وفارس بأرض المشرق والعراق، فهذه آية من آيات الرسول في نبوته، إخباره بظهور أصحابه يوم مؤتة على عدوهم من الروم بعد وفاته، وما كان من غلبتهم لهم في ذلك اليوم.

ثم أخبر عن غلب ثاني ستغلبُه الروم في بضع سنين، فرأى المؤمنون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة ما أخبر به وصدقه بأيقن اليقين، وعاينت ذلك منهم العيون أيام فتح الشام وغلبة الروم الثانية كخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، إذ لا يخبر عليه السلام إلا عن الله علام الغيوب، ولا يكون إخباره سبحانه إلا صدقاً وحقاً، ثم أخبر سبحانه أن لله القهر والقوة والقدرة، قبل أن تُغلب الروم وبعد أن غَلَبت.

(ومن سورة ص)

قوله عز وجل: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: العزة: العتو والتعزز بالقسوة، وفي ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة:٢٠٦].

قوله عز وجل: ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني بالفواق: الرجوع والإنفطار.

قوله عز وجل: ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: يعني هاهنا بالإكفال: أن يجعل له مِلْكاً عليها حتى يكفلها ويجزيها.

قوله عز وجل: ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾.

يعني سبحانه: ولا حين انفلات ولا نجاة ولا خلاص.

قوله سبحانه: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: هذا في أسراء الجن المصفدين، الذين ذكر الله أنهم في الأسار مقرنين، فأخبره تبارك وتعالى بأنه قد ملّكه إياهم، فإن شاء منَّ عليهم وخلاهم، وإن شاء أمسكهم، بغير حساب من الله يخافه فيهم.

قوله عز وجل: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: إن الله سبحانه ذكر ما آتى سليمان نبيه صلى الله عليه، من عظيم ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن يملكه من بعده، فذكر أنه آتاه الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وذكر ما آتاه من صفد الجن واستعمالهم فيما أحب من الأعمال، لفضل قوتهم ولما لهم من لطيف الاحتيال، فذكر في ذلك سبحانه ما ذكر من القصص والأخبار، وذكر ما آتى الله سليمان من الصافنات الجياد، وهي الخيل الكريمة الفاضلة العتاق.

ثم أخبر بهوان شأن الخيل وهي من كريم ما آتاه الله من الملك وجماله، وآلته وفضله، فذكر عرضه لها بالعشي، والصافنات من الخيل: القيام الكرام التوآم، في القَوَم والطول والأجسام، وكان سليمان صلى الله عليه يذكر الله سبحانه قبل غروب الشمس في كل عشية، ويسبحه قبل تواريها بالحجاب، فلما عرضت عليه الخيل الصافنات الجياد بالعشي تشاغل بها، وبكثرة ما عرض عليه منها، وكان بهذا إعجاب، حتى توارت الشمس غاربة في الحجاب، بنظره إليها حتى فاته ما كان أعز وآثر، وأكرم من أمر الدنيا وما فيها، من ذكر ربه وتسبيحه، والإقبال على ذلك دون غيره، فاغتم صلى الله عليه، عند فوات ذلك له، وعلم أن العارض له دونه الإعجاب بالخيل، فأراد أن يؤدب نفسه ويعاقبها، بإتلاف ما أعجبها وشغلها، عما هو أعظم نفعاً لها من تلك الخيل، فأمر بردها وإحضار كلما عرض عليه منها، ثم أمر بمسح أعناقها قتلا بالسيوف، وسوقها: عرقلته لعراقيبها، ليعلم الناس أنه فضَّل تسبيح الله وذِكْرَه، وآثر طاعته وأَمْرَه، على ما يؤثرون من محبوب دنياهم، وأن ذلك لا يساوي أكبر كبيرة وأكبر ما يعظمون من عظمته شيئا من ذكر ربهم، وطاعة مولاهم، وأراد تأديب نفسه إذ غفل ساعة واحدة بالخيل عن ذكر ربه.

(ومن سورة حمعسق)

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم رضي الله عنه: نعم، الله الحاكم فيه عليكم، والفاصل فيه بينكم، فيما اختلفتم فيه حَكَمْتُ، وما لم يأمرني أن أحكم فيه بينكم لم أحكم وأمسكت، وما لم أجر الحكم فيه بينكم إلى يوم القيامة كان مؤخراً حتى يحكم فيه سبحانه يوم البعث وفصل الحكومة.

(سورة يس)

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿ يسٓ ۝١ ﴾.

قال أبو عبد الله محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين: ﴿ يسٓ ۝١ ﴾ - والله أعلم - تفسيرها خفي، لأنها من العلم المصون، المخزون المكنون، لأن من القرآن ما نزله الله للناس كافة، كالخبر عن خلق الأرض والسماء وما بينهما، وما ذكر الله من الآيات والعبر بما خلق فيهما وفي غيرهما، وما ضرب الله فيه من الأمثال، وفرض من الفروض، وحرم من الحرام، وأحل من الحلال، وغير ذلك مما فيه من التذكير والقصص والأنباء، وما لا يحصى من البركات والخير، وأخبار الأنبياء، والوعد والوعيد الموصوفة، وما ذكر الله في الصُّور يوم القيامة من النفخة.

ومن القرآن ما نزله الله للنبي وجعل علمه له خاصة، وهو عن غيره من المؤمنين خفي.

وقد زعم بعض من زعم، أن ﴿ يسٓ ۝١ ﴾ هي: يا محمد، وهذا فما لا يفهمه من أهل اللسان العربي أحد. ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾، فأقسم الله تبارك وتعالى بالقرآن الحكيم صادقاً لنبيه، وأنه من المرسلين، وكذلك هو صلى الله وعلى آله وسلم يقيناً حقا، وذكر تعالى من حكمة القرآن ما قد بان به من الكتاب أكثر البيان، فالقرآن في الحكمة غاية الغايات، قد جاز في حكمته وفضله جميع الصفات، فأخبر تعالى أن نبيه على المستقيم من الصراط. والصراط الطريق والمنهاج، المعتدل في الدين ليس فيه ميل ولا اعوجاج.

ثم أخبر سبحانه عن القرآن بأنه ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾. وكذلك الله فهو الرحمن الرحيم، الذي جاز في العزة عز الأعزاء، وفي الرأفة والرحمة رأفة الرحماء، إذ لا يكون سواه عزيزاً ملكا عظيماً إلا هو، معرض عمن ملك قاسٍ

عليهم غير رؤوف من كبريائه، وملكه وعزته، الأعظم المحيط بملك جميع الملوك، إذ لا مثل له في ملكه وربوبيته، ولا ند ولا شريك، أرأف مَن رَؤُفَ، وأرحم مَن رَحم، بلغ من رأفته بالإنسان ورحمته له ما لا يبلغه الأب والأم.

ثم قال سبحانه مخبراً عن أنه بعث نبيه منذراً: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾. ففي قوله: ﴿ مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ تذكير لهم بالمنة التي مَنَّ بها عليهم، من بعثة رسوله عليه السلام بالنذارة إليهم، فبُعث صلى الله عليه وآله وسلم فيهم منذراً، وأتاهم وهم في غفلة ساهون عن الآخرة مخبراً، فخصهم من إرساله بما لم يمن على آبائهم بمثله، ثم قال لا إله إلا هو منبئاً عن علمه بكل غيب خبراً صادقا، أنه يملأ جهنم من عصاة الجن والإنس وأن هذا القول والخبر كان على أكثر أهل الجاهلية متحققاً، ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾. فكذلك كان أهل الجاهلية إذ هم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مكذبون.

ثم أخبر عن عقابه سبحانه لهم بكفرهم وتكذيبهم في يوم الدين، ومثّله لرقابهم بالأغلال التي جعل بعضها على بعض إلى أذقانهم، ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾. وهذا السد - والله أعلم - الذي من بين أيديهم ومن خلفهم، هو ما يغشى الكفار والمنافقين من الظلام في موقفهم يومئذ حتى يظلم بغشاوته أبصارهم، وهو حين تنكسف الشمس والقمر وتطمس النجوم، فيقع الظلام بزوال الأنوار في ذلك اليوم، وحينئذ ما يحتاج المؤمنون إلى النور، فيجعله الله من بين أيديهم وبأيمانهم ليأنسوا به ويبصروا، ويأمنوا ويطمئنوا ولا يرتاعوا، ويومئذ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا وهم من بين أيديهم: ﴿ ٱنظُرُونَا ﴾ [الحديد:١٣]، يعنون: انتظرونا. نقتبس من نوركم، وحينئذ يقال لهم

تبكيتا وتوقيفا على حرمان الله إياهم كل ما يطلبون: ﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد:١٣].

ثم قال سبحانه بعد خبره عن جعل الأغلال في أعناق الكافرين، وملء رقابهم بها إلى الأذقان، حتى هم لرؤوسهم إلى الأذقان مقمحون، والمقمحون فهم الذين للرؤوس [1]، ونبأ سبحانه عن علمه للغيب الذي يحيط بما كان وما يكون، فقال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾، يعني سبحانه: أن الإنذار بأخبار القيامة وترك الإنذار عندهم سواء، لما هم عليه من التكذيب للرسول والشك والإمتراء.

ثم أخبر عز وجل على أن النذارة إنما تنفع من تاب وآمن، واتبع التذكير والذكر فأيقن، ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾. والإيمان بالغيب فهو ما أخبر الله عنه مما يأتي به في الآخرة من البعث والنشور، وما أخبر عنه مما لم يكن بعد من غائب الأمور، فقَبِلَ الخبر في ذلك المؤمنون، وأمنوا من عصيانهم تصديقاً لخبر الله عن الغيب فهم لا يعصون، فشكر الله بالغيب إيمانهم، وذكر تصديقهم لما نبأ به من أخبار الغيوب وإيقانهم.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن صدق ما وعد من إحيائه للموتى، وكتابه لما قدموا من أعمالهم وآثارهم في أيام حياتهم التي آثروا، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾. وكتاب ذلك: حفظه وإثباته والله أعلم، وأنه لا ينسى منه صغيراً ولا كبيرا، ولا قليلا ولا كثيرا، فأي كتاب أثبت من حفظ الله، والحفظة الكرام من ملائكته لأعمالهم وآثارهم كلها في

---

(١) يعني: مرفوعة رؤوسهم لا يستطيعون خفضها.

منقلباتهم، في ليلهم ونهارهم وجميع أيام حياتهم، قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾. والإمام فهو المتقن من الكتاب، الذي ليس في حفظه وبيانه شك ولا ارتياب، فهو بين مبين.

ثم ضرب لهم مثلا من تكذيب أصحاب القرية لأنبيائهم المبعوثين إليهم، إذ كانوا لهم في التكذيب مثلا، فقال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾.

يعني سبحانه وهو أعلم وأحكم بـ ﴿ عَزَّزْنَا ﴾: شددنا ووكدنا، لأن الثلاثة في الإنذار أبلغ، وفي التأكيد عليهم للحجة أكبر، ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ثم أخبر سبحانه أنهم قالوا كما قالت قريش والعرب مكذبين لرسلهم: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾. ثم أخبر سبحانه عن استشهاد رسله له في رسالتهم، إذ هو أعظم الشاهدين شهادة، وأصدق القائلين مقالة: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾. معزيا لنبيه عما كان يضيق به صدره من تكذيبهم له مع علمه بصدقه، وأنه مبعوث بالرسالة من قِبَل ربه، بإخباره عما لَقِيَتْ الأنبياء عليهم السلام من قبله، وأنهم كانوا يقولون مثل ما قال قومه لأنبيائهم.

ثم أخبر تعالى عن قول الكفرة لرسلهم، فيما كانوا يقولون به كذباً من التطير والتشاؤم بهم، إذ يقولون: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾. ليتعزى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على أذى قومه، بما نال المرسلين من قبله، فقال المرسلون

عليهم السلام لقومهم عند تطيرهم بهم: ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾، يعنون بطائرهم: ما قسمه الله لهم من أرزاقهم وأعمارهم، وما علموا أنه سيحل بهم من المحبوب والمكروه في ليلهم ونهارهم، إذ التطير في لسان العرب هو ما قسم لكل أمرئ وطار له من كل نصيب، في رزق أومكروه أو موت أو أمر محبوب، فأخبروهم أن ذلك معهم، يعنون: أنه مقسوم لهم لا يزيله مزيل عنهم، يريدون: إنما قسم الله لهم من الأعمال والأرزاق والآجال، وما يتصرفون فيه من ذلك ودوامه وإنقطاعه، قد قسمه الله لهم حتى علم ما يطير منه ويصير لواحدهم وجميعهم، فهو كيف ما كانوا محكوم به لهم، طائر ما أعطاهم الله منه إليهم فهو معهم.

ثم قال المرسلون عليهم السلام لهم: ﴿ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ ﴾، يعنون: أَمِنْ أجل أن ذُكِّرتم، فأُمرتم بطاعة الله وأُنذرتم، كذبتم وأسرفتم، ﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ثم أخبر سبحانه عن الرجل المؤمن المصدق بالرسل والآخرة، فقال سبحانه: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾. فدعا قومه إلى اتباع المرسلين، وأمرهم بطاعة رب العالمين، وأخبرهم أن أنبياءهم لم يأتوا يطلبون منهم فيما بَلّغوهم جزاء ولا أجرا، وأنهم مهتدون.

ثم قال إيمانا بربه، وشكراً لنعمته: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾، يعني: الذي اخترعني وخلقني: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾. فذكر رحمة الله عليه بما يجب عليهم من شكر الله في فطرته لهم، ورجوعهم عند الوفاة إليه.

ثم قال منبهاً ومذكراً، وعن عبادة آلهتهم وأصنامهم من دون الله زاجراً: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا

وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾. لأن الكافرين من المشركين كانوا يقولون أن آلهتهم التي من دون الله يعبدون، يشفعون لهم عند الله وينفعون، فذكّرهم الرجل المؤمن الذي جاء إليهم يسعى، أن آلهتهم التي عبدوا من دون الله لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً.

ثم قال: ﴿ إِنِّيٓ إِذًا ﴾، يقول: إن فعلت في كفر ربي فعلَكم، وقلت من الكذب قولكم، وعبدت الأصنام من دونه كما عبدتم، ﴿ لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾. والضلال الذي عنى المؤمن رحمةُ الله عليه، فهو الضلال عن الطريق المستقيم، والصراط: الذي هدي إليه، والمبين فهو: الظاهر البين العلين، ثم صدع بالإيمان بالله والتوحيد والإقرار لعبادته بين قومه، قائلا: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾. يقول الله سبحانه وتعالى مبينا، ولإيمانه ذاكراً وله بذلك مثيباً ومجازياً: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾.

ثم أخبر عن المؤمن صلى الله عليه إذ دخل الجنة، ورأى كريم الثواب والنعم وصار إليه، وعن قوله إذ يقول متمنياً لأن يكون مَن أكذبه من قومه، بما وهبه الله من الغفران والجنة عالماً، ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. وأي مكرَم أجل قدراً في الكرامة وأعظم تكريماً، ممن أدخله الله الجنة ومَنَّ عليه بثوابها ونعيمها خالداً فيها مقيماً، ويشبه - والله أعلم - أن يكون قوله إذ قال لهم هذه المقالة، وأعلَمَهم بما هم عليه وآباؤهم في عبادة من عبدوا من دون الله من الضلالة، قتلوه فأكرمه بالشهادة، إذ قال: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾. قال عز وجل: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾، وعاجل الله قومه بالعقوبة في تكذيب الأنبياء المبعوثين إليهم، وتكذيب المؤمن الداعي إلى الإيمان لهم.

ثم قال سبحانه لقوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مذكرا، ولنبيه عن عقاب أصحاب القرية مخبراً: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾. يخبر تبارك وتعالى على أن هلكة هذه القرية المكذبة، إنما كانت بصيحة أنزلها الله عليهم واحدة ليس لها ثانية، فخمدوا هامدين، وخروا موتى خامدين.

ثم أخبر - لا إله إلا هو - عن حسرة العباد، في يوم المرجع إليه والمعاد، بغفلتهم في حذر ما حذرهم الرسل في الدنيا من يوم بعثهم، وما يقع عليهم ويحل بهم في الآخرة، من التحسر والندم والحسرة، إذ رأوا صدق ما كانوا يكذبوا فيه الرسل من أمر الآخرة، فقال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾، يعني سبحانه بقوله: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾: أن الحسرة على العباد واقفة، وقول الله: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾، كلمة من وعيد الله منبية عن شدة الوعيد مفزعة، لأن العرب إذا أخبرت عن الأمر المفزِع المخوف العظيم، فلم يفهمه مَن تخبره عنه أو كذبت قالوا في التنبيه بأبلغ الوعظ والتكليم: يا حسرة عليك، ويا ندامة لك إذا ما حل بك ما كذبت به مما حذرناك فرأيته بالمعاينة، وإذا قالت العرب في لسانها، وما هو غاية الإفهام في لغتها وبيانها، للتي تصفه من الخير والشر ليفهم عظمه وكبره: يا كذا وكذا يدعون ما يُعظِّمون صارخين باسمه، فذلك في لسانهم غاية الإفهام لعظَمه، فإذا ظنوا أن شرا من البلاء واقع، أو خبرا وسروراً يأتيهم لهم نافع، قالوا عند الخير، يا خير بني فلان، فذلك عندهم غاية الإفهام والبيان، في عظم ما يصفون من فضل الخير الصائر إليهم، أو قالوا: يا بؤس بني فلان وخزيهم، وذلك بعينه غاية الإفهام، لعظم الخزي والبلاء الواقع عليهم.

فأراد الله سبحانه أن يفهم خلقه وعباده إذ أسمعهم في كتابه ذكر حسرتهم يوم القيامة لها مسمياً، وإنما عنى الله تعالى بقوله: ﴿ يَـٰحَسْرَةً ﴾ - والله أعلم - أي: حسرة هي في العظم لما بلغ أهلها من التلهف على ما فاتهم من تصديق الأنبياء عليهم السلام، واستهزائهم في دار الدنيا للشقوة، إذا رأوا في الآخرة صدق ما كانوا يخبرونهم من خبرها، وتحقق قولهم، فحينئذ يتحسرون نادمين، وتقع الحسرة التي أخبر الله عنها يومئذ عليهم، فيبقون محسورين، حسرة على العباد كما قال لله ثَمَّ يا حسرة على العباد عليهم. ثَمَّ، يا حسرة حين عاينوا صدق وعيد الله في الآخرة فندموا وتحسروا حين لا يقالون، ولا تقبل معذرتهم فيعتذرون، فأي حسرة أكبر، وأي ندامة أفظع للقلوب وأنكر؟! من حسرة من لا يُقال عثرة، ولا تقبل منه معذرة، ومن هو خالد في أليم العذاب والعقوبة، ومن قد أيس من أن يقبل الله منه توبة، فيالها حسرة حازت الحسرات!! ولكفى بقول الله: ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ فيها بليغة من الصفات.

ثم قال جل ثناؤه، وخزيت بمعصيته أعداؤه، وفاز بخشيته أولياؤه، وهو يخبر المنذرين من قوم النبي عليه السلام عمن أهلك بذنبه من القرون: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾. فذكّرهم سبحانه من هذه العبر ثما لا ينكرونه، إذ كان من أهلك وأمات من الهالكين غير راجعين، ودلهم على أنهم مملوكون مربوبون، إذ كانوا مكرهين من الموت والهلاك دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم فيما يحبون من البقاء نفعا، خلقوا حين خلقوا وهم لا يشعرون ولا يعقلون، وأنشئوا بتربية الله لهم ورزقه وهم غافلون، وفهموا إذ عقلوا من المضار والمنافع ما كانوا يجهلون، وأنعم عليهم بالنعم التي لا يحصون.

وكل هذا وما صُرفوا فيه منه فهم به مصرَّفون، وعلى المنعم الصانع لهم بذلك مدلولون، وله معروفون، وبالرق والعبودية موسومون موقوفون، فمن صُنع منهم وخُلق فهو شهيد بلسانه أنه لنفسه غير صانع، ومن أُميت فهو مقر أنه

للموت عن نفسه غير دافع، وأنه ليس بقادر على عودة إلى دنياه، ولا لاقيا من يحب فيها ولا راجعاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.
ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المنذَرين، ومن مات من القرون الماضين، ومن يموت من القرون المتأخرين، كلٌ جميع لديه محضرون.
و ﴿ لَّمَّا ﴾ هاهنا تمام للبلاغة. وصلة في اللسان العربي للكلام، وإبلاغ في التنبيه من الله والإفهام، يعني سبحانه بإحضار البعث يوم القيامة لمن مات أولاً وآخراً من الكبار والصغار - ثم قال لا إله إلا هو - لما يحيى من موات الأرض وبعثة الموتى ذاكراً وعلى إحيائهم منبها، ومحتجا على العباد بأحياء الأرض الميتة وممثلاً لذلك بنشرهم ومشبهاً: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾. وأي أعجوبة أعجب، أو مثل في أحياء الله الموتى أقرب؟! من إحياء الأرض بالمطر بعد مواتها، ويجد من خضرتها بعد يبس أشجارها، وارفتاها وخمودها واقشعرارها، ثم تعود الأرض عند حياتها إلى ما كانت عليه قبل موتها من بهجتها واخضرارها، وخروج حبها وثمارها، ونبات مراعيها وأشجارها.
فمن أحمق أو أجهل أو أغفل أو أضل ممن جهل قدرة الله القدير المحمود، على أحياء الميت البالي المفقود؟! وهو يرى كيف يحيي الله الأرض بعد الموت والبيس والخمود!! والمحمود فهو الله الخالق الإنسان والمنشئ لبدنه بعد إذ لم يكن، وكذلك فهو القادر على رد ما بلي بالموت من أعضاء البدن، وهو سبحانه الذي أخرج الحب منه ليأكله، وكلما نشأ من نعمة فيه كانت وهي له، وهو - كما قال لا إله إلا هو - الجاعل في الأرض جنات النخيل والأعناب والمفجر فيها للعيون، وبه كان جميع ما أخرجت من الثمار أو يكون، فهو الذي أنعم بذلك كله علينا ورزَقه، وهيأه وأخرجه لنا وخلقه، لولاه سبحانه لم نقدر عليه، ولم يكن لنا ولا لمحتال حيلة فيه.

ثم قال: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾، أي: ما طعمنا من ثماره وأكله ضروباً مختلفات، أنشأها لنا بكرمه وفضله، فواكه مفكهة كفانا سبحانه تدبيرها، وغذّاها بالأنهار والعيون التي فجرها وأجراها، حتى أكمل إصلاحها ومَلّكْناها، وهنأنا أكلها واغتذاها، وأجراها حتى إذ تم صلاحها، قال سبحانه: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾. وما عملت ذلك كما قال سبحانه أيدينا، بل هو الذي صنعه وفطره ومن به علينا، وما ذكر الله من هذا كله، فتقرير منه وتوقيف لخلقه على نعمه وفضله، وكل الأولين والآخرين جميعا والكافرون، فهم له سبحانه بصنع هذا كله مقرون، ولما عُرف منه وذُكر لا ينكرون.

ثم قال تعالى إلى الشكر داعياً، إذ لم يكن بالكفر لعباده راضيا: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾، وذَكَر ربنا وإلهنا عجيب ما خلق وصنع مُعرِّفا، في خلق الأزواج كلها للحكمة فيها واصفا: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

فأي أعجوبة أعجب، أو عبرة في لطيف تدبيره أقرب، مما أنشأ وخلق من الإناث والذكران، في النبات جميعاً وكل الحيوان من الإنسان وغير الإنسان؟! فجعل ما خلق من ذكرانها وإناثها، سبباً لنمائها وصلاحها وانبثاثها.

ثم قال جل وتقدس: ﴿ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾. فأخبر أن الأزواج من الذكران والإناث في أشياء أُخرى، لم يطلعوا عليها و لم يحيطوا بها خبراً، كالنجوم التي لا يشك من يعلم بعض ما علم الله من خبرها، أن فيها ذكرانا وإناثا معروف ذلك من أمرها، وقد ذكرها تبارك وتعالى بذلك فيما نبأ به من أنبائها، فذكّر بعضها وأنّث بعضها في أسمائها، فقال في القمر: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾. فذكّره. وقال في الشمس: ﴿ وَٱلشَّمْسِ

وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾ [الشمس:١]، ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت ﴾ [الكهف:١٧] ، والشمس والزهرةَ فأُنثَيَان، والمشتري والقمر فذَكَرَان، وكذلك النجوم الثمانية وعشرون الأخرى، هي للشمس والقمر منازل ومجرى، فهي بغير شك ذكران وإناث، ليس بين أهل الألسنة من العرب والعجم في ذلك إختلاف، وكذلك فمن الحديد والحجارة،و جميع ما في المعادن المذكورة ذكران وإناث، وكل هذا فمما علمنا الله ودلنا عليه.

ومن الذكران والإناث كمال قال الله سبحانه ما لا نعلمه إذ لم يذكره و لم يهدنا إليه، إلا أن الله سبحانه قد أخبرنا عن أهل سماواته، ومَن عنده من مُكَرَم ملائكته، أنهم ذكران لا إناث، إذ أنكر قول المشركين بالتأنيث لهم فيهم، ورد ضلالهم مكذبا لهم عليهم، إذ يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف:١٩]. وقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢]. ولو كانوا إناثاً لقال: ولا الملائكة المقربات، ولكنه ليس فيهم ولا منهم أنثى، ولذلك قال: ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، دليل على أنهم ذكران مذكورون.

ثم قال - لا إله إلا هو - منبهاً على ما في الليل والنهار ومن آياته، وما فيهما على الخلق من عظيم نعمته: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾. فأي آية أكبر وأعظم عند من يعقل ويفهم من اختلاف الليل والنهار؟! وما يُقدر الله بهما وفيهما من عجائب التدبير والأقدار؟! بينما الناس في ضوء شمسهم ونهارهم، مقبلون ومدبرون في معايشهم وأمورهم، والشمس تجري في فلكها عالية من فوقهم، قد قدر الله بها وبجريها ما نعلمه لكثرة عبره

من تدبير مصالحهم ومرافقهم، إذ قطعت الفلك بأمر ربها وربهم، فتصوبت للغروب وأقبل الليل منسلخاً منه النهار، وانسلاخه منه - والله أعلم - انسلاخه عنه، وعنه ومنه مقامهما في هذا مقام واحد، فحينئذ يبدو سواد الليل طالعا، فكل ما انسلخ النهار مدبرا، ومضى بين يديه عنه مستأخراً، ظهر وازداد اسوداداً.

حتى إذا نحن بعد النور والبرهان مظلمون، وعن الإقبال والإدبار لما كنا نقبل له نهاراً أو عن أكثر ذلك ممسكون، وإلى الهدوء والراحة مائلون، وعن النشاط والقوة بكرى النوم زائكون، ومن أتعابنا ولغوب دوابنا في نهارنا مستريحون، وعن الأبصار كما كنا نبصر بها نهارا ممنوعون، لا نملك لشيء من هذا كله عن أنفسنا دفعا، ولا نستطيع رداً ولا منعا، دلالة من الله سبحانه على أنه هو المصرف لنا في جميع أحوالنا، وعلى عجزنا من الامتناع في تدبيره بنا، ونظراً منه تبارك وتعالى لنا، فنكون مسبوتين نياماً في ليلنا، حتى إذا بلغ الليل ما أراد سبحانه أن يبلغه من الميقات، في سراه ومسيره إلى غاية ما قدر الله عليه من الساعات، ظهر الفجر ساطعا، وأقبل النهار طالعا، فكلما انسلخ منه النهار مدبراً، ومضى بين يديه فتحرك حينئذ جميع الحيوان الذي هدأ فيه ليله وسكن لما يريدون من المعاشرة والشأن، قد حُموا من التعب واللغب براحة الأبدان، ففي هذا من مر الليل والنهار وغيره آيات عظام، وفضل من الله على خلقه وحسن نظر وإنعام.

ثم أخبر تقدس اسمه وجل أمره عما تولى للخلق من النعيم في جري الشمس، لما في جريها من صلاح الدنيا وحياة كل من في الأرض من ذي نفس، وإذ بالشمس وضوءها تبصر العيون، وينتشر الناس وينحون، ويذهبون ويعملون في صناعاتهم وأرفاقهم ما يعملون، وبجريها يكون كثير من صلاح أبدانهم، وعامة معاشهم وعمارة بلدانهم، وعلم عدد سنيهم وشهورهم، وما يصلح الله بها من زرعهم وثمارهم، وما يكثر عن أن نحصيه لصغرنا عن علمه.

وذكر سبحانه أن الشمس في عظمها، وما هي عليه من عجيب أمرها، في دورها وجريها، إنما تجري لمستقر لها، ومستقرها - والله أعلم - يوم القيامة، ففكر يا هذا وافهم!!!

ثم ذكر سبحانه النعمة على خلقه، بالقمر وما قدره له من المنازل إلى وقت محاقه، فذكر تعالى نعمة عظيمة من عظائم نعمه، لما قدره بالقمر من صلاح كثير من معايش الناس وتمامه، إذ بالقمر تُعرف الشهور والأيام، وهو في الليل سراج لجميع الدنيا، فيُبين في الظلمة للناظرين، ويضيء لمن سافر من المسافرين، وبه وبطلوعه وغروبه قدر الله مدد البحار وغزرها، وزاد بزيادته في أول الشهور مياه الأرض فأصلح أشجارها، وأربى بطلوعه خَضِرَها وثمارها، وما فيه من الآيات والعبر، فيكثر عن أن نحيط به علما، وحسبك ما فهَّمك الله منه في كتابه إن كنت فهماً.

وما ذكر الله من تقديره له منازل، فقد يراه كل ذي عين في كل ليلة مثالاً زائداً، النور في أوله عند نزوله منازله، وهي ثمانية وعشرون مترلة من النجوم، حتى إذا بلغ أربعة عشر منها نقص نوره في كل ليلة عند نزول كل مترلة، ممتحقاً حتى يعود بدقته في العيون دقيقا، كما قال سبحانه: ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾، والعرجون فهو: العود الذي يخرج من قلب النخلة حاملاً في شماريخه لثمره، وهو أعوج مقوس منحنياً، يشبه ما للقمر في آخر الشهر من الانحناء والدقة، وهو إذ كان قديما أدق منظرة.

ثم ذكر سبحانه أعجوبة أخرى، يدل بها على سرعة سير القمر إذا جرى، فقال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾.

والقمر فمن أسرع النجوم كلها جرياً، وهو يقطع الفلك في كل شهر من أوله إلى آخره دوراً، والشمس تجري في الفلك إلى أن تقطعه عاماً، وإن الليل غير سابق النهار، إذ هما جميعاً في الزيادة والنقصان على مثال ومقدار، فقال: ﴿

كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾. وإنما يعني بسباحتهم في الفلك - والله أعلم - أنهم فيه يجرون ويدورون.

ثم قال - لا إله إلا هو - لبعض نعمه على الناس ذاكرا، لحملهم في الفلك ولهم على شكرهم فيها منبها وعنها مخبرا، ولعجيب آياته فيهم معرفا، لذلك تعالى وجل واصفا: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾. وكذلك فهو الله الذي حمل البشر في الفلك والبحر، وعلى مثل ذلك من الدواب الحاملة لهم في البر.

وقد قيل في الخبر: إن الذي مُثِّل بالفلك هي الإبل، وقد تسميها العرب سفن البر، ولشبهها بها ما قرنها الله عز وجل بالسفن في ذكرها، فقال: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٢]. فهذا فيما ذكر الله من قوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾. وما نرى - والله أعلم - أن الله أراد بقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾. إلا ما حمل وأقلّ من الدواب كلها الإبل وغير الإبل، غير أن للآبال مالها في الحملان من الفضل.

ثم قال سبحانه: ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾. فهو المملوء المثقل، وهو الله المنعم المفضل الحامل لذرياتهم، والذريات - والله أعلم - فهي الذرء والمذروء المكثَر من جماعتهم، قال الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٩]. يعني يذرؤكم: كثركم ونشركم، وكذلك إذا قيل: ذرية، فإنما يراد جماعة مكثَرة مَذْرِية، والواحد من الجماعة المكثرة المذرية ذرية، والثنتان ذريتان، والثلاث ذريات، فكان هذا - والله أعلم - دليلا على

لمن يعقل فيفهم على أن الذريات هي الجماعات منكم المذريات المكثّرات، لأنه لو كان مخرجها في الذّكر إنما يراد بها الذراري دون الآباء، لكنا نرى كثيراً ممن يركب السفن إنما هم الأكابر لا الذراري الأصاغر الضعفاء.

ولكن الذريات وإن تأول متأول، أو قال قائل: إن الذريات الأطفال، وإن حملهم في الفلك دعة وسكون ومرفق على أبدانهم لضعفهم وصغرهم، وقلة تحريك الفلك لهم.

قيل له: هذا تأويل يجوز في المعقول، وليس في التأويل بأصل ثابت ولا يزول، لأنه ربما كان من زعازع البحر في كثرة الأمواج، وماله عند عصف الريح من شدة الحرة والارتجاج، أشد على راكب الفلك خطراً، وأهول أمرا، من ركوب أصعب صعاب الدواب، التي تجمح بركبانها غاية الجماح، حتى لا يبقى راكبها لشدة تكفتها وقلقها، عند زعازع الأمواج لها، ولكن التفسير الأول فيما ذكر الله للذريات من الحمل في الفلك أشبه - والحمد لله - وأوجه.

ثم قال عند ذكر الفلك المشحون، فدل بقوله:﴿ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ على التذكير بالنعمة في حمل ما يحملون من معايشهم وأمتعاتهم وتجاراتهم.

والفلك عند شحنها أعظم ما يكون خطراً، وأخوف ما يكون أهلها للغرق عليها خوفاً، إذا كانت الشاحن أقرب إلى العطب لثقلها ورسخوها في الماء.

ثم قال سبحانه عند هذا الذكر بعينه بما تولى من سلامتهم مذكراً: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾، يعني: لا مغيث في لجج البحار وأمواجها، يصرخهم ويغيثهم عند غرقهم لهيجان موجها وارتجاجها.

يقول الله الرؤوف الرحيم، بخلقه الكريم: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾، يعني: أن سلامتهم لم تكن وإن كانت الفلك قد وصلوها، وأتقنوا من بنائها وجعلوها كما جعلوها، إلا بحملان من الذي ذكر، والحملان هاهنا

المذكور ليس هو إقلال [١] عيدان الفلك وألواحها وحده، ولكنه تسليم الله وحمله بالسلامة في هول البحار عبيده، إذا عظم ما رأى ونظر من عظيم الفلك والسفن الكبار، مع عظيم البحر وكبره وعتو أمواجه كالذباب الصغير الطائر الذي يمر طائرا حقيرا في سعة الصحاري والقفار، فبرحمة الله القدوس جل وتعالى نجوا، وبحملانه لهم بالخروج من البحر ظفروا، وإلى حين ما موقوت من آجالهم ما أمتنعوا بالحياة واخرجوا، لقول الله سبحانه بعد ذكرها ما ذكّر به العباد من هذه النعم، وهو يخوفهم - لا إله إلا هو - العقوبة فيما خَلْفهم من الذنوب، ومحذراً لما بين أيديهم إن لم يتقوه من الخطايا والحوب: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، يعني سبحانه: فلا تعاقبون إذا تبتم واتقيتم إذا جزتم من ماضي الذنوب فخلفتم وراءكم إذا تبتم، و ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾، فالاتقاء للذنوب فيما يستقبلون التي ترديهم، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ فهو ما مضى في الخطايا وفات منهم، والتوبة التي هي الاتقاء فهي التي تتقى بها الخطايا فيما خلفهم وبين أيديهم، فلما انتهى الخبر إلى قوله سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾. ولم يذكر عنهم جواباً ولا طاعة، علم أنه إذ لم يذكرهم بالرضى ساخطٌ عليهم، لإغفالهم اتقاء ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذا من مفهوم الكلام عند العرب وأبلغ الاختصار، والمعقول بالمعنى الظاهر منه باطن الإضمار.

ثم ذكر سبحانه إعراضهم عن الآيات، التي نزلها على نبيه وما يريهم منها في آفاق السماوات، فقال: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾. وذكر - لا إله إلا هو - بخلهم عن الإنفاق مما رزقهم،

---

(١) الإقلال: الحمل.

فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فأجابوا فيما دعاهم الله إليه من إطعام الفقير والإنفاق، جواب اللئام البخلاء الجاهلين مثلهم، واحتجوا على النبي ومن دعاهم إلى ذلك من المؤمنين بما لا حجة لهم فيه، فقالوا: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾. وجهلوا أن ما دعاهم الله إلى إطعام الفقراء محبة لهم بذلك واختبار وبلوى، ليجزيهم الله في إطعامهم والإنفاق في ذلك مما رزقهم الجزاء الأوفى، الذي هو أطيب وأعظم مما أنفقوا وأزكى وأكبر [1]، وقد علم النبي عليه السلام والمؤمنون، إذ هم لهم إلى الإنفاق داعون، أن الله أقدر القادرين، على إطعام الفقراء المعسرين، فذكر الله ما كان من ترك الإنفاق من جواب الكافرين، ليكون المؤمنون لمثل معصيتهم فيما أقروا به حذرين.

ثم قال تبارك وتعالى مخبراً عما كان الكافرون عليه من التكذيب بيوم القيامة ووعدها، بإنكار الكفرة للبعث وجحدها، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾. يقول الله سبحانه وهو يخبر أن الصيحة تأتيهم وهم بالغفلة والتكذيب عنها من الساهين: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾. يعني تبارك وتعالى وهو - أعلم وأحكم - أنها تأتيهم بغتة وهم في غفلة يتخاصمون في معايشهم وأمورهم فلا يدرون، حتى تهجم الصيحة عليهم وهو في غفلة مغترون: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾. والتوصية هاهنا: الوصية، عندما يعاينون من التلف

---

(١) في المخطوط: أزكى وأكبر. ولعل الصواب كما أثبت.

والمنية، ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾، لأن ذلك يهجم على أكثرهم وهم مقبلون، ومدبرون في أسواقهم ومعايشهم غافلون.

ثم أخبر تبارك وتعالى عما يكون بعد الصيحة، عند النشور في الصُّور من النفخة، والصور هاهنا - والله أعلم - جماع الصُّوَر التي ينفخ فيها الأرواح، فتحيى للبعثة والنشر، فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾. وحينئذ يخرجون من أجداثهم وهي القبور ينسلون، والنسلان في المشي، السرعة التي هي دون العدو، وقال جل وتعالى عن الكفار مخبراً بغفلتهم، عن طول ما مر من الدهور بهم وهم في قبورهم، قبل حياتهم ونشرهم، ونشأتهم عند قيامهم لموتهم وحشرهم، لما كان من سرعة بعثهم حتى توهموا إذ لم يحيوا بتجديد الله لما بلي من رسمهم، فيعلموا أنهم كانوا في رقدة، إذ لم يدروا بطول ما مر بهم من الأمد والمدة، ثم ذكروا أنهم كانوا ميتين، فقالوا عند الذكر فزعين مرتاعين، واتصل بفكرهم إذ أيقنوا ببعثهم ونشرهم جميع ما وعدوا به من الوعيد، فنزل بهم عند الفكر في ذلك هائل الكرب الشديد الوبيل، فدعوا من الويل بما ذكره الله في التنزيل، وقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾. يقول الله سبحانه مخبراً عما يكون من سرعة إحضارهم ذاكراً: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

ثم أخبر سبحانه بكرمه وفضله، من حكمه يومئذ بين عباده بعدله، أنه لا يظلم في ذلك اليوم نفسا، ولا يجزي كل عامل إلا بما كان من عمله، فقال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم أخبر - لا إله إلا هو - عن أصحاب الجنة وما يَمنُّ به عليهم في ذلك اليوم من المِنَّة: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾. مُبكِّتاً ومحسِّراً

للعصاة الكفرة إذ هم لنعمه كافرون بما أعطى الأبرار، من النعيم والنجاة من النار: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾. فخبَّر سبحانه عن شغلهم الذي شغلهم، والشغل المذكور فيما ذكر الله من هذه الصفة، كلمة تقولها العرب عند الخلوة من الرجل لجماع زوجته معروفة، فأخبر تبارك وتعالى عن إقبال أهل الجنة آمنين على التي لا كنساء الدنيا بهن وبخلوتهن مشتغلين، عاكفين عليهن في الأرائك متكئون، وما ذكر الله سبحانه هاهنا من الظلال، فهي فيما نرى: القباب، ونحوها من الحجاب، إذ فضل هذه الضلال المذكورة، على ظلال الدنيا على قدر فضل الآخرة، لأن فضل نعيم الجنة في الكمال، فضل فائت لنعيم الدنيا في كل حال، لا يخطر اليوم لعظمه وكبره بالبال، كيف كُنهُ مبلغه، إلا أنه قد يعلم مَن فَهِم صغر الدنيا عند الله ونقصها، أن الله سبحانه لم يُفضل الجنة حين ذكرها معظمة لقدرها، وواصفا لكبر أمرها، إلا وهي التي لا يلحق شيء من نعيم الدنيا بها.

ثم أخبر سبحانه عما لأصحاب الجنة فيها من الفواكة المفكهة المعجبة، فقال: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾. وتأويل ﴿ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ هاهنا - والله أعلم - هو ما يدعون به ويتمنون.

ثم ذكر جل ثناؤه ما لأهل الجنة من السلامة، إذ هي عليهم من أعظم النعم، عند تسليم الله لهم مما يعاينون يوم القيامة من أهوال النقم، ولعظم السلامة يومئذ وقدرها، ما ذكر الله أنها من قوله في الجنة عند ذكرها، فقال: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾. فجعل تحيته لهم بالسلامة التي هي السلام من أعظم التكريم، لأن السلام في نفسه إذا قيل في الدنيا والآخرة، فإنما معناه السلامة بغير ما شك ولا مرية، سواء قيل: السلام عليكم أو قيل: السلامة.

ثم أخبر جل وتقدس عما يقال للمجرمين في ذلك اليوم من الأمر لهم بالامتياز، الذي تأويله - والعلم عند الله - التنحي عن المؤمنين بالعزلة والانحياز، فقال سبحانه: ﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

ثم ذكر قوله - تعالى من قائل وتقدس يوم القيامة - لبني آدم وهو يوقفهم على ترك ما أمر به إليهم، وما نهاهم عنه في الدنيا من عبادة الشيطان التي تترديهم: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾. والمبين من الأعداء، الذي: قد أظهر العداوة غاية الإظهار والإبداء.

ثم ذكّرهم - لا إله إلا هو - به من عبادته وأمرهم، فقال: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾، والمستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج له القويم.

ثم بكّتهم جل وتقدس وأنبأهم، بما أضل الشيطان من القرون الكثيرة منهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾. وأهل اللسان فلا يمترون أن الجِبِلّ: القرون، وفي قوله: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾، تفهيم منه لهم أن العقول من حججه عليهم، وأنهم إذا عطلوا عقولهم، غير معذورين باتباع عدوهم الذي يغويهم.

ثم قال سبحانه لهم بعد التقرير والتوقيف والتبكيت بذنوبهم والتعريف، ما ذكر من إيجاب المعاقبة عليهم بالنار من المقالة الكبرى، التي زال بها عنهم عند معاينة جهنم الشك والتكذيب والامتراء، ﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٤﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾. فحينئذ وقعت عليهم الحسرة، وصاروا إلى غاية العقوبة التي وُعِدوا بها في الآخرة، إذا صلوا نار جهنم، وندموا وتحسروا ولات حين مندم.

ثم أخبر جل ثناؤه عما يريهم يومئذ من آياته العظام، باستشهاد أعضائهم عليهم فيما ارتكبوا من المعاصي والخطايا والآثام، وإصمات ألسنتهم من الشهادة والكلام، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾. ليروا من آياته سبحانه وعدله وحكمه، على كل ظالم إن سخط عليه في ظلمه، آية عظيمة من آياته، إذ شهدت جوارح الخاطئ منهم عليه بخطائه، فأراهم آية بينة من الآيات لا شك فيها، واستشهد من أعضاء أبدانهم شهوداً عليهم تُعلمهم لا تهمة عندهم عليها، ولا ينكر مَن عرف قدرة الله وفضلها، إذ هو الذي أنطق اللسان أن ينطق ما شاء من الأعضاء كلها، لأن اللسان إنما هو عضو من البدن، لو لا أنه أنطقه لم ينطق و لم يُبن.

وقد يمكن - والله أعلم - أن تكون شهادة الأعضاء عليهم، توقيفهم على كل خطيئة عملتها جوارحهم [1]، مما مشوا إليه بأرجلهم وبسطوا فيه بأيديهم [2]، فلا ينكرون عند توقيفهم على خطاياهم، ما له من النعم والامتنان عليهم [3].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، يريد تعالى بالحياة: حياة العقل والنفس في قبولها للهدى وتذكرها، لأن من كان لا يتذكر بالقرآن فهو كالميت الذي لا حياة فيه، لا يبصر نور القرآن المضيء كضوء الشمس، لولا تعامي الكافر عما أهدي به إليه، ومعنى قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾. أي: يقع الوعيد ويجب العذاب على الكافرين.

---

(١) في المخطوط: الجوارح. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوط: بأبدانهم. مصحفة.

(٣) في المخطوط: عليه. ولعل الصواب ما أثبت.

ثم رجعت القصة والخبر إلى مثل ما ذكر الله في أول السورة، ونبه عليه من شكر النعم، فأخبر سبحانه عن تمكينه لهم الأنعام إذ جعلهم لها مالكين، يفعلون فيها ما يشاءون.

فقال - لا إله إلا هو - منبها ومذكراً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾. تفهيما منه سبحانه لعظيم النعمة في الأنعام، والأنعام فهي ما جعل الله تبارك وتعالى وخلق من الآبال، وهي من نعم الله على الناس العظام الكبار، فملّكهم إياها، وهو الذي ابتدعها وأنشاها.

والأيدي هنا القدرة، وما لله على صنع ما أراد من القوة، [تقول العرب:] أنا فعلت بك ما فعلت بيدي من الخير، ولعل إحسانه إليه إنما كان بالأمر واللسان، وكيف يتوهم من عقل ما لله من العظمة والجلال، أنما ذكره الله من اليد فيما فعل وخلق إنما هي، يدٌ لا كالأيدي، والله لا شريك له يجل ويعز ويتعالى عن الأعضاء والأوصال؟! وهو يقول في كتابه المحكم المبين، ما يدل في هذا المعنى على إكذاب مَن توهم في اليد تشبيها من المشبهين، إذ يخبر عز وجل كيف يخلق ما أراد خلقه بقدرته، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]. فهو سبحانه يخبر أن جميع ما أراد خلقه بلا معاناة، يدخل فيه بتكلف يتكلفه، وإنما يكون ما أراد صنعه بكلمة أسرع الكلام، في المعقول والأفهام، كسرعة لمح الطرف من الأبصار، وهو ﴿كُن﴾.

فسبحان من جل وتقدس وعلا عن أن يكون له شبه أو يضرب له مثل به مثلاً، أو يتوهم محتاجا لعظمته إلى أن يزاول بيد أو بنان عملا!! جل وتقدس عن الأعضاء الموصلة من اليد والبنان!! وعن شبه من لا يعقل جل جلاله وعظمته له بالإنسان.

ثم أخبر سبحانه عن تمليكه لهم الأنعام، إذ جعلهم لها مالكين، يفعلون فيها ما يشاءون، وذكر تذليله لها مع عظم خلقها، وشدة أسرها وأوصالها، وغلبتها لما هو أعظم قوة ضعافا من الإنسان، فأمن غضبها وصيالها، وذللها سبحانه مع هذا كله من أمرها للإنسان، فبلغت في الذل والذلة والإقبال والتصرف لضعف الصبيان، يقول الله سبحانه عند ذكر تذليله لها: ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾. والركوب للإبل فهي: الراحلة، فمنها لعمري كما قال الله سبحانه: ﴿ رَكُوبُهُمْ ﴾ التي يركبون، وبها وبركوبها على أسفارها البعيدة يقوون، لأنها في الأسفار من أفضل ما به يتبلغون، وغيرها من الدواب وإن رُكب لا يقوى على ثقال الأحمال، ولا يصبر في السفر على طول المدة من انقلاب الأيام والليالي على مثل ما يطيقه ركوب الآبال، والرَّكُوب في عربي اللسان من الإبل، فهو ما ذل وركب وحمل، وكذلك الحلوب التي تسميها العرب، فهي المحلوبة التي تحلب.

ثم قال الله الجواد الكريم، الذي لا يبلغ جوده وكرمه ورحمته جواد ولا رحيم: ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾. فهي لعمري عند العرب من أفضل ما يأكلون أطيبه لحماً، وأجزاها في النحر والجزاء أعظمها عظما.

ثم ذكر مالهم فيها من المنافع الكثيرة التي يعملونها ويرفقون بها من الجلود والوبر، فذكر ما فيه منه من ذلك من منة ومعتبر.

وذكر سبحانه عظيم النعمة في لبنها السائغ المشروب، فلا يذكر تعالى أبداً ولا يُعجِّب إلا بعجيب، فأي لبن الإبل في فضله وصحته، وجودة غذاءه في الأبدان ومنفعته، وما لشاربه بشربه من عجيب الزيادة في قوته.

تقول العرب قولاً واحداً، تجمع عليه من بلدانها مع أنه لم يدخل الأجواف شراب قط أصح صحة، ولا أنفع منفعة، ولا أبين في الأبدان أثرا، أطيب لريح

الأجساد طيبا، ولا أنقى لكل آفة وداء، ولا أصفى للألوان صفاء، وألطف للبطون مع شدة العصب البدن لطفاً، من ألبان الإبل.

ويقال إنما في عرب البادية من صفاء الألوان، ولين الأسنان، وقوة البطش في الأبدان، إنما هو لما يشربون من ألبان الإبل.

فمتى ذكر الله سبحانه المنة بنعمة بينة لها ما من على الناس من النعم، فليفهم مَن عَقَل وفكر وتفهم، أن في المذكور، خبراً عجيبا من الأمور، وقد أجمع جميع الأطباء، أن ألبان الإبل لكبار من الأسقام أصح الدواء، وهو بعدُ من أطيب ما يشرب من اللبن وأنفعه في الغذاء.

وقد يقول من يشرب المسكر المحرم من مُجَّان العرب وشطارها: إن لبن الإبل يجدونه أصح إذا شربوه من المسكر، لما يجدون من القوة، ويصفي من الألوان، ويلين من أبشارها.

قال الله سبحانه وتعالى منبها على الشكر لفضل ما جعل من الأنعام، من النعم الكبار العظام: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾. ثم رجع القصص والخبر إلى ما في أول السورة، من تنبيه المنذرين الذين ذكر الله سبحانه أنه بعث إليهم رسله للتذكير والنذارة، فذكر ضلالهم في أصنامهم، وما يقولون به كذباً ويموهونه باطلاً في عبادتهم من النصرة: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾. ثم أخبر الرحمن الرحيم أن آلهتهم لا يستطيعون نصرهم، وأنهم جند لهم محضرون.

ثم عزا نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عما يجد من الحزن بقولهم، والغم الذي يعزيه رحمة منه صلى الله عليه وآله وسلم لعشيرته من النار، وحزنا لما يكذبونه فيما أنذرهم وأخبرهم من صادق الأخبار، فقال تعالى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ثم قال سبحانه على الكافرين محتجاً بالحجة والبرهان، ومُوقفا ومُنَبِّها لغفلة هذا الإنسان، فيما استعظم من التجديد بعد البلى لميت الأبدان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾؟! أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة مذرة، خارجة من قذاة النجاسة، فإذا هو خصيم مبين، فذكر الإنسان بما لا يُنكر ولا يقدر على جحده، بل هو مقر من خلقه من نطفة.

والنطفة في اللسان، القطرة الصغيرة القليلة عند العرب من معروف البيان، وقد يدور ذلك بينهم كثيراً، يقول القائل إذا ظمئ وعطش وقل الماء في السفر إذا طلب ماء يسقاه من رفيق أو غير رفيق، وكان الماء عزيزا غير موجود: يا هذا أسقني نطفة قليلة، يريد: قطرة من الماء حقيرة غير كثيرة، وكذلك تقول العرب في وصف ما في السقاء والوعاء، إذا ذهب ماء القربة أو الوعاء، فلم يبق منه إلا الصبابة القليلة: ما بقي في القربة أو غيرها إلا نطفة، يريدون: قطرة في التقليل قليلة.

فذكّر الله الإنسان، بعجب عجيب من الشأن، في قدرته على خلقه من أقل القليل، من النطفة والماء المهين الذليل، مبتدئاً له ومخترعاً، والنطفة فهي النطفة في بنيتها، وضعفها ووهنها ومهانتها، لا روح فيها ولا حياة، ولا أعضاء ولا صورة مهياة، ثم أخرج منها مع ضعفها وقلتها بدناً وأعضاء عجيبة في تأليفها وترصيفها فيها، مع ما فيها من الحواس الخمس، من البصر والسمع والشم والمذاقة واللمس، وما هو أعجب من ذلك كله، مما لا تحس هذه الحواس إلا به، من النفس والعقل، وما صارت تلك النفس إليه من العقل، فبينما هي نطفة لا تعقل إذ صارت إنساناً خصيما، يقبل ويدبر، ويسمع ويبصر، ويشم ويذوق، ويلمس وينطق، ويخاصم مبيناً في خصومته.

فأي آية أدل لهذا الإنسان على قوة الله وقدرته؟! على إحيائه وتجديد رميم عظامه بعد موته؟! [و] ما أراده من عجيب الآئه والدلالة على قدرته، في

خلقه من النطفة وما قدرها وفيها من صورته، فالله الذي خلقه بعد إذ لم يكن، هو القادر على تجديده ما بلي له بعد الموت من البدن، لأن عمارة الخراب من الأشياء، وتجديد ما بقي لها من البقايا، أقل من المعقول المعروف وأهون من الاختراع لها والابتداء.

ثم قال - لا إله إلا هو - للذكر الجاهل، التائه في ضلاله الغافل، الذي لم يفهم قدرة ربه القدير و لم يعقل: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾. وهذا مثله الذي ضرب، وسُمي: مثلا لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكاره قدرة الله على إحياء الموتى.

ثم قال: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾، أي: ترك خلقه أن يستدل به، أو شبهاً على الاعتبار به، أي: مثّل لنا مثلاً ونسي ابتداء خلقه، وما هو حجة عليه، وهو أن الله ابتدأه واخترعه من نطفة، و لم يكن شيئا حتى صوَّره وهيَّاه، وقدَّره كما قدَّر سواه، وإن إعادته بعد البلاء، أقل من الإنشاء والابتداء، وذلك حين قال الإنسان الضال الذميم: ﴿ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؟! استبعاد أن يعود خلقا جديدا.

فأمر الله تعالى نبيه أن يجيبه بما فيه دليل لأولي الألباب، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ في الدنيا، أي: مَن قدر على إنشائها أول مرة من غير شيء، فهو قادر على إعادته في النشأة الثانية من شيء.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾، يريد: أن الله عز وجل عالم من وجود الخلق بما لا يعلمه إلا هو، فهو عالم كيف يخلق مبتدئا إذا خلق، وكيف يخلق البدن بعد بلائه خلقاً ثانيا إذا بلي وتمزق، كل هذا من الخلق وغيره من وجوه خلق المخلوقات، التي خلقها بين الأرض والسماوات، فهو فيه بكل خلق عليم، هو عند من كان ذا فهم وعقل يفكر في قدرته قادر على إحياء العظام وهي رميم، والرميم اسم لما بلي من العظام، غير صفة كالرمة

والرفات، فلذلك لم يؤنث حيث أخبر به عن المؤنث، فلا يقال: لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث، ولا هو فعيل بمعنى: فاعل أو مفعول، وفيها دليل على أن الحياة تحل العظام.

ثم زاد تبارك وتعالى مَن نظر واعتبر آية أخرى، وهي من آياته ودلائل قدرته الكبرى، ومكذبة لمن كان بجهله لإحياء الموتى منكرا، فقال - لا إله إلا هو - مذكرا ومعبراً: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾. والشجر الأخضر فهو الرطب المخضر، إذا قدحت بعيدانه النار مع خضرته وندوته، فجعل الله النار المحرقة في عيدانه آية مسكته غير محرقة، لما هي فيه من العيدان، لا يراها رآء ببصر ولا عيان، حتى يخرجها الله بالقدح من العود للإنسان.

فأي أعجوبة أعجب، أو آية في التنبيه على قدرته أقرب، من هذه الآية إذ يخرج الله النار الحارة المحرقة، من عيدان الشجر الباردة الخضراء المورقة؟!

ويقال: إنها - والله أعلم - شجرة المرخ، وهي شجرة من أسرع الشجر عند القدح للنار إبرآء، وهي أبداً في القحط والخصب خضراء، وهذه آية عظيمة من عظام الآيات بغير ما شك ولا امتراء، يقول الله سبحانه: ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾. أي: من الشجر الأخضر.

ثم ذكّرهم بما هو أعظم في الحجة على قدرته عظما، وأفهَمَهَم لمن ينتبه على ترك الغفلة فهما، في خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾. أي: مثلهم في الصغر والقلة بالإضافة إلى السماوات والأرض، أو يعيدهم لأن المعاد مثل المبتدأ وليس به، قال الله الصادق الكريم: ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.

فذكّرهم بالعظيم الجليل من قدرته، من خلق أرضه وسماواته، ونبههم على أنه

إذا قدر على أن يخلق العظيم الكثير من ذلك، أو أقل منه في قدرته إحياء رميم عظام كلِ ميت هالك، لأن من خلق جميع بني آدم من أول الدنيا إلى آخرها، أقل من خلق الأرض كلها فضلا عن السماوات التي هي أضعافا من الأرض وعظمها وكبرها.

ثم مثّل تعالى سرعة فعله من خلقه وصنعه، بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾. خبرٌ من الله جل جلاله، وإفهام لعباده، وتبيين أنه لا يعاني من آذى خلقه من الخلق والصنع والأمور، بمعاناة كلفة ولا مزاولة كفّ ولا بنان، إذ هو متعال عن أن يوصف بأعضاء وغير شبيه بالإنسان، وأن أمره إذا أراد خلقاً أو شيئا، أن يقول له في أسرع من لمح البصر كن فيتمثل كائنا، يقول الله سبحانه مترّهاً: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. فسبحان - هاهنا وفي جميع القرآن - فإنما معناها: بُعدان، يريد الله سبحانه أنه: بعيدٌ عما قال به الجاهلون، وأنكره من قدرته على إحياء الموتى الكفرة الذي لا يعقلون.

وأما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. فمعناه - والله أعلم - الذي في ملكه وقدرته ملكوت كل شيء، واليد عند العرب وأهل الفصاحة منهم، فهي القدرة لا اختلاف في ذلك بينهم، ولذلك ما يقول الله عز وجل في تنزيله، عند الصداق في النكاح وذكره، ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

فعقدة النكاح ليست بعقدة حبل معقودة، ولا هي في يده وقبضته ترى كالعقد معاينة موجودة، وإنما هي في يده بملكه لها، وولايته إياها، فكذلك الله فَبِيَدِه ملكوت كل شيء، إذ يقول الله المالك للأشياء كلها، الذي خلقها

وابتدأها، والملكوت في اللسان، فهو: الملك كله جميعاً في البيان، وكذلك الجبروت فهو التجبر والتعظم، الذي لا يجوز لغير الله وهو كله لله معا.

وقوله سبحانه وجل وتقدس وعظم عن أن يضرب في شيء مثلا: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾. فأصدق القول، إذ الخلق جميعا إليه مرجعهم عند الموت والوفاة وحين يبعثون.

الفهرس

الفهارس

فهرس الأحاديث

أ

أبى عدو الله إلا الوسواس ١٧٩
أَتَرعون عن الفاجر؟ ٣٠٩
أترعون عن ذكر الفاجر ٣٣٠
أَتَرْعَوُنَّ عن ذكر الفاسق؟ ٣٢٨
أتصبرين ولك الجنة ١٤٧
أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى ٢٦٠
أخوف ما أخاف على أمتي منافق ٢٣٨
أخوف ما أخاف على أمتي منافقوا اللسان ٢٧٩
أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ١٨٦
أخوف ما أخاف عليكم شهوته ١٩٠

إ

إذا استوت سريرة عبدي وعلانيته ١٨٩
إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ٢٦١
إذا صليت فصل صلاة مودع ١٩٩
إذا ظهرت المعاصي عمهم الله من عنده بعقاب ٢٩٤
إذا غضب لله يتطاير من حوله كما يتطاير الوبر ٢٨٩
إذا لم تستح فاعمل ما شئت ..... ٢١٢، ٣٠٧
إذا مات ولد العبد ١٤٨
إذا نزع الحياء من العبد ٣٠٧

أ

أذكروه بما فيه يعرفه الناس ٣٣١

ا

استقيموا لقريش ما استقاموا ٢٩٧
اسكت فأنت فاسق ٣٣٢

أ

أصبتَ فالزم ١٨٧
أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهداية هدي محمد ٢٣١
أعد الله لأهل الجنة ما لا عين رأت ١٥١
أعطيت الكوثر ، ماؤه أحلى من العسل ١٥٢
أعمال السر تضاعف على عمال العلانية بسبعين ضعفا ٢٣٤
أفضل الجهاد عند الله رجل تكلم بكلمة حق ٣٠٦
أفضل الجهاد عند الله كلمة عدل ٢٩٨
أفضل الشهادة عند الله رجل تكلم بكلمة عدل ٢٩٨
أفضل الناس عند الله عبد ترك ما يحب وآثر ما يحب الله ١٧٥
أقص أبا ذر من نفسه ٢٢٤
أكثر منافقي أمتي قراؤها ..... ٢٤٢، ٢٧٩
أَكِلُ كل قوم إلى إيمانهم ٢٠٣
ألاَ أن عيسى قام في بني إسرائيل خطيبا ٢١٥
ألا أنبئكم بشر الناس؟ ٣٠٨
ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ١٣٨

ا

الأعمال بالنية وإنما لكل أمر ما نوى ١٧٦

الإيمان ثابت ، واليقين خطرات ٢٠٣
الجهاد على أربع شعب ٢٧١
الجهاد ماض إلى يوم القيامة ٢٧٠
الحاذق بتلاوة القرءان ٢٠٦
الحياء حياءآن ١٩٣
الحياء والإيمان يجريان طلوعا ١٩٤
الدين النصيحة ..... ٢٧٣، ٣٢٩
الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ ٢١١
الظن أكذب الحديث ٢١١
العالم والمتعلم في الأجر سواء ٢٧٦
العلم علمان ٢٣٢
القضاة ثلاثة ..... ١٣١، ١٣٢
اللهم اجعل لي نورا في قلبي ١٣١
اللهم لا تخرج نفسي من الدنيا حتى تشف قلبي من بني قريظة ٢٤٦
اللهم من أحبني وأطاع أمري ١٦٦
المؤمن الذي تسره حسنته ٢٨٥
المؤمن ينظر بنور الله ٢٠٨
المعروف باليد ، فباللسان ٢٨٩
المعروف باليد فإن لم يستطع ٢٩٠
المعروف باليد واللسان ٣٠٦
المقتول دون ماله شهيد ٣٢٦

إ

إن استطعت أن تعمل لله باليقين ٢٠٥
إن التوبة مبسوطة ٣١٢

أ

أن الصلاة جائزة خلف كل بر وفاجر ٣١٩

إ

إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم..... ٢٧٧
إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب ..... ١٣٠، ٢٠٢

أ

أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ٣٢٤

إ

إن خاصمتكم بكتاب الله خصمتكم..... ٢٢٩
إن خزاعة أتت إلى النبي (ص)..... ٣٣١
إن شريعة الحكم لها أول وآخر ٢٤٣
إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله..... ٢٠٧
إن ناقة النبي عليه السلام أفسدت على قوم جرثا لهم ٢٤٤
إن هاهنا لعلما جماً لو أجد له حملة ٢٢٩

أ

أن يكون زاد أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب ٢٠٠
أنتم اليوم في زمان العمل ٢٨٤
أنفق هذه عليك وعلى عيالك..... ٢٠٢

إ

إنما بعثتكم معلمين ٢٧٥
إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ١٨١

إنما هي للمسلم الأخ المستور بدين الله ٣٠٩

أ

أنه رأى بعض نسائه..... ٣٣٠

إ

إنه ما يسرني أن لي مثل أُحدٍ ذهبا ١٦٩

أ

أنهم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا..... ٣١٣

إ

إني أخاف..... ١٥٦
إني اخترت لقاء ربي والجنة ١٦٥
إني أعطي أقواما الدنيا وأمنع آخرين ٢٠٣

أ

أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ٣٣٢
أيما قوم عُمل بينهم بالمعاصي فلم يأخذوا..... ٢٩٣
أيما قوم عمل بينهم بالمعاصي هم أعز ٢٩٤

ب

بادروا أربعا قبل أربع..... ١٩٧
بادروا بالأعمال ما تنتظرون ١٩٨
بحسب امرئ رأى منكرا لا يستطيع له غير أن يعلمه الله..... ٢٩٩
بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا..... ١٩٩
بينوا آجالكم دون آمالكم ١٨٩

ت

تحب في الله وتبغض في الله.....١٨٩
تدع زينة الحياة الدنيا.....١٩٠
تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح.....١٩١
تعبد الله كأنك تراه ١٥٠
تواضعوا لمن تعلمون منه العلم.....٢١٤

ث

ثلاثة لا حرمة لهم.....٣٠٩

ج

جبلت القلوب على حب من أحسن إليها.....٢٥٥

ح

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.....٢٦٤
حسبي الذكر الخفي ٢٣٥
حفت الجنة بالمكاره.....١٨٥
حق المسلم على أخيه المسلم خمس.....٢٩٦
حكمت فيهم بحكم الله.....٢٤٦
حلال بَيِّن ، وحرام بَيِّن.....٢٦٧

خ

خلتان يحبهما الله السماحة والحياء.....١٩٣

د

دخلت الجنة فرأيت فيها حورا ١٥٢

ر

رأس العلم معرفة الله ٢٣٤
رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ٢٥٧

س

سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..... ٢٣٥
سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم ... فليس مني ٢٧٩
سيكون بعدي أمراء يعرفون وينكرون ٢٩٧

ط

طلب العلم فريضة على كل مسلم..... ٢٢٩

ظ

ظن المؤمن كمعاينة الجاهل..... ٢٠٨

ع

عجبت للدنيا وتقلبها بأهلها ٣٠٤
علم في اللسان وميراثه النفاق ٢٤٢
عليكم بالصدق ٢٠٥

ف

فاصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر ١٤٨
فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ٢٨٧
في الإبل صدقتها ١٧٠

ق

قال الله تبارك وتعالى
إنما أنا عند ظن عبدي ١٥٣
من أذهبت كريمتيه فصبر ١٤٨
قد ربما ضر المتكلف نفسه ٢٢٧
قليل العلم مع العلم كثير ٢٧٨
قيمة كل أمرء ما يحسنه ٢٢٩

ك

كان الرجل ممن كان قبلكم ليحفر له الحفير ٣٠٥
كان يحب الخلوة ٢١٣
كان يقسم غنائم بالجعرانة ٢٢٣
كتاب الله في خبر ما قبلكم ، وحكم ما يأتيكم ٢٣٠
كل معروف صدقة ٢٧٦
كلا المجلسين على خير وإنما بعثت معلما ٢٧٦
كلموا الناس بما يعرفون ٢٢٨

ل

لا ، الصلاة خلف كل بر وفاجر ٣١٩
لا تحاسدوا إلا في اثنتين ١٩٧
لا عيش إلا عيش الآخرة ٢٣٦
لا قدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها الحق ٢٩٥
لا يؤمن فاجر برا ٣١٨
لا يؤمنكم ذو جرأة في دينه ٣١٨
لا يجد العبد طعم الإيمان حتى يدع الإثم ٢٦٧
لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى للناس ما يرضى لنفسه ٣٣٠

لا ينفع قول إلا بعمل ١٢٩
لان بين الساعة فتن كقطع الليل المظلم..... ٢٨٠
لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ٢٢٠
لقد أوذيت في الله وما يؤذى في الله أحد ٣٠٢
لما كان الملك يرد عليه وهو جالس جلست ٢٥١
لما وقع النقص في بني إسرائيل ٢٩٠
لن تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ١٧٢
لو أفاء الله عليكم مثل سمر تهامة ٢٢٣
لو عدلت الدنيا عند الله عدل بعوضة ١٦٣
لو يعطى الناس بدعواهم..... ٢٤٤
ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ٢٥٠
ليس الشديد الذي يشغل الحجارة ٢٥٣
ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله في قتله..... ٢٥٨

م

ما أعجب شيء رأيته بأرض الحبشة؟ ٢٩٥
ما تصدق عبد بصدقة أعظم عند الله من موعظة يعظ بها ٢٧٧
ما تقولون في نفس إن تبعها صاحبها ٢٦٠
ما غضب لنفسه قط ، ولا انتصر لها..... ٢٥٠
ما قل وكفى خير ١٦١
ما كان محمد لو لقي ربه وهذه عنده ١٦٨
ما لي مما أفاء الله عليكم إلا مثل هذه من الخمس..... ٢٢٤
ما منكم إلا ولو شيئت أن أجد أحد عليه في خلقه..... ٢٠٣
مثل الإيمان من المؤمن مثل الرأس من الجسد ٢٨٥
مثل المؤمنين بعضهم من بعض..... ٢٨٦

مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد ٢٨٦
من أبصر الفطنة تأول الحكمة ٢١٢
من أحب قوما فهو معهم ٢١٨
من استشاره أخوه وأشار بغير رشده فقد خانه ٣٢٩
من استعفف أعفه الله ١٤٦
من اشتاق إلى الجنة ١٤١
من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ١٥٣
من أشفق من النار رجع عن المحرمات ١٦٠
من تأول الحكمة عرف العبرة ٢١٦
من ترقب الموت سارع في الخيرات ١٧٧
من حال بينه وبين هذا الثواب ٢٠٤
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ٢١٣
من حلم لم يفرط في أمره ٢٤٨
من ذكر من أخيه ما فيه فقد اغتابه ٣٣٠
من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ١٧٧
من سئل عن علم وهو يعلمه وكتمه ٢٧٥
من سره أن ينظر إلى رجل ١٣٠
من شيء الفاسقين غضب لله ٣٠٧
من صدق في المواطن قضى ما عليه ٣٠٠
من صلى ركعتين لا يحدث نفسه ١٨٢
من قال لا إله إلا الله فقد حقن بها دمه وماله ٣٢٣
من قال لأخيه ما فيه فقد اغتابه ٣٠٩
من كان عنده لأخيه مظلمة ٢٢٥
من كان نيته الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ١٧٤
من كثر ضحكه قلّت هيبته ٢٥٤

من وجأ نفسه بحديدة ٣١٤
من يرقب الموت سارع في الخيرات ٢٠١

ن

نزل القرءان على أوجه ٢١٧
نفر يدخلون الجنة من أمتي سبعون ألفا لا حساب عليهم ١٦٧

ه

هذه الحمى جاءتني فبعثت بها ١٤٦
هذه الدنيا تمثّلت لي في زينتها ١٤٠

و

والذي نفسي بيده لهذا خير من ملء الأرض ذهبا ١٦٦
والذي نفسي بيده ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يبل أحدكم إصبعه..... ٢٤٢
والعدل منها على أربع شعب ٢٢٢
والله لتأخذوا على يدي الظالم..... ٢٩١
والله للدنيا أهون على الله ١٦٣
وذلك أضعف الإيمان..... ٢٩٩
ومن حلم لم يفرط في أمره..... ٢٥٥
ومن شيء الفاسقين غضب الله له..... ٣٣٣
ومن علم عرف شريعة الحكم..... ٢٤٣
ومن نهى عن المنكر ٣٠٠
ويل للعرب من شر قد اقترب..... ٢٩٤
ويلكم يا علماء السوء مثلكم مثل الدِّفلى ٢٣٧

ي

يؤمكم خياركم.....٣١٨
يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء.....٢٠١
يا أعرابي إن لنا دارا غير هذه.....٢٠٠
يا عائشة إن الله لم يوح إلي أن أكسو اللبِن والطين.....١٣٨
يا علماء السوء لا تأخذوا مما تعلمون أكثر مما أعطيتموه.....٢٣٧
يا محمد أدخل من لا حساب عليه.....١٧٠
يا وابصة استد لقلبك ٢٦٦
يدخل فقراء المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة ١٦٧
يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها ١٧٣
يصبح قوم من هذه الأمة على معازفهم وخمورهم ولهوهم ٢٢٠

فهرس المحتويات

مقدمة ---------- ٥
المؤلف ---------- ٥
مولده ---------- ٥
مؤلفاته ---------- ٧
الكتاب ---------- ٨

الشرح والتبيين ---------- ٣
[التوحيد] ---------- ٥
[العدل] ---------- ١١
[مذهب القاسم في الكبائر] ---------- ١٥
[مذهب القاسم في الهجرة] ---------- ١٦
[المشبهة] ---------- ١٩
[الرؤية] ---------- ١٩
[نفي الأعضاء عن الله تعالى] ---------- ٢١
[كلام الله مخلوق محدث] ---------- ٢٤
[معنى { سميع عليم }] ---------- ٢٥
[معنى وجه الله] ---------- ٢٥
[معنى نفس الله] ---------- ٢٦
[العدل] ---------- ٢٧

[الطاعة والمعصية فعل للعبد] ---------- ٢٨
[المعاصي ليست بقضاء الله وقدره] ---------- ٢٨
[المرجئة] ---------- ٢٩
[الصـــــلاة] ---------- ٣١
[الجهـــــاد] ---------- ٣١
[الكبائر] ---------- ٣١
[بر الوالدين] ---------- ٣١
[الرجـــــاء] ---------- ٣٢
[شكر الله] ---------- ٣٣
[التوبة] ---------- ٣٣
[موالاة أولياء الله] ---------- ٣٤
[معاداة الكافرين والفاسقين] ---------- ٣٥
[التوبة] ---------- ٣٨
[التوبة من حقوق الله] ---------- ٣٩
[التوبة من حقوق الناس] ---------- ٤٠
[هبات الظالمين] ---------- ٤١
[التوبة من الربا] ---------- ٤١
[التوبة من القتل العمد] ---------- ٤٢
[التوبة من الجراحات] ---------- ٤٢
[التوبة من الغيبة ونحوها] ---------- ٤٣

[الأيمان] ---------- ٤٥
[التوبة من ترك الصلاة والصوم والزكاة والحج] ------ ٤٦
باب ذكر التوبة---------- ٤٧
[موالاة المؤمنين] ---------- ٤٩
[كظم الغيظ] ---------- ٥١
[الإنفاق] ---------- ٥٢
[الحسد] ---------- ٥٩
[الغلو] ---------- ٦١
[الصلاة] ---------- ٦١
في الذبائح---------- ٦٤
[الأذان وصلاة الجماعة]---------- ٦٥
[بناء المساجد] ---------- ٦٥
[أحكام النساء] ---------- ٦٦
في حجبة النساء ---------- ٦٧
[مواساة الفقراء] ---------- ٦٩
باب الزكـــاة ---------- ٧٠
كتاب الأصول التسعة---------- ٧٧
[أول الواجبات معرفة الله] ----------٨١
[المحكم والمتشابه] ---------- ٨١
[أولياء الله وأعداءه] ---------- ٨٣

[الإيمان والإسلام] ---------- ٨٣
[صفات الذات والفعل] ---------- ٨٥
باب الأصل الثاني وهو العدل ---------- ٨٧
باب الأصل الثالث ---------- ٨٨
[الشفاعة] ---------- ٨٨
[الدليل السمعي] ---------- ٨٩
[معنى الحمد والشكر] ---------- ٩٠
[المنافع] ---------- ٩٠
[دلالة العقل] ---------- ٩١
باب الأصل الرابع في معرفة ملائكة الله والإيمان بهم ---------- ٩٣
[العلم الضروري والاستدلالي] ---------- ٩٣
[خطر التقليد] ---------- ٩٤
[الآيات الكونية] ---------- ٩٥
[الملائكة] ---------- ٩٦
باب معرفة الأنبياء عليهم السلام وهو الأصل الخامس ---------- ٩٨
[معجزات الأنبياء] ---------- ١٠٠
[معجزات الأنبياء مما نبغ فيه قومهم] ---------- ١٠١
باب الأصل السادس في معرفة كتب الله عز وجل ---------- ١٠٤
[القرءان مخلوق] ---------- ١٠٤
[البدا] ---------- ١٠٥
[أقسام القرءان] ---------- ١٠٧

باب الأصل السابع في الإمامة---------- ١٠٨
[الروافض والنواصب] ---------- ١١٥
باب معرفة الأصل الثامن في معرفة البر والفجور وما فيه رضا الله تعالى ١١٨
باب الأصل التاسع---------- ١٢٠
[العصمة] ---------- ١٢١
[معاني القضاء] ---------- ١٢٢
[معاني القدر] ---------- ١٢٢
[القدرية] ---------- ١٢٣
كتاب شرح دعائم الإيمان ---------- ١٢٧
باب الإيمان---------- ١٢٩
باب موافقة السنة.---------- ١٣٠
باب الصبر ---------- ١٣٣
باب الصبر عن المعصية---------- ١٣٣
باب الصبر على الطاعة.---------- ١٣٥
باب الصبر على الامتحان ---------- ١٤١
باب الامتحان بالصدق في مواضع المحن---------- ١٤٢
باب الامتحان بالمصائب والأمراض ---------- ١٤٢
باب الامتحان بالصبر والشدة ---------- ١٤٣
باب الامتحان بالاختلاف والتحير ---------- ١٤٤
باب الشوق وهو أول شعب الصبر ---------- ١٤٩
باب الشفق ---------- ١٥٤

باب الزهادة ---------- ١٦٠
باب الخلة الثانية ---------- ١٦٤
باب الخلة الثالثة ---------- ١٦٧
باب الترقب ---------- ١٧٧
باب المراقبة لله عز وجل ---------- ١٧٧
باب ما يعرف به المؤمن والخاطر ---------- ١٨٢
باب خطر الطاعة كيف عرفها الشيطان فعارضها ---- ١٨٥
باب اليقين ---------- ٢٠١
باب شرح اليقين ---------- ٢٠٢
باب تأويل الحكمة ---------- ٢١٢
باب موعظة العبرة ---------- ٢١٥
باب العدل ---------- ٢٢٢
باب غايص الفهم ---------- ٢٢٥
باب زهرة العلم ---------- ٢٣٠
باب شريعة الحكم ---------- ٢٤٣
باب روضة الحلم ---------- ٢٤٧
باب الجهاد ---------- ٢٥٦
باب الجهاد ---------- ٢٥٦
باب الفرق بين العقل والهوى ---------- ٢٦٥
باب الأمر بالمعروف ---------- ٢٧٢

باب النهي عن المنكر---------- ٢٨٧
باب الصدق في المواطن ---------- ٣٠٠
باب شنآن الفاسقين ---------- ٣٠٧
كتاب الهجرة والوصية---------- ٣٣٧
مقدمة المؤلف ----------٣٣٧
[التوحيد] ----------٣٤٧
[حب الله شكر لنعمه] ----------٣٤٨
[وصيته باجتناب الزنا]---------- ٣٥٢
[التحذير من اللواط]---------- ٣٥٤
[أحاديث وآثار في اللواط وعقوبته]---------- ٣٥٦
[التحذير من الخمر] ---------- ٣٥٨
[تحريم الخمر في السنة] ---------- ٣٥٩
[اعتزال المدن] ---------- ٣٦٧
[هجرة الإمام القاسم الرسي] ---------- ٣٧١
[طبيعة البادية وأخلاق أهلها] ---------- ٣٧٢
[أخلاق أهل المدن] ---------- ٣٧٣
[أسىً وتوجع لفساد الزمان] ---------- ٣٧٦
[هجرة الأنبياء عليهم السلام]---------- ٣٧٩
[هجرة إبراهيم] ---------- ٣٧٩
[فقام إبراهيم في بيت المقدس]---------- ٣٨١

[قصة إبراهيم مع فرعون مصر] ---------- ٣٨١
[قصة سارة مع هاجر] ---------- ٣٨٢
[هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى مكة] ---------- ٣٨٥
[بناء الكعبة] ---------- ٣٨٥
[تكاثر ولد إسماعيل] ---------- ٣٨٦
[أحاديث نبوية في الهجرة] ---------- ٣٨٧
[الصفات الحميدة لأهل البوادي] ---------- ٣٨٩
[هجرة السلف الصالح من المدن والقرى] ---------- ٣٩١
[تحذير أبنائه من سكنى مكة والمدينة والعراق لعداوة أهلها] ٣٩٣
[التحذير من الكذب] ---------- ٣٩٥
[التحذير من كثرة الضحك والمزاح] ---------- ٣٩٦
[التحذير من السرقة والحث على الأمانة] ---------- ٣٩٧
[الصدق] ---------- ٣٩٨
[وصايا القرءان] ---------- ٣٩٩
[التوحيد] ---------- ٤٠٤
[الصلاة] ---------- ٤٠٦
[وصيته في ذكر الله] ---------- ٤١٢
[قصة سليمان وأمره بضرب أعناق الخيل] ---------- ٤١٥
[وصيته في الحج] ---------- ٤١٦

[وصيته في الصدقة] ---------- ٤١٦
[وصيته في صلة الرحم] ---------- ٤١٧
[وصيته في سياسة النساء] ---------- ٤٢٠
كتاب التفسير ---------- ٤٢٨
(من سورة الحجر)---------- ٤٢٨
(ومن سورة النحل) ---------- ٤٢٩
(ومن سورة بني إسرائيل) ---------- ٤٤٢
(ومن سورة مريم) ---------- ٤٤٢
(ومن سورة طه)---------- ٤٤٦
(ومن سورة الأنبياء)---------- ٤٤٩
(ومن سورة الحج)---------- ٤٥١
(ومن سورة المؤمنين) ---------- ٤٥٤
(ومن سورة النور)---------- ٤٥٦
(ومن سورة الفرقان) ---------- ٤٥٩
(ومن سورة الشعراء) ---------- ٤٦١
(ومن سورة الروم) ---------- ٤٦٢
(ومن سورة ص) ---------- ٤٦٣
(ومن سورة حمعسق) ---------- ٤٦٥
(سورة يس) ---------- ٤٦٥
الفهارس ---------- ٤٩٥
الفهارس ---------- ٤٩٦
فهرس الأحاديث---------- ٤٩٦
فهرس المحتويات ---------- ٥٠٨